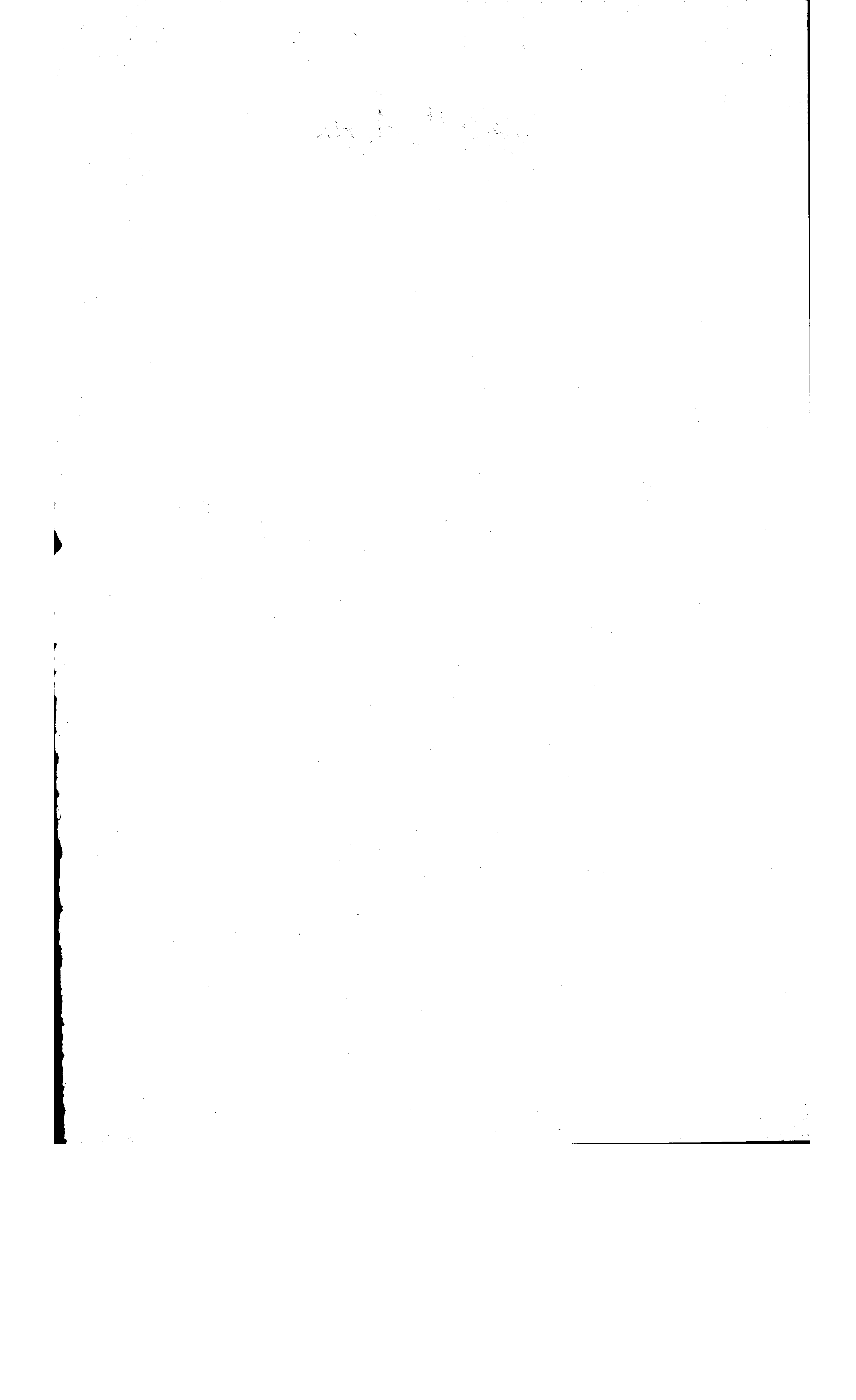
على أبو المكارم

المـوت عشقـا

رواية

توزيع دار الثقافة العربية
٣ ش المبتديان - السيدة زينب
القاهرة



زمن أحداث هذا الجزء من القصة
سبتمبر سنة 1980 م .

الطبعة الأولى
1990

إهداء

إليها ...
إلى التي

تغرس في العقل الأمل
وتنبت في القلب الحنين
وتزهر في الروح الشجن
وتملأ الشيخ بأحلام الشباب
أحلام الهوى المجنون ... والعذاب

علي

الفصل الأول
فى البدء كانت

لم يكن الباب موصدا تماما حين عالجه بحذر فاستجاب بعد دفعة واهنة انفتح على أثرها ، كانت المرة الأولى التى يدخل فيها المكان منفردا ، بيد أنه ما لبث أن أحس بنوع من الألفة مع الظلمة الموشاة بخيوط الضوء المنسابة من فتحات الشيش المغلق التى ترسم على الجدران خطوطا مختلفة الحجم والكثافة أخذت تتشكل فى عينيه فى أشكال مختلفة ... « *الموقف الآن يحتاج بالفعل إلى تقييم شامل ، الظواهر كثيرة على عسف السلطة وفرعنتها ولكن هنالك شواهد عديدة فى حاجة إلى تحليل دقيق ، فلعلها فى بعض جوانبها تدل على أفول السلطة وتضعضعها ، لابد من التأمل بأناة وفهم الأمور دون تعسف ، ولا ينبغى العجلة أو التسرع حتى لا تختلط الوقائع والأحلام ، الأمنيات فى جوهرها شئ رائع باعتبارها قوة محركة ، ولكنها بالغة الخطر حين تطغى على الحقائق وتشوه دلالاتها ، ـ إن أخطر ما يمكن*

أن نقع فيه أن تحملنا الأمنيات على أجنحتها فنحلق فى سماوات الرغبات الجائعة » .

بسط بيد باردة الستارة السميكة المصنوعة من الكريتون فغطت النافذة الصغيرة تحسبا لعدم تسرب الضوء حين يضاء المصباح ، ثم أحاطه بقناع من صحيفة الصباح التى حملت – كغيرها – الأخبار المنذرة بالخطر . مد قدمه اليمنى برفق حتى لامست رجل الكرسى الخشبى ، ثم استدار وجلس . يستطيع الآن أن يتجنب الضوء المباشر من الباب إذا فتح ، وأن يرى برغم الظلمة السائدة من يدخل ، وأن يحظى – حتى يحضر الأعضاء – بقسط من الراحة ... لكن أى راحة ينشد ، إن الإرهاق قد امتد حتى النخاع والمطاردة لا تتوقف ... ***« برغم غبائهم فهم مزعجون ، مراكزهم الرسمية تجعلهم وحوشا ضارية ، أدوات طاحنة مجردة من كل إحساس لا تكف عن الالتهام طالبة المزيد ، صاروا لفرط آليتهم تروسا فى ماكينة تدور دون توقف ، يحشر البشر داخلها فتتقرقع عظامهم وتتحول مع لحمهم ودمهم إلى عجينة هلامية لكنها برغم ذلك تظل تنبت من جديد أذرعا وسيقانا ، إذا حصدتم الأذرع والسيقان وألقيتموها فى النهر فإنها لن تطفو لترعب الناس ولكنها ستغوص فى القاع وتتراكم وتتمدد وتصير جسرا سميكا يظل ينداح ويتسع حتى يصل يوما بين شاطئيه »*** .

« أزعجتك » .

جاءه الصوت خفيضا رفافا بالعطف وهو بين اليقظة والنوم فأوشكت حواسه أن تنتبه . غمغم لنفسه كالمعتذر :

« كلا » .

« أنت نائم » .

حدث نفسه يلومها :

« *ليس لنا الآن أن ننام* » .

تجولت عيناه مغمضتين فى الظلمة وذهنه يلتقط الصوت الصادر من أعماقه .

« *بل ينبغى أن ننام قليلا فأمامنا عمل طويل* » .

وشت الكلمات التى لم يسمعها أحد برغبته فى الصمت ، وحملت إحساساً مثقلا بالعناء ، ولكن ذهنه ظل فى تلك المرحلة من انعدام التوازن منذ جاءته أخبار الرهائن : أخذ الأخ الصغير فى الصباح ، وجرجرة الأم العجوز إلى المركز فى المساء . « *كيف يتسنى لك أن تنام والسياط تمزق لحم العجوز وتفجر فيه الدماء . لا ينبغى أن تنام ، أغمض عينيك ولكنك ترى ، أصم أذنيك ولكنك تسمع ، جسم أمك الواهن تشويه السياط المشحونة بالكلمات الفاجرة التى تنغرس أعمق من كل سوط ، فتحفر آثارها الغائرة فى القلب الذى لم يحمل يوما غير المحبة ، أغلق عينيك ولكنك ترى الثياب الممزقة بعنف تكشف عن الصدر الضامر الذى رواك طفلا والبطن التى حملتك جنينا لترتع فى الجسد الواهن الممزق عيون الكلاب الضالة اللامعة من فرط الرغبة الشاذة . أغلق عينيك ولكنك ترى الشعر الأبيض يلف حول القبضة الحديدية التى ترفع الوجه المتغضن الدامى لتنهال عليه الصفعات بلا توقف ، أصم أذنيك ولكنك تسمع الضحكات الفاجرة ردا على خلجات الألم الناتج عن سريان الكهرباء فى جسد العجوز العاري ... هل بوسعك أن تنام ؟ هل تستطيع أن تخلع قلبك وتتخلص من حواسك ؟ النار تستعر فى ضلوعك فكيف السبيل إلى إطفائها ، وحتى لو سلمت نفسك فهل يرد ذلك شرف الأم المثلوم ويمحو عنها ما لقيته من عذاب ؟* » .

التقطت أذنه خشخشة خفيضة لا تكاد تسمع ، فأدرك أن أحد « الإخوة » يحاول فتح الباب ، انتشله الإحساس بالترقب وقبع فى مكانه لعله يميز أول القادمين .

- السلام عليكم .
- وعليكم السلام .

صح ما توقعه ، إنه « عمر » أكثر الإخوة دقة ونظاما وبشاشة ، وهى صفات قلما تجتمع فى شخص واحد ، ونادرا ما نجدها فى عضو بارز من أعضاء تنظيم معرض للخطر لا تتوقف ملاحقته لحظة ، ألهذا اختاره الإخوة مسئول الاتصال فى الجماعة ، علهم يعوضون كآبة الخطر الذى يدعوهم إليه بسلاسة التعامل معه ، قد يمكن تفسير ما عليه من دقة ونظام بنشأته فى بيت عسكرى صنع منه أبوه امتدادا لوحدته التى كانت محور فخاره ، ولكن ما السر فى بشاشة الروح التى تشعها فيمن حولك .

سأله عمر كالمعتذر :

- تأخرت ؟

أجاب بصدق :

- بل فى الموعد تماما .

« فى الموعد تماما ، ليتنى أستطيع أن أشركك فى مشاعرى لتخفف عنى قسطا من الآلام ، ولكنى اللحظة لا أستطيع أن أصرح بشئ ، فلابد من تكامل الصورة واتضاح الرؤية ، آه لو أتمكن من أن أطلق صرخاتى التى يغص بها الحلق ، العذاب كتلة لهب يستعر أوارها فى الأحشاء ، الإحساس الهائل بالغضب العاجز يفتك بالعقل ويشل الإرادة ، فى الموعد تماما ، نعم ، ولكن كيف لى أن أعبر حاجز الذات » .

أردف برجاء :

- لا داعى الآن للإضاءة .

أجاب عمر بمودة :

- نورك كفاية .

وأضاف بصوت حاول أن يجعله طبيعيا .

- أظن أن العملية أوسع بكثير مما نتصور .

سأله بقلق :

- هل من جديد .

صمت عمر برهة « *من المؤكد أنه لا يخطر بباله أن يخفى عنك ما يعرف فهل يحمله الإشفاق على التردد ، هل الأخبار سيئة إلى هذا الحد ، لو كانت الظلمة أقل لاستعطت أن ترى ملامحه التى لا تعرف الكذب ، ولأدركت حتى من نظرات عينيه الحقيقة* » قال يحثه على الإفاضة :

- لابد من معرفة التفاصيل حتى يمكن تحديد الاتجاه .

أجاب عمر بتوتر :

- لقد كلفت الإخوة يجمع كل ما يمكن جمعه من معلومات قبل الحضور .

« *لا مناص من الطلب المباشر ، إنه يحمل أخبارا يتردد فى البوح بها ، هل تشفق على أخيك الاكبر من سماعها ، ليس بعدُ جديدٌ يمكن أن يثير مزيدا من الألم فيه ، كتلة اللهب المصهور فى الضلوع قد بلغت الغاية فى الاحتراق* » .

- ومعلوماتك أنت ؟

« *لا ترى وجهه فى الظلمة ، ولكن الصمت الذى ران جسد القلق الذى تستشعره ، ولو كان المصباح مضاء لرأيت التردد الذى يسيطر ، ولأبصرت الغيظ المكبوح والحنق المكتوم محفورا على القسمات* » .

أجاب عمر :

- ما عندى الآن أخبار قديمة ، لأن جديدا يتوالى كل لحظة .
- هات ما عندك .
- الموجة تتسع بسرعة ، وتمتد لمناطق كثيرة ، وتتناول اتجاهات مختلفة ، وتشمل مستويات متعددة .
- لجماعتنا .
- لنا ولغيرنا ، عناصر كثيرة من مختلف الجماعات أمسكوا بها ، ومازالوا يواصلون .

سأله فقد خطر له أنه مازال عنده المزيد :

- لديك فكرة عن الأسباب ؟

رد وكأنما يخاطب نفسه :

- فكرة قائمة على معلومات ؟ كلا . لكن ربما نستطيع تحليل ما يحدث .

« أهو يقفز فوق الأخبار ليشغلك بالتحليل عوضا عن إدراك الوقائع ، هل لديه معلومات يحتفظ بها لقسوتها ، أهى مقدمة صدام شامل مع السلطة ، قل ما عندك يا بنى فمهما كان ما عندك فلن يضيف كثيرا إلى النار المستعرة فى صدرى ، شئ رائع أن يكون لك أصدقاء يحبونك ويخشون عليك ويفيضون لك حبا وحنانا لكنك الآن لا تستطيع تحمل كل هذا الحب والحنان ، الغموض الذى يحيط بالموقف كله يتحول إلى ملح يرش فوق الجراح » .

- أضئ المصباح .

مد عمر فى الظلمة يدا تحفظ المسافة والاتجاه وضغط الزر .

أغمض كلاهما عينيه برهة وجيزة قبل أن يتفقدا فى نفس اللحظة المنافذ التى

يمكن أن يتسرب منها الضوء ، ونهض عمر على أثرها فحشا أسفل الباب بخرقة كفيلة بمنع أي بصيص .

« الآن بوسعك أن تتأمل صاحبك »

تجولت عيناه في الوجه القمحي المستدير الذي حول بصره عنه منشغلا بالنظر في أرجاء الغرفة الضيقة ، متصفحا على عجل الأشياء المتناثرة في فوضى ظاهرة ، محاولا بسرعة إعادة ترتيبها بحركات متتابعة حرص على ألا يصدر عنها صوت ، نشر الملاءة المكومة على جانب الكنبة الملاصقة للنافذة فغطى حشيتها المتهرئة ، وجمع الصحف المنشورة على الأرض بما فوقها من بقايا الطعام الجاف فطواها بعناية محاذرا أن يقع منها شئ ونحاها جانبا ، بسط البطانية العسكرية القديمة على السرير المواجه للكنبة بعد أن رفع من فوقه كتبا متناثرة ليعيد رصها تحت الوسادة إلى جوار المصحف ، ووضع سجادة الصلاة البالية الأطراف فوق المقعد الخشبي المكسور الظهر إلى جوار المقعد الذي يجلس عليه الأخ الأكبر . وقال عمر في لهجة حاول أن يجعلها مرحة وإن ران عليها الشجن :

– الآن نحن جاهزون للاجتماع .

– حقا ؟

رد وهو يغتصب ابتسامة .

– لقد أعدت القاعة كما ترى .

« مرة أخرى تعيد الكرّة ، ومرة أخرى يروغ من الإجابة ، أمر جلل لا شك يحمله بين جنبيه لا يريد البوح به » .

سأل عمر :

– أنت في حاجة إلى فنجان من القهوة ؟

لم ينتظر إجابة الأخ الأكبر ، بل مضى إلى الردهة الصغيرة الواقعة خلف الباب

أمام الحمام ، وأعد بقلب مثقل بالهموم وعقل مثقل بالتفكير الأنوات : « *أنت تعرف انه ينبغى أن يعرف ، لكن ما لديك مؤشرات بالغة القسوة ، هل بوسعك أن تبلغه بأن عناصر قيادية كثيرة فى القاهرة والاقاليم قد تم اعتقالها ، وأن الموجة قد شملت المستويات الدنيا من التنظيم ، وأن هذا شأن عدد كبير من التنظيمات الأخرى* » .

عاد من الردهة وبيده الصينية النحاسية الصغيرة التى كانت ذات يوم مبعث اعتزاز جدته بنقوشها الدقيقة ، وفوقها فنجانا القهوة ، ووضعها فوق جانب الكنبة إلى جوار الأخ الأكبر وهو يرفع عينيه إليه ببطء قائلا :

– **أرجو أن تعجبك .**

أجاب وهو مستغرق فى تفكيره .

– **جاءت فى وقتها .**

ومد يده فتناول الفنجان ورشف منه رشفة صغيرة قبل أن يقول :

– **الله .**

سأل عمر مازحا :

– **أنفع ؟**

رفّت بسمة خفيفة على شفتيه وهو يقول :

– **صنعة فى اليد .**

أكمل عمر وهو يتناول فنجانه :

– **أمان من الفقر .**

وأضاف وهو يرفع الفنجان إلى شفتيه :

– **وإن كان لا أمان الآن من أى شئ .**

التقت – وهما يرشفان القهوة – الأعين ، ولأول مرة ربما تلتقط عينا عمر عينى

الأخ الأكبر وهما بهذا القدر من الشرود ، بدت النظرة الوادعة الحزينة أقرب إلى الحلم كأنما تستقرئ عالما غير منظور ، عالما يتجاوز حدود الزمان والمكان « *هل يعلم ؟ وهل ما يحدث وما يؤذن به من نتائج يسمح له بأن يعلم ؟ لا مفر يا عمر من أن يعرف الموقف الآن كاملا ولابد من التغلب على التردد* » .

قال عمر بعد أن انتهى من القهوة :

- **القرار الذى صدر كما علمت من بعض المصادر مفتوح .**

ومضت العينان وعاد إليهما البريق المعهود ، انتقلنا فى لحظة واحد إلى عالم الواقع ، حدقنا فى عمر بإمعان وهو يتابع الكلام :

- **ينص القرار – كما فهمت – على اعتقال جميع العناصر الحركية من كافة الاتجاهات .**

سأل الأخ الأكبر .

- **مصدر معلوماتك مباشر ؟**

أجاب عمر :

- **نعم ، لقد اطلع على القرار .**

سأل ثانية :

- **من الذى يحدد العناصر الحركية ؟**

أجاب :

- **القرار موجه إلى أمن الدولة ، وإذن يكون التحديد من شأنهم .**

رد الأخ الأكبر بسرعة :

- **ليس بالضرورة .**

وأضاف بعد لحظة :

- **هل هناك تحديد من أى نوع : القاهرة أو الأقاليم ؟ المستوى**

التنظيمى ؟ العدد المستهدف ؟ المدة ؟

رد عمر بثقة :

- **كلا ، لا تحديد من أى نوع .**

استمر الأخ الأكبر يستوضح .

- **هل فى القرار ما يشير إلى الأسباب أو الأهداف ؟**

رد عمر بالنفى أيضا .

قال الأخ الأكبر بهدوء .

- **فلننتظر ما يأتى به بقية الإخوة .**

واضطجع على الكنبة جاعلا من يده وسادة مشيرا إلى عمر أن يطفئ المصباح .

مضت دقائق قبل أن تألف عينا عمر الظلمة ، واستطاع بعدها أن يرى بوضوح الأخ الأكبر فوق الكنبة مسترخيا مغمض العينين ، فكر لوهلة أن يسترخى بدوره ليأخذ قسطا من الراحة ، ولكنه دون تفكير أخرج مسدسه وسحب طلقة فى الماسورة وحرره من التأمين بحيث صار جاهزا للإطلاق ، وبدلا من أن يصعد إلى السرير آثر أن يجلس فى المكان الذى كان يجلس فيه الأخ الأكبر ، مركزا حواسه كلها فى أذنيه ، وعيناه تترددان بانتظام بين الكنبة والباب المغلق .

✍ ✍ ✍

الفصل الثانى
القلب يعشق

طالع

« أحمد » وجهه فى مرآة الحمام - برغم ما بها من ضباب وشروخ - وقد أحاطت به الذقن الكثيفة السوداء أقرب إلى الصفرة على غير العادة ، أيعود ذلك إلى توتره بعد أن أبلغه « عمر » مسئول الاتصال فى الجماعة باحتمالات الخطر وهو يخطره بموعد الاجتماع ؟ ولكن الخطر ليس أمرا جديدا عليه ، لقد صار يعايشه منذ سنوات لا يذكر لها عددا ، مرات كثيرة والخطر يقترب منه ويكاد يلمسه ولكنه يخطئه ، وهو فى كل مرة يتنفسه ويحياه ويضع نفسه فى أتون النار المحرقة وهو يتصور امتداد النار إليه وإمساكها به ، فإنه ليس بأفضل من باقى الإخوة الذين تحرقهم نيران السلطة ، فضلا عن أنه كغيره من سائر الإخوة يحترق بنيران الغضب .

أمسك بالمقص فشذب الشارب وقص حافته حتى بدا لفرط تنسيقه وأناقته غير مناسب للحية الكثة المحيطة به ، ثم أخذ يضرب فى لحيته بمقصه خبط عشواء حتى شف شعرها عن لون الجلد فى مواضع عدة ، فغطاها بطبقة من الصابون الذى لا رائحة له ، ومد الموسى فأزال العارض الأيمن فالأيسر ، ثم ما أحاط بالذقن ، وأعاد

الكرّة أكثر من مرة ، وحين انتهى مر بيده على وجهه فانتابه - لفرط نعومته - إحساس بالدهشة الممزوجة بعدم الراحة ، وما كاد يلقى نظرة على المرآة حتى طالعه الوجه الحليق ، وكأنما هو وجه غريب ، فاستغفر الله وسأله الحفظ وشرع يتوضأ .

صاحت زوجته بدهشة إثر خروجه من الحمام وهى تلقم صغيرها ثديها :

- لازم مسافر ؟

أجاب باقتضاب :

- ضرورة عاجلة .

علت الوجه الملائكى الصبوح نظرة حزن ممزوجة بعتاب وتساءلت دون انتظار للجواب :

- ستغيب ؟

تعرف - كالعادة - ما سيقوله لها بصوته الحانى الذى لا قدرة على مقاومته ، سيعدها ألا تطول المدة ، ولكنه - كعادته دائما - لن يحدد مدة ما ، وسيطلب منها عقب ذلك أن تجهز له حقيبته التى يجب أن تضم بعض ملابسه الداخلية وجلبابين وفوطة وخفا ، وأن تجهز كذلك حقيبتها هى ليذهب بها إلى بيت أمها كى تقيم معها إلى أن يعود ، وحين تنتهى سيخرج من حافظته عددا من الأوراق المالية دون أن يعنى بعدها ويضعها فى يدها وهو يترضاها بكلمتين ، وما أن يصلا إلى بيت أمها حتى يبادر فيقبل رأس الوالدة ويسألها عن الصحة ، ثم يخرج بضع عشرات من الجنيهات ويضعها فى يدها وهو يعتذر عما يسببه من قلق ، فالحاجة ملحة إلى السفر فى مسألة تتصل بالعمل ، قد تكون صفقة ورق أو اتفاق على توزيع كتب ، وليس آمن على زوجته خلال غيابه من بيت أمها . .

تلكأت عن القيام فالثدى فى فم الطفل ولكنه أخلف ظنها فلم يتعجلها بل طلب منها أن تكمل الرضاعة ، وأعلن أنه ليس فى حاجة إلى حقيبة ، وسرعان ما ارتدى زيه الأفرنجى الذى لا يرتديه إلا لما ما ، فبدا فى القميص الملون والبنطلون أكثر أناقة

ورشاقة ، أقرب إلى الوسامة والابتسام ، وداعبها بقبلة سريعة على جبينها وهو يفتش بعينيه عن حقيبة الأوراق الصغيرة التى تصحبه فى رحلته اليومية إلى مكتبته ، ولم تكد تسحب الحلمة من فم الصغير الذى داعبه النوم وتحشر ثديها الممتلئ داخل قيمصها الأبيض حتى بادرها وهو يجلس إلى جوارها على السرير :

– هذه المرة قد أغيب فلا تقلقى ، وخذى معك قدرا أكبر من الملابس لك ولطارق فقد تبقين عند الحاجة فترة أطول من المعتاد .

تطلعت إليه بعينين غمرتهما الدهشة ، فاستمر وهو يضع فى يدها رزمة من الأوراق المالية :

– أرجو أن يكفى هذا المبلغ إلى أن أعود .

تحولت الدهشة إلى حزن أوشكت معه عيناها أن تفيض بالدمع وهو يضيف :

– أعدى حقيبتك الآن ، وعليك أن تكونى عند أمك فى ظرف ساعة على الأكثر .

سألته وقد سحت عيناها فى صمت :

– ألن توصلنى ؟

أجاب دون أن ينظر إلى عينيها .

– الوقت ضيق .

تصاعدت إلى الرأس الصغير عشرات الأسئلة ، لم تفهم سر العجلة وتغير عاداته بشكل مفاجئ ، وألح عليها أكثر من أى شئ موقفه الغريب فى تركها تذهب وحدها إلى منزل أمها ، لقد كان دائما يرى فى خروجها منفردة – حتى فى مثل هذه الساعة المبكرة من المساء – خطرا لا مبرر له ، وكان يصحبها عند القيام بواجباتها الاجتماعية ، سواء فى زيارة أمها أو إخوانها ، وكانت تلمس من ذلك حبه الأسر الذى لا يعبر عنه بالكلمات ، وكثيرا ما كانت تصطنع الغضب وتتهمه بأنه يعاملها كطفلة مع أن فارق السن بينهما

ليس كبيرا ، ولكنها - فى أعماقها - كانت تجد سعادة فى ذلك الاهتمام بها والحرص عليها واللهفة على إرضائها « *ماذا جدّ الآن ؟ كيف يسافر دون حقيبة ؟ لماذا يرتدى هذا الزى دون غيره ؟ لماذا حلق ذقنه ؟ كيف يهون عليه أن يتركها وصغيرها وحدهما دون أن يطمئن على وصولهما ، هل هانت عليه ؟ هل هان عليك طارق بعدما طال له الشوق ؟ شئ ما فيك تغير ولكن متى ؟* » .

أدرك أنها تعانى ، ومر بفكره - للحظة - أن يشرح لها الموقف ، ولكنه طرد هذه الفكرة من خاطره تحت إلحاح الإحساس بالخطر ، وآثر - عوضا عن ذلك - أن يؤكد مرة أخرى توجيهاته بصوت حاول جهده أن يجعله مفعما بالثقة والهدوء ، ونظر إليها وهو يتكلم ، كانت الدموع قد بدأت تنساب على خديها وقد احمرت عيناها وارتفعت أنفاسها وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، وما كاد يربت على كتفها بلطف حتى انفجرت باكية بصوت عال وقد استبد بها الانفعال فضمها إلى صدره برفق ، وقبل وجهها فى حنان ، وهم أن يقبل وجه الصغير المسترخى فى صدر أمه ، ولكنه قبل يده الصغيرة برقة بالغة ، ولم تلحظ فى غمرة انفعالها الدموع التى ملأت عينيه وهو يصفق خلفه الباب .

هذه هى المرة الأولى منذ أعوام التى يغزوه فيها هذا الإحساس : خليط من الحزن والأسى والقلق والغضب والسخط والاستنكار . هل يعود ذلك إلى كونه صار أبا ، قديما قيل : الولد مجبنة مبخلة ، ولكن ذلك عند قصار النظر الذين لا يؤمنون بالقضاء ، فى القدر كل شئ مكتوب ، ولا ينجى حذر من قدر ، صحيح أنه لا يدرى متى يعود فيرى ابنه وزوجته ، ولكن إذا كان فى قدر الله أن يعود فسيعود ، وستنجلى الغمة فدوام الحال من المحال ، بيد أن أشد ما آلمه برغم يقينه نظرات الحيرة فى عينيها وقد خالطتها الدهشة ، لكم فكر طويلا من قبل أن يطلعها على حقيقة أمره وأنه عضو قيادى فى الجماعة ولكنه كان يتراجع دائما مشفقا عليها من الجزع الممض خوفا عليها من مثل هذه اللحظة ، وتحسبا حتى لا يفلت لسانها لمخلوق تحت وطأة الشعور بثقل السر .

ما إن خرج من باب المنزل فى شارع المواردى حتى لفحته هبة هواء ساخن مشبعة برطوبة سبتمبر العالية ، وسرعان ما أحس بلزوجة العرق المنساب منه فازداد ضجرا ، بيد أن إحساسه لم ينأ به عن التفكير بدقة فى الموقف ورسم خطة لحركته السريعة الواجبة قبل الاجتماع ، فمن المؤكد أن الجماعة مقدمة على ظروف صعبة ، وأنها لذلك فى حاجة إلى تدبير كل ما يمكن تدبيره من مال ، وهذا واجبه بوصفه مسئول التمويل فيها ، وليس ما تبقى من الاشتراكات والتبرعات - بعد أن أنفق معظمها فى التثقيف ومعونة أسر الإخوة المعتقلين - بكاف لمواجهة الاحتياجات المتوقعة ، فليلجأ إذن إلى أسلوب الاقتراض إلى أجل غير معلوم ، وهو أسلوب طالما استخدمه استعدادا لمثل هذا اليوم ، وكان يحرص فى استعماله على أن يرد القرض إلى صاحبه بأسرع مما يتوقع ، حتى يؤكد الثقة فيه . لكنه الآن أمام موضوعين يجب التفكير فيهما بوضوح : الأول كم المبالغ المطلوب توفيرها للجماعة فى هذه الظروف ، والثانى : مَنْ مِنْ معارفه يكون جاهزا فى هذه اللحظة ، تردد التفكير فى الأمرين معا ، وتداعت إلى الذهن أسماء وأرقام مختلفة ، وأيقن - بعد طول تفكير - أنه يجب أولا تحديد المبالغ المطلوبة للجماعة لأنه فى ضوء هذا التحديد يتم بصورة تلقائية تحديد من سيقترض منهم ، ولكنه رأى تمهيدا للأمر أن يمر على كثير من معارفه ، وأن يتحدث مع كل منهم بإجمال فى احتمال حاجته إلى قرض عاجل ، وأن يدع تحديد المبلغ بصورة نهائية إلى ما بعد الإجتماع ، وهكذا وجد من اللازم أن يمضى إلى القصر العينى فالتحرير فعبد الخالق ثروت فالعتبة فالأزهر فالعباسية ومصر الجديدة ، قبل أن يتوجه آخر الأمر إلى مساكن الزاوية الحمراء ، ولم يفته وهو يحدد خط سيره أن يقرر استعمال وسائل مواصلات متنوعة بدلا من تاكسى واحد يصحبه فى مراحل رحلته كلها كما كان يفعل فى الأيام العادية ، وآثر أن يقطع المرحلة الأولى سيرا على الأقدام حتى يتأكد من عدم مراقبته من ناحية ، ويلتقط أنفاسه بعد الانفعالات الحادة التى مر بها فى البيت من ناحية أخرى .

لاحظ وهو يسير انتشار صور الرئيس بكثرة هائلة وبأحجام ضخمة ، محاطة من جانبيها - عن يمين وشمال - بكلمة (نعم) وما كاد يخرج إلى شارع القصر العينى

حتي فوجئ بالشارع على مدى البصر قد غطته اللافتات الضخمة من قماش البافتة تحمل جميعا عبارات التأييد للرئيس من الوزارات والمؤسسات والهيئات والمحلات ، ابتسم ابتسامة رضا ، فبرغم كل شئ توجد دلالة إيجابية فيما يرى : أليس ما يحدث دليلا على أن فى الشعب مقدرة على الاستجابة السريعة ، دعك من أن هذه الاستجابة تحت وطأة الخوف أو بإلحاح الطمع ، لكن أن يتم صنع كل هذه الكمية من اللافتات فى بضعة أيام شئ يثبت المقدرة الكامنة وإن كانت تتسرب هباء . وخطر فى باله - فى نفس اللحظة - أن أوامر شرطة المرافق له وللمحلات المجاورة لمكتبه أمس إذا كان قد تلكأ تنفيذها فى بعض المناطق كسلا أو ضيقا ، فها هى تلقى هنا كل احترام .

لم تكلل المرحلة الأولى من الرحلة بنجاح ، فقد وجد الحاج زكى مسافرا لبضعة أيام ، ولم يشأ أن يترك فى مكتبه بطاقة فلم يتعود على ذلك فى المواقف المماثلة فى المرات السابقة ، واكتفى - إزاء إلحاح الموظف القائم بأعمال الحاج - بشرب القهوة ، والوعد بزيادة أخرى فى وقت قريب ، وآثر أن ينطلق من فوره إلى التحرير آملا أن يجد وسيلة مواصلات سريعة .

ما كاد يستقر فى التاكسى الذى التقطه من أمام (أبو شقرة) متجها إلى التحرير حتى صاح السائق وكأنما عثر على حل :

- الأستاذ يحكم بيننا .

لم يفهم أول الأمر ما يدور ، ولكنه بعد لحظات أدرك من خلال المناقشات المتداخلة بين السائق والراكب المجاور له فى المقعد الأمامى أن خلافا نشب بينهما لم يستطع الراكب الآخر - الجالس بجواره فى المقعد الخلفى - أن يحسمه ، فالسائق مصر على أنه لا معنى للانتخابات ، فالرئيس سيظل رئيسا ، والانتخابات تضييع وقت ومال ، والراكب مُصِرٌّ على أنّ الذى سيتم استفتاء لانتخابات ، صحيح أن الرئيس لن يتغير ، ولكن المفروض أن يتم تجديد تأييده كل فترة لأننا فى دولة جمهورية لا ملكية ، والسائق مصر على أنه لا فرق بين الجمهورية والملكية فالرئيس هو الرئيس ، ليكن اسمه الملك أو

السلطان أو الإمبراطور أو الرئيس أو حتى الأخ أو الرفيق ، المهم أنه الحاكم المستمر الباقى إلى أن يموت ، والراكب مصر على أن الجمهورية تختلف عن الملكية ، ففى الجمهورية يختار الشعب الحاكم ولا يولى عليه من لا يريده :

قال السائق بضجر :

- يا عم كفاية ، اختيار إيه اللى أنت بتتكلم عليه .

والتفت إلى الخلف موجها كلامه لأحمد :

- بذمتك يا أستاذ ما لزوم المصاريف وتعطيل مصالح الخلق .

لم يشأ أحمد أن يشارك فى المناقشة ... ووجد نفسه يترنم :

- ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التى أنت فيها

صاح السائق مستنكرا وقد استبد به العجب :

- ساعة إيه يا أستاذ .

فرد أحمد بتسليم حذر :

- أرزاق .

وتمتم الراكب المجاور له بإذعان :

- ربنا يولى من يصلح .

فختم السائق المناقشة محنقا وقد أحس بالفشل :

- كسبنا صلاة النبى .

لم تغفل عينا أحمد وهو راكب لحظ أجهزة الأمن الظاهرة والخفية فى الشارع ، ولمح على البعد فى الطرق الجانبية أعدادا كبيرة من سيارات الأمن المركزى المتراصة بصورة غير عادية ، وما أن اقترب من مجلس الشعب حتى شاهد الركاب أقواس النصر المزدانة بصورة الرئيس الممتدة فوق نهر الشارع كله بارتفاع خمسة أدوار كاملة ، وكانت الصورة تبدو لشدة دقتها وضخامتها عملا باهرا لم يجد الراكب المجاور له بدا من أن

يعبر عن إعجابه بها قائلا :

- **لابد أنها أخذت وقتا طويلا فى رسمها .**

عقب السائق وهو يشعل سيجارة :

- **وهل تأخذ وقتا طويلا فى مكانها .**

وأردف وكأنه توصل إلى اكتشاف .

- **لو وزعوا القماش على الناس لكفى حى الشرابية .**

رد عليه الراكب الخلفى :

- **قل يا باسط .**

لم يشغل نفسه رغم صمته بتتبع المناقشة التى نشبت من جديد ، ووجد من الأفضل أن يستعد للنزول ، فطلب من السائق أن يتوقف عند رصيف الجامعة الأمريكية ، فأنزله تحت لافتة هائلة شغلت السور الحديد الطويل المطل على الميدان ، وفى مقابلها فوق مبنى المجمع كانت أضخم لافتة رآها حتى الآن تمتد بارتفاع المبنى بأكمله وتحمل عبارة واحدة (نعم) .

تساءل فى نفسه وهو يعبر الرصيف متجها إلى المبنى المقصود فى شارع قصر النيل « *ليس الأمريكيون أسرى الرغبة أو الرهبة فلماذا يشاركون فى المولد ؟* » . وسرعان ما تبادر إلى ذهنه كلمات صديقه اليسارى القديم التى يقررها فى حسم قاطع : « *الأمريكيون أكثر الناس رغبة فى بقاء هذا النظام وأشدهم قلقا على مصيره* » . اضطر - وهو يمضى فى طريقه - إلى أن يغادر مع بقية السائرين الرصيف أكثر من مرة ، فلم يكن سهلا السير وسط خضم الزبائن والمتسكعين حول عشرات الأكشاك الخشبية والمعدنية المنتشرة بطول الأرصفة ، وتذكر وهو يقفز بين السيارات كيف عز عليه لفترة طويلة أن يفهم سر إبقاء هذه الأكشاك فى مواقعها حتى عرف بالصدفة أنها فى الحقيقة بنوك خاصة وسريعة تؤدى دورها فى تغيير العملة فى أى وقت ، وتساهم بدور فعال فى توفير السيولة النقدية لكل من يعنيهم

الأمر من أولى الأمر ، بدءا من المخبرين السريين المنتشرين حولها وانتهاء بالباشوات الكبار فى الداخلية .

ها قد وصل ، دلف إلى مدخل العمارة القديمة الذى شغلته معروضات البوتيكات الصغيرة المتراصة التى كانت أصلا غرفا فى الدور الأرضى من المبنى محاذرا أن يصطدم بشئ ، وصعد مهرولا السلم دون أن ينتظر المصعد المستهلك ، وتوقف برهة بعد أن وصل إلى الدور الثالث حتى تهدأ أنفاسه قبل أن يدخل المكتب الفسيح الذى رصت فى ردهته الطويلة مكاتب الموظفين والموظفات ، محييا - كعادته - من يعرف منهم ومن لا يعرف ، متجها مباشرة إلى حجرة فى أقصى اليمين تشغلها السكرتيرة الخاصة بالحاج يوسف كما يحلو له أن يناديه ، أو يوسف بك ، كما يناديه موظفوه ، معلنا لها رغبته فى مقابلة الحاج على الفور ، جالسا بالقرب من جهاز التكييف ليحظى بقدر من الانتعاش .

علاقة أحمد بالحاج يوسف قديمة ترجع إلى أيام كان الحاج فيها موزعا معتمدا للشركة المنتجة للورق فى الاسكندرية ، وفى تلك الفترة كان الرجل حتى يحصل على حصته من الورق لابد من أن يدفع ثمنه كاملا بالإضافة إلى بعض الهبات النقدية الصغيرة للمسئولين ، ولم يكن يتيسر له ذلك فى أحوال كثيرة ، فكان يلجأ إلى الاقتراض من المتعاملين معه ، وكان أحمد واحدا منهم ، حتى فتح الله على الحاج فى السنوات الأخيرة ، فصار وكيل شركة أجنبية للورق وسرعان ما تبعتها شركات أخرى لآلات المطابع ، ومع أن الرجل صار يرفض التعامل فى الورق المحلى فإنه لم ينس تاريخه ، بل ظل وفيا لمعارفه القدامى ، وبرغم أن العلاقة الآن قد انعكست - إذا صاروا هم الذين يقصدونه - فإنه لم يظهر قط تبرما ، ولم يتردد أبدا فى تلبية طلباتهم .

عنّ لأحمد فجأة - والسكرتيرة تتقدمه لتفتح له باب المكتب - أن يطلب بالفعل من الحاج مبلغا كبيرا ، فإذا احتاجت له الجماعة كان جاهزا ، وإذا لم تحتج إليه بادر برده ، وهكذا ما كاد يدخل ويرى الحاج الذى كان مشغولا لحظتها يتأمل ماكيت إعلان التأييد المعد للنشر فى صفحة كاملة فى عدد من الصحف اليومية الحكومية حتى قرر أن

يحصل منه على بضعة آلاف من الجنيهات .

صاح الحاج بفرح وهو ينهض لاستقباله فاتحا ذراعيه ليحتضنه بحرارة بعد أن صرف الموظف الذى يحمل الإعلان :

- أهلا يا رجل ، وشك ولا القمر .

رد أحمد وقد غمر وجهه الابتسام :

- الله يكرمك .

استمر ترحيب الحاج به دون أن يدع له فرصة للكلام ، وطلب له القهوة المعتادة ، وأجلسه على الأريكة وجلس بجانبه وهو يقدم له الشيكولاته الإنجليزية الفاخرة من البونبونيرة الكريستال المذهبة ، وعرض عليه أنواعا من السجاير الأجنبية فلما رفضها قدم له علبة الصدف ليتناول سيجارا ناسيا أن أحمد لا يدخن ، وأحمد يدرك بيقين أن الرجل معه لا يستعرض نعمة الله عليه ، لأنه كما يلمس لا تأخذه فى وجوده تلك النفخة التى يتفجر بها كلما تعامل مع الآخرين ، ولا يجد حرجا فى أن يحدثه فى أمور كثيرة ، وأن يكشف له نفسه على حقيقتها دون خجل . وكان الحاج يتذكر فى غمرة الترحيب أمورا تتصل بالإعلان فيبلغها عبر جهاز الديكتافون إلى السكرتيرة طالبا إبلاغ موظف العلاقات العامة بها ، وأراد أن يطمئن فى المرة الأخيرة على الصورة النهائية للإعلان فطلب حضور الموظف قبل ذهابه إلى الصحف قائلا وهو يلتفت إلى أحمد :

- فرصة ناخذ رأيك .

أجاب بهدوء :

- لا خبرة لى فى هذه الأمور .

قال الحاج بيقين :

- أنت رجل كلك ذوق .

وتأملا معا ماكيت الإعلان ، صورة ضخمة للرئيس تشغل نصف الصفحة العلوى

وقد غطت خريطة كاملة للدولة وشغلت بقية المساحة بعبارة كتبت بعرض الصفحة : (نعم للإنجاز) . وفى أسفل الصفحة اسم الشركة يحف بها من الجانبين أسماء الشركات الأجنبية التى تمثلها .

قال الحاج باعتزاز :

- فكرة الخريطة هذه فكرتى .

وأضاف وكأنما هبط عليه إلهام جديد .

- أكتب أيضا : نعم للازدهار .

والتفت إلى أحمد يسأله :

- ما رأيك ؟

تمتم أحمد فى حيرة :

- ازدهار ؟ أين ؟

سارع الموظف وهو يشيد بعبقرية الحاج :

- هنا

واضعا يده فى المساحة الفاصلة بين اسم الشركة وعبارة الإنجاز ، وابتسم الحاج لاستجابة موظفه السريعة وأعلن الموافقة طالبا منه إجراء التعديل فورا ومتابعته شخصيا حتى ينشر فى أقرب وقت لكى لا تحترق الفكرة ، قائلا ، وقد لمح نظرة تساؤل فى عين الموظف :

- ادفع ولا يهمك .

ومد يده من جديد إلى الديكتافون وخاطب السكرتيرة :

- بلغى الحسابات أن بند الإعلان مفتوح .

سأل أحمد الحاج بعد أن خرج الموظف :

- كم سيتكلف هذا الإعلان ؟

ضحك الرجل ضحكة مجلجلة وقال وهو يخرج علبتى عصير من الثلاجة المجاورة للمكتب :

– ليس المهم التكاليف لأنه موسم والأسعار نار .

وأضاف بعد لحظة صمت قصيرة ربما كان يحسب فيها العمولات والإكراميات :

– لو تكلف – إذا ظهر كما أحب – ربع مليون كان حسنا .

عقب أحمد وقد هاله المبلغ :

– أليس خسارة كبيرة .

أجاب الحاج وكأنه يذكره بحقيقة لا ينبغى أن تغيب عن باله :

– بل سنكسب أضعاف ما نخسر .

وأضاف بعد تفكير بصوت خفيض :

– بفضل مثل هذه الإعلانات وما وراءها من إكراميات نشق طريقنا فى كثير من المناقصات .

* * *

حين خرج من العمارة بعد نحو ساعة كان أشد حرصا على الحقيبة السوداء الصغيرة التى تضم الأوراق ، فقد أصبحت تحتوى – بالإضافة إلى ما كان فيها – على مبلغ ضخم ضاعف من أهميتها وحرصه عليها ، وبالرغم من أن النقود عنده لا تحتل مكانة بارزة ولا يعتبرها غاية فى ذاتها فإنها فى هذه المرحلة بالذات قد تكون ذات أهمية خاصة لما يمكن أن تؤديه من دور فى تأمين حركة الجماعة ، وهكذا أسلمه التفكير إلى ضرورة إحداث تعديل فى الخطة التى كان قد وضعها لحركته ، لا نتفاء الهدف المباشر من جولته الواسعة من ناحية ، وحرصه على تقليل الأخطار المحتملة من ناحية أخرى ، ولكنه لم يصل من ذلك إلى إلغاء باقى مراحل رحلته كلها ، إذ رأى من الضرورى الاتصال ببعض الأشخاص والعناصر قبل الاجتماع ، وهكذا قرر اختزال ما تبقى من

جولته فى مرحلتين ، يذهب فى أولاهما إلى الأزهر ، ويتجه فى الثانية إلى مصر الجديدة .

ظل ساعة كاملة وهو يحاول ركوب تاكسى يحمله إلى الأزهر دون جدوى ، ولم يجد بدا من أن يغير اتجاهه ويركب واحدا ينزله فى ميدان الأوبرا ليمضى بباقى ركابه فى طريقه المقرر سلفا على أمل أن يعثر على مواصلة أخرى تتجه به إلى الأزهر . وحين جلس على طرف المقعد الخلفى إلى جوار راكبين لم يتركا له إلا بضعة سنتيمترات لا تسع طفلا انتابه ضيق زاده إحساسا بالإجهاد ، وحالت درجة الحرارة العالية المشبعة بالرطوبة والعرق ورائحة السجاير النفاذة بينه وبين الإصغاء إلى المناقشة الدائرة فى السيارة ، فراح يتتبع بعينيه الإعلانات الكبيرة المعلقة فى الشوارع والملصوقة بالجدران والتى تتماثل فيها جميعا عبارات التأييد دون أن يلحظ من بينها عبارة واحدة جديدة ، ولم يغب عنه وهو يتأمل الطريق انتشار سيارات الأمن بأحجامها المختلفة واحتلالها لمواقع ثابتة متقاربة شغلت مساحات كبيرة حتى أحالت المرور فى الشوارع إلى قطعة من العذاب ، وأوشك أكثر من مرة أن ينزل خلاصا من جلسته المتعبة ، ولكنه آثر أن يدخر جهده لاحتمال أن يقطع المسافة حتى الأزهر سيرا على الأقدام .

وصدق حدسه ، فما كاد ينزل من السيارة أمام تمثال إبراهيم باشا حتى وجد أن من العبث محاولة الحصول على سيارة تتجه به إلى الأزهر ، فقد كانت حركة المرور متوقفة تماما فوق الكوبرى العلوى وأسفله ، وعلى مدى البصر وقفت السيارات دون تحرك وقد أوقف سائقوها محركاتها ، وهكذا وجد نفسه مرغما على أن يقطع المسافة على قدميه ، ففضل أن تكون رحلته عبر شارع الموسكى الذى بدا خاليا من سيارات الأمن ، ربما للزحام الرهيب الذى يتميز به مما يجعله مصيدة حقيقية لها ، قائلا لنفسه : « *فى الالتحام بالجماهير فائدة مؤكدة* » ، وداعبت زوجه ابتسامة شفت بها النظرات وحدها ، ومضى فى طريقه غير ملق بالا إلى الإعلانات المتكررة المتشابهة محاذرا أن يصطدم بأحد ، ولكن الحذر من جانب واحد لا يجدى ، فبرغم حرصه ظل يتعرض لخبطات متوالية من الأذرع والأكتاف دون أن يعقب أيا منها اعتذار أو حتى

محاولة ، وأشعره ذلك أول الأمر بشئ من الضيق ، ولكنه سرعان ما استسلم لسلوكيات الشارع فلم يعد يبالى بما يناله أو ينال به الآخرين .

قبيل نهاية الشارع اتجه يمينا فى الطريق المسلم إلى الغورية ، وسار بضع خطوات حتى اجتاز شارع الأزهر ثم انحدر يسارا أمام وكالة الغورى وما أن انتهى من الوكالة حتى بدا له باب الربع المنشود وقد شغلته كالعادة سيارات النقل التابعة لشركات الشحن إلى الأقاليم التى تحتل مكاتبها الطابق الأرضى من المبنى .

شق طريقه وسط الأكداس المتنوعة الحجم الملقاة دون نظام فى ساحة الربع وقد تصاعدت إلى أنفه تلك الرائحة المألوفة غير المستحبة الناتجة عن تفاعل الطين والتراب والزيت وعادم السيارات وبقايا الطعام ومخلفات الحيوانات التى تجر الكارو والتى يستعان بها فى نقل الطرود إلى المناطق المجاورة . واتجه إلى مكتب كبير فى مواجهة البوابة ، ودخل المكتب الذى يشغل جانبا منه عدد من السائقين الملتفين حول (البورى) والدخان الأزرق ذو الرائحة النفاذة يغمر المكان .

سلم ثم سأل عن الحاج محمود ، أتاه صوت كاتب يقبع خلف المكتب الصاج القديم المحمل بالأوراق دون أن يرفع رأسه إليه يسأله برتابة :

- أى خدمة ؟

- أريد أن أراه .

رفع الكاتب عينيه بتثاقل وقال وهو يتفحصه :

- من حضرتك ؟

رد من غير تردد :

- ابن خالته . .

لم يشأ أن يحدد اسمه فقد أيقن أن الكاتب جديد لا يعرفه ورأى من الأحوط ألا يتداول اسمه فى هذه الظروف .

أجاب الكاتب دون بشاشة :

- **أهلا وسهلا ، استرح فالحاج يصلى المغرب .**

نظر أحمد إلى ساعته بتلقائية فأدرك أن وقت الصلاة قد حل ، ووجد حرجا فى أن يذهب إلى الصلاة فى المسجد ومعه الحقيبة ، ففى مثل هذه الظروف لا تكتفى الشرطة السرية بالبقاء خارج المساجد بل ينتشر أفرادها فى الداخل أيضا ، وقد يشك بعضهم فيطلب تفتيشه أو تفتيش حقيبته ، ولم يجد داعيا لأن يترك الحقيبة ويذهب لأداء الصلاة بدونها ، فآثر الانتظار إلى أن يعود الحاج ويرقى معه إلى مكتبه . وجلس على كرسى متطرف فى زاوية المدخل بحيث يرقب بوضوح الساحة كلها .

أحس بالراحة حين أهمله الكاتب تماما ، ولم يلتفت إليه إلا على صوت الحاج وهو يرحب به ويقوده إلى مكتبه فى الصندرة ، طالبا من الكاتب أن يرسل إليه القهوة من البن المخصوص ، محذرا ضيفه من الاعتماد على الدرابزين الخشبى الذى يحتاج إلى إصلاح . ولم يكد الحاج يرقى إلى نهاية السلم حتى مد يده فتحسس الحائط ، ولما عثر على الزر ضغطه فأضاء النور المكان ، ثم تقدم خطوتين فأغلق النافذة المطلة على أسفل ، واستدار فأدار المروحة القديمة المرتفعة الصوت الموضوعة فوق الخزنة الحديدية التى يعلوها التراب فانساب منها تيار ضعيف من الهواء الساخن أوشك معه أحمد أن يطلب إيقافها ، والتفت إليه الحاج وهو يجلس إلى المكتب الخشبى قائلا :

- **كيف الحال ؟**

رد أحمد وهو يهم بفرش الحصيرة الصغيرة فوق الأرض الخشبية العارية فى اتجاه القبلة :

- **الحمد لله .**

تطلع إليه الحاج ولم يعقب ، فأردف أحمد :

- **أصلى المغرب ثم نتكلم .**

تأمله وهو يصلى ، وقد بداله بعينيه المغمضتين وصوته العذب يرتل (سبح اسم

ربك الأعلى ﴾ منقطعا عن كل شئ ذائبا فى الملكوت الأعلى ، أشبه بطيف نورانى يملأ النفس بالسكينة والحب ، وكلما أوغل فى قراءته شعت فى جو الصندرة الخانق نسمات رضا داخلى ترطب النفس وتجعلها أكثر بهجة وأنسا « ***كيف لك أن تحتفظ بهذا الإحساس فى دنيا مليئة بالأسى ، كيف تصمد شفافيتك فى مواجهة كل الأخطار*** » استغرقه التفكير فيه وهو يصلى ، ومرت بذهنه الذكريات المشتركة بينهما منذ كانا طفلين فى كتاب الشيخ عبد السلام فى قريتهما الثاوية فى مجاهل دمنهور ، ويافعين فى بيت زوج خالتهما الشيخ خليفة الذى كان يحرص على اصطحابهما إلى الزاوية الملاصقة لمنزله فى الكحكيين مؤكدا لهما أنه لا يليق بشيخين وإن كانا صغيرين أن تفوتهما صلاة الجماعة ، مكررا دائما أن معرفة الحق قبل معرفة الخلق - « ***ولكنك يا شيخنا لم تعش لتدرك الخلق الآن ، لقد صاروا ثعالب لا يعرفون للحق طريقا ، أما أنت أيها الأخ فبرغم كل شئ مازلت تشعر بالرضا ، مازلت بحق سليل الشيخ الكبير الذى يحكى عنه أنه كان يحمد الله على المصيبة كما يحمده غيره على النعمة*** » .

أفاق من تأملاته وأحمد يسلم خارجا من الصلاة ، ويتمتم بدعوات غير مسموعة قبل أن ينهض ليطوى الحصيرة ويجلس على الكرسى المعدنى الذى أصابه بعض الصدأ قبالة المكتب ، ثم ينظر إلى الحاج بإمعان قبل أن يقول له :

- **يبدو أنك متعب .**

زفر الحاج وهو يسعل :

- **أصابنى برد منذ أيام .**

دعا له بالشفاء وأردف :

- **عسى ألا تكون هناك أسباب أخرى .**

« ***ها هو يحس بشفافيته ما أنت فيه ، فلم لا تحدثه بما تطوى عليه الضلوع لعلك تخفف عن نفسك بعض الأشجان*** » ، تحادثا بصوت

منخفض ، شكا لأحمد ما يتعرض له فى السوق من خيانة الزملاء وغدر الشركاء ، فقد توصلوا بأساليب ملتوية لا يجيدها إلى الاستئثار دونه بأعمال الحكومة التى كان يشاركهم فيها ، وتأوه : :

- ضاقت الأرزاق فى وقت اشتدت فيه الأزمة واستحكمت حلقاتها ، وعلىّ أجور والتزامات دورية لابد من الوفاء بها .

نصحه أحمد :

- لا تحمل هما فليست هذه هى المرة الأولى التى تواجه فيها هذه المشكلات .

وفكر فى أن يقرضه بعض ما فى حقيبته لولا أنه ليس على يقين بعد من مدى حاجة الجماعة ، ومع ذلك سأله :

- كم تحتاج ؟

فرد بسرعة وكأنه يستنكر :

- لا أهمية للمال لكنى حزين لخسارة الرجال .

انتبه الحاج وهما يشربان القهوة إلى أنه شغل أحمد بمشاكله دون أن يسأله عن أحواله ، فاعتذر له بعفوية صادقة عن الموقف ، وسأله بإلحاح أن يحدثه عن أخباره ولا يخفى منها شيئا .

طمأنه أحمد وهو يفكر « *ثمة موضوع يمكن التمهيد له* » وسأله بعد تردد :

- هل الحجرة الخلفية فى الربع خالية ؟

سأله الحاج :

- ستخزن فيها شيئا ؟

رد دون إهتمام :

– ربما يشغلها ضيوف لبضعة أيام .

أو مأ الحاج برأسه وهو يسعل قبل أن يقول :

– ستكون جاهزة من الغد .

* * *

خرج أحمد من الوكالة وأخذ طريقه بحذر فى الضوء الباهت الذى لا تستبين فيه مواطئ الأقدام ، محاولا تجنب أكداس القمامة الحديثة التى لم تصبح بعد جزءا من سطح الطريق حتى وصل إلى شارع الأزهر ، أعشى عينيه للحظات النور الوهاج الذى يسطع به الشارع فيخفى بتألقه التناقض الصارخ بين المبانى المتجاورة المتنافرة التى ينتمى كل منها إلى عصر ، واقتحمت أذنيه أصوات الباعة على الأرصفة ممزوجة بصيحات الجالسين على المقاهى يتفرجون على مباراة فى التليفزيون ، أوشك أن يلحق بتاكسى توقف حين ذكر له وجهته ولكن فتاة كانت أقرب منه بادرت إلى احتلال المكان الخالى فيه فاضطر إلى الانسحاب فى صمت ، دوت أصوات الجالسين فى المقاهى كالرعد إعجابا فيما يبدو بلعبة أوشكت أن تحقق هدفا ، لمح على البعد تاكسى يستعد للوقوف فسارع إليه قبل أن يسبقه أحد قائلا :

– مصر الجديدة .

أجاب السائق :

– اركب .

انتظر إلى أن نزل الراكب الجالس فى المقعد الأمامى إلى جوار السائق وحل محله .

صوت الراديو فى التاكسى لا يقل إزعاجا عن الأصوات المنتشرة فى الشارع وهو يبث الوصف التفصيلى للدقائق الأخيرة من المباراة ، لاحظ أن الجالسين خلفه يتابعون التعليق على ما يسمعون ويتبادلون مع السائق عبارات صاخبة مشحونة بالانفعال . فجأة ... دوى صوت انفجار هائل من كل مكان فى نفس اللحظة ، من

الراديو والركاب والسيارات المجاورة والمشاة فى الشارع والجالسين على المقاهى ، كثير من الناس يقفز فى الهواء ملوحا فى فرح غامر ، والمذيع الذى استغرقه الانفعال يوالى الحديث بصوت متهدج مبحوح وكلمات متعثرة متقطعة ، فقد توقف التاريخ لتسجيل هذه اللحظة الباهرة التى لا تنسى ، إذ أحرز أحد الفريقين هدفا فى الوقت القاتل من المباراة .

لم يزد على أن ابتسم ساخرا وقد انغلق على نفسه « *أى هوان أن يكون الناس على هذا القدر من الغفلة والغيبوبة ، لا يمكن أن يكون ما يحدث ثمرة لنظام حكم مهما كان عاتيا ، بل هو ثمرة لنظام تربية خاطئ صاغ وجدان الناس لأجيال عديدة ، إنه مظهر بشع لفقدان العقل وضياع الاتجاه وفساد الإدراك ، ممزوجا بالتعصب الصادر من الأثرة والأنانية والخوف* » أفاق على زمجرة السائق وهو يلعن آخر يسد عليه الطريق أمام مستشفى الأمراض النفسية ، أراد أن يجتاز من اليمين فحذره كلاكس مستمر لسيارة كبيرة خلفه فعدل عن المحاولة ، وما لبثت حركة المرور كلها أن تباطأت إلى أن توقفت تماما أمام السوق الدولية ، لقد نسى فى غمرة الانفعال موعد خروج الجماهير الحاشدة من الاستاد وليس عليه إلا أن يلوم نفسه .

بعد فترة قصيرة وحدت مشاعر السخط الحادة بين السائق وبقية الركاب ، لقد اضطرت السيارة مع آلاف السيارات الأخرى أن تمضى إلى أمام فى بطء مميت وسط جو مشحون بأصوات الآلاف من آلات التنبيه العالية المتقطعة والموتورات الدائرة التى ذابت فيها صيحات الغضب والقذائف الصاروخية من الشتائم المتبادلة بين السائقين ، وأخذت تتسرب إلى الصدور آثار من سحابات الدخان الذى بدأ ينعقد فوق الطريق من عادم السيارات فبدأ الركاب يسعلون ، إن السيارة لا تستطيع أن تتقدم وأمامها حشد رهيب من السيارات التى أوقفها فيضان الاستاد الذى أغرق الطرق المجاورة له فسالت بالبشر الذين حملوا أعلامهم الملونة يلوحون بها ويهتفون ، ولاتستطيع أن تتوقف وخطوط السيارات خلفها تمتد إلى مدى لا يبلغ البصر مداه .

قال أحد الركاب وهو يتأمل ما حوله :

– نحن محاصرون .

رد السائق بغيظ :

– الحصار أهون ، على الأقل كنا أطفأنا الموتور .

وأضاف وهو يبصق خارج السيارة :

– حكومة وسخة لاتعرف حتى أن تنظم ماتش كورة .

رد راكب بثقة :

– العيب فينا ، لا نعرف أن ننظم أنفسنا .

التفت إليه السائق بحدة ورشقه بنظرة نارية ، وقبل أن يفتح فمه انتفخت فتحتا أنفه ثم صاح :

– رائحة حريق .

اندفع الركاب للنزول من التاكسى فى لحظة حتى أوشك بعضهم أن يصاب قبل أن يكتشفوا أن الحريق فى سيارة مجاورة ، امتدت عشرات الأيدى إلى السيارة التى بدأ الدخان الكثيف يتصاعد منها فأخرجت ركابها وفتحت غطاءها وغطت مقدمتها بالسائل الرغوى الذى صبته طفايات عديدة فى نفس الوقت . لم يستغرق ذلك أكثر من ثوان حتى إنه لأشبه بالحلم ، وما لبث ركاب التاكسى أن عادوا إلى مواقعهم بعد أن اشترك بعضهم فى دفع السيارة إلى جانب الطريق .

قال أحد الركاب :

– الحمد لله ، كادوا يضيعون .

رد السائق باقتناع :

– عندك حق ، كدنا كلنا نضيع .

نظر أحمد إلى ساعته بقلق فقد مضى أكثر من ساعة ولم يتحركوا غير بضعة

أمتار ، ولو استمر المعدل على هذا النحو فإن أمامهم بضع ساعات أخرى حتى يتجاوزوا هذا الجزء من الطريق .

قال وهو يضع جنيها فى يد السائق :

- اعذرنى فإنى مستعجل .

وفتح الباب ، وقفز مخترقا خطوط السيارات المتراصة متجها ناحية المترو .

لم يكن طريق المترو أحسن كثيرا من طريق السيارات ، فقد تراصت القطارات المتوقفة أمام زحف الطوفان البشرى فى التقاطع الممتد أمام الاستاد ، ولكن إصرار سائق القطار المتقدم مكنه بعد عناء من القيام بزحف مضاد اقتحم به الموجات المتلاحقة وأوقفها إلى حين ، وهكذا فتح الطريق للقطارات المتوالية .

سارت القطارات بسرعتها العادية بعد أن اجتازت منطقة الاستاد ، ثم أخذت طريقها فى نصف الدائرة الكبيرة حتى وصلت المرغنى فعادت مرة أخرى إلى بطئها الممل أمام انشغال الطريق بمئات العمال الذين احتشدوا لإقامة أقواس النصر الهائلة أمام القصر الجمهورى ، وقد حفت بهم قوات الأمن من كل جانب ، ربما لتحرس أكداس المواد المبعثرة على امتداد الطريق حتى تتحول - كما هو مقرر لها - إلى التحف المعمارية التى تفنن مهندسو الديكور فى رسمها على الورق من مساقطها المختلفة وهم يعرضونها على المسئولين الكبار .

أخيرا وصل القطار إلى روكسى .

نزل أحمد بخفة وهو يردد الشهادتين فسار بحذاء المحطة حتى دخل الشارع الذى تتعامد عليه ، ثم دار حول محطة البنزين الكبيرة إلى أن وصل إلى العمارة الواقعة خلفها المطلة على منشية البكرى ، ألقى نظرة خاطفة وهو يقترب على اللافتة الضوئية الكبيرة المعلقة تحت نافذة فى الطابق الأول فأيقن أن المكتب ما زال يعمل ، دخل العمارة بقدم غير ثابتة ، وصعد السلم فوجد نفسه أمام باب مفتوح علقت عليه لافتة نحاسية كبيرة ، توقف برهة فجفف عرقه ثم استأنف سيره قاصدا موظفا جالسا فى مواجهة

الباب خلف منضدة صغيرة تحمل جهاز تليفون ، سأله بعد أن فرغ من مكالمة :

- المهندس أسامة موجود .

رد بتلقائية :

- تفضل بالجلوس ، ثم أضاف : من سيادتك ؟

أجاب :

- واحد من طرف الأستاذ محمد عبد الله .

كانت المرة الأولى التى يدخل فيها الشركة ، لقد تعودوا - طبقا لنظام الأمن المقرر فى الجماعة - ألا يتقابلوا فى أماكن عملهم ، وألا تعرف صلاتهم ببعضهم لو اضطروا لمثل هذا اللقاء . وهذه حالة طارئة ، إن أسامة وإن لم يكن عضوا قياديا فى التنظيم فإنه مهم جدا لتيسير أمور كثيرة ، سواء أكانت مالية أم أمنية ، ففى مجال المقاولات - الذى يعمل فيه - يستطيع أن يساعده فى تغطية حركة الجماعة ونقل أفرادها وإخفائهم فى حالات الضرورة ، وخصوصا وأن مواقع عمل الشركة كثيرة ومنتشرة فى أماكن شتى من القاهرة والأقاليم .

لم يطل به الانتظار ، فقد طلب المهندس أسامة - بعد فترة قصيرة - إدخاله ، ودعاه الموظف الجالس خلف المنضدة للدخول مشيرا بيده إلى باب فى نهاية الممر . ودخل أحمد بهدوء وأغلق خلفه الباب .

نهض أسامة مرحبا بضيفه دون أن يصرح باسمه ، قائلا وقد أدرك أن شيئا غير عادى قد حمله على الحضور :

- أنا أحب أحيانا أن أسمع أم كلثوم ، وأظن أنك لا تمانع .

أجاب أحمد بابتسامة صافية وقد فهم الهدف :

- لا مانع مطلقا ، ليتنى أسمع : (الهدى والنور) .

قال أسامة وهو يضع الشريط فى الكاسيت :

– بل ستسمع معى : (القلب يعشق) .

على الصوت الشجى المفعم بالشجن تدارس الرجلان الموقف بدقة ، وحفر أسامة فى ذهنه المطلوب منه فى هذه المرحلة · تدبير المساعدات المالية لأسر المعتقلين من التنظيم ، تأمين وسائل الاتصال لتوصيل هذه المساعدات ، والأهم من ذلك الاستعداد من الغد للبدء فى اتخاذ الإجراءات لتعيين عدد من مشرفى العمال الجدد الذين يجب إرسالهم إلى مواقع الشركة المختلفة لمتابعة سير العمل فيها .

بعد أن خرج أحمد من العمارة مسته نسمة رطبة لأول مرة هذا المساء ازداد معها انتعاشا ، ثم ألقى نظرة على ساعته وتمتم :

– الحمد لله ، ما زال هناك وقت كاف للوصول .

✍ ✍ ✍

الفصل الثالث

أرجوك .. لا تخاف على شيء

على الرغم من توقع « حامد » البدء في القيام بحركة اعتقالات جديدة فقد أدركه القلق منذ أن بلغته الموجة الأولى من الأخبار في الصباح وهو في مكتبه في استعلامات المحطة ، وما لبث هذا القلق أن ازداد والأخبار تتواتر منذرة باتساع دائرة الاعتقالات مع كل قطار يصل ، حتى لقد بدت الصورة كئيبة تماما قبيل الظهر ، وما أن وصل قطار أسيوط قبيل العصر حتى أيقن أن التنظيم قد تعرض لضربة قاسية ، ولولا أن مسئول الاتصال وهو يبلغه بموعد الاجتماع أشار عليه بضرورة البقاء في موقعه حتى يتم استكمال الصورة حتى اللحظة الأخيرة لترك العمل قبل انتهاء ورديته في السادسة مساء .

« *هل إجراءات الأمن في الجماعة غير كافية ؟ هل حدث اختراق للتنظيم ؟ كيف ؟ وفي أي مستوى ؟* » ظلت المسألة تشغله بإلحاح طوال فترة المساء حتى أنه لم يستطع أن يشارك زملاءه في طعام الغداء كما تعود ، واستعاض

عنه بشرب الشاى الذى يصنعونه بأنفسهم مرات لا حصر لها ، والشاى لا يساعده على التركيز ، فلم يستطع مع تفكيره المتصل أن يفسر ما يحدث فى ضوء الإجراءات التى فرضها على الجماعة منذ أن تولى مسئولية الأمن فيها ، وهى إجراءات اتسمت بالصرامة ولكنها كانت ضرورية ، ولم تصدر من فراغ ، بل كانت نتاج دراسة عميقة لما واجه التنظيمات السابقة من مشكلات ، ولقد أسلمته تلك الدراسة إلى أن أهم نقاط الضعف فى التنظيمات السرية ثلاثة أشياء : الأول نظام التجنيد ، والثانى نظام الاتصال ، والثالث فقر المعلومات وتأخرها. « *ها أنت وضعت نظاما للتجنيد بالغ الدقة ، ونظاما شديد السرية للاتصال ، واستطعت بوسائل فذة أن تقف مبكرا على المعلومات بما وفقت إليه من اختراق أجهزة الأمن ، ومع ذلك جاءت الضربة !! كيف جاءت ؟ يجب أن تتسلح بالهدوء حتى تفكر ، ولابد من مراجعة النظم بدقة ، ولكن لا مناص من متابعة الموقف للحصول على آخر المعلومات* » .

رفض أن يترك مكانه ويعود إلى المنزل للراحة استجابة لطلب زملائه بالرغم من إلحاحهم عليه بعد أن أدركوا مدى ما يعانيه من إجهاد ، كما رفض أيضا أن يستريح تماما فى جانب القاعة دون أن يشغل نفسه بالإجابة على أسئلة المسافرين تاركا هذه المهمة لهم ، وكان يحرص - برغم كل ما بدا عليه من إرهاق - على أن يسارع بالرد على أسئلة بعض المسافرين بنفسه قبل أن يعود من جديد إلى مقعده الخلفى ليستغرق فى التفكير .

« *كيف جاءت الضربة ؟* » فكر فى السؤال مرة بعد مرة عسى أن يصل إلى تفسير يقتنع به ، أو حتى إلى احتمال يرجحه ، لكنه فى كل مرة يزداد حيرة وعجزا .

أخذ يستعرض فى ذهنه نظام التجنيد لعله يجد ثغرة تكون أجهزة الأمن قد نفذت منها فلم يجد ، إن العضو لا يتم تجنيده إلا إذا رشحه ثلاثة على الأقل من الأعضاء الذين تنقطع صلتهم به فور ترشيحهم له دون أن يعلم عنهم شيئا ، ودون أن يعلموا

بدورهم عن نتيجة ترشيحه شيئا ، إذ يطلب من كل منهم صرف النظر عنه ، ثم يُدْفَع بعضو آخر فى التنظيم تختاره القيادة العامة بعد دراسة كافية ومعلومات موثقة إلى طريق المرشح لإيجاد صلة مباشرة بينهما ، وفى نطاق هذه الصلة التى لا يعرفها المرشح نفسه تجرى الاختبارات المتتابعة عليه للالتزام العقائدى ، فإذا اجتازها تم ضمه تنظيميا إلى خلية ثنائية لا يعرف فيها سوى العضو الذى جنده ، إلى أن يتم اختياره بدوره بعد تكليفات عديدة لتجنيد عضو جديد .. « *ترى ... هل تكون أجهزة الأمن قد زرعت بعض الخلايا فى التنظيم* » ؟ اربدّ وجهه وهو يعانى من التفكير فى هذا الاحتمال ، وقال لنفسه وهو يتفحص من مجلسه القادمين إلى المكتب :

« *إنه مجرد احتمال نظرى ، أما من الناحية العملية فامره بعيد* » .

عاد إلى مكانه بعد أن تولى توجيه بعض السائلين ، وأخذ فى شرب كوب الشاى الذى أوشك أن يبرد ، وراح يتأمل من جديد نظم الاتصال بين أعضاء التنظيم فى مستوياته الثلاثة : الخلايا ، الخلايا القيادية ، القيادة العامة . « *إن النظام يعتمد على الاتصال المباشر فى الخلية الواحدة ، وهو اتصال لا شبهة فيه تبرره الصلات الحميمة التى تتوثق بالضرورة بين عنصرى الخلية ، ويتم فى ظروف عادية ، فى أماكن عامة ، وخارج أوقات العمل . هل يمكن أن يكون هناك خطأ فى نظام الاتصال بين الخلايا القيادية ؟ وكيف السبيل إلى تصور الخطأ فى ظل الضوابط الدقيقة الموضوعة بإحكام ، بل إن الاتصال يتم دون تبادل كلمة واحدة ، إذ تقوم الصحف اليومية بتحديد كل شئ ، فنوع الصحيفة يحدد المكان ، والصفحة المفتوحة تحدد الساعة ، والعمود الذى يحمل علامة مميزة يحدد درجة الخطورة وما تعنيه من استعداد ، وليس على العناصر القيادية إلا أن تجلس لتقرأ الصحيفة اليومية فى أماكن عامة متفق عليها تتغير دوريا ليتم كل شئ . هل يحتمل نظام الاتصال بين أعضاء القيادة العامة خطأ من أى نوع والمسئول الأول هو عمر ، درة*

التنظيم الذى صنعه الأخ الأكبر على عينه ، إنه - برغم ما له من صلات بأجهزة الأمن - بعيد تماما عن كل شبهة فضلا عن أنه بحكم طبيعة عمله كموظف للعلاقات العامة فى شركة سياحية كبيرة مؤهل للاتصال بكافة العناصر دون عائق » .

- انظر يا حامد .

انتزعه من تفكيره صوت زميله عزت وهو يشير بيده فى اتجاه أعلى البهو الكبير للمحطة الذى يواجه أرصفة الوجه البحرى حيث كان عدد من العمال المعلقين على الكمرات الحديدية يحاولون تثبيت لوحة ضخمة تحمل صورة الرئيس . استغرقت محاولتهم وقتا طويلا لأنهم كانوا يعملون ببطء شديد ، نظرا لصعوبة الجزء الذى يعملون فيه وتضارب التوجيهات التى يتلقونها بواسطة مكبرات الصوت من عشرات المسئولين من كل المستويات ، أولئك الذى ظلوا يتابعون باهتمام وهم فى أماكن متفرقة وضع الصورة ، ولكن العمال عوضوا هذا البطء فى تعليقهم لافتات التأييد والمبايعة ، فسرعان ما انتشرت فى كل مكان فى سرعة قياسية ، وما كاد موعد تسليم الوردية يقترب حتى كان كل رصيف فى المحطة قد نال نصيبه من اللوحات والإعلانات .

قال عزت وهو يتأمل الصورة أثناء خروجهما من المكتب بعد تسليم الوردية :

- حلوة قوى .

رد حامد بعفوية :

- انت أحلى .

ابتسم عزت ابتسامة صافية ، قبل أن يقول باهتمام :

- على الله ينبسطون ويصرفون الحوافز هذا الشهر .

وأضاف بصوت خفيض :

- لقد شحتنا فى الشهور الثلاثة الماضية .

قال حامد وهو يشير إلى الإعلانات المنتشرة :

– أظنهم صرفوها فعلا .

عقب عزت بأسى :

– يا سنة سودة ، عليه العوض .

حين خرجا من الباب الجانبي تبينا من أول لحظة أن الميدان قد شهد تغيرات كبرى ، فقد انتشرت اللافتات في كل مكان . وارتفعت صور الرئيس الكبيرة فوق الكباري حتى بدا تمثال رمسيس إلى جوارها قزما لا يحس به أحد ، وتألقت صورة ضخمة هائلة تطل على الميدان كله من فوق عمارة التأمين وقد سلطت عليها الأضواء الكاشفة فبينت عناصر الجمال فيها بشكل رائع ، صحيح أنها الصورة الرسمية في المكاتب خلف الظهور ولكن مقدرة الرسام على أن يكبر حجمها مئات المرات مع الاحتفاظ بأدق التفاصيل من الملامح والضوء والألوان والظلال أمر يشهد ببراعة لا حد لها حتى قال حامد بصدق :

– هذا الرسام يستحق الإعجاب .

فرد عزت بقنوط :

– بل يستحق الإعدام .

ابتسم حامد وهو يومئ برأسه محييا ثم يسرع ليلحق مكانا فوق سلم الأتوبيس المتجه إلى شبرا .

في كل مرة يتجه فيها إلى شبرا يتبادر إلى ذهنه خاطر أن الله سبحانه أكرم من أن يدخل أهل شبرا النار ، فإن عدله يأبى أن يجمع عليهم نار الآخرة وقد ذاقوا بالفعل نار الدنيا ، فكل شئ في شبرا قطعة من الجحيم ، بل وكل شئ موصل إلى شبرا قطعة من الجحيم ، وقد ترك هذا الجحيم أثره في أهلها ، فإن فيهم تلك الفلظة الناتجة عن قسوة ظروف الحياة ، والحدة التي أثمرها الخوف وعدم الاطمئنان إلى شئ ، ولقد خيل إليه أحيانا أن شبرا ليست حيا في القاهرة بقدر ما هي مدينة قائمة بذاتها ، لها

خصائصها المميزة ، وسماتها المعبرة عنها ، وأن بوسعه لذلك أن يتعرف على أهلها فى لحظات عند تأملهم فى التعامل ، فإن فيهم الصوت العالى والحركة الحادة والنظرة المقتحمة وخشونة التعبير والعجز عن المناقشة واضطراب المنطق فى التفكير والسلوك . ولولا أن كثيرين من أصدقائه كانوا يقررون عن اقتناع أن هذه الملامح ليست خاصة بشبرا بل تشترك فيها أحياء عديدة ، كبولاق والشرابية والمدبح والإمام وطولون ، لتحولت هذه الفكرة عنده إلى حقيقة لا تقبل معارضة .

ما كاد الأتوبيس يهبط كوبرى أحمد حلمى ويقترب من المنحنى الموصل إلى الترعة البولاقية حتى تهيأ للنزول قبل أن يتوقف تماما ليتجنب صراع الركاب النازلين منه والصاعدين إليه ، ووقف بعد نزوله دقيقة يسوّى بنطلونه ويدلك ساقيه فى المواضع التى أصابته فيها الأقدام ، وهو يلقى نظرة على الميدان قبل أن يمد يده فى جيبه كما اعتاد حين يمر من المنطقة ليخرج منديلا يغطى به أنفه الذى اقتحمته الرائحة النفاذة لمياه المجارى المنسابة فى طريقها إلى مجرى النفق ، الذى تحول إلى مستنقع ضخم أوشكت أن تتوقف معه السيارات وإن ظلت قطارات الترام تجتازه بصعوبة . عبر شارع شبرا بهدوء من خلال حركة المرور شبه المتوقفة ، واستمر فى طريقه إلى شارع جزيرة بدران غير ملق بالا إلى الصخب والضجيج فى الشارع والمقاهى ، ولا ملتفت إلى العمال الذين يحاولون تثبيت اللافتات فى الشارع مستعينين أحيانا بالصعود فوق ظهور لوريات الأمن المركزى المتراصة على مدى البصر ، فقد تعلقت عيناه باللافتة السوداء الصغيرة المكتوبة بخط ردئ ، والمعلقة فوق شرفة فى الدور الأول من منزل رقم ١٥ حاملة عبارة : « المستوصف الخيرى » .

صعد السلم ببطء حتى يتجنب التعثر فى الدرجات المتآكلة ، مستعينا بالاعتماد على الحائط ، فلم يتبين فى الظلام ما أصاب يده وملابسه من تراب حتى وصل تحت المصباح الخافت أمام باب المستوصف المفتوح ، فوقف ينفض ملابسه مما أصابها .

دخل بعد أن دق الجرس دقة واحدة ، تلك عادته التى لازمته من أيام الصبا الباكر

حين كان يحضر لزيارة زميله جمال ، ولم يستطع بعد أن يتخلص منها ، ارتفعت فى استغراب عينا عم عبد النبى مسئول المستوصف فبادره بالتحية ثم أردف :

- الدكتور مصطفى موجود ؟

لم يعن برد تحيته وسأل :

- كشف جديد ؟

أجاب :

- لا ، استشارة .

دون عم عبد النبى اسمه ثم طلب منه الانتظار .

تفحص بنظرة سريعة الأماكن وتقدم تلقائيا إلى المقعد المجاور للنافذة المطلة على الشارع وجلس .

« ها أنت تجلس فى نفس المقعد الذى كنت تجلس عليه منذ أكثر من عشرين عاما ، لم تستطع قط أن تغير عادتك كلما حضرت ، حتى حين تجد المقعد مشغولا لا تستقر على حال حتى يخلو فتسارع إليه . فى هذا المقعد شهدت أحلى مافى الصبا اليافع ، الأمل المشع يخفق فى القلب وأنتم ترسمون معا طريق المستقبل ، أنت تحلم بالمصنع الذى يبرز مقدرتك على الابتكار ويحول أفكارك إلى واقع ، ومصطفى يحلم بالمستشفى الذى يصنع فيه بمشرطه حياة جديدة كل يوم ، وجمال بالرتبة العسكرية التى تحمله إلى ذروة السلطة ، فى هذا المقعد جلست معهم تكتبون رغباتكم التى حددت لكم الطريق ، أنت الهندسة ومصطفى الطب ، وجمال الشرطة بعد أن عارضت أمه بضراوة انضمامه إلى الجيش ، فى هذا المقعد كنت تسمع وتتكلم ، وأنتم تتبادلون أحاديث المغامرات التى كانت تمليها الرغبة العطشى أكثر مما يقدمها الواقع ، فى هذا المقعد شهدت معهم الرئيس فى

التليفزيون يملأ الدنيا وعيدا وتهديدا ، ويعلن مقدرته على سحق العدو ، فى هذا المقعد تناقشت حتى الصباح فى سر إحجام الرئيس عن ضرب العدو ، فى هذا المقعد رأيتم الرئيس نفسه يبدو مكسور القلب وهو يكسر بكلامه كل القلوب » .

– تشرب شايا ؟

انتبه على صوت عم عبد النبى وهو يوجه السؤال إليه ، كان يعرف السبب فأدخل يده فى جيبه وأخرج له ورقة مالية صغيرة وهو يشكره ، مبديا عدم رغبته فيه ، فأخذها الرجل بعد تمنع .

التفت حوله متفقدا المرضى ، لم يزد العدد كثيرا ، فبرغم أن عدد المقاعد محدود ما زال بعضها خاليا ، فى شبرا لا يتوجه المريض إلى الطبيب غالبا إلا بعد المرور بمراحل ثلاث متعاقبة ، فهو يجرب أولا الوصفات البلدية ، فإن لم تفد لجأ إلى استشارة الأصدقاء والمعارف للوقوف على الحالات المرضية المشابهة لقياس حالته عليها ، فإن لم تأت بنتيجة ذهب إلى الصيدلية ، لأن الصيدلى يكتفى بثمن الدواء الذى يقدمه ، فإن انعدم الرجاء تماما ذهب إلى الطبيب ، وحين يذهب إليه يكون المريض قد وصل إلى مرحلة تؤذن بنهاية واضحة لأحد الاثنين : المرض ، أو المريض .

– السلام عليكم .

رفع رأسه ليرد التحية التى ألقاها الدكتور على الجالسين وهو فى طريقه إلى حجرة الكشف ، التقت العينان فى ومضة خاطفة وشت بابتسامة غير منظورة « *تغيرت كثيرا يا مصطفى منذ تخرجت ، انطفأت أحلام الصبا وانحسرت آمال الشباب وتطامنت الكبرياء وانتهيت إلى حجرة فى مستوصف بشبرا ، كلنا ذلك الرجل يا مصطفى ، ها أنا بعد تخرجى من الهندسة حاصلا على بكالوريوس القوى بتقدير مرتفع أعمل موظفا فى مكتب الاستعلامات بالمحطة بعد أن ظللت سنين مضطرا إلى أن أرفع اللاءات*

الثلاثة : لا أهل ، ولا مال ، ولا عمل ، حتى جمال ، أفضلنا حظا ، لم يجد مناصا من أن يفتح شقة أمه مستوصفا حتى يتمكن بما يحصله من قروش مرضى شبرا من أن يوازن دخله المختل » .

أتاه صوت عم عبد النبي يدعوه إلى الدخول :

- تفضل يا أستاذ .

يبدو أن رحلته التي أوغلت في الماضي أنهكته ، حتى أنه حين دخل إلى الطبيب كان يجر بالفعل قدميه ، قطب مصطفى وهو يرى حالته وأشار إلى كرسي في مواجهة المكتب قائلا :

- خيرا ، هل أنت متعب إلى هذه الدرجة ؟

رد حامد بهدوء وهو يتأمله .

- أنت أدرى بالإجابة ؟

نهض الطبيب متجها إلى سرير الكشف وهو يقول :

- لابد من الكشف أولا .

تبعه حامد في صمت ، ثم قال وهو يكشف صدره ويستلقي :

- ما الجديد يا دكتور ؟

قال وهو يوالي الفحص .

- اطمئن ، شدة وتزول قريبا .

رد حامد بيقين :

- المؤمن لا يخاف فهات ما عندك .

رفع مصطفى السماعة عن أذنيه ، وظل يوالي الفحص بيديه ، ونقل إليه بصوت أقرب إلى الهمس المعلومات التي توفرت لديه حتى اللحظة الأخيرة ، ومصدرها التوجيهات التنفيذية للقيادة المركزية لعمليات الاعتقال ، وأهمها أولا أنها عمليات عامة لا

يقصد منها إلا تأمين عملية الاستفتاء ، فليس هدفها إجهاض الحركات المضادة ولا تصفية القوى المعارضة . وثانيا أن صلاحيات الاعتقال مفوضة لضباط أمن الدولة فى كل المستويات دون التزام بالقوائم ، وثالثا أن الاختفاء مثار شبهة وبالتالى سيتم تتبع المختفين بكل الوسائل .

عاد الطبيب إلى مكتبه بعد أن أنهى الفحص وساله بصوت عال :

– ماذا أكلت اليوم ؟

أجاب حامد وهو يسوى ملابسه :

– شاى ، وأردف بابتسامة : شربت جردلا منه فى الفترة من الظهر إلى العصر .

عقب مصطفى وهو يضحك :

– لا تستعجل على الجردل ، فكل آت قريب .

وأضاف جادا :

– انت بالفعل تعبان وفى حاجة ماسة إلى الراحة ، ومهم أن تأكل جيدا وأن تأخذ الدواء فى موعده حتى أراك .

ودق الجرس دقتين متصلتين ، فدخل عم عبد النبى الذى بادره الدكتور بقوله وهو يكتب الدواء :

– للأستاذ استشارة ثانية بعد غد .

* * *

قال لنفسه وهو يخرج بحذر حتى لا ينزلق فى البالوعة المنزوعة الغطاء المجاورة للرصيف : « *أما الراحة فليس إليها من سبيل فإن أمامك الليلة عمل طويل ، والله أعلم أين ستكون غدا ، فربما تكون بين جدران المعتقل ، المهم الآن أن تتناول شيئا من الطعام* » .

مال – استعدادا لذلك وهو فى طريقه إلى الشارع الرئيسى – إلى صيدلية المحبة ، بعد أن تعثر فى الحاجز الأسمنتى الذى أقامته الصيدلية حول الباب ليحول دون دخول مياه المجارى حتى كاد يقع ، لولا أن أسعفته قدمه بقفزة غير متوقعة استطاعت أن تحمله إلى داخل الصيدلية .

قال – وهو يبتسم – للدكتور جرجس الذى فوجئ به :

– هذه قلعة وليست صيدلية .

رد بوداعة وكأنه يعتذر :

– ماذا نفعل ؟ إنه خط الدفاع الأخير ضد المجارى .

استمر حامد ضاحكا وهو يعطيه الروشتة :

– اعمل إذن كوبرى علوى ، على الأقل يكون إعلانا واضحا .

جاراه الدكتور جرجس مقهقها وهو يقدم له الدواء مشيرا إلى المياه التى غمرت الرصيف :

– الأحسن أن تبحث معنا عن فلوكة ، فإن لم تنفع فى الإعلان أفادت فى العبور .

وضع الدواء فى جيبيه فلم يكن سوى علبتين صغيرتين من الأقراص ، وخرج وقد استقر عزمه على تناول وجبة جيدة عملا بنصيحة الطبيب ، « *أين يأكل ؟* » لم يشغل باله نوع الطعام بقدر ما كان فكره مشغولا باختيار مكان نظيف يأكل فيه ، إنه برغم ألفته الطويلة للمنطقة يأنف منذ سنوات من تناول أى طعام فيها بعد أن أصبح انسياب مياه المجارى فى شوارعها أمرا غير مستنكر ، وتأقلم الناس على التعايش معها دون تذمر ، واكتفت المطاعم نفسها بإقامة الحواجز فى مداخلها حتى لا تتسرب منها المياه تحت أقدام الآكلين . هل يصعد إلى البانوراما ؟ المطعم الذى يحتل الطابق الأخير من برج شبرا ، إنه مكان نظيف وطعامه جيد وإن كان مرتفع السعر ، لكن لا بأس ، فليس الوقت وقت اقتصاد فى المال .

خرج إلى الشارع الرئيسى قاصدا مبنى البرج ، وبعد دقائق تجلت له قمته متألقة باسم المطعم المكتوب بالأنوار الخضراء ، فلما اقترب ظهر المبنى كله وقد ارتدى عقودا من الضوء الباهر المحيط بصورة كبيرة للرئيس ، وقد انعكس المنظر بكامله على صفحة المياه الراكدة المحيطة بالمبنى تتخللها الدوائر المتعاقبة التى تحدثها أقدام السالكين .

عافت نفسه أن يشق طريقه إلى الداخل وقال بضيق :

– ليس إلا المنزل .

ركب الترام على الرغم من قصر المسافة إلى شارع طوسون ، لأنه وجد من الأفضل أن يدخر جهده للساعات المقبلة ولم يجد معنى لأن يقطع المسافة إلى شارع الترعة مرتين ذهابا وعودة ليظل وقتا لا يعلمه إلا الله فى انتظار مواصلة قد لا تتيسر ، أما الترام فشأنه أيسر ، فإن بوسع الراكب أن يصعد إليه متى شاء من أى مكان ، وأن ينزل منه فى أى لحظة حيث يريد ، إذ إن سرعة السلحفاة التى فرضتها عليه الظروف جعلته مطية ذلولا .

ما كاد يستقر فى الترام حتى بدأ يفكر فى نوع الطعام بعد أن استقر رأيه على المكان ، وتراوح تفكيره بين عدد من البدائل إلى أن قرر أن يتزود من الحاج عبده بعدد من البيض وكمية من البطاطس ، بالإضافة إلى ما قد يعثر عليه فى الثلاجة من طعام .

سلك طريقه إلى المنزل فى الظلام الذى حل بالحارة حريصا على ألا يختل توازنه حتى لا يفقد طعامه الذى يحمله ، ومضى – دون أن يتعثر – فى الزقاق الذى يقع منزله فى منتصفه ، وصعد إلى شقته مستهديا بالضوء الذى ينبعث من المصباح المضاء أمام الشقة المقابلة لشقته ، وأضاء فور دخوله النور فى الصالة ثم وضع حمله الصغير على المنضدة القديمة التى تحيط بها بضعة مقاعد خشبية حائلة اللون ، قبل أن يدخل إلى المطبخ ليعد لنفسه الطعام .

ما كاد يضع البيض والبطاطس على النار حتى دق جرس الباب ، توجس خيفة وامتقع ، هل كانوا فى إنتظاره ؟ إنه لم ير أحدا منهم فلعلهم تستروا بالظلام ؟ « *لقد*

حضرتم مبكرين لكن ماذا عساك أن تصنع ، ليس إلا التسليم » .

فتح الباب ، ولأول وهلة لم ير أحدا ، ولكن الصوت الرقيق وصل إلى أذنيه كالزغاريد :

– عمو ، تيته عايزاك .

نظر إلى أسفل ، كانت الصغيرة هدى ذات السنوات الخمس ترفع عينيها الخضراوين إليه وقد شعت منهما بسمة خلابة لا توصف ، هفت روحه وخفق قلبه فتألق الوجه المكدود بمحبة طاغية تفجرت نورا .

قال وهو يرفعها إلى صدره ويطبع بحنان بالغ على جبينها قبلة :

– هالا .

قالت وهى تكركر مشيرة إلى خدها الأيسر .

– وهنا يا عمو .

قبلها ضاحكا فأسرعت بإعطائه خدها الأيمن وهى تقول :

– أحسن يزعل .

لثمها وقد تعلقت برقبته تستحثه على المضى معها ، فأغلق بابه وسار خطوتين إلى أن دق جرس الباب المفتوح .

صاحت الصغيرة تبلغ أمها .

– عمو يا ماما .

أتاه الصوت العذب مرحبا .

– أهلا وسهلا ، تفضل .

واجهه – وهو يدخل – الصليب يحكى القصة المأثورة ، وقد انتشرت إلى جواره صور العذراء عن يمين وشمال . حيا ، وقال وهو مازال واقفا دون أن يرد التحية :

– خيرا .

نظرت إليه بإمعان وهى تقول :

– ألا تتفضل بالجلوس .

تردد « *هل من حقك أن تجلس الآن ؟ إنها مريم ، ذكريات الشباب الأولى وأحلامه العذاب ، الطيف الباسم الذى طالما ملأ القلب بهجة وأفعم الروح متعة وشحذ العزيمة بالآمال الندية وحلق بك فى السموات العلى* » .

من الداخل أتاه صوت الجدة ضعيفا لا يكاد يسمع :

– اقعد يا بنى .

وأقبلت العجوز تتحامل على نفسها وهى تتكئ بكفها على ما حولها ، بدت فى شعرها الأبيض المحيط بوجهها المستدير وعينيها الحالمتين أشبه بصور القديسين المعلقة على الجدران ، مدت يدها الباردة المعروقة لتسلم فقفز ليسندها حتى لا يختل توازنها وهو يقول :

– لا يصح أن تتركى الفراش .

قالت مريم وكأنها تحتج :

– إنها ترفض أن تسمع الكلام .

ابتسمت العجوز ابتسامة واهنة وهى تجلس بمساعدته على الكنبة ، وتشير إليه أن يجلس قبالتها على الفوتى ، جلس صامتا وقد تعلقت عيناه بمواطئ قدميه ، فالتفتت الجدة إلى الصغيرة قائلة :

– هدى ، هل قدمت لعمو شيئا ؟

ردت بعفوية منكرة بعادته معها كلما رآها :

– هو الذى يقدم لى .

تمتم معتذرا ، ونظرت مريم إليه بمودة وهى تنهر الطفلة قبل أن تقول :

- سأعمل لك كوبا من الشاى

رد بسرعة

- أرجوك ، لقد شربت كمية هائلة اليوم .

عقبت الجدة بصوتها الخافت

- أى شئ إلا الشاى .

اعتذر بإلحاح ، ولكن العجوز أشارت بعينيها فانسحبت مريم وفى يدها الصغيرة إلى المطبخ .

تأملته المرأة بهدوء ، وطافت بها ذكريات بعيدة : « *طالما جلس أبوك فى هذا المكان مع أبو مريم يمضيان السهرة فى اللعب وهم يتناقشون ويختلفون ويتصايحون ويغضبون ، وأنا وأمك فى الشقة الأخرى نسمع حينا ونتابع ، وننشغل حينا بالأخبار والأسمار ونشكو دائما من كل المواجع* » .

قالت الجدة بتأثر :

- كانت أمك أكثر من أخت ، رحمها الله .

تمتم يدعو لها ولأبيه بالرحمة وهو ينظر إليها متطلعا .

تابعت الجدة :

- لا أظن أنك فى حاجة إلى الشكر على ما فعلت معى فى مرضى .

رد مقاطعا .

- لا شكر على واجب .

وأكملت:

- لكنى طلبتك لأمر أخر .

أقبلت مريم تحمل الصينية الصغيرة وقد وضعت فوقها طبقا مسطحا ضم

أصابع من الموز وحبات من العنب وخلفها الصغيرة تحمل أطباقا فارغة . فذكرته الفاكهة بالطعام الموضوع على النار فاعتذر لدقيقة وهو ينطلق إلى مطبخه ليطفئ النار ويعود :

قال بعد أن جلس مرة أخرى على الفوتى :

- آسف ، نسيت الطعام على النار وخفت أن يحترق .

قالت مريم ضاحكة وهى تقدم له الفاكهة

- لم أكن أعرف أنك تطبخ .

رد بابتسامة وعيناه على قدميه :

- لست طباخا ماهرا على كل حال .

تابعت وعيناها لا تفارقان وجهه :

- ليتنا نتذوق لنحكم .

فقطعت الجدة استرسال مريم قائلة :

- أنتِ عكستِ الأصول .

رد فى رقة دون أن تفارق عيناه الأرض :

- لا حاجة إلى ذلك ، لقد تذوقت وحكمت من زمن بعيد .

رفعت مريم حاجبيها فى دهشة : « *ياه ، مازلت تتذكر ، ألم تنس حتى الآن ؟ !* » طوت عبارته الزمن واختزلت التاريخ حتى كأن ذلك كله بالأمس « *هل من الممكن أن تظل المشاعر حية كل هذا الوقت وبرغم كل هذه الظروف* » انداحت فى القلب الموجع أحاسيس ندية كنبع مطمور ترفع منه الرمال .

قالت الجدة :

- أنت فى منزلة ابنى ، ولو كان لى ولد ما أظن أننى كنت أحبه أكثر منك .

تمتم مؤمنا دون أن يبين ، وتابعت :

- أنت ومريم عندى فى منزلة واحدة ، ولذلك حين تواجهها المشاكل لا أظن أنك ستبخل عليها بمساعدة .

رد بصدق :

- أنا رهن إشارتكم فى أى وقت .

استمرت الجدة فى الوقت الذى تألقت فى عين مريم نظرات فياضة بالرضى :

- ميلاد أخو المرحوم زوجها يستولى على حقوقها ويضايقها ، وقد وصل به الأمر أن يهددها بأنه سيجعل حياتها غير آمنة إن لم تتزوجه أو تتنازل له عن المحل الذى فى السوق .

أخذت تفيض فى شرح المشكلة وأسبابها وتبين تطوراتها ، وقد تظاهر بالإصغاء وهو يستمع فى نفس اللحظة إلى صوت الأعماق : « *سبحان الله ، هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أمامك يا مريم إذن الخيارات الثلاثة : أن تتزوجى هذا البلطجى المشاش الذى يعكف طول الوقت على الشيشة فى قهوة بسالى مفاخرا ببطولات وهمية واتصالات مشبوهة ، أو تتنازلى عن مالك ، أو تعرضى نفسك لمضايقات لا يعلم مداها إلا الله ، نفس الخيارات التى كانت أمام أمك من قبل ، ولكنها اختارت نفسها وآثرت السلامة ، أما أنت فماذا تريدين ؟* »

قال وهو يتأمل لأول مرة الوجه الوضاء المشرق بالانفعالات بعد أن ضبط العينين الساجيتين تتاماً على شفتيه

- ولما لا تتزوجه ؟

ردت مريم باستنكار ممزوج بعتاب ؟

- أنا ؟

قالت العجوز بانفعال

- هي لا تريده ولن تتزوجه ، وليس لديها مانع من التنازل عن الدكان إيثارا للسلامة ، لكنى قلت إن معنا رجلا نستطيع أن نعتمد عليه .

أجاب وقد هزته النخوة :

- هذا صحيح ، كنت فقط أريد أن أطمئن ، وسأقف إلى جانبها ولن ينال منها شيئا بغير إرادتها بإذن الله .

وأضاف وهو ينظر إلى الجدة برقة :

- وأما أنت فلا داعي للانفعال ، فأنت تعرفين مدى ضرره بصحتك .

لمعت عينا مريم وقالت والدم يتدفق إلى وجنتيها من التأثر :

- دامت لنا رجولتك .

وأضافت الجدة بامتنان :

- لم تخلف ظني فيك أبدا .

رد بثقة وهو ينهض :

- ولن أخلفه إن شاء الله .

* * *

حين عاد إلى شقته بعد أن نصح مريم بجمع كل الوثائق الضرورية تمهيدا لاستشارة محام موثوق به كانت شهيته للطعام قد فترت ، فآثر أن يغتسل ثم يصلي ، وبعد الصلاة قرر أن يأكل شيئا تنفيذا لنصيحة الطبيب ، لكنه اكتشف وهو يقشر البيض والبطاطس أن شدة النار التي تعرضا لها قد انتهت بهما إلى نتيجتين مختلفتين ، فقد زادت صلابة البيض وزال تماسك البطاطس ، حتى قال لنفسه وهو يحاول أن يبلع الطعام غير المستساغ .

- أنت بالفعل فى حاجة إلى إمرأة .

لم تنسه الأحداث العارضة مشكلته الأساسية فما لبث أن وجدها تطفو مرة أخرى على السطح ، وأخذ يفكر من جديد فى موضوعاته المتداخلة وقد ازدادت اتساعا بعد وقوفه على المعلومات الأمنية ، وحاول أن يربط شتات المعلومات فى إطار واحد ، بدأ أولا بتحديد مستوى العناصر التي تم اعتقالها ودورها فى التنظيم فى ضوء معرفته بها باعتباره المسئول الأول عنها ، مستعينا على ذلك بذاكرة خارقة عوّدها طويلا الاعتماد عليها بعد أن دربها كثيرا على تذكر المعلومات بواسطة تلمس العلاقات القائمة بين جزئياتها أو حتى افتراضها ، ولكنه لم يجد رابطة يمكن أن تفسر قصر الاعتقال على عناصر معينة فى الخلايا والقيادات دون غيرها ، وبدا له - بعد تأمل - أن ذلك أمر يبعث على الاطمئنان ، لأن معناه أن أجهزة الأمن لا تعرف حتى الآن الجماعة بشكلها التنظيمى ، وأن التنظيم لذلك مازال قادرا على الحركة . عاد ثانية إلى تحليل التوجيهات التنفيذية لحركة الاعتقالات كما تسربت إليه ، وقد استغرق بفكره فيها دون أن يصل إلى رأى نهائى بشأنها ، فهى - من ناحية - تبدو عملا دفاعيا بحتا من أجهزة الأمن ، وكان المقصود منها أن تطمئن التنظيمات المعارضة وألا يفزعها ما يحدث حتى لا تلجأ إلى مواجهة حادة فى هذه الظروف ، لكنها من ناحية أخرى تحتمل أن تكون رسالة بقصد التمويه حتى تفوت الفرصة على التنظيمات فى الاستعداد فيسهل الانقضاض عليها . هل القصد من هذه التوجيهات الهدنة أو التمويه ؟ إن خبرته التي استقطر فيها تجارب الآخرين علمته ألا يثق فى جهاز الأمن السياسى على الإطلاق ، فإن هذا الجهاز طوال عمره أداة قمع فى يد السلطة تفرض به إرادتها وتكمم أفواه مخالفيها وتسحق به معارضيها ، أرهقه التفكير من غير أن يصل إلى رأى حاسم يستطيع أن يطمئن إليه ، ومن ثم يعرضه عند مناقشة الموقف فى القيادة العامة ، ولكنه مال مع ذلك إلى أنه ليس من صالح السلطة أن تبدأ معركة شاملة مع كل التنظيمات فى مثل هذه الظروف ، وبالتالى فإن جهاز الأمن الذى تقيده القرارات السياسية لابد من أن يكون على وعى بهذه الحقيقة .

ألقى نظرة على ساعته فعلم أن الوقت قد حان للاستعداد للتحرك ، غسل من جديد يديه ورأسه ليتخلص من العرق المنساب بغزارة ، وارتدى ملابسه بعناية وهو يتفقد بعينيه حقيبة الطوارئ التى تضم بعض الملابس الضرورية فى مكانها المعهود تحت الفراش قائلا :

– عسى ألا نحتاج إليك فى هذه المرة أيضا .

* * *

قرر – وهو يغلق الباب بالمفتاح – أن يمضى سيرا على الأقدام إلى الدوران فالمسافة قصيرة وفى الوقت متسع ، وهناك يستطيع أن يحصل على مواصلة مباشرة إلى حيث يريد ، وفى الطريق شاهد « ميلاد » يقود مجموعة من العمال الذين يضعون لافتات التأييد ويرشدهم إلى المواقع المناسبة ، حياه حين التقت عيناه به فشغل عن رد التحية ، فقال حامد لنفسه مؤنبا :

– هذا خطؤك ، ما كان ينبغى أن تحيى حيوانا أعجم .

ومضى معتكر المزاج إلى أن وصل إلى الدوران . انتظر طويلا حتى كلت قدماه دون أن تبدو بادرة على إمكان ركوب مواصلة مباشرة إلى الزاوية ، قال لنفسه : « *فلنعدل خط السير* » وأشار إلى تاكسى به مكان خال وصاح :

– المظلات .

وقف التاكسى فركب ، وفى الطريق قال السائق :

– أين تذهب بعد المظلات ؟

رد وهو يتوقف لينزل راكبا :

– مصر الجديدة .

قفز رجل فى المكان الخالى وقال للسائق :

– السواح .

التفت حامد إلى السائق وقال :

– وأنا كذلك .

امتعض السائق دون أن يرد ، ونظر حامد إلى ساعته فى ضوء المصابيح الفياضة بالنور على الصور واللافتات الممتدة بلا نهاية ، وقال لنفسه :

– ستمشى مشوارا محترما لكن لا بأس ، ففى الوقت متسع إن شاء الله .

✍ ✍ ✍



الفصل الرابع

عليك بالمفتاح ... إن أردت فتحا

منذ أن تلقى خالد تكليف الأخ الأكبر عبر القناة الخاصة بتأمين مكان الاجتماع بوصفه المسئول العسكرى للتنظيم ، وحتى من قبل أن يقف على الموعد النهائى من مسئول الاتصال ، لم ينقطع تفكيره لحظة فى الخطة التى باشر وضعها بدقة متناهية ، وقد بدأ بتحديد احتياجات التأمين فى ضوء الظروف التى يعرفها عن الموقع والمنطقة ، والعناصر التى يمكن إختيارها من التنظيم للقيام بهذه المهمة ، وتوزيع الأعمال على العناصر توزيعا يتسم بالمرونة والدقة بحيث تكون قادرة على تغطية المنطقة بشكل طبيعى يسمح لها بأن تقف مبكرا على أى تحرك أمنى ، وفى نفس الوقت تتمكن من التمركز السريع حول الموقع حتى يسهل عليها حمايته إلى أن يتم إنهاء الاجتماع وإجلاء المجتمعين . أعاد النظر فى الخطة التى أتمها مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يحس - برغم دقة خطته - بشئ من عدم الراحة ، إن الخطة تفى بتحقيق الهدف فى ظل الظروف العادية والإمكانيات المتاحة ، ولكن المشكلة الحقيقية أن يطرأ احتمال غير متوقع

فتضطرب الأمور . وهكذا كان يبدأ فى كل مرة فى تصور ما قد يكون من احتمالات وتأثيرها على خطته : « *ماذا يمكن أن يقع ولم يتوقعه فى الخطة ؟ أن يتم حصار المنطقة كلها ؟ سيدرك ذلك أعضاء القيادة العامة فيعدلون عن عقد الاجتماع . أن يتم حشد الأمن فى الشارع ؟ لدى الأعضاء من الخبرة ما يستطعون أن يميزوا به كثافة قوى الأمن علنية وسرية . أن يتم تفريغ البلوك من السكان ؟ هذا مستحيل . أن يتم إلزام السكان بالبقاء داخل مساكنهم بعد إغلاقها ؟ هذا كفيل بكشف قوى الأمن ، لأن المساكن الشعبية التى يقع الموقع فيها بطبيعة مساحتها لا تسمح ببقاء السكان داخلها إلا للنوم ، إنها مراكز طرد دائمة للخارج : السلم والشارع والمقهى . بقيت مشكلة أساسية : التسليح ، إن لدى الجهاز العسكرى للتنظيم بعض الأسلحة التى تستعمل فى التدريب ، وفى بعض العمليات الخاصة ، وهى جميعا أسلحة صغيرة لا تكفى لمواجهة مع قوى الأمن ، ولكن الآن المواجهة محتملة ، فكيف السبيل إلى سلاح فعال ؟* » .

مضى يفكر فى المشكلة وقد استقر عزمه على ضرورة الحصول على سلاح يمكّنهم من مقاومة مجدية إذا حدثت مواجهة . خطر له خاطر : « *أليس غريبا أن نضطر لكى نأمن على أنفسنا حتى نتكلم أن نحمل السلاح فى دولة ترفع شعار الحرية* » شفت نفسه بأسى وهو يستدرك « *وماذا نستطيع أن نفعل والسلطة تأبى أن تتفاهم مع مخالفيها بالكلمات إلا إذا أزلتهم فى المعتقلات ؟* » تولدت فى الذهن من المعاناه فكرة إثر فكرة ، إلى أن انبثقت فجأة فكرة بدت مقنعة تماما ، فلو استطاع الحصول على بعض القنابل اليدوية لتمكن التنظيم من الأداء الجيد فى أى مواجهه محتملة « *القنبلة* » *وليست الرصاصة ، أكثر الأشياء فعالية فى مثل هذه الظروف ، إنها بما تحدثه من آثار نفسية ومادية تستطيع أن تشل القوى المضادة فترة*

كافية » كيف غابت عن باله الفكرة كل هذا الوقت ؟ لقد أدرك خطورة القنبلة منذ تلك الفترة المبكرة من حياته وهو طالب فى الحربية ، ثم تأكد لديه دورها بشكل قاطع فى التدريبات التى شارك فيها وهو ضابط صغير يخطو خطواته الأولى فى سلاح المشاة ، فكيف بعد عشر سنوات لا يتذكر ؟ ألأنه يحرص دائما على أن ينسى تلك الفترة من حياته ويقول لنفسه باستمرار : لقد ولدت من جديد فى الجماعة أما ما قبلها فقد مات . حملت الذكرى إلى الأعين الواسعة السوداء التى ينم بريقها عن الذكاء نظرة ضيق موشحة بالألم ، وصعدت إلى الوجه الأبيض المشوب بحمرة الشفق معالم أسى دفين .

دقت الأصابع المترعة بالقوة فوق بنورة المكتب الخشبى الفخم دقات متتابعة دون إيقاع منتظم قبل أن تمتد وتضغط الجرس .

اصطفت القدمان معا فى الحذاء العسكرى الضخم الذى حال لونه ، وارتفعت اليد بتحية عسكرية صارمة برغم الكرش الذى يشكل نصف دائرة ، وقال الجندى العجوز ، بلهجة عسكرى متقاعد :

– أفندم .

تأمله خالد بعد أن رد تحيته وقال :

– اسأل الصول هل أكمل قوائم التدريب لطلبة التجارة .

قال وهو يؤدى التحية بنفس الروح .

– حاضر يا فندم .

يعرف خالد ما سيحدث على وجه الدقة ، سينهض الصول الكسول تاركا بقية طعامه الذى حصل عليه من المدينة الجامعية فى الدرج ، ثم يأخذ رشفة بصوت مسموع من كوب الشاى الذى صنعه له الجندى ، ويدخل عليه ومازالت بقايا الطعام فى فمه يلوكها ليقول له إنه من ناحيته أكمل القوائم أكثر من مرة ولكن مندوب الكلية يحدث اضطرابا فيها باستمرار بتعديله لها فيعطل إنجازها بصورة نهائية . لن يستدعى المندوب كما يتوقع ليعلل له الأمر بأنها رغبات بعض المسئولين فى تعديل مواعيد بعض

الطلاب ذوى الصلة بهم .

ارتفعت يد الصول بالتحية دون أن يدق الكعب ، وقال :

– **يا فندم مندوب الكلية .**

قاطعه بحزم .

– **أعرف .**

صمت الصول وفمه نصف مفتوح ولم يعقب . فأضاف خالد :

– **هذه فوضى غير مقبولة ، عليك أن تتم إنجاز القوائم غدا مهما كانت الظروف .**

قال الصول وهو يبتلع ريقه .

– **أمرك يا فندم .**

تابع خالد أوامره :

– **أرسل لى مندوب العلوم .**

رد الصول بعفوية :

– **أمرك يا فندم .**

وارتفعت اليد مرة أخرى بالتحية بعد أن أذن له قائده بالانصراف .

يتهيأ الموقف بدقة للقاء حازم ، لقد أصدر أوامره إليه منذ وصلته المعلومات الأولية باحتمال حدوث تطورات مهمة بضرورة تواجده فى المعسكر أطول فترة ممكنة ، ولديه غطاء جيد للتردد والبقاء من صلته الوثيقة بالجميع وخدماته المتنوعة لهم باعتباره عضوا فى الاتحاد ، قال لنفسه : « *حتى لو لم يكن حازم موجودا ففى خلال دقائق سيعرف أنه لابد أن يكون موجودا* » واستدرك : « *الخازوق أن يكون المندوب نفسه موجودا فى المعسكر أو فى الكلية على غير العادة* » .

دخل الصول مرة أخرى بعد أن دق الباب وصاح :

- مندوب العلوم غير موجود يا فندم .

رد بحسم :

- أرسل فى استدعائه .

وأضاف بعد لحظة صمت قصيرة :

- جهز أنت القوائم ولا تنشغل بشئ آخر .

« إذا كانت الأمور تمضى على النسق المألوف فلن يوجد المندوب حتى فى الكلية ، فهو الآن يجوب شوارع القاهرة بسيارة التاكسى التى يملكها ، ولن يعترف أحد مطلقا بأنه غائب اليوم ما دام يوالى دفع المعلوم بانتظام للسيد المدير العام » . ترك مكتبه وأخذ يتمشى فى الحجرة الواسعة المكسة بالأثاث الفاخر ، متجنبا التعرض المباشر لجهاز التكييف ، ألقى نظرة فاحصة على الصورة التى تتصدر المكتب وأخذ يقارنها من خلال النافذة التى أزاح ستارتها جانبا بالصورة الكبيرة المعلقة على الحائط الخارجى لمبنى المدرجات فى مواجهة المعسكر ، قال لنفسه : *« الصورة الكبيرة لا جمال فيها ، ثم إن وضعها فى هذا المكان نشاز »* ، سقطت نظرته وهو يتأمل الصورة فشاهدت من خلال الزجاج المغلق صفوف الطلاب فى ساحة التدريب تتابع أداء حركاتها العسكرية خلف صف التعليم ، أحس برغم بعدهم عنه برخاوتهم وعدم اهتمامهم وكأنهم دمى كرتونية يدوية الصنع لا يتسق لها نظام *« لا ، ليس ما هم عليه نتيجة الحرارة والرطوبة والتعب ، بل فقدت العسكرية عندهم معناها وضاعت روحها . أهذا هو الجيش الشعبى الذى يحول من أجله ضابط عظيم من المدرجات حمل لوحدته على الجائزة الأولى فى الأداء العسكرى أكثر من مرة »* ؟ فجأة عن أنه له خاطر : *« هذا بالتأكيد مقصود »* ، زارت على عجل الوجه الوسيم لمحة حزينة ، لقد تذكر ما قالوه له فى القيادة حين تظلم من أمر نقله : *« غيرك يجرى وراء مثل هذا المنصب »* وحين اعترض بأن حياته

فى العسكرية وسعادته فى العمل على جعل وحدته فى أقصى درجات لياقتها ومقدرتها ردوا عليه : « وما المانع من أن تفعل نفس الشئ فى منصبك الجديد » ؟ ، « أفعل نفس الشئ ؟ ! وسط هذه الأسراب من الطيور المهاجرة التى فقدت الهوية والاتجاه » .

دق الجندى العجوز الباب وقال :

– مندوب العلوم فى مهمة خارج الكلية يا فندم .

قال وهو فى مكانه إلى جوار النافذة .

– الا يوجد شخص آخر يحل محله ؟

رد الجندى :

– مندوب الاتحاد موجود يا فندم .

قال دون أن يلتفت إليه :

– دعه يدخل .

« الآن يا حازم أزف الوقت ودقت الساعة ودنت اللحظة ، الآن يجب أن تتجلى قدرتك التى صقلتها فيك بأناة ودون عجلة وأنا أبنى منك وبك النواة الصلبة كى تكون قادرة على مواجهة الأعاصير » .

– أفندم خالد بك .

أرسلت العينان الرسالة الشفرية المنظرة فترجمتها العينان على الفور ، استدار حازم وأغلق الباب ومضى بهدوء إلى جوار النافذة .

– جاهز ؟

– جاهز .

– والعناصر المختارة ؟

– جاهزة . لا ينقصها سوى التوقيت والهدف .

- والسلاح :

- تعرفه .

قال خالد ، وكأنه يلوم نفسه :

- لو أمكن الحصول على بعض القنابل لتحسن الوضع .

رد حازم بثقة :

- من يدرى ربما يمكن تدبير الأمر .

نظر خالد مستفسرا فأضاف :

- لا تنس أننا فى قسم الكيمياء .

قال خالد بأسى :

- لكن الوقت متأخر .

أجاب حازم وكأنه يفكر فى التجارب التى قام بها منذ أيام دون أن يعلم بها أحد :

- لا ضرر من المحاولة على أى حال .

عقب خالد بحزم وهو يمد يده إلى جيبه :

- شريطة ألا تؤخرنا لحظة .

وأخرج من جيب بنطلونه المنديل الذى لم يعد يستعمله ، ومد أصابعه خلاله فالتقطت ورقة مطوية بعناية قدمها إليه وهو يقول :

- اجلس إلى مائدة الاجتماعات وادرس الرسم جيدا ، إنه يتضمن الهدف والخطة .

أخذ خالد يتأمله بإمعان وهو مستغرق فى تفاصيل الرسم حتى يحفره كما علمه فى ذاكرة لا ينبغى أن تنسى أدق التفاصيل ، فإن النسيان بالنسبة لهم ترف لا يقدرون على دفع ثمنه الباهظ ، أحس إزاءه فجأة بحب عميق لا يوصف ، حب يتجاوز حتى حبه

لشقيقه التوأم الذى لم يحب أحدا مثله قط ، انبسطت الأسارير بعد أن ارتخت العضلات وزالت الحدة ، « *لقد أعطاه هذا الولد أكثر مما أخذ منه ، أعطاه الاستقرار بعد القلق ، والهدوء بعد السخط ، والرضا بعد الغضب ، والأمل بعد اليأس ، التقطه هذا الولد وهو فى مرحلة الإحباط المطلق ففتح له بانضباطه ودقته وهدوئه ورجولته بابا ما كاد يدخل منه حتى وجد نفسه فى عالم اخر ، عالم ما كان له أن يعرفه وسط علاقاته القديمة المحكومة بلذة عابرة أو رغبة موقوتة أو هوى عارض ، عالم انتقل به إلى مرحلة بدت - لفرط جدتها - كما لو كانت انفلاتا من الأسر وانطلاقا إلى الفضاء المطلق فى لحظة واحدة ، عالم يبدأ من تربية القدرة على الصمود أمام كل المغريات والأباطيل ، وينتهى بالقدرة على بناء الأمل الرائع فى حياة جديدة تخلو من الزيف والنفاق والأكاذيب ، عالم اعظم ما فيه أنه كلما ازدادت الصعوبات فيه حدة ازداد التمسك به والحرص عليه ، عالم حقيقى تروى شجرته دماء الشهداء جيلا إثر جيل ، وليس عالما وهميا تشيده شعارات الأفاقين وأغنيات المنافقين وادعاءات العملاء* » .

نهض حازم وسار فى اتجاهه فعاد إلى مكتبه وأشار إليه بالجلوس ، قدم حازم الورقة إليه قبل أن يجلس قائلا :

- لم يبق سوى التوقيت .

أمسك خالد بالورقة فى يده مستفسرا :

- والتعليمات ، هل حفظتها تماما ؟

أجاب حازم بثقة مشيرا إلى رأسه :

- كل شئ واضح تماما .

أخذ خالد يمزق الورقة قطعا صغيرة احتفظ بها فى يده وهو يقول :

- على عناصر الاستطلاع الثابتة أن تحتل مواقعها فى المقاهى الثلاث المحددة قبل الماتش بساعة على الأقل ، أي حوالى السابعة ، وعلى عناصر الاستطلاع المتحركة أن تتواجد فى نحو التاسعة ، وينبغى أن تكون فى أوضاع تسمح لها بالرؤية الكاملة حتى تؤدى دورها فى الإنذار المبكر فى وقت مناسب ، أما مجموعات الاعتراض والحماية فتدخل المنطقة فى هوجة نهاية الماتش المتوقع أن تكون بين التاسعة والنصف والعاشرة .

صمت لحظة ثم سأل :

- أى استفسار ؟

أجاب حازم :

- ماذا لو انقطع التيار ؟

قال خالد :

- يكون أفضل ، وعلى كل تحتفظ المقاهى المختارة بكلوبات للإضاءة وهى كافية .

عقب حازم :

- الآن نحن جاهزون تماما .

قال خالد وكأنه تذكر :

- هناك نقطة أخيرة ، إذا تيسر الحصول على قنابل فلتكن مع مجموعة الحماية ولا تستخدم إلا فى حالة الضرورة .

صمت حازم وكأنما فوجئ ، فأضاف خالد باقتناع :

- برغم رأيى الذى تعرفه فى جهاز الأمن فإن المشكلة ليست مع الأفراد وإنما مع القيادات ، وهى للأسف لا تنزل الشارع فى

العمليات أبدا .

ما كاد حازم يخرج حتى دخل الحمام الملحق بالمكتب فألقى مزق الورق الصغيرة في المرحاض وهو يشد ذراع صندوق الطرد ثم غسل بعناية يديه ووجهه ، وعاد إلى مكتبه وأخذ نفسا عميقا أحس بعده بقدر كبير من الراحة ، الآن دارت العجلة . وقعت عيناه صدفة على الساعة المعلقة على الجدار فى مواجهة المكتب فأخذ يتأملها بدقة كما لو لم تكن فى مكانها منذ أكثر من عام ، قال لنفسه « *هذه الرشوة الصغيرة لا تخلو من جمال* » تذكر باسما العبارات الجميلة التى قالها مدير رعاية الشباب بالجامعة له : « *تقديرا لدورك الجليل فى بناء شباب هذا الجيل* » ، واستغرق للحظة وهو يحاول أن يتذكر العبارات المماثلة التى قالها الرجل وهو يقدم الهدايا المتفاوتة القيمة لكبار المسئولين بالجامعة ، ولما لم يفلح قال : « *لا أهمية للكلمات مادام المعنى واحدا* » .

آن أوان الأعمال المؤجلة ، أمسك بسماعة التليفون وطلب الرقم ، ليس فى وسعه أن يذهب من غير أن يرى أخاه ، دق الجرس فى الجانب الآخر دون أن يستجيب أحد « *لابد أن عامل التليفون كالعادة مشغول ببيع المذكرات للطلاب* » أدركه الضجر بعد أن ظلت السماعة فى يده فترة طويلة دون فائدة فأغلق الخط وحاول من جديد فازداد ضجرا ، رد السماعة وقد استبد به الغيظ « *لو كان هذا العامل تحت قيادتى لوضعته فى السجن* » نهض مكفهر الوجه من خلف المكتب وسار فى اتجاه الباب ، فتحه ببطء وتقدم بضع خطوات فرآه الجنود الجالسون فى الحجرات المجاورة فنهضوا وأدوا التحية العسكرية ثم غابوا داخل حجراتهم بحيث لا يقع بصره عليهم ، تقدم بضع خطوات أخرى ثم استدار يمينا وتوقف مستطلعا ، الآن ساحة التدريب بكاملها أمامه ، مازالت صفوف الطلاب تواصل حركاتها العسكرية وقد دب فيها شئ من اليقظة المفاجئة ، أيقن أن المعلمين قد أدركوا أنه خرج لتفقدهم ، لم يتقدم بل ظل واقفا فى مكانه وشمس الظهيرة ترسل وهجها الحارق مصحوبا برطوبة خانقة ، قال لنفسه : « *ما الفائدة ؟ حتى لو أصبحوا شعلة من نشاط فما الفائدة ؟*

إنها أيام ثم يصبح التدريب كله مجرد ذكرى باهتة سرعان ما يطويها النسيان القتال عقيدة عمادها الإيمان والاقتناع ، وخبرة روحها الدربة والوعى ، لا عقيدة ولا خبرة فما الفائدة ؟ » ، رويدا رويدا لانت أساريره وبدت القسمات أكثر رقة بعد أن أزهرت فى الأعماق بذرة أمل *« ألم يكن حازم ورفاقه من هؤلاء ؟ من يدرى ربما يستطيع أن يشيد ببعضهم لبنات فى البناء الجديد »* .

أخرجه من تأمله صوت جرس التليفون الذى بدا - لفرط بعده - كما لو كان مجرد صدى للرغبة الراقدة فى الأعماق فأرهف أذنيه دون أن يتحرك ، حتى جاءه الجندى العجوز قائلا :

- تليفون يا فندم .

مضى بخطواته العسكرية السريعة إلى حجرته ، وأغلق بقدمه الباب ثم التقط السماعة وهو يستدير خلف المكتب ، أتاه الصوت صارخا قبل أن ينبس :

- ما حكايتك ؟ أين أنت ؟

إنه هو ... الصوت الذى ينتظره ، حتى لو لم ينطق بحرف كان بوسعه أن يعرفه ، ليست نبرة الصوت التى يألفها ولا الكلمات التى يعرفها ، بل شئ لا يستطيع له وصفا أو تفسيرا

صاح وقد هزه الشوق :

- بل أين أنت ؟ لقد حاولت الاتصال بك فى الكلية دون جدوى .

قال مقاطعا :

- اسمع ، هبة اشتاقت لرؤية عمها وقررت أن تتغدى معنا اليوم .

رد كالمعتذر :

- قبلها لى ، سأحضر لأراها لكن لن أتمكن من الغداء .

قال بحسم :

- **لاأريد أعذارا ، ستحضر على الغداء ، هذا قرارها .**

أجاب بتردد :

- **واترك ماما وحدها .**

رد ضاحكا :

- **لن تكون وحدها فهى الآن تساعد هبة فى عمل السلطة .**

صاح وقد حدثته نفسه بأن شيئا غير عادى فى الجانب الآخر :

- **ارجو أن لاتكون هناك مؤامرة .**

أتته عبر السماعة القهقهة الفياضة بالسعادة وهى تغمغم :

- **تستطيع إذا لم تعجبك المؤامرة أن تنسحب فى الوقت المناسب .**

رد وقد عدته السعادة بيد أنها - للعجب - مشفوعة بالقلق :

- **أنت تعلم أنى لاأعرف الانسحاب .**

واصل القهقهة حتى صكت الآذان وهو يعقب :

- **ارجو ألا تكون أكبر منسحب فى التاريخ .**

وصلته الرسالة وصار الآن على يقين مما يحدث فى شقة خيرى فى الهرم ، إنهم يعدون له مفاجأة على طريقتهم الخاصة ، قال لنفسه : « ***الأمر يتعلق بعروس جديدة بالتأكيد*** » إنهم قلقون من بقائه حتى الآن دون زواج ، وقد ازداد قلقهم فى الفترة الأخيرة منذ صمت عن الكلام فى هذا الموضوع ، وتجاوز الصمت إلى قطع كل العلاقات وتجنب جميع الصلات ، لقد كان - فى المرحلة السابقة - يعرف كثيرات ، يتصلن به ويتصل بهن ، وحين كانت أمه تلومه كان يقبلها ويقول : « **أمى ، إنى اختار عروسا منهن** » ، وحين كانت تلح عليه فى الاختيار كان يقول : « **الاختيار صعب ، إنها رفقة العمر كله** » ، لكنه فى الآونة الأخيرة لم يعد يهتم بالنساء ،

وبرغم حرص شقيقه بعد أن تزوج على أن يعرفه بفتيات مناسبات ، سواء من قريبات زوجته أو من تلميذاته ، فإنه أمعن فى الرفض ، وحين اعترض أخوه على موقفه فى آخر مرة عرض عليه فيها عروسا تبدو - بكل المقاييس - رائعة ، وأبى مع ذلك مجرد رؤيتها ، وطلب منه معرفة الأسباب لم يستطع أن يقدم له تبريرا معقولا « *ماذا بوسعك أن تقول ، هل تستطيع أن تعترف لهم بأنك قد اخترت بالفعل طريق الشوك الدامى والجمر المتقد والجراح النافذة ، أى زواج يمكن أن يتم الآن ولاأمان* » ، لكنه برغم كل شيئ لايستطيع أن يمضى الليلة فى طريقه دون أن يرى أخاه .

دق الجرس واستدعى السائق وقال له :

- أضف إلى خط السير الهرم .

ثم استطرد وقد رأى نظرة استطلاع فى عينيه :

- سنمر على الدكتور خيرى أولا قبل أن نعود إلى البيت .

سأل السائق :

- متى نتحرك ؟

فأجاب بعد أن ألقى نظرة على ساعته :

- بعد نصف ساعة .

شغل نفسه فى الفترة الباقية له فى المكتب بفحص كل شيئ للمرة الثانية ، وتأكد من أنه لاتوجد قصاصة لايريدها ، ولاورقة فى غير موضعها ، وتصفح من جديد أجندة التليفونات التى على المكتب صفحة صفحة ، وتوقف عند بعض الأسماء التى لم يتذكر أصحابها ، فقال لنفسه : « *لعلهم زوار عابرون لم تتوثق بهم صلة* » لكنه وجد أن شطب أى اسم قد يثير شبهة لامبرر لها ، وفكر فى أنه يجب بدلا من ذلك أن يعمل أجندة جديدة إذا اتسع الوقت ، وأغلق كعادته أدراج المكتب بالمفتاح ، ثم فتح باب الحجرة وألقى نظرة على السيارة ، كانت جاهزة على بعد خطوات وقد وقف السائق

مستعدا إلى جوارها ليفتح له الباب الخلفى الأيمن . وماكادت السيارة تتحرك حتى انصرف بصره إلى تتبع اللافتات والإعلانات والصور . امتعض وهو يقول لنفسه : « *نفس الكلمات والعبارات ، الايوجد لديكم شيئ خاص يليق بالجامعة* » وما أن اقترب من مبنى إدارة الجامعة حتى تعلق نظره بصورة ضخمة أوشكت أن تغطى الواجهة ، أدار رأسه ليراها والسيارة تمضى فى طريقها متجاوزة المبنى ، كانت - ربما بسبب مساحتها الكبيرة - تخلو من الدقة والتناسب ، ابتسم وهو يقول : « *لكنها تؤدى الغرض المطلوب على أى حال ،* » وتذكر ماكان مثارا بين وكلاء الجامعة من منافسة على خلافة الرئيس الذى أوشك على بلوغ سن المعاش ، اتسعت الابتسامة على وجهه وكأنما أغرق فى الضحك دون أن يسمع له صوت حين هجس له خاطر : « *من يدرى ؟ ربما يجدد له عام آخر أو عامان* » .

قال للسائق والسيارة تدخل ببطء ميدان الجيزة :

- مل بنا إلى محل حلويات لنأخذ شيئا .

قال السائق لنفسه : « *القول سهل ولكن المهم الفعل* » وتردد بصره يمينا ويسارا ، كما حدّق فى المرآة التى أمامه ليرى ماخلفه ، فأدرك أنه محشور تماما وسط خضم من السيارات التى تمضى فى بطء قاتل وكأنها حلقات فى سلاسل متتابعة لاتنفصم ، بحيث يستحيل تغيير المسار أو الوقوف .

قال خالد وكأنما أدرك مايجول بخاطره :

- لامكان للوقوف هنا كما ترى ، فليكن بعد أن نعبر النفق .

تمتم السائق كأنما يحدث نفسه :

- هذا إن عبرناه اليوم .

فصاح خالد وقد لاحظ تبرم السائق :

- ماذا تقول ؟

رد السائق وقد أخذ متلبسا :

- كنت أرجو ألا تكون المجارى طافحة فى النفق حتى لاتتعطل .

وعقب خالد وهو يبتسم :

- اطمئن ، إن لم تكن ماسورة المجارى ستكون ماسورة المياه .

استرد السائق أنفاسه وقد أيقن أن قائده يشاركه الرأى ، وقال برضى :

- الأمر لله .

فأمره قائده بحسم وقد لاحظ أنه يجازف بحركة غير محسوبة :

- حاسب وأنت تتقدم ، لاأريد أن تقف السيارة وسط المياه وإلا حملتنى على ظهرك .

مضى السائق يخوض النفق فى حذر مضاعف ، فلم تكن المياه وحدها التى يخشاها ، بل الضباب الكثيف الذى أحدثه عادم السيارات حتى أوشكت الرؤية أن تتعذر ، ولكنه استطاع فى النهاية أن يجتاز النفق وأن يستوى على الطريق .

قال السائق وهو يتجه ليقف أمام محل فاخر الديكورات وقد سطعت واجهته الزجاجية الملونة فى ضوء الشمس فبدا تحفة تأخذ بالألباب :

- الحمد لله .

فتداركه خالد قبل أن يقف تماما بقوله :

- امض فى طريقك .

وقال لنفسه ساخرا : « *هذا الجندى يحسن بقائده الظن ، هذه المحلات ليست يابنى لأمثالنا ، وإنما هى للطبقة الجديدة التى ترتع فى حماية سيادة القانون* » . وبعد فترة أمره بالوقوف أمام محل بقالة ، ثم نزل واشترى علبة شيكولاته صغيرة دفع فيها نصف مافى جيبه ، آملا ألا يضطر إلى سلفة ثانية خلال أيام .

عند مبنى المحافظة الذى بدا شديد النظافة بعد أن أعيد طلاؤه وارتفعت حوله الأعلام والصور واللافتات التى أحس بأنها غير متناسقة فى ألوانها وأحجامها شأنها شأن كثير مما رآه قبلها عرّج السائق يمينا متجنبا المطبات التى صنعتها الحفر الممتدة على غير نظام ، وبعد بضعة أمتار انحرف يسارا فصار خلف مبنى المحافظة تماما ، حاول أن يجد مكانا جافا من المياه الراكدة ليقف فيه فلم يفلح ، فقال لقائده معتذرا وهو يقف على الرصيف :

– لامؤاخذة يافندم ، الشارع ملآن بالمياه .

فقال خالد وهو ينزل محترسا :

– لاتتحرك حتى أعود .

وارتفع بصره بعفوية إلى النافذة المغلقة الزجاج الواقعة فى الطابق الثانى فأحس أن شخصا ينظر من خلال الستارة المسدلة . دخل المنزل وأصابع يده اليسرى تقبض على علبة الشيكولاته وقد شغلت يده اليمنى بتجفيف عرقه الذى سال ، وماكاد يصل إلى الدور الثانى حتى وجد الباب مفتوحا وقد وقف أخوه فى انتظاره مادا ذراعيه وهو يصيح :

– ياأخى متنا من الجوع .

تعانقا ، لايدريان لماذا ؟ وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى يفعلان فيها ذلك من زمن بعيد ، إذ إنهما يكتفيان عادة بالمصافحة ، وأحيانا لايحسان حتى بحاجتهما إليها ، إنهما يتبادلان مشاعرهما كما يتبادلان أفكارهما ، بلغة خاصة تعتمد أكثر ما تعتمد على التأمل ، وتقوم العيون فيها بنقل الأفكار دون حاجة إلى الإسراف فى الكلمات حتى كأن لديهما شفرة خاصة لايستطيع غيرهما أن يشاركهما فيها .

التقت عينا خالد وهو فى حضن أخيه بعينى أمه التى كانت جالسة على الأريكة فى الأنتريه وقد وضعت حفيدتها « هبة » على رجليها فابتسمت ، فسارع إليها يقبل رأسها باسطا ذراعيه ليحمل الصغيرة ذات الشهرين فحالت أمه بينه وبينها وقالت

بحنان :

- دعها فإنها نائمة .

همَّ بتقبيلها فمنعته وهى تقول :

- لاتوقظها .

التفت إلى خيرى وسأله وهو يهم بالجلوس إلى جوار أمه :

- أين هالة ؟

رد بابتسامة ذات معنى وهو يجلس إلى جواره :

- تعد الطعام .

ثم مال عليه وهمس :

- ستقدم لك اليوم وجبة فاخرة .

ضحك خالد بسعادة وهو يشير إلى أمه قائلا :

- لاأعدل بطعامها طعاما .

عقب خيرى محذرا :

- سأبلغ هالة .

فرد بضراعة كأنما استبد به الخوف فبدا مضحكا :

- أرجوك ، كله إلا هذا .

جاء صوت هالة مغرقا فى الضحك وهى مقبلة :

- ماذا تبلغنى ياخيرى .

وتقدمت لتحييه ، ومن خلفها فتاة بدت له - لأول وهلة - أشبه بالحلم : طيف باسم يسير الهوينا فواحا بالعبير ، وكأنما تطير ، قدمته هالة إليها قائلة :

- المقدم خالد أخو زوجى .

قالت وعيناها تطوفان به فى لمحة :

– أهلا خالد بك .

والتفتت زوجة أخيه إليه وقالت :

– الآنسة سلوى محسن ، زميلتى ، معيدة فى الكلية .

غمغم ولم يفصح ، ونظر إلى أخيه لائما فأدرك حاجته إلى النجدة بعد أن أوشك على الغرق فى لجّة خجل غير مفهوم ، فقال :

– الطعام ياهالة .

قالت وقد أدركت حرج الموقف :

– جاهز ، تفضلوا .

قال خيرى لنفسه وهو يغرى ضيوفه بالطعام : « *ماذا أصابك ياخالد ؟ إنى حقا لاأستطيع أن أفهمك الآن ، لقد كنت حتى فترة قريبة تحب البنات وتطاردهن وتستمتع حتى برفضهن ، فما الذى حوّلك حتى صرت لاتأبه بهن وترفض حتى مجرد النظر إليهن ، إن تحويلك من المدرعات ليس نهاية الدنيا ، وبناء الأسرة الخطوة الأولى فى وضعك على طريق الاستقرار الصحيح ، وهذه مهمتى شئت أو أبيت ، فلن أدعك حتى تتزوج* » .

وقال خالد لنفسه وهو يتظاهر بتناول الطعام : « *لقد تجاوزت هذه المرة ياخيرى ، أنت تضعنى فى موقف بالغ الحرج وتضع نفسك أيضا ، لقد اعتذرت من قبل عن أى لقاء فلم لاتدرك أنى لست مستعدا لأى ارتباط ، كيف أرتبط والظهر مكشوف وخوض بحار الدم متوقع فى كل لحظة* » .

وقالت هالة لنفسها وهى تشجع خالد على التذوّق : « *ماهذا الخجل*

ياخالد ؟ منذ متى وأنت كالعذراء فى الأساطير القديمة ، انظر إلى وجهها الملائكى لتعرف انى أهديك تحفة نادرة ، وستدرك حين تعرف إمكانيات أبيها أننى أحسنت لك الاختيار » وقالت وهى تمد سلوى بالمزيد : « أرأيت ؟ إنه استثناء من الضباط ذوقا وحياء ورقة وأدبا ، وسيزداد تقديرك له بعد أن تألفيه : إيثارا ورجولة وشهامة ونبلا » .

وقالت سلوى لنفسها وهى تتذوق قطعة صغيرة من البفتيك : « شكله رائع ، عيناه ساحرتان ، فيه كبرياء الرجولة الناضجة ورقة العاشق المدنف ، لكن ماذا وراء هذا الشكل ؟ ماذا فى داخلك ؟ هلا أعطيتنى فرصة لأعرف » .

قالت الوالدة وهى تهدهد الصغيرة دون أن تمس طعاما : « ربنا يهديك ، لقد تعبت من القلق عليك ، أريد أن أطمئن ، يستبد بى الشوق إلى أن أرى لك طفلا يحمل ملامحك ، وبرغم كل شيئ فإن قلبى واثق من أنك مهما طال بك الزمن ستحسن الاختيار » .

قال خيرى محتجا بعد أن لاحظ أن ضيوفه يهمّون بمغادرة المائدة :

- ماهذا ؟ ، أنتم لم تأكلوا شيئا ، ليس الطعام رديئا إلى هذا الحد .

وأغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه ، فرشقته هالة بنظرة مؤنبة واستدركت :

- إنهم حتى لم يلحقوا أن يتذوقوا حتى يحكموا .

ردت سلوى بابتسامة عذبة وقد فاجأها الحديث :

- الطعام رائع ، سلمت يداك .

أضاف خالد وهو ينظر إلى أخيه بإمعان :

- لاينكر براعة هالة إلا جاحد .

فرد خيرى بعجلة :

– إذن كل ولاتعرضنى للمشاكل .

أجاب خالد مطمئنا إلى أنه تجاوز مرحلة الدفاع :

– لامجال لمزيد ، إلينا بالشاى .

فى الوقت الذى صحبت فيه هالة ضيفتها إلى المطبخ مستجيبة لإلحاحها فى مساعدتها فى صنع الشاى ، ومحققة فى الحقيقة رغبتهما المشتركة فى تبادل الرأى حول الانطباع الأول للقاء ، كان خيرى يقود أخاه إلى حجرة الصغيرة « هبة » التى كانت أصلا حجرة لمكتبه لكن بعد تشريفها آثرها بالضرورة على نفسه قائلا : « *ليس لمثلى من علماء الرياضيات أن يتطلعوا إلى أن يكون لهم حجرة مكتب خاصة ، هذا ترف لايقدرون عليه* » .

قال خيرى مستكشفا الانطباع الأول :

– هيه . . . . مارأيك ؟

أجاب خالد متظاهرا بعدم الفهم :

– فيم ؟

قال خيرى مقطبا وقد أنذرته البداية بدلالة غير مشجعة :

– فى العروس .

رد خالد بهدوء :

– لم أرها .

قاطعه خيرى مستنكرا :

– كانت أمامك طول الوقت .

قال خالد بهدوء :

– ومع ذلك لم أر ها .

رد خيرى مستسلما :

– ثمة غشاوة على عينيك .

فقال خالد بيقين :

– إن بصرى اليوم حديد .

أكمل خيرى وكأنه لم يسمع :

– ولن أستريح حتى أزيل هذه الغشاوة .

أدرك الأخوان أن المناقشة لم تصل إلى نهايتها بعد . وأنهما فى حاجة إلى جولة أخرى ليس هذا مكانها ولازمانها ، لذلك ماكادت تقبل هالة ومن خلفها سلوى بالشاى وقد انبسطت منهما الأسارير حتى بادر خيرى زوجته وكأنه يعتذر .

– هالة أحسن من يصنع الشاى .

فرد خالد محرضا هالة على زوجها :

– فقط ؟ إنك بهذا تظلمها كثيرا .

قاطعته هالة ضاحكة وكأنما أدركت اللعبة :

– أعرف مقالبك ولكن لن أسمح لك أن تحقق غرضك هذه المرة .

غادر خالد شقة أخيه بعد أن وافق على أن تظل الوالدة فترة هناك حتى تشبع من رؤية حفيدتها ، واتجه عائدا إلى شقته فى المهندسين ، فوجد نفسه يتابع – دون قصد أول الأمر – الوجود الأمنى فى الشارع ، ومالبث بعد فترة أن أدرك أن القوات قد ازدادت عن فترة الصباح حجما ونوعا ، فلم تعد القوات التقليدية المختصة بالشغب المسلحة بالعصى بل أضيف إليها قوات خاصة مسلحة بالأسلحة الأوتوماتيكية ومحمولة على عربات مدرعة ، تساءل بينه وبين نفسه « من سيقاتلون ؟ » ثم قال وقد أعياه البحث عن إجابة : « إن الأمر أشبه بالاحتلال » وماكاد يصل بعد عناء إلى منزله حتى كان على يقين من أن المنطقة التى مر بها محتلة تماما .

قال لنفسه وهو يغتسل مستعيدا فى ذهنه حجم القوات التى رآها : « *لو كانت القوات منتشرة بهذا المعدل فى أرجاء المدينة كلها لتجاوز حجمها خمسين ألفا منهم عشرون من المشاة الميكانيكية على الأقل* » ومالبث أن استغرقه الموضوع تماما حتى أنه أخطأ فى عدد الركعات التى صلاها ، ولما ألحت عليه الرغبة فى تصور تقدير صحيح قال : « *الأمر يحتاج إلى جولة على الطبيعة ، فليكن ، ولنصل إلى مصر الجديدة عن طريق حلوان* » .

* * *

حين أشرفت جولته على نهايتها وهو يركن سيارته الصغيرة أمام جروبى مصر الجديدة لم تعد المسألة التى تشغله حجم القوات أو تسليحها ، ولكن العقلية تدفع بكل هذه القوات إلى الشوارع ، ماهدفها بالضبط ؟ إن من المؤكد أن هدفها ليس تحقيق الانضباط الأمنى ، لأن ضخامة حجم القوات يعوق سهولة حركتها لتحقيق أى انضباط أمنى . فهل الهدف مجرد الإرهاب باستعراض حجم القوات ونوعها وتسليحها ، وإذا كان الأمر كذلك فإرهاب من ؟ إن التنظيمات القادرة على الحركة لا تعبأ بالاستعراضات ، لأنها تعرف أين تضرب ، وكيف ، ومتى . لم يبق إلا أن يكون الهدف إرهاب الناس العاديين الذين تطحنهم الأيام بين حجرى الرحى : قسوة العيش وقسوة الحكومة . قال لنفسه وقد أراحه هذا التحليل : « *ليست المشكلة إذن فى القوة الضاربة ، المشكلة الحقيقية فى مركز القيادة الذى يوجه هذه القوة الضاربة* » وتابع لنفسه وهو يطلب فنجانا من القهوة : « *السيطرة على القيادة مفتاح الموقف كله* » .

شرب القهوة وهو يتابع من موقعه فى الشرفة مواكب النصر الضخمة لجمهور الفريق الذى فاز فى مباراة الكرة هذا المساء - ورأى كيف اشتد الحماس بالناس واستبد بهم الانفعال وهم يلوحون بالأعلام الملونة ويهتفون بأصوات كالزئير وكأنما يحيون نصرا أسطوريا لايجحد ، هزته مظاهر الفرح الصادق غير المفتعل الذى اتسمت

به الوجوه واتصفت به نظرات العيون ووجدها بالفعل مسألة تستحق التأمل ، فهل هى تعبير عن الرغبة فى تحقيق نصر فى أى مجال بعد أن عزّ النصر وحل الاستسلام وشاعت فى النفس هزيمة بلا حدود ، أو هى نوع من المخدّر الذى يسرّى عن الذات حتى لاتفيق لمواجهة الواقع كالأفيون الذى تمتصه الأفواه المضناة التى أقعدها الأعياء وأذلها اليأس ؟ هل هى مظهر للرغبة فى شيئ يقع أو نوع من التعزية عما قد وقع ؟ هل هى رقصة تحلم بالأمل أم رعشة تصدر عن الألم ؟ هل هى حركة الحى أم انتفاضة الذبيح ؟ طال به التفكير دون أن ينتهى إلى رأى ، وقال وهو يغادر المكان بعد أن نظر إلى ساعته وأدرك أن الوقت قد اقترب : *« أيا كان الدافع فثمة ملمح إيجابى لاينبغى إغفاله ، إن الناس فى حاجة إلى قضية تجمعهم وتنتظم جهودهم ، ولو استطعنا أن نجمعهم على قضيتنا كما تجمعهم الكرة لحققنا بالفعل نصرا تاريخيا مؤزرا لايملك أن يجحده أحد ، لكن كيف ؟ هذا هو التحدى الحقيقى ؟ »* .

✍ ✍ ✍

الفصل الخامس

. . . أو السقوط عدما

لما استيقظ « فكرى » من النوم القلق الذى مارسه بحكم العادة وحدها قبيل المغرب ، لم يكن قد تهيأ نفسيا بعد للاجتماع بالرغم من معرفته بموعده من مسئول الاتصال منذ بضع ساعات ، وكان يؤثر بينه وبين نفسه أن لو تم تأجيله فى الفترة الحالية على الأقل ، ولم يكن ما يشغله يقينه بخطورة الاجتماع فى الظروف الأمنية الحالية وإنما إحساسه بأن هنالك ماهو أخطر من الظروف الأمنية ، إذ إن التهديد الأمنى أمر دائم بالنسبة للتنظيم ، وقد تأقلم الأعضاء على العمل فى ظله ، فضلا عن أنه عامل خارجى قد يكون داعيا – فى بعض الأحيان – إلى زيادة التماسك الداخلى ، ولكن الخطر الحقيقى الذى يخشاه يتمثل فى الحالة الفكرية لقيادات التنظيم نفسها ، فإن هذه القيادات برغم كل خطط التثقيف الموضوعة لم تصل إلى الحد الضرورى اللازم لوحدة الرؤية ، إنها بالتأكيد لاينقصها الإيمان ولا الإخلاص ولا الحماس ، لكن ينقصها التصور الواضح للخط الذى ينبغى أن يسلكه التنظيم فكريا فى مواجهة الحرب التى

تقودها السلطة ضده بضراوة ، وأزعجه كثيرا ما لاحظه أثناء بعض جلسات التثقيف فى المرحلة السابقة من ميل عدد من الأعضاء القياديين إلى التسرع فى إصدار الأحكام دون تثبت من المقدمات ، والميل إلى التعميم من غير وعى بالظروف وما يصحبها من فروق موضوعية . وقد امتدت بعض الأحكام المتسرعة إلى جوانب تتسم بالخطورة ، بما ترتب عليها من خلاف فى تفسير بعض القرارات والمواقف ، الأمر الذى رأى معه - بالاتفاق مع الأخ الأكبر - ضرورة وضع برنامج تثقيفى عاجل لتحليل موقف التنظيم من القضايا المطروحة حتى تلم بها القيادات والعناصر ، لكن بقيت مع ذلك مسألة ملحة ، وهى ضرورة بناء المقدرة الذاتية للأعضاء القياديين على الأقل على الرؤية الصحيحة والتحليل الدقيق ، وهى مقدرة لا يتيسر تحقيقها بنشرات التثقيف السرية غير الدورية التى يصدرها باعتباره المسئول الفكرى فى التنظيم ليتبادلها الأعضاء ، وإنما من خلال المناقشات الحية فى أثناء الجلسات نفسها . وقد تعرضت هذه الجلسات منذ فترة للتعثر نظرا للملاحقات الأمنية المستمرة ، الأمر الذى يعطل نمو البناء الفكرى للتنظيم بما يعنيه ذلك من خطر انزلاق بعض القيادات نفسها فى تيار التسرع والتعميم ، الذى أخذت موجته تتسع إثر الضربات الأمنية المتتابعة لعناصر كثيرة فى الجماعة .

قال لنفسه وهو يختم صلاة المغرب قبل أن يطلب من زوجته فنجانا من القهوة : « *ربنا يستر* » ، وفى الفترة التى كان ينتظرها أعاد التفكير مرة بعد مرة فى الموضوعات التى يحتمل إثارتها فى الاجتماع : « *بالتأكيد سيكون الموقف الحالى هو الإطار العام للمناقشات لكن من أى ناحية ؟ واضح أن حركة الاعتقالات الواسعة تنذر باحتمالات أن يكون الهدف تصفية التنظيم أو على الأقل ضرب عناصره الفعالة ، فكيف تكون مواجهة هذا الموقف ؟* » أخذ يتصور الآراء المحتملة بما يعرفه عن أعضاء القيادة العليا ، لكنه لم يجد لهذا التصور فائدة كبيرة برغم ما بذله فيه من جهد ، فقال : « *أليس الأولى أن أحدد أنا موقفى قبل أن أحاول تصور مواقف الآخرين* » ثم أضاف : « *ويجب قبل كل شيئ تهيئة البيت لكل الاحتمالات* » .

قال لزوجته بعد أن أحضرت له فنجان القهوة .

- **اجلسى فأنا أريد أن أتحدث معك .**

ردت بسرعة حتى تختصر الوقت

- **لا وقت عندى ، الماتش بدأ وأريد أن أتفرج ، فلا تشغلنى .**

قال وقد ظهر على وجهه شيئ من الضيق .

- **اجلسى فالأمر مهم .**

جلست قلقة فى مواجهته وذهنها مشدود إلى صوت التليفزيون المنبعث من الصالة ، فمد يده وأخذ فنجان القهوة ورشف ببطء رشفة صغيرة قال على أثرها وكأنه يسترضيها :

- **ممتازة .**

علت وجهها ملامح سخط مكبوت : *« لم يبق إلا هذا ؟ ألم يكفه أن حرمنى من الخروج للعمل وفرض على هذا السجن حتى يحرمنى من متعة التفرج على الماتش ليتحدث عن فنجان القهوة » .*

تحدث طويلا عن أن قيمة الإنسان الحقة فيما يؤمن به ، وأن قيمة الإيمان تتجلى فى العمل ، وأن ذلك لا يتضح إلا وقت الأزمات ، فالإنسان بعيدا عن الأزمة كلاعب لم يختبر ولم تكتشف مواهبه وطبيعته ، فإذا دخل الأزمة ظهر معدنه وتبينت حقيقته وتأكدت مقدرته ، وهكذا يكون فى الأزمة - برغم مايصحبها من عذاب - خير كثير . وألمح إلى أن الوقت قد جاء ليدخل البيت فى أزمة لم يسع إليها ، ولكن قد تمسه بعض آثارها ، وهو يريد للبيت أن يصمد بصلابة ، ويطلب منها لذلك ألا تضعف أو تنهار . كان ذهنها طوال الوقت خارج الحجرة يتابع بوله العاشق مذيع المباراة وهو يصرخ من وقت لآخر ، وأحست كما لو كانت فى جلسة تعذيب لا يبدو لها نهاية ، وتصاعد إحساسها وهى تندمج فى الصوت التليفزيونى وعضها الشوق إلى رؤية الصورة . لم يلحظ لاستغراقه الكامل أنها فى عالم آخر ، وحين سألها بعد أن انتهى من الحديث : **« هل الموقف واضح »**

أجابت بالإيجاب لتنهي المناقشة ، وحين رغب في إعادة تأكيد بعض النقاط التي رأى أهميتها لم تتمالك نفسها وقد استبد بها الشوق عقب سماع ضجة هائلة صادرة من التليفزيون تنبئ عن لعبة مثيرة ، فقالت بغيظ :

- ياأخي خلاص ، ارحمني .

نظر إليها وقد فاجأه ارتفاع صوتها ، فلحظ تغير وجهها وحدة نظرتها وارتعاش شفتيها ، فأدرك أنها بمعزل عن كل ماهو فيه ، فقال لنفسه بأسى وهو يهم بارتداء ملابسه : « *هذه خطيئتي وحدي ، أنا المسئول عن عدم إحساني الاختيار منذ البداية* » .

لم يغفل بعد أن ارتدى بدلته الصيفية الجديدة أن يلقى نظرة على المرآة ، حملت صفحتها إليه شكلا وسيما أنيقا زاده الطول الفارع واللحية الصغيرة الدقيقة المحيطة بالذقن جاذبية ، فتسللت إلى الأعماق لمحة ارتياح أوشكت أن تلين معها نظرة التكدر في عينيه وصرامة التجهم على وجهه ، وامتدت يده تلقائيا إلى زجاجة العطر الفرنسي الفاخر التي أهدتها إليه إحدى عميلات مكتبه بعد أن كسب لها قضيتها فرشّ منها بخفة وجهه ورقبته : « *الآن أنت جاهز للذهاب إلى المكتب ، وعسى أن تتمكن هناك من التفكير بهدوء في الموقف حتى تستطيع أن تكون جاهزا للاجتماع* » .

خرج من الحجرة تسبقه الرائحة الفواحة المعهودة ، لم تعن زوجته بالنظر إليه لاستغراقها في المباراة ، فألقى التحية بصوت خفيض دون اهتمام بإسماعها ، وكأنما يؤدى واجبا على الرغم منه ، وحين اصطك الباب خلفه بصوت مسموع تنفس كلاهما بارتياح .

ما كاد يخرج من باب العمارة الواقعة في بقعة نائية من مدينة نصر حتى سارع إليه بواب العمارة المجاورة محييا ، وسبقه إلى السيارة لتنظيفها على غير عادته في هذا الوقت من اليوم ، وما أن جلس داخلها وبدأ تسخينها حتى مال عليه وقال :

- **لا مؤاخذة يادكتور ، الست نيفين تسأل حضرتك : ممكن تاخذها معك إلى شارع عباس العقاد ؟**

فوجئ بالطلب فسأل وكأنه يعطى نفسه فرصة للتفكير :

- **من نيفين ؟**

أجاب البواب مشيرا إلى سيدة تنتظر أمام المنزل المجاور ترتدى ملابس المضيفات :

- **الست مضيفة فى الطيران وعندها رحلة ولم تحضر سيارة الشركة .**

قال وكأنه لم يفرغ من التفكير :

- **ولم لا تأخذ تاكسى .**

رد البواب باستسلام وكأنما قدر خذلانه فى وساطته :

- **وأين التاكسى فى هذه المنطقة .**

قال فكرى وقد مال إلى اعتبارها حالة ضرورة تبيح له خرق عادته المطردة :

- **قل لها لامانع .**

ركبت إلى جانبه بعد أن حيّت بصوت رقيق لايكاد يسمع ، مبدية شكرها المقرون بأسفها على إزعاجه ، مظهرة تعجبها من اضطراب الأمور فى المنطقة كلما أقيمت مباراة فى الاستاد ، فعقب دون أن يفكر :

- **وحتى من غير مباراة ، للاضطراب أسباب كثيرة .**

سادت بينهما فترة صمت قبل أن تقطعها مستفسرة :

- **وسيادتك فى أى كلية ؟**

أجاب مبتسما :

- **ألا يكون السؤال أولا عن الجامعة ؟**

فردت وهى تدق بإصبعها الزجاج الأمامى للسيارة :

– **عرفت الجامعة من البادج .**

تبادلا بعد ذلك حديثا أليفا لاتوتر فيه ، وأعطاها بطاقته التى تحمل وظيفة مدرس فى قسم القانون المدنى بكلية الحقوق وعنوان مكتبه كمحام فى مصر الجديدة .

قالت بعد أن قرأت البطاقة :

– **إن صح ظنى فسيادتك الآن فى الطريق إلى المكتب .**

فلما أجاب بالإيجاب أستطردت :

– **أرجو ألا أضايقك أكثر إذا رجوت أن أنزل فى مصر الجديدة بدلا من عباس العقاد .**

وأضافت مفسرة من غير أن تنتظر رده :

– **فرصة الحصول على تاكسى هناك أفضل من هنا .**

فهز رأسه بالموافقة وهو يقول :

– **لا مضايقة على الإطلاق .**

اتصل الحديث بينهما وإن كان فى الحقيقة من طرف واحد ، إذ اكتفى هو فى معظم الأحيان بالإصغاء إلى كلامها الذى تجسدت فيه شكوى مريرة من ظروف العمل القاسية ، أغراها إصغاؤه بالحديث ، وأغراه حديثها بالإصغاء ، وامتدت بينهما للحظة أرض لما تطأها أقدام .

كررت شكرها وهى تطلب النزول فى ميدان تريمف بالقرب من مكتبه ، مؤكدة استعدادها للقيام بأى خدمة من لندن أو غيرها من البلاد التى تطير إليها ، تمتم شاكرا وهو يفتش بعينيه عن مكان يضع فيه سيارته وسط سيارات الأمن التى شغلت الشارع ، قالت برقة :

– **فلتأذن لى إذن بزيارة .**

فلما نظر إليها مستطلعا أضافت دون تردد :

– أولا للشكر ، وثانيا للاستشارة .

أجاب وهو يضغط الفرامل ليقف فى مساحة صغيرة بين سيارتين من سيارات الأمن المركزى :

– المكتب فى خدمتك فى أى وقت .

* * *

ماكاد يدخل مكتبه حتى طلب من السكرتير عدم شغله بأى شيئ لا بمقابلات ولا بتليفونات ، متعللا بأن لديه بحثا مهما يجب أن يتفرغ له تماما للحاجة العاجلة إليه ، واستقر عزمه على أن يخصص ماتبقى من وقت حتى موعد الاجتماع لتحديد موقفه من القضايا المحتمل إثارتها فيه ، ورأى وهو يغلق خلفه باب حجرته الخاصة أن يبدأ أولا بإعادة صياغة موقفه الفكرى فى مجموعة من المبادئ العامة التى تحدد إطار حركته ، وحركة التنظيم فى تصوره ، لأنه فى ضوء هذا التحديد يمكن الحكم على التطورات والوقائع المستجدة ، قائلا لنفسه وهو يجلس إلى مكتبه : « ***ليست التطورات والوقائع إلا أحداثا جزئية يجب أن تكون محكومة بالمبادئ العامة وحدها ، وإلا تحولت إلى مواقف انتهازية لاتخلو من تناقض*** » .

مد يده فأخذ ورقة صغيرة من الأوراق التى يسجل عليها ملحوظاته القانونية فى دراسته للقضايا ، وبدأ يفكر فى نقطة البداية الأساسية ، قال لنفسه : « ***لامجال مطلقا للتردد ، إن الهدف المباشر للتنظيم يجب أن يكون السعى للوصول إلى السلطة ، هذا حقه باعتباره قوة سياسية تسعى لإعادة صياغة المجتمع كله وفقا لرؤيتها وتطبيقا لمبادئها ، وذلك بعد أن تهرأ ودب الفساد فيه حتى النخاع*** » كتب فى الورقة بخط دقيق : « الوصول إلى السلطة » . وظل يفكر « ***الاستيلاء على السلطة ضرورة لتطهير المجتمع بعد أن تحولت السلطة القائمة فيه إلى أداة لإشاعة الفساد***

والانحراف » ، سطعت له وسط الكلمات الثلاث التى كتبها فى الورقة الصغيرة الصورة التى لم يستطع قط أن ينساها ، تجسدت بين يديه وأخذ يتفحصها من جديد وكأنما يراها لأول مرة حية مغرقة فى الدماء : الأعين المعصوبة والجسد العارى المقهور تتداوله السياط وتنهشه كلاب مدربة ، قال لنفسه : « ***الأهم توظيف السلطة ، فالسلطة ليست هدفا لذاتها وإنما لتحقيق غايات أجل وأسمى من مجرد التسلط*** » نظرت عيناه إلى الجسد المعلق من قدم واحدة بالأرجوحة التى تضربه بانتظام بجدران ملبئة بالمسامير ، وسمعت أذناه الصوت المرتاع الضارع للرحمة ، قال لنفسه وكأنما يحسم الأمر :

« ***لامجال للتراجع ، لابد من الاستيلاء على السلطة لرفع الجور وإشاعة العدل وتحرير البشر من الخوف واليأس والاعتراف الفعلى بكرامة الإنسان ، ذلك وحده كفيل بتفجير الطاقات الهائلة التى يمتلكها شعبنا ، وحشد قواه التى لاحدود لها لتطوير الحياة فى بلدنا ، وهى طاقات وقوى تهدرها السياسات القائمة لِتُمَكِّن الأعداء منه*** » .

أضاف تحت الكلمات الثلاث التى كتبها فى الورقة الصغيرة : « **وتوظيفها لتحرير الإنسان والمجتمع** » .

وضع القلم وأمسك بالورقة الصغيرة بين أصبعيه وراح يحدق فى صفوف الكتب المتراصة حوله وهو يتساءل : « **المشكلة الحقيقية فى الوسائل التى يجوز استخدامها للوصول إلى السلطة** » وضع الورقة ثانية أمامه على المكتب ونظر إليها بإمعان وقال لنفسه : « ***المفروض من قانونى أن يكون بعيدا عن التنظيمات السرية ، فالتنظيمات السرية عمل غير قانونى لبعدها عن رقابة المجتمع التى تحققها القوانين ، أليس وجود قانونى فى قلب تنظيم سرى نوعا من التناقض*** » تجلت لعينيه مرة أخرى صورة الجسد العارى

المقيد الذراعين والقدمين ، المشدود الظهر إلى آلة الزمن الدوارة بسرعة تتضاعف فجأة ، وتقف فجأة ، فيغيب الوعى مرة بعد مرة ، ويسقط فى بئر موحشة بلا قرار .

أمسك بالقلم وكتب : « **لا إرهاب فى مواجهة الإرهاب** » ، واستدار بكرسيه نصف دورة فواجه مكتبته القانونية وهو يقول لنفسه : « ***التعبير عن الرأى حق طبيعى للبشر لايملك نظام مصادرته ، وتعدد المواقف واختلافها حق طبيعى للقوى السياسية ليس لسلطة أن تلغيه ، فإذا حرمت سلطة البشر من ممارسة حقوقهم فهى سلطة جائرة لاحصانة لها ، وإذا سنّت قوانين تحرم حقا من الحقوق الطبيعية كانت قوانين إرهابية ساقطة بالضرورة ، وهى بذلك تفرض إرهابا يستعين بإمكانيات الدولة ، وليس لقانون أن يُجَرِّمَ رد فعل لامناص منه لمواجهة عسف السلطة وإرهابها*** » .

استدار إلى مكتبه وأضاف إلى الورقة : « **بل هو دفاع مشروع عن النفس** » .

أخذ يتحرك فى الحجرة جيئة وذهابا وهو يقول لنفسه كما لو كان يريد لها أن تطمئن : « ***كل الأساليب فى الدفاع المشروع عن النفس جائزة*** » ولكنه مع ذلك لم يحس براحة ، لقد خطر له خاطر : « **ضد من ؟** » قال لنفسه : « ***هذه هى المسألة*** » نظر من النافذة ورأى الميدان المتألق باللافتات والأضواء المسلطة على واجهات المبانى التى ازدانت بالصور ، بدا الناس وقد اختلطوا بجنود الأمن المركزى كما لو كانوا أسرابا دوارة فى خلايا نحل تتحرك فى كل اتجاه ، قال لنفسه : « ***الإرهاب الذى تتولاه السلطة يشترك فيه آلاف من الأفراد الذين تتفاوت مواقفهم حتى فى ممارسته ، وليس من العدل ولا من العقل أن يتساوى الجميع فى العقوبة لمجرد اشتراكهم فى جريمة واحدة*** » .

عاد إلى مكتبه وكتب : « **تصنيف القوة المضادة** » وضع القلم وتحرك فى

الحجرة من جديد ثم عاد إلى النافذة : « *إن الجندى قد يطلق الرصاص فيقتل ، هذا صحيح ، لكن العقل يأبى أن يفلت من المسئولية قائده الذى أصدر له الأمر ، بل حتى أن يتساوى معه فى العقوبة* » .

رجع إلى المكتب وأضاف : « **التفرقة بين القادة والأدوات** » .

أسند رأسه إلى كرسيه واستمر يفكر : « *الجندى مسئول بالقطع عمن أصاب ، ولكن قائده مسئول بالضرورة عن كل من أصابه جنوده وهم ينفذون أوامره ، كما أن المسئولية يجب أن تتفاوت بتفاوت القيادات* » .

نظر إلى السطور المكتوبة فى الورقة ، وكأنما أحس أن المبدأ الأخير مازال فى حاجة إلى تحديد ، فأمسك بالقلم ووضع نقطتين متعامدتين وزاد : « **العلاقة طردية بين حجم المسئولية وحجم العقوبة** » .

دق جرس التليفون الداخلى فنظر إليه بغضب ، لقد طلب من السكرتير ألا يشغله بشيئ مهما كان ، وأوشك أن يرفع السماعة ليوبخه ، ولكنه رجح أن شيئا غير عادى قد حدث ، فالسكرتير لايستطيع إغفال توجيهاته دون مبرر معقول .

أمسك بالسماعة وقال متمالكا نفسه :

- **نعم .**

رد السكرتير هامسا .

- **آسف يادكتور ، هنا سيدة مصممة على أن تراك .**

أجاب وقد أوشك سخطه أن يطفو :

- **ألم أنبهك إلى أنى لاأريد إزعاجا ، لِمَ لَمْ ترسلها إلى أحد المحامين فى المكتب ؟**

قال الرجل معتذرا :

- إنها مصممة أن تراك أنت وتقول إنها شقيقة زميل لك وإن الأمر عاجل .

أتاه فى نفس اللحظة صوت أنثوى ملهوف عبر السماعة :

- أرجوك يادكتور ، خمس دقائق لاتزيد .

رد وقد مس الهلع البادى فى الصوت وترا مشدودا :

- لو سمحت أعطه السماعة .

على الفور جاءه صوت الرجل يعتذر عما حدث : « لقد خطفت السيدة السماعة دون إرادته » فقاطعه بحزم حتى لايسترسل :

- أدخلها ، ونبهها إلى أن المقابلة خمس دقائق لن تزيد .

وأمسك بالورقة الصغيرة ووضعها فى جيبه .

حين قالت له وهى تجلس على المقعد المواجه للمكتب :

- ألا تتذكرنى يادكتور ؟

ألقى نظرة سريعة عليها وقال :

- آسف ، لاأستطيع أن أتذكر .

« إنه يتعامل مع آلاف الأشخاص ، فمن أين له أن يتذكر هذا الجسد الضامر والوجه الشاحب والخدود الذابلة والنظرة اليائسة فى العينين الغائرتين » .

قالت :

- أنا أخت ممدوح شكرى .

هز رأسه نفيا ، *« إن عمله يحمل إليه آلاف الأسماء فكيف له أن يتذكر »* .

استطردت تذكّره :

– كان زميلا لك فى الكلية ، وكنا نسكن فى على مبارك فى العلمية ، وكنتَ تحضر كثيرا لتذاكر معه ، وكنتُ أحيانا أقدم لكما الشاي .

شقت حجاب الظلمات صورة صعدت إلى سطح الذاكرة فى ومضة ، وأخذ يتأمل الجالسة أمامه فى ضوئها « *لا ، ليست هى ، ليس معقولا أن تكون هذه أخت ممدوح ، تلك كانت شيئا آخر ، زهرة فواحة بالنضارة مشرقة بالأمل مترعة بالسعادة* » .

قال بأسى :

– تغيرتِ كثيرا .

فغمغمت باستكانة :

– الحمد لله على المقسوم .

أحب أن يطمئنها إلى أن فى استطاعتها بعد أن عرفها أن تقول ما عندها دون أن تتقيد بالزمن الذى حدده لها . فطلب لها فنجانا من القهوة ، وسألها عن أحوالها فتمتمت شاكرة ، سألها عن أحوال أخيها فأجابت باستسلام :

– لقد تغير كثيرا منذ خرج من المعتقل للمرة الثانية .

بهت ، وكأنما أخذ على غرة ، فلم يكن يعلم أن لممدوح نشاطا سياسيا من أى نوع ، إنه من ذلك الطراز من الشباب الذى لايعنيه إلا طموحه الخاص ولاتؤرقه إلا مصلحته الشخصية ، فلما استفسر بإلحاح قالت :

– كان اعتقاله للمرة الأولى خطأ تداركوه بسرعة وخرج قبل مضى أسبوع بعد أن اكتشفوا الحقيقة ، وليته سكت بعد أن خرج ، ولكنه ماكاد يخرج حتى شن حملة ضد رجال المباحث ، وأرسل برقيات لاحصر لها ضدهم إلى كبار المسئولين ، فاعتقلوه للمرة الثانية ، وحين خرج بعد أقل من شهر كان على طريق النهاية

التى وصل إليها الآن .

سأل من جديد بالحاج غلاب :

- كيف ، ماذا حدث ؟

فأجابت بصوت ألف ماكان وكأنه قدر لاحيلة فيه :

- لاأعرف ماحدث له ، لكنه خرج أول الأمر مرعوبا لايستقر على حال ، كثير التقلب فى آرائه وعلاقاته ، لاينام الليل إلا مرغما حين يغلبه التعب ، ولايكاد ينام حتى يستيقظ صارخا فزعا ، ثم تطورت أحواله فصار دائم الشك فى كل من حوله ، ولم يلبث قليلا حتى طلق زوجته ورمى أولاده ، وأخيرا أصبح يلازم البيت لايخرج منه فضاع عمله هو الآخر .

ندّت فى الأعماق صرخة وحشية : *« لاأمان لأحد فى هذا الزمان ، إمّا المقاومة وإما السقوط فى العدم ، حتى مع الاستسلام لاأمان ، فلا مفر من المقاومة »* .

لما أخذ يواسيها قالت بصدق :

- لم أحضر لتواسينى بل حضرت لنجدته ، إنه فى مشكلة حقيقية .

حكت المشكلة بإيجاز ، واستوقفها أكثر من مرة يستوضح التفاصيل ، إلى أن أدرك من خلال الجزئيات المبعثرة الصورة كاملة : فصاحب البيت - مستغلا حالة ممدوح من ناحية ، وحساسية ضباط القسم ضده من ناحية أخرى - قرر أن يستولى على شقته ، ودأب فى الفترة الأخيرة على تقديم الشكاوى المتتابعة ضده مطالبا بحجزه داخل مستشفى الأمراض النفسية ، باعتباره مختلا يحمل بقاؤه خارجها خطرا محققا ، وهى تخشى أن ينجح مخطط الرجل خصوصا وأن من الضباط من توعد بوضع المجنون خلف الأسوار .

قالت - بعد أن أتمت شرح موضوعها وعيناها تسح بدموع غزار لم تستطع

دفعها :

- أحلف لك أن ممدوح ليس خطرا على الإطلاق ، إنه الآن كالطفل يستحيل أن يؤذى أحدا .

طمأنها ، وفى القلب غصة ، وذكر لها أنه سيبذل قصارى جهده لإزاحة الغمة ، ووعدها بأن يبدأ من الغد فى معالجة المشكلة ، ولما همت بالخروج بعد قرابة ساعة حملت نظرة عينيها بريق أمل .

أخرج من جيبه - بعد خروجها - الورقة الصغيرة التى تحمل المبادئ التى سجلها ، وقال لنفسه وهو يعيد قراءتها بأناة قبل أن يتخلص منها : « *ينبغى أن ينص بصورة أو بأخرى على أنه يستوى إزهاق الروح وإزهاق العقل ، وقتل النفس وقتل الكرامة* » ثم نهض من مكتبه بعد أن ألقى نظرة على ساعته وهو يقول « *أزف الموعد فعسى أن أصل فى وقت مناسب* » .

فكّر وهو ينزل السلم فى طريقه إلى الشارع فى أنه قد يكون من الأوفق أن يترك سيارته وأن يذهب بوسيلة مواصلات أخرى ، لأنّ وجود سيارته فى مكان قريب من منطقة الاجتماع قد يثير شبهة ، خصوصا إذا كانت المنطقة أو أحد المجتمعين تحت المراقبة ، ولكنه لم يقطع برأى ، إذ أحس بأن وجود السيارة معه قد يكون مفيدا فى سرعة الحركة إذا اضطر هو أو المجتمعون إلى مغادرة الاجتماع ، ولكنه ما إن خرج من باب العمارة حتى أدرك أنه لم يعد ثمة مجال للتفكير ، فقد انحسم التردد . إذ امتد صف ثان من السيارات بطول الشارع بحيث يتعذر تماما إخراج سيارته من مكانها ، ولم يعد مفر من محاولة الحصول على تاكسى ليصل به إلى مقصده .

وقف يتصدى للتاكسيات فترة طويلة دون جدوى ، فأخذ يمضى خطوة بعد خطوة حول الميدان لعله يجد موقعا مناسبا للتعرض لها ومع ذلك لم يوفق فى إيقاف أحدها ، لذلك ما كادت تقف له سيارة خاصة ويسأله سائقها عن وجهته حتى قفز فيها غير ملق بالا إلى المبلغ الكبير الذى طلبه ، ولا إلى الصوت المرتفع الصادر من الكاسيت مرددا

أغنية مبتذلة ، ولكنه بعد أن اطمأن به المجلس وفطن إلى فحش الكلمات نظر إلى السائق الذى كان ينفخ دخان سيارته باستمتاع بالغ راجيا أن يخفض الصوت ، معللا طلبه بأنه يعانى من صداع .

أجاب السائق وهو يغلق الكاسيت :

- علشان خاطر عيونك .

شكره برقة ، ثم كرر شكره بعد أن عرض عليه سيجارة مبينا مميزاتها قائلا :

- صدقنى ، فائدتها أكيدة ومفعولها سريع .

رفض فكرى بأدب ، ولما ألح عليه السائق أن يجربها ازداد رفضا ، فقال الرجل ضاحكا :

- ولايهمك ، ثمنها وصل فاعتبرها هدية .

رد بضيق بعد أن أدرك مايعنيه :

- ليست المشكلة فى الثمن ، المسألة أنى لاأحب الصنف .

ولما قال السائق باعتزاز :

- جرب ولن تخسر شيئا ، صنف جديد سيعجبك .

آثر الصمت ولم يرد . وأسلمته المناقشة بما كشفت له من دلالة إلى توتر جديد لم يكن فى الحسبان ، فظل يرقب السائق بدقة خشية أن تفلت منه عجلة القيادة ، غير مهتم بحديثه المتصل الذى استغرقه وكأنه يجد متعة فى الكلام وحده بصرف النظر عن مشاركة أحد له ، وقال فكرى لنفسه وعيناه تترددان بين السائق والطريق إثر سماعه ضحكته العالية المصحوبة بتصفيق متتابع من كفيه من غير اهتمام حتى بتخفيف السرعة : « *هذه ليلة لايعلم بها إلا الله ، آخرتها تضيع على يد سائق مسطول* » ثار فى ذهنه - للحظات - أن يطلب من السائق إنزاله ، لولا أن عقله الذى يتابع الرحلة بدقة أيقن أن المسافة الباقية مازالت طويلة ، وأن فرصة الحصول على

مواصلة أخرى ضعيفة ، مما قد يعرضه للتأخر عن الموعد المناسب ، فعدل كارها عن طلب لم يعلنه مع أنه كان على طرف لسانه مؤثرا أن يركز جهده فى تتبع السائق والطريق ، مقدرا أنه يستطيع أن يتدخل فى حالة الضرورة ضارعا إلى الله ألا يضطر لمثل هذا الموقف .

فجأة توقف السائق فى عرض الطريق ، ضغط الفرامل مرة واحدة فارتجّت السيارة رجا عنيفا ، ولولا أن قدمى فكرى كانتا تتشبثان بعنف بأرضية السيارة لحدثت له إصابة حقيقية ، ومع ذلك لم يسلم تماما ، فقد انضرب صدره بقسوة فى التابلوه وإن مس رأسه بخفة الزجاج ، نظر فكرى حوله ليرى السبب فيما حدث فلم يجد شيئا ، وحين التفت إلى السائق معنفا وجده مغرقا فى الضحك دون مبالاة قائلا بسعادة غامرة :

– خفت ؟

وأضاف من غير انتظار للجواب :

– أخوك أجدع واحد يسوق ، لاتخف ، عمر الشقى باق .

ظل فكرى لثوان لايفهم شيئا إلى أن فتح الباب الخلفى ودلفت منه امرأة ، بدا له أن السائق ربما أخذ وقتا بين رؤيتها وقراره بأن يقف لها ، وأنه حين استجاب لقرار الوقوف كانت قد مضت مسافة أراد السائق ألا يطيلها فكان ماكان . « كيف *رآها* » ؟ هذا مالم يفهمه ، فقد كان يتابع معه الطريق بدقة ، فكيف أتيح له وهو فى حالته أن يرى مالم يره .

ماإن جلست المرأة خلفه حتى حيت دون كلفة ، فمد السائق يده إلى علبة سجائره الموضوعة على التابلوه وأخذ منها سيجارة ، ثم مد ذراعه إلى المرأة وقال بألفة :

– سيجارة ياجميل .

مدت المرأة بدورها يدها وأخذت سيجارة أيضا ، زحفت كآبة موجعة إلى صدر فكرى وعقله وهو يسمع المرأة تقول بعد أن أخذت نفسا عميقا :

– حلو الصنف .

فرد السائق وقد سره استجابتها ووشى رأيها بما هو آت :

– الجاى أحلى .

أطلقت المرأة ضحكة رنّ صداها اقتضبتها فجاة ، وكأنما عنّ لها أن تحدد منذ البداية شروطها ، وقالت مستفسرة :

– البيت بعيد ؟

رد السائق جذلان ضاحكا سعيدا بما تعهدت به الكلمات :

– يعنى .

أردفت برجاء :

– ستوصلنى فى النهاية .

فرد السائق بنفس الروح :

– يعنى .

شاركته الضحك لحظة ثم قالت لتتأكد :

– أنتما الاثنان فقط ؟

فلما أجابها السائق للمرة الثالثة : « يعنى » قالت بحسم ، وكأنما تبلغهما بمبدأ لاسبيل إلى التفكير فى الإخلال به :

– كله بحسابه على أى حال .

جاشت نفس فكرى وذرعه القيئ ، فصاح صيحة رهيبة تملّك السائقَ منها الفزعُ وهو يقول :

– قف ، نزلنى هنا .

لم ينبس السائق بحرف ، ووقف بضغطة قدم واحدة فى عرض الطريق . قالت المرأة له معقبة من غير أن تعرف لنزوله سببا :

- خسارة ، مالكش فى الطيب نصيب .

وقف فكرى حيث نزل ، أظلمت عيناه وصمت أثناه وانتابه مغص حاد ، حاول أن يقذف مافى جوفه دون جدوى ، امتلكته رغبة هائلة فى أن يصرخ لم يستطع لها منعا ، سمع لصرخته صوتا مدويا وكأنما ملأت كل الأسماع وأيقظت كل النوام وتردد صداها فى كل مكان ، وأقبل بعض المارة يعاونونه وقد أيقنوا حاجته إلى المساعدة فأفاق إلى الموقف بسرعة ، وشكرهم بصدق ، وقال مبررا ماحدث للذين تجمعوا حوله :

- ينتابنى المغص أحيانا .

قال رجل :

- هذه أعراض الزائدة .

قال آخر مستدركا :

- بل هى أعراض القرحة .

قالت امرأة عز عليها أن رجلا فى مثل شبابه يعانى مثل هذا العناء :

- لاتهمل نفسك واذهب إلى الطبيب .

قال لنفسه وهو يمسح وجهه بمنديله : « *تماسك يارجل ، ماذا تنتظر من هشاش وداعرة ؟ أن يتحدثا عن قانون حمورابى أو جمهورية أفلاطون أو فلسفة ابن رشد أو تصوف الغزالى* » ؟

نظر حوله بإمعان بعد أن أستوعب الموقف تماما فادرك أنه مازال بعيدا عن بغيته ، فدارت عيناه بخجل فى وجوه المتحلقين حوله قبل أن يعلن حاجته إلى سيارة توصله ، استجاب المجتمعون برضى وانتشروا فى عرض الطريق يحاولون إيقاف أى سيارة قادمة حتى ولو بالقوة ، وماكاد أحد السائقين يهدئ من سرعة سيارته ليتجنب الذين انتشروا فى الطريق حتى وجدهم قد التفوا حوله وكل منهم يشرح له فى نفس اللحظة ماحدث . سأل بعد أن فطن إلى المطلوب منه :

- **هل ستذهب إلى مستشفى ؟**

هز فكرى رأسه نفيا وقال :

- **لا ، بل إلى المنزل .**

وأضاف حتى يزيل ترددا خشى أن يتبادر إليه :

- **وهو قريب :**

أضاف الرجل مطمئنا :

- **وهل سيركب معه أحد ؟**

سارع فكرى إلى شكر الملتفين حوله وهو يقول :

- **حالتى طيبة الآن والحمد لله ، ولاداعى للتعب .**

رد الرجل بضراعة وهو يساعده على الركوب إلى جواره :

- **ربك يستر .**

التزم فكرى الصمت بعد أن ركب ، وحاول أن يستعيد حالته الطبيعية متخلصا من آثار العاصفة التى مر بها . وأخذت عيناه تتابعان المرحلة الأخيرة من رحلته منذ أن دخل به الرجل شارع بورسعيد فى يقظة كاملة ، وراح ذهنه يدرس المكان المناسب للنزول ، فهو لايريده بعيدا عن مكان الاجتماع حتى لايجهده السير تحسبا لما قد يحدث ، ولاقريبا حتى لايدل بصورة أو بأخرى عليه ، إلى أن بدت له فى مكان قريب سيارة خالد بعلامتها الأمنية المميزة التى لايعرفها إلا أعضاء القيادة العليا فرجح أن يكون هو المكان المناسب الذى يحسن النزول قريبا منه ، وقال لنفسه : « ***خالد عسكرى ممتاز ، يعرف واجبه ويؤديه ببراعة ، وهو أستاذ فى التخطيط*** » .

شكر فكرى الرجل بحرارة وهو يطلب منه الوقوف قائلا بصدق :

- **شكر الله لك ، لقد أرحتنى كثيرا .**

وعرض أن يدفع له ماشاء من أجر وهو يقول :

– مهما دفعت فلن أفيك حقك .

فرفض الرجل بإباء أن يأخذ شيئا ، وقال بسماحة وكأنه يعتذر :

– لولا ارتباطى بالأولاد لما تركتك حتى باب الشقة ، لكن الله معك على كل حال .

✍ ✍ ✍

الفصل السادس

أحلام العاشقين ليست دائما . . . وردية

قال عمر وهو يطل من خلال فتحات الشيش المغلق :

- آن أوان الانتقال .

أتاه في الظلمة صوت الأخ الأكبر وكأنه بين اليقظة والنوم مستفسرا :

- هل حضروا جميعا ؟

أجاب عمر وهو مازال في موقعه :

- لم يكن قد بقي إلا الأخ فكري وها أنا أراه يدخل من باب البلوك .

رد الأخ الأكبر بصوت آنسته الراحة :

- الحمد لله .

ونهض متحسسا طريقه في الظلمة فتوضأ وصلى ركعتين ، وقال بعدهما بصوته الهادئ المشبع بالثقة :

- هيا بنا .

سبقه عمر إلى الباب وأنصت برهة ، ثم فتحه بحذر بالغ ، وألقى نظرة فاحصة على الخارج قبل أن يشير بالتقدم فخرج الأخ الأكبر وهو يقول :

- على بركة الله .

ثم همس :

- دع الباب مفتوحا .

وأخذ يتمتم ببعض الدعوات بصوت خفيض .

قفز عمر أمامه على السلم شبه المظلم الذى لاينيره إلا الضوء الخافت المنساب من أبواب الشقق المفتوحة ، محاولا تجنب الأطفال الذين يحتلونه بعد أن لفظتهم إليه أمهاتهم ، لمحته فى الضوء المشبع بالظلمة عجوز افترشت حصيرة صغيرة أمام باب شقة مفتوح فى الطابق الثالث ، فصاحت وكأنها تسمع أحدا :

- وسّع ياولد .

وتابعت بصوت خافت وهى تلقى نظرة على الشقة المجاورة المغلقة الباب :

- بالسلامة ، ربنا يسترها معكم دنيا وآخرة .

اطمأن عمر إلى أنه ليس ثمة مايريب ، فتقدم مرهفا حواسه كلها يتبعه الأخ الأكبر بعد عدة درجات ، سمعا - بعد بضع ثوان وقبل أن يصلا إلى الطابق الثانى - صوتا كان بابا يفتح أو يغلق ، فالتفت عمر إلى أعلى مستطلعا وقد مد يده إلى جيبه ، فقال له الأخ الأكبر بهدوء .

- لا عليك .

وأضاف بثقة :

- الحافظ هو الله .

عند باب البلوك كان ثمة جمع يلتقى فى شيئ أقرب إلى أن يكون زفة غنائية

راقصة تحتفل فيما يبدو بانتصار فريق الكرة الذى فاز ، فوقفا برهة يتأملان من خلال مايريان ماوراءه ، واطمأن الأخ الأكبر إلى الجمع بعد أن رأى - فى لمحة - بعض الوجوه ، فخطا خطوته الأولى متجها إلى البلوك المقابل ، وتبعه عمر ، ويبدو أنها رغبة مشتركة مع بعض المشاركين فى الاحتفال ، فما كادا يتقدمان حتى أحاط بهما على الفور عدد ممن آثر الراحة إلى حين قاصدا بدوره باب البلوك المقابل ، قبل أن يعودوا ليستأنفوا الاحتفال من جديد .

سمعا وهما يصعدان بحذر شديد السلم الضيق ذا الدرجات المكسورة الذى يوشك أن يكون مظلما تماما ، حوارا بين اثنين من السكان ، يتعجبان فيه من ناس هذا الزمان ، الذين يضيعون وقتهم هدرا ويزعجون غيرهم احتفالا بنصر فريق كرة القدم ، قال أحدهم :

- احتفالهم بالنصر معقول ، لكن العجب أنهم أحيانا يحتفلون فى الهزيمة .

عقّب الثانى وكأنه يلمح إلى بعض من يعرف :

- المصيبة عمت ، بعض الناس الذين كنا نظنهم عقلاء صاروا بدورهم يشاركون فى الهيصة ، إن لم يكن فى الشارع ففى بيوتهم .

قال عمر هامسا وكأنه يعقب :

- من المأثورات السياسية : الشعب تجمعه صفارة ويفرقه عسكرى .

فرد الأخ الأكبر بحزم :

- قل من مأثورات الطغيان التى آن لها أن تختفى .

ومضيا يصعدان .

* * *

- السلام عليكم .

رد الجميع بعد أن سمعوا الصوت واضحا برغم صوت الكاسيت العالى الذى يذيع - للمرة الثانية - التسجيل الصوتى للمباراة ، وتسابقوا لاحتضان الأخ الأكبر وتقبيل وجنتيه . وشعّت الوجوه بنور الرضى وتألقت فى العيون مشاعر لاحصر لها : الحب والبهجة والسكينة والأمل والعزم واليقين .

جلس الأخ الأكبر وهو يقول لعمر :

- ليتك تخفض هذا الصوت قليلا .

وأشار إلى الكاسيت . وتصفح الوجوه وهو يضيف :

- لاداعى لإزعاج أحد .

ثم نظر إلى خالد مستطلعا قبل أن يقول :

- لاأدرى ، هل من سبيل إلى تخفيف حدة الاحتفال فى الشارع .

فرد خالد بثقة :

- كلها دقائق ويذهب كل إلى شأنه إن شاء الله .

فقال حامد متشككا :

- من أين لك هذا اليقين ؟

فأجاب خالد مفسرا :

- لاطاقة لهم على الاستمرار ومن المؤكد أنهم سيتعبون .

قال حامد :

- ومن أدراك ؟ ربما لن يتعبوا قبل الصباح .

رد خالد بيقين :

- لاأظن .

هزّ الأخ الأكبر مؤمنا على كلام خالد وهو يقول :

- فلنبدأ إذن باسم الله وعلى بركته .

وأضاف بعد لحظة صمت :

- فلنقف أولا على المعلومات بالتفصيل قبل أن ننتقل إلى التحليل ، ولتكن آخر الموضوعات الخطة اللازمة لمواجهة التحديات .

أدرك الأخ الأكبر وهو يتابع مع المجتمعين المعلومات المفصلة التى جمعها الأعضاء أن التنظيم - ومعه بقية التنظيمات المعارضة للسلطة - فى مرحلة مواجهة شاملة ، لكن الذى شغله وهو يستمع كان أسلوب جهاز الأمن فى اختيار العناصر التى يعتقلها من التنظيمات المختلفة : طبقا لأى نظام يعمل هذا الجهاز ؟ ووفقا لأى أسس ينتقى ضحاياه ؟ لو أنه يعمل فى ضوء القوائم التى لديه لوجب أن تكون عناصر كثيرة ممن سارع باعتقالها خارج المعتقلات ، فهو على يقين من أسلوب القيد فى هذه القوائم ، ومعرفة دقيقة - عبر قنواته الخاصة - بالمستجدات فيها . ولو أن الجهاز لايلتزم بالقوائم فلماذا يطارد عناصر كثيرة أدركها الرعب فكفرت بالعمل السياسى وانسحبت من النشاط العام ؟ لذلك ماكاد حامد ينتهى من ذكر التوجيهات السرية التى وقف عليها حتى وجد الأخ الأكبر أنه قد جاء وقت التحليل ، ورأى أن معلومات حامد الخاصة بالتعليمات السرية تستحق أن تكون منطلقا لهذا التحليل ، قائلا لنفسه : « *ينبغى التثبت أولا من صحة التعليمات* » ، فتوجه إلى حامد يسأله :

- أنت فيما يبدو تثق فى مصادر معلوماتك ؟

رد حامد باقتناع :

- الثقة قائمة ، فهى عناصر تنظيمية ملتزمة ، ولكن المشكلة فى تقديرى احتمال أن يكون الهدف من هذه التعليمات مجرد تسريبها إلى المنظمات .

فسأل خالد مستوضحا :

- تقصد احتمال وقوع اختراق متبادل .

فرد حامد :

- فيما يتصل بنا فالأمر مستبعد ، ولكنى مع ذلك لست على يقين كامل من صحة التعليمات .

قال خالد :

- لاأستطيع أن أفهم ، فإذا سمح الأخ الأكبر أرجو أن تقيِّم بدقة مصادرك .

قال حامد بشيئ من الضيق :

- مصادرى موثوق بها تماما .

رد خالد بتلقائية :

- إذن فهى معلومات حقيقية .

قال حامد بيقين :

- هذا صحيح .

أضاف خالد :

- ومع ذلك فهناك احتمال أن تكون التعليمات زائفة .

أجاب حامد باقتضاب :

- نعم .

قال خالد .

- بالنسبة لى الأمر محير .

قال حامد وكأنما يكلم نفسه :

- وبالنسبة لى أيضا .

قال الأخ الأكبر :

- لاينبغى أن تكون هناك حيرة .

قال أحمد :

- فلنأخذ بالأحوط .

قال فكرى بهدوء :

- لامعنى للحيطة هنا فهى لاتضيف شيئا إلى الموقف ؟ فإنها قد تعنى قبول المعلومات كما قد تعنى رفضها ، وكلا الأمرين قد يكون مقصودا .

رد حامد بصدق :

- لست أفهم .

أجاب فكرى وكأنه يفكر بصوت عال :

- نحن أمام احتمالات : أن يكون جهاز الأمن يعلم أنه قد حدث له اختراق ، أو أنه يشك فيه ، أو أنه يجهل تماما .

قال عمر :

- هناك إذن ثلاثة احتمالات .

رد فكرى بهدوء :

- نظريا ستة ، لأننا إزاء احتمالين أساسيين أيضا ، أن يكون جهاز الأمن قد اخترق تنظيمنا أو أنه لم يخترقه .

قال خالد برضى :

- واضح أنهم لم يخترقوا تنظيمنا وإلا لما كنا هنا .

قال حامد مؤكدا :

- هذا صحيح فقد مضت حتى الآن نحو أربعين ساعة على بدء عمليات الاعتقال .

قال فكرى :

- بقيت إذن احتمالات ثلاثة .

قال الأخ الأكبر :

- فلنناقش كل احتمال منها بدقة كاملة ولنبدأ بالاحتمال الأول : أن يكون جهاز الأمن يجهل أنه تم اختراقه .

قال حامد :

- إذن تكون المعلومات صحيحة وعلينا أن نتصرف فى ضوئها .

قال خالد :

- لست ميالا إلى الأخذ بهذا الاحتمال ، لابد أنهم على الأقل يشكّون .

قال فكرى :

- فى هذه الحالة يكون احتمال تسريبهم المعلومات عمدا أمرا واردا .

قال عمر :

- وكذلك لو كانوا يعلمون باننا قد اخترقناهم فعلا .

قال فكرى :

- كلا ، فى هذه الحالة لاحتمال ، بل تكون المعلومات بقصد تسريبها قطعا .

قال الأخ الأكبر :

- فلناخذ فى الحسبان أن القصد هو تسريب المعلومات ، وعلينا أن

ندرس ماذا يريدون من هذا التسريب .

قال حامد :

– على فرض هذا من الواضح أنهم يريدون منا أن نطمئن .

قال خالد :

– لامجال للاطمئنان ، جلِيٌ أنهم يريدون منا أن نستسلم .

قال فكرى :

– لااختلاف بينكما فى الحقيقة ، النتيجة عمليا واحدة .

قال الأخ الأكبر بهدوء :

– لااستسلام مهما كانت الظروف .

ثم صمت لحظة قبل أن يضيف :

– لكن مع ذلك لابد من تحليل التعليمات ذاتها .

ظل المجتمعون يناقشون – لفترة طويلة – التعليمات ، ويحللون ماقد يكون وراءها من أهداف ، واضعين فى الاعتبار جميع الاحتمالات الممكنة إلى أن قال الأخ الأكبر بعد أن لاحظ أنهم قد استنفذوا طاقة ضخمة ، وأنهم فى حاجة ملحة إلى قسط من الراحة .

– يحسن بنا أن نرتاح قليلا .

ثم أضاف موجها حديثه لعمر :

– من لنا الآن بكوب من الشاى عله يجدد نشاطنا .

صاح خالد :

– ليته يكون مصحوبا بشيئ من الطعام ، فلم أتغذ جيدا .

عقّب حامد ضاحكا :

– تغذّيت أو لم تتغذّ ، أنت دائما جائع .

قال خالد بسعادة :

- الحمد لله على نعمة الصحة .

قال حامد برضى :

- والحمد لله على نعمة المرض .

شغلتهم العبارة فالتفوا حول حامد يستفسرون وقد ملأت عيونهم اللهفة ، ولم يتوقفوا إلا بعد أن طمأنهم إلى أنه نتاج إجهاد عارض .

قال خالد ضاحكا :

- تبتزنا بادعاء المرض .

قال فكرى مبتسما :

- بل لانت قناته ولم يعد يحتمل .

عقب حامد باقتناع :

- حتى لو كان جسمى لايحتمل فإن قناتى لاتلين .

ارتفعت أصواتهم وهللوا بسعادة بالغة حين أعلنهم عمر بأنه عثر على الشاى وبعض الخبز الجاف .

قال حامد بصوت عال ليسمع عمر :

- لاتعمل حسابى فى صنع الشاى .

فصاح خالد :

- لاتسمع كلامه فقد يعدل عن رأيه .

قال فكرى باسما :

- أو يحل غيره محله .

فنظر أحمد إلى حامد وقال ضاحكا :

- لاتكن قاطع أرزاق .

فعقب الأخ الأكبر بهدوء :

- حاشا لله أن يكون منكم قاطع أرزاق ، بل هي موصولة بكم إن شاء الله .

مال حامد على فكرى وهو يشرب الشاى وهمس :

- هل لك فى ثواب ؟

أجاب :

- ومن منا ليس فى حاجه إليه ؟

قال حامد :

- الأمر يتعلق بنجدة امرأة .

قال فكرى :

- هذا أدعى للإجابة .

قال حامد :

- هى مسيحية .

قال فكرى :

- أقرب الناس إلينا مودة وأمسهم بنا رحما .

ثم استغرقا فى حديث هامس متصل ، حتى قال خالد ضاحكا :

- تشكونى إلى القانون لأننى استوليت على كوب شاى .

فرد فكرى مهددا بإصبعه :

- حذار ، سأرفع له دعوى أطالب فيها بالحق المدنى .

فانفجر الكل فى الضحك .

قال الأخ الأكبر بعد أن لاحظ أنهم جميعا قد انتهوا من شرب الشاى :

- الوقت مناسب الآن لاستئناف المناقشة .

ثم أضاف بعد فترة صمت كانت كافية ليستعد فيها الإخوة :

- الموضوع الأساسى الآن هو تحديد الخطوات اللازمة لمواجهة التحديات الحالية والمستقبلة ، ونقطة البداية - فيما أتصور - تحديد القوى المضادة لحركتنا .

قال فكرى معقبا :

- هذا مدخل إجرائى جيد .

قال الأخ الأكبر :

- ليست المسألة إجرائية بل موضوعية ، فبدون تحديد الأعداء تصبح خطواتنا قفزا فى الظلام .

قال فكرى باقتناع :

- هذه وجهة نظر صحيحة تماما ، ولكنى أخشى أن تأخذ المناقشة طابعا نظريا لاواقعيا .

قال الأخ الأكبر :

- وحتى لو أخذت هذا الطابع فهو ذو فائدة مؤكدة ، لأنه سيتضمن بالضرورة نوعا من التحديد الذهنى للعلاقات ، وهذا التحديد بالغ الأهمية ، لأنه يمكن أن يكون الأساس للمواقف الواقعية .

ثم صمت برهة وجيزة قبل أن يضيف :

- تعلمون أننا فى حاجة إلى رعاية ثلاثة أمور مهمة دائما ، الأول اتساق الأسس النظرية ، والثانى اتساق المواقف العملية ، والثالث أتساق الجانبين معا : المبادئ والعمل ، بحيث يصبح

العمل بمثابة التطبيق للمبادئ .

والتفت إلى فكرى قبل أن يضيف :

- تحديد الأعداء نظريا يسلم حتما إلى تحديد المواقف عمليا ، ويؤدى هذا بالضرورة إلى اتساقنا مع مبادئنا وأنفسنا وعلاقاتنا ومواقفنا .

قال فكرى مستعيدا ماكان يفكر فيه هذا المساء قبل الاجتماع :

- هذا صحيح تماما ، ولقد كنت أفكر فى شيئ من هذا الليلة .

قال الأخ الأكبر معقبا :

- هذا طبيعى ، فنحن جميعا مطالبون دائما بالتفكير المستمر فى مشكلاتنا وتحليلها ، وتصور الحلول الممكنة لها .

وتوقف برهة لعله يعطى المجتمعين فرصة ليستوعبوا فيها مايقول قبل أن يضيف :

- هذه ببساطة دعوتنا ، أن يكون الإنسان قادرا على أن يعبر من أسر ذاته إلى الآخرين ، وأن تعنيه الأحوال العامة بنفس القدر الذى تعنيه أحواله الخاصة إن لم يكن أكثر .

عقب خالد موافقا :

- هذا صحيح ، لأن أثر المشكلات العامة أعظم بالتأكيد من المشكلات الخاصة ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى .

قال أحمد :

- كثيرا ماخيل إلىّ أحيانا أن من بين أهداف أعدائنا شغل الناس بمشكلات الحياة اليومية من طعام وشراب ومسكن ومواصلات وعمل وغيرها حتى لاتتاح لهم فرصة للتفكير فى القضايا

العامة .

قال خالد مقاطعا :

- لو أن الناس فطنوا إلى اللعبة واهتموا بالقضايا العامة لتحسنت أحوالهم .

قال عمر :

- ليس بالضرورة ، نحن معنيون بالقضايا العامة ومطاردون .

ردّ فكرى :

- هذا لأننا مازلنا حتى الآن نواة يمكن لأعدائنا عزلها عن بيئتها ، بل إنهم يعزلوننا فعلا حين يشغلوننا بالدفاع عن أنفسنا . ولو استطعنا أن ننمى هذه النواة أو نجعل استئصالها أمرا مستحيلا وانتشارها أمرا مؤكدا لتغير الموقف تماما .

قال الأخ الأكبر بثقة :

- أما الاستئصال فلا سبيل إليه ، قد يكون فى استطاعتهم ضربنا كأفراد أو حتى كتنظيم ، لكن الأهم هو الفكر الذى نحمله وهذا مالا سلطة لهم عليه ، ففى أحلك ساعات الظلمة يسطع نور الحق ، وفى أشد ساعات التعذيب يتولد الإيمان ، ومن تحت سارية الإعدام تتصل الحياة وتمتد حيث تحكي تألق الصلابة البشرية وروعة صمودها وعظمة تضحيتها . السلطة قد تُرهب بما تلجأ إليه من أساليب وحشية ، لكنها ترهب الجسد وحده ، جسد الفرد أو جسد التنظيم ، وعند اليقين فإن الجسد ليس إلا أداة يخبو نورها وتخمد حركتها حين ينتهى عمرها ، وهى تتعفن بعد ساعات من مفارقة الروح لها ، لكن العقل البشرى المتطلع دائما إلى الحرية والساعى أبدا إلى العدل لايخبو له نور ولاتخمد له

حركة .

وسكت قليلا قبل أن يضيف :

- وأما الانتشار فنحن بالفعل فى حاجة إليه ، وهذا مايدفعنا الآن إلى تحديد أعدائنا .

قال عمر موجها حديثه إلى الأخ الأكبر :

- اسمح لى أن أقول رأيى .

فرد الأخ الأكبر بتلقائية :

- هذا حقك .

قال عمر وكأنه يستدرك :

- سأتحدث من خلال تجربتى المباشرة .

قال الأخ الأكبر موجها كلامه إليه :

- قل كل ماتريد ، لاحجر على تجربة أو فكرة .

ثم أضاف موجها الحديث إلى بقية الحاضرين :

- من الطبيعى أن نبدأ الحديث فى الموضوع بتجاربنا المباشرة من واقع مانعانيه شخصيا وتنظيميا ، ونظرا لتعدد هذه التجارب فإننى أتوقع اختلافا فى التوجهات ، ولكن يبقى أن المهم هو قدرتنا الذاتية على تحكيم المبادئ التى نؤمن بها فى قراراتنا .

والتفت إلى عمر وهو يقول :

- تفضل قل كل ماتريد .

قال عمر وقد تجلت فى صوته نبرة غيظ :

- عدونا المباشر هو جهاز الأمن السياسى ، فإنه منتشر بشكل رهيب فى كل مكان ، وله عملاء من كل مستوى لاسبيل إلى

حصرهم ، ولاحتى فى كثير من الأحيان إلى معرفتهم ، فمنهم من يبدو بعيدا تماما عن الاتصال بهذا الجهاز ، بل منهم من يظهر بمظهر المعارضة للتوجهات السياسية للسلطة والسلوك الوحشى لأجهزتها ، الخلاصة من العملاء من يبدو نقيا محترما يدعو إلى الثقة .

قال حامد بيقين :

– هذا جهاز إرهابى لايتعاون معه إلا الملوثون .

قال أحمد :

– رأيي أن عملاء الجهاز أشد خطرا من العاملين فى الجهاز نفسه .

قال خالد بغيظ .

– لو كان الأمر بيدى لشنقت جميع العملاء .

قال فكرى بهدوء :

– لحسن الحظ أنه ليس فى يدك ، فالتسرع فى الأحكام مأساة حقيقية ، وهو إدانة للتنظيم قبل أن يكون إدانة للعملاء أنفسهم .

عقب خالد بحدة :

– إذا لم يعجبك كلامى فلنأخذ رأى عمر .

ثم توجه إلى عمر قائلا :

– ماذا ترى فى شأن هؤلاء العملاء ؟

قال حامد معترضا :

– المفروض أن نحدد أولا القوى المعادية بشكل عام قبل أن ننتقل إلى وسائل مواجهتها .

قال الأخ الأكبر بهدوء :

- هذا صحيح .

فابتسم خالد برضى وقال وقد انفثأ غضبه :

- فليتحدث إذن حامد .

قال الأخ الأكبر مبتسما :

- بل سيتحدث أولا أحمد .

قال أحمد :

- رأيي أن أخطر أعدائنا أجهزة الإعلام التي تستخدمها السلطة استخداما بالغ السوء ، فهي تقوم بتحقيق أهداف تسعى في مجموعها إلى تدمير مقومات الإنسان والوطن معا ، سواء عن طريق محاربة القيم الصحيحة وتلويثها أو التشكيك في جدواها ، أو بواسطة غرس قيم الفساد والانحلال والخنوع والترويج لها ، أو من خلال تمجيد الطغيان وتأليه الدكتاتورية وتأكيد دونية الشعب وتيئيسه وتحطيم قواه الروحية ، أو بالحرص على ترسيخ الأساليب الغوغائية في رؤية الأمور بغية دعم عقلية القطيع إهدارا لكرامة الإنسان .

ثم التفت إلى الأخ الأكبر مؤكدا بصوت الواثق :

- ببساطة ، أنا ضد أجهزة الإعلام لما تقوم به من دور مدمر في مختلف جوانب حياتنا .

قال فكرى مستدركا :

- هذا تعميم ضار .

قال أحمد :

- هذا حق ، وأرجو المعذرة إذا كانت قد تجاوزت فى التعبير ، لكننى معكم تماما .

قال الأخ الأكبر :

- وأنا أدرك هذه الحقيقة ، ولكننى أحببت أن أوضح حتى لايكون لدى أحد من الإخوة لبس أو غموض .

قال حامد :

- اسمحوا لى أن أمضى إلى الأمام خطوة ، فأنا أرى أن أخطر ما يواجهنا القيادات الفاسدة ، ليس فى جهاز الإعلام فقط ، وإنما فى جميع الأجهزة ، الناس العاديون لايعادوننا ، ولاأظن أنهم يمكن أن يتخذوا مواقف ضدنا ، لسبب بسيط جدا وهو أننا لانعارض مصالحهم ، بل بالعكس نناضل من أجل تحقيق هذه المصالح ، أما القادة فهم أصحاب المصلحة المباشرة فى بقاء الفساد والانحلال والتسيب ، لأنهم الذين يكسبون من وراء انعدام الضوابط وانهيار القيم ، وهم لذلك ألد أعدائنا . وهم يستخدمون كل الأساليب غير الأخلاقية لمهاجمتنا دفاعا عن مصالحهم . الخلاصة : القيادات الفاسدة هى الرؤوس العفنة التى ينبغى قطعها .

قال خالد :

- مع تسليمى بصحة ماذكرتم جميعا ، وإيمانى بخطورة القوى التى حددتموها ، فإننى لاأجد مع ذلك مفرا من تقرير حقيقة أخرى لاأشك فيها لحظة ، ولاأشك أيضا فى إدراككم لها ، وهى أن أخطر القوى المضادة لنا تتمثل فى القوى الخارجية المعادية لوطننا ، نحن دعاة نهضة ، وهذه القوى دعاة استسلام ، ومن

الطبيعى أن نكون فى مواجهة شاملة ، هذه القوى تحديدا عملاء الموساد ، والسى آى ايه ، والكى جى بى ، هؤلاء يعادوننا لأننا نعوق حركتهم ضد وطننا وأمتنا ، وبناء عليه يجب أن نتعقبهم فى كل مكان ، أيا كانت مراكزهم ووظائفهم ، ورأيى بوضوح قاطع أنه لابد لنا من تصفيتهم إذا أردنا لوطننا أن ينجو .

قال حامد معترضا :

- معذرة فقد أخذك الانفعال كما أخذنى قبلك ، لقد اتفقنا على تأجيل مقترحاتنا بشأن أساليب المواجهة بعد استكمال تحديد القوى المضادة .

رد خالد محتدا :

- دعك من المقترحات ، هل تختلف معى فى خطورة هؤلاء الأعداء .

قال حامد :

- لاأختلف معك ، بل لعل لدى من المؤشرات مايدعم به وجود تنسيق بين هذه الأجهزة فى مجموعها ، وبينها وبين جهاز الأمن السياسى عندنا .

قال خالد :

- هذا يؤكد وحدة القوى المضادة التى علينا مواجهتها .

قال الأخ الأكبر :

- هذا سابق لأوانه ، فمازلنا ننتظر رأى الأخ فكرى .

قال فكرى بهدوء :

- كل ماقيل حتى الآن صحيح ، ولكن لاتؤخذونى إذا قمت بعملية تحليل قد تسلم إلى شيئ من الاختلاف مع بعض ماقيل ، أنا

اتصور أنه لابد من تحليل طبيعة القوى المضادة ، ولعل لاأتجاوز إذا قلت إنه يمكن تقسيمها إلى مجموعتين ، مجموعة القوى المضادة بطبيعتها لحركتنا وحركة وطننا وأمتنا ، ومجموعة القوى المساعدة لها . أنا مع الأخ خالد فى تحديد القوى المضادة بطبيعتها على نحو ماذكر تماما ، وأما بقية القوى فهى مضادة لنا بحكم أننا بعيدون عن السلطة ، ولو اتيح لنا أن نصل إلى السلطة لأمكن توجيهها لصالح رسالتنا ، إنها - فيما اتصور - قوى طيّعة بطبيعتها ، برغم مايبدو من شراستها وعنفها ، ولااستطيع أن اضعها فى إطار القوى المعادية إلا مرحليا لانهائيا . وأنا اتحدث هنا تحديدا عن جهاز الأمن السياسى وجهاز الإعلام ، أما القيادات الفاسدة فلست اختلف مع حامد فى حتمية التخلص منها .

قال الأخ الأكبر فى ختام هذا الجزء من المناقشة بعد أن تطلع إليه المجتمعون ينتظرون منه إضافة :

- احسب أن علىّ من واقع مسئوليتى التنظيمية أن اشير إلى جانب أعده شخصيا بالغ الأهمية ، إن كل هذه القوى مع شراستها لاأخاف عليكم منها ، ولست فى هذا احلم أو اتجاهل ماتتسم به من خطورة ، ولكنى موقن بحساسيتكم وحساسية التنظيم بمستوياته المختلفة تجاهها ومقدرته على التصدى لها ، وحسبى أن أشير إلى أن التجارب الثورية السابقة لنا قد استطاعت دائما أن تحقق الانتصار على هذه القوى وأن تصل إلى غايتها من السيطرة على السلطة وتوظيفها لتحقيق أهدافها ، لكن يبقى عدو أعده أخطر من كل هذه القوى مجتمعة ، لأنه هو الذى يمكنها من تحقيق أهدافها .

صمت حتى يشرب بعض الماء ثم تابع بصوته الواثق :

- **إننا كجماعة نتصف فى مواقف كثيرة بالقصور عن إدراك الواقع ، وبالتالى نعجز عن فهمه وتفسير حركته ، الأمر الذى يسلمنا أحيانا إلى الخطأ فى اتخاذ القرار المناسب أو الحركة اللازمة فى الوقت المناسب ، إن توجهاتنا فى ذاتها صحيحة ، ولكن مواقفنا أحيانا لاتكون كذلك ، وهذا يعنى أننا قد نكون فى بعض الأحيان فى موقف مضاد لتوجهاتنا ، أى أننا قد نكون فى لحظات بعينها أعداء لحركتنا .**

سكت الأخ الأكبر فترة طويلة ، ربما ليتيح للمجتمعين أن يعيدوا النظر فى موقف التنظيم فى ضوء ماأثاره من ملحوظات ، قبل أن يقول :

- **لخطورة ذلك على وحدة الحركة وتقدمها فإننى أفتح الباب لمناقشة ماترون عرضه من ملحوظات من منطلق النقد الذاتى لأنفسنا .**

تدارس المجتمعون بدقة كاملة كل مالديهم من ملحوظات على حركة التنظيم فى المرحلة السابقة ، وقد فوجئوا بالفعل بوجود ركام من السلبيات التى لم يخطر ببالهم وقوعهم فيها لولا طرحها للمناقشة والتحليل ، فقد تبينوا أن التنظيم فى حركته بين الجماهير يفتقر إلى تحديد الأهداف ووضوحها وتفصيل آثارها ، دون الاكتفاء بعموميتها وغموضها ، لأن أيا من الأمرين : التعميم والغموض يتضمن مخاطر داخل التنظيم ، إذ يسبب بعض الاختلاف فى فهم المواقف أو عدم الدقة فى تفسيرها ، كما يتضمن مخاطر فى إساءة فهم موقف التنظيم من القضايا والمشكلات التى تهم الجماهير . وقد اكتشفوا أيضا نقد التنظيم لصفة ذات أهمية خاصة ، وهى حيوية العلاقات الاجتماعية بين الأعضاء فى مختلف مستوياتهم والجماهير التى يعايشونها ، مع ما لهذه العلاقات من أهمية فى كسب ثقة الجاهير وقيادتها فكريا إلى التعاطف مع الدعوة واحتضان الدعاة إنسانيا ومن ثم التأثر بهم وتبنى آرائهم . وقد أثار حامد وخالد

معا بعض مايرونه من صور القصور فى السلوك الشخصى لبعض العناصر ، فتداولوا النظر فى هذا السلوك وأسبابه ونتائجه ، كما تناقشوا طويلا فى الأساليب الكفيلة بعلاجه بعد أن رأوا أنه يستحق عناية خاصة دون الانتظار حتى مناقشة أساليب مواجهة القوى المعادية بشكل عام . وقد أسلمتهم هذه المناقشة إلى ضرورة الاهتمام تنظيميا - فى التربية والاختبار - بالقيم السلوكية دون قصر الاهتمام على المعرفة الذهنية والقدرات العقلية وحدها . واقترح عمر أن يتم اختيار مجموعة من هذه القيم السلوكية للكتابة فيها ضمن النشرات التثقيفية المتداولة فى التنظيم ، وعدّل أحمد الاقتراح بأن تأخذ النشرات السلوكية طابعا متميزا ، فتصدر فى شكل رسائل مستقلة تعكف الخلايا على مدارستها واستيعابها وتطبيقها ، بحيث يساعد أعضاء كل خلية أنفسهم فى الالتزام بها ، تطبيقا للمبدأ المقرر : « **المؤمن مرآة أخيه** » . وقد بدءوا عقب ذلك فى تحديد القيم السلوكية التى يرون البدء بها فى الرسائل ، وتوصلوا بالمناقشة إلى تقسيمها إلى مجموعتين :

الأولى : القيم الإيجابية . والثانية : القيم السلبية .

وتدارسوا بالتفصيل - القيم التى يحسن البدء بها - وقد رأوا أن تتضمن رسائل المجموعة الأولى قيم : الشجاعة ، والصدق ، والسماحة ، والصبر ، وطهارة النفس ، وسلامة المعتقد ، والعفة فى الفكر واللفظ والعمل ، وأن تتضمن رسائل المجموعة الثانية : قهر الرغبة ، ورفض الرهبة ، والبعد عن الشبهة ، وتجنب الزلل ، ومحاربة اليأس ، والتخلص من الحيرة ، والنأى عن الجهامة . وماكادوا ينتهون من هذا التحديد حتى كلف الأخ الأكبر فكرى وخالد وحامد بالجوانب الفكرية للرسائل ، على أن يتولى أحمد الجانب التنفيذى لإصدارها .

تفرس الأخ الأكبر فى الوجوه المحيطة به ، وبرغم استغراقها فى المناقشة وتألقها بالعزم فقد أحس - بشفافيته - بما وراءها من إجهاد بعد الجهد الذى بذل فى المناقشات ، وخصوصا أنهم مقبلون على موضوع بالغ الخطر ، وهو وضع الخطط

التفصيلية لمواجهة التحديات ، فصمت نحو دقيقة قبل أن يقول :

- ياأحبابى ، إن المنبتّ لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى . وقد آن لنا أن نصلى ركعتين ، نجدد بهما نشاطنا ونؤكد إن شاء الله بهما عزمنا .

قال خالد بعد الصلاة موجها حديثه لعمر :

- لا أظن أن فى أستطاعتك أن تدبر لنا شيئا من الشاى أو الطعام الآن .

رد حامد ضاحكا :

- بعد الهجمة التترية التى قمتَ بها ؟ لاأظن .

ثم أضاف :

- الحق أننا فعلا فى حاجة إلى بعض الطاقة .

صاح فكرى :

- الاعتراف سيد الأدلة .

عقب خالد بسرعة :

- لاتسارع بظلم الرجل كبعض من تعرف ، فاعترافه تحت ضغط التعذيب .

فاغرق الكل فى الضحك .

* * *

أذّن الفجر وقد أوشكوا أن ينتهوا تماما من وضع الخطط لحركة التنظيم فى المرحلة المقبلة ، صمتوا ليستمتعوا بصوت المؤذن الندىّ الذى لم تستطع خشخشة الميكروفون أن تطفئ حلاوته . قال خالد متأملا :

- لو خفض صوت الجهاز لتخلص من الخشخشة .

ثم نظر إلى الأخ الأكبر مستأذنا :

– **سنصلى فى المسجد ؟**

فرد الأخ الأكبر بهدوء :

– **فلنتفق أولا على كيفية عودة من قررنا أن يعودوا إلى منازلهم ثم نفترق .**

باح الصمت بحب لايوصف ، وضجت فى القلب المشاعر : « *ترى هل نلتقى مرة أخرى ؟* » أيقن الأخ الأكبر أن الآذان فى شوق لعهد تؤكده الصلوات ، فقال بهدوء الواثق :

– **احرصوا – ياأخوانى – على ثلاث : الحرية ، والعدل ، والوحدة .**

« ***مازالت فى القلب رغبات الشوق العارم إليك ، إلى عقلك النافذ ، وفكرك الوضاء ، وكلماتك الهادية ، الهجمة عاتية والجسم أعزل ، الموج عاصف والشراع مكسور ، الذئاب مطلقة السراح تلتهم الرُضّع والأيدى مكبلة بالأغلال ، أنُحْرَمُ فى هذا الوقت منك ونحن فى أمس الحاجة إليك*** » .

قال – وكأنما يدرك مافى القلوب الواجفة :

– **لاتبتئسوا فالنصر قادم ، النصر لامحالة قادم ، إن لم يكن اليوم فغدا وإن لم يكن غدا فبعد غد ، إنى لأراه كما أراكم ، خفاقة أعلامه ، متلألئة فى الأفق جحافله ، يقودها الفتية الذين يملأ اليقين قلوبهم ، يخرجون منا غير هيابين ولا وجلين ، يقتحمون الهول ، ويقتنصون النصر ، يطردون الظلمة وينشرون النور ، يعطرون بأريج الحرية الفواح كل مكان ، وينشرون باسمها الصداح العدل المطلق . مرحبا فى سبيل هذا الموت ، لأعدائنا أجسادنا وللحرية والعدل أرواحنا ، لهم منا مايموت ولنا ما**

يبقى أبد الدهر حيا لا يموت .

* * *

قال خالد لفكرى وهما يهمان بدخول السيارة بعد أن أديا الصلاة فى الزاوية القريبة ، وكأنما يناجى نفسه :

– كم أنا حزين ، فالأخ الأكبر لايحتمل المطاردة وصحته على هذا النحو .

رد فكرى بثقة :

– أنا أعرفه جيدا ، لاتزيده الأيام إلا صلابة .

قال خالد بأسى :

– الخطر يحف به من كل جانب .

رد فكرى بيقين :

– تتحسن صحته فى المحنة .

قال خالد :

– سنتأثر كثيرا خلال غيابه .

قال فكرى :

– كأنك لم تفهم وصاياه .

قال خالد :

– القلب موجع بالشوق كأن العشق نصل فى الضلوع .

قال فكرى :

– ومن منا ليس بعاشق .

قال خالد :

– تكاد العين تطفر بالدمع .

قال فكرى :

– لكنك ترى الآن أفضل .

ران صمت موجع ، وتجسدت الكآبة كما لو كانت جليسا يتنفس داخل الصدر المعنّى ، ارتفعت يد خالد إلى وجهه فى الظلمة ، لعلها تمسح دموعا متحجرة لاتنزل أبدا .

قال فكرى متكلفا ليغيّر مجرى الحديث :

– وأنا قادم خشيت أن يضيعنى هشاش ، وأرجو وأنا عائد ألا يضيعنى عاشق .

قال خالد وقد بدأ يتمالك نفسه .

– اطمئن ، هذا صوت عقلك الباطن ، أنت فى الحقيقة لاتريد العودة ، من يدرى ؟ ربما تخاف من امرأتك .

قهقه فكرى وقال باستسلام وكأنه يشجعه :

– الأمر لله ، فيها خناقة للصبح .

قال خالد وقد عاودته قدرته على الهجوم :

– صبح ؟ أى صبح ؟ لقد أوشكت الشمس أن تطلع ، قل فيها علقة حتى المساء .

ثم أضاف وهو يتأمل عددا من سيارات الإسعاف تسير بسرعة فى حراسة مشددة من سيارات الأمن :

– يحسن أن نحجز لك واحدة من هذه السيارات بعد أن تفرغ من مهمتها فى نقل المعتقلين .

وارتفعت الأصوات بالضحك .

بعد لحظة قال خالد وكأنه يفكر :

- غريبة ، لماذا غيروا عادتهم فى العمل ؟ لم يكونوا يتحركون إلا فى الظلام .

قال فكرى وقد شدّته الملاحظة إلى البحث :

- لعلهم يستكملون مهمة تأخروا فى تنفيذها .

ثم تابع وكأنما يناقش فى ضوء نظرية الاحتمالات :

- أو يفتتحون مهمة عاجلة لاتحتمل التأخير .

عقب خالد وكأنه مازال يفكر :

- المسألة تستحق الاهتمام .

ثم التفت إلى فكرى وقال وكأنه يشاكسه :

- أنت لم تترك احتمالا ، فلابد أن تكون على صواب .

قال فكرى وكأنما أصابه انزعاج مفاجئ :

- لاتلتفت وأنت تقود .

واستمر وكأنه يرد على مشاكسته :

- ودع التفكير لى حتى نصل سالمين .

✍ ✍ ✍

الفصل السابع
فى جلد الأسد ... كلب عاشق

رفعت وهى تتقلب - دون أن تدرى ما تفعل - الذراع الثقيلة التى سقطت على الصدر بعد أن أحست بعبء وقوعها هنالك ، تسرب إلى الأذنين صدى جرس خافت لم يستطع الحجاب الموضوع عليهما أن يمنعه ، مدت يدها فى الظلمة فصادفت صدره غارقا فى بحر من العرق برغم استمرار أجهزة التكييف فى العمل ، رفعت عن عينيها الحجاب الذى تضعه عليهما عند النوم فكأنها لم ترفعه ، فحين فتحت عينيها ظلت للوهلة الأولى لا تستجيب للنظر ، ولكنها لمحت بعد لحظة شعاعا لا تعرف مصدره عكسته الساعة الماسية فى معصمه ، قالت لنفسها دون أن تعنى بالإجابة : « متى رجع » وتقلبت من جديد عساها تستأنف النوم لولا أن الجرس عاد ملحا فأدركت أن التليفون عاجل .

همست الشفاه بصوت ناعم :

- سمير .

لم يستجب أحد ، فمدت يدها إلى مفتاح الأباجورة الصينية الموضوعة على

الكومودينو الإيطالي وضغطته برفق فانساب في الحجرة ضوء حالم . تكاسلت أن تنهض لتدور حول الفراش حتى تجيب هاتف التليفون الموضوع إلى جوار رأسه . فهزته مرة ثانية برفق وهى تردد أسمه ، لكنه كان معطل الإحساس وكأنه لا تربطه بالحياة إلا أنفاس ، فاضطرت أن تسكب صدرها فوق كتفه العارى وهى تمد ذراعها لتمسك السماعة .

ما كادت تقول :

– ألو .

حتى جاءها الصوت الرصين المعهود وكأنه عاصفة .

– صباح الخير يا مدام .

ردت دون وعى وقد بدأ القلق يسرى فى البدن كالخدر .

– صباح الخير دولة الباشا .

جاءها الصوت مستفسرا وكأنه يهزأ .

– سعادته ما زال نائما ؟

فأجابت باقتضاب :

– دقيقة واحدة .

هزته بعنف وقد وضعت يدها على مايك السماعة حتى لا تنقل رد فعله الغاضب ، لكنها ما كادت تذكر له اسمه حتى استيقظ تماما وكأنما سقط فى جوف برميل من الثلج .

ما كاد يمسك السماعة حتى صارت العاصفة إعصارا وجاءها وهى تستلقى الصوت الهادر :

– أما زلت نائما حتى الآن ؟ يبدو أنك لن تفيق إلا إذا وقعت كارثة .

أجاب زوجها وعيناه تفتشان عن علبة سجائره :

– خير دولة الباشا ؟

فأتاه الصوت الغاضب :

– لا خير مطلقا ، بدلا من أن تمسكهم تتركهم يعملونها .

قال زوجها وهو لا يفهم شيئا :

– لم أترك المكتب إلا منذ ساعتين .

فجاءه الأمر قاطعا حتى لا يستمر :

– وعليك أن تذهب إليه فورا لمتابعة الموقف .

وضع السماعة دون تحية بعد أن سمع صدى وضعها من الطرف الآخر ، ومد قدمه تتحسس السجادة الشنواه تلتمس ما تلبسه ، وقال لها وهو فى طريقه إلى الحمام

– اطمئنى أنت ونامى .

ثم أضاف وكأنه يفسر الأمر :

– يحتاجوننى فى الوزارة ، يبدو أن شيئا قد حدث .

رأته بأذنين يخالطهما النعاس ، وسمعته بعينين تعزف فيهما موسيقى الأحلام ، كم تشفق عليه منذ تولى منصبه الرفيع فى القاهرة ، إنها تحس بمدى عنائه المتصل وإجهاده الدائم وضناه المقيم ، وكأنما بُدِّل شخصا آخر لم يعاشرها طوال عشر سنوات « *أما كان أفضل لو ظللت فى تلك المحافظة النائية تتربعين على عرش السلطة المحدودة فيها ومع السلطة الاستمتاع ببهجة الحياة معه ، فى أحضانه وبين ذراعيه* » حمل إليها النوم كلماته القديمة : « *السلطة الحقيقية هناك ، فى القاهرة ، هنا يمكن أن يعيش الإنسان ويموت دون أن يحس به أحد ، لكن هناك فى العاصمة لكل حركة صدى ، ولكل لحظة حساب ، ملايين البشر يتابعون الكلمة ويدرسون اللفتة ويحللون*

النظرة ويتأملون البسمة ، ويقدّرون من خلال كل ذلك المواقف ويبنون القرارات . السلطة الحقيقية دائما فى العاصمة ، ويجب أن تكون هناك ما دمنا نريد السلطة حقا » . قالت لنفسها وهى تتبختر فوق الممر الوردى بين اليقظة والنوم : *« ها أنت قد اقتربت من القمة فهل ارتحت ؟ إنه لأفضل ألف مرة أن تلفح الوجهَ الأنفاسُ الحرّى وأن يشم الأنف عطر الجسد الفواح ، بدلا من أن تكون حيث أنت الآن ، مجرد أداة تستنفد طاقتَها ساقيةٌ دوارة تمتص منها الرحيق ، ولا تتركها حتى تسقط ذابلة »* .

حين خرج من الحمام وعاد إلى الحجرة نظر إلى الجسد الناضج الذى انحسر عنه الغطاء الحريرى فظهرت تضاريسه الفاتنة تضج باليقظة برغم الاستغراق فى النوم ، تأمل الصدر النافر وقد تمرد على الكومبليزون فبدا كنموذج من المرمر المشع بإضاءة داخلية تجسد روعة جمال الجسم البشرى الذى يعزف - بتناسقه لونا وحجما وتكوينا - لحن الخلود . قال لنفسه : *« إنها لا تكبر أبدا »* همس ليوقظها طالبا فنجانا من القهوة وهو يرتدى ملابسه ، فلما لم تجب تراجع عن الاستمرار فى إيقاظها وهو يقول لنفسه : *« خير لك أن تظل نائمة »* .

مد يده بعد أن فرغ من ارتداء القميص والبنطلون وتناول جهاز اللاسلكى وطلب قائد قوة الحراسة وقال له :

- جهز السيارة وقوة الحراسة المرافقة ، سأخرج بعد ربع ساعة .

وبعد أن أغلق الجهاز عاد وفتحه وطلب منه أن يوصله بمدير مكتبه النوبتجى على الفور ، خشخش الجهاز بعد أقل من دقيقة واحدة فآثر أن يحمله إلى حجرة المكتب حتى لا يزعجها وهى نائمة ، وقال وهو يهم بالجلوس إلى مكتبه :

- ما الحكاية ؟

لم يفهم مدير المكتب شيئا ولعله طلب التوضيح ، فرد بغيظ :

- لابد أنك نائم ، أعرف وأنا فى منزلى منذ نصف ساعة ما حدث وأنت بكل أجهزتك فى المكتب لا تعرف حتى الآن شيئا ؟

رد الرجل ينفى وقوع تقصير :

- يا فندم لا جديد ، كل شئ هادئ تماما ، ولم نبلَّغ عن وقوع مشكلة من أى نوع .

لم يحتمل فصاح بغضب .

- هذا كلام فارغ ، لابد أن تجمع كل المعلومات من كافة الأجهزة .

ثم صمت لحظة قبل أن يتابع :

- سأصل خلال نصف ساعة ، ويجب أن تكون كل المعلومات أمامى .

قال الرجل باستسلام :

- أمرك معالى الباشا .

فأضاف سمير قبل أن يغلق الجهاز :

- استدع كل القادة فى الإدارة لاجتماع عاجل بعد ساعة واحدة .

ونظر إلى ساعته بسرعة قبل أن يضيف .

- فى الخامسة والنصف تماما .

وقذف بالجهاز على المكتب ، فلم يكن بحاجة إلى أن يسمع الجواب .

لم يكد يستقر فى سيارته المجهزة تجهيزا أمنيا خاصا وإلى جواره حارسه وأمامه ياوره ، حتى انطلق الركب تسبقه سيارة وتعقبه أخرى ، لم يلبث قليلا حتى فتح النافذة المجاورة له وأخذ نفسا عميقا . داعبت وجهَه نسماتُ الفجر الندية ، فأغمض عينيه للحظات وكأنهما تحلمان . إنه لا يرى القاهرة إلا فى مثل هذه الفترات ، فى الفجر حين يذهب إلى مكتبه أو فى الليل حين يعود منه ، وهو عاشق لليل القاهرة ، فيه سحر الصمت وجمال الهدوء ومتعة الانطلاق دون عائق . مضى الركب فى الشوارع الفسيحة

المغمورة بالضوء المنعكس على سطوح السيارات اللامعة وكأنها أنهار تتدفق من الشموع الصداحة فى حفل عرس ، ولكن يشوب روعةَ اللحظة رائحةُ عفونة حادة ، أغلق النافذة وأمسك بتليفون السيارة وطلب مدير المكتب وقال له دون تحية :

– سأصل خلال لحظات ويجب أن تكون جاهزا .

وأعطى السماعة لياوره ليضعها فى مكانها .

ما هى إلا دقائق حتى دخلت السيارة الوزارة من باب خاص ، مضت بداخله حتى وقفت أمام المصعد الخاص ، انتشر حولها فى ذات اللحظة كوكبة من الرجال الأشداء الذى أحاطوا به فور نزوله حتى صعد إلى مكتبه فى الطابق العاشر ، واستقبله على باب الصالون الملحق مدير المكتب وعدد من الضباط الكبار الذى سارعوا بالحضور على عجل إثباتا لولائهم الشخصى . دخل المكتب متجهما دون أن يلتفت إلى أحد برغم ارتفاع الأيدى بالتحية واستجداء النظرات لمحة رضى : « *الآن هو فى عرينه الذى لن يسمح لأحد أن ينتزعه منه أو يشوه جهده فيه* » ألقى نظرة عجلى فور تخطيه الخطوات الأولى فى الحجرة فوجد الملف الأحمر فى مكانه المقرر قبالة الجالس إلى المكتب ، تنفس بارتياح وهو يجلس قبل أن يطلب من مدير المكتب أن يأمر له بقهوة الصباح .

« *ما هذا ؟! ليس فى الملف شئ ، إنه مجرد بيانات عادية لم تزد عما وقف عليه قبل ثلاث ساعات إلا عدد الأفراد الذين تم القبض عليهم فيها ، ما معنى هذا ؟ هل بلغ الإهمال بمدير المكتب هذا المبلغ ؟* » ضغط الزر وصدى قرقعة أسنانه يصك مسمعيه فاقبل الرجل على عجل وكأنه يجرى . فسأله بغيظ دون أن ينظر إليه :

– ما هذا يا سيد ؟

رد بصوت واضح لا تلعثم فيه :

– كل بيانات العمليات حتى نصف ساعة مضت ، أى حتى اللحظة

التى طلبتها معاليكم .

صاح بغيظ :

- ليس هذا هو المطلوب ، لقد طلبت معلومات كاملة عما حدث الليلة .

أجاب الرجل وكأنه لم يفهم :

- وهذه هى المعلومات التى لدى الجهاز .

تمالك سمير نفسه حتى لا يقذفه بما فى يده ، وإن ألح عليه إحساس بأن هذا الرجل إما غبى وإما دسيسة ، وأنه يجب أن يكون له وقفة معه لكن ليس هذا أوانها ، وقال :

- لقد حدثت الليلة أحداث بالغة الخطر ، وأريد أن أعرف جميع التفاصيل .

رد الرجل وكأنما يسترضيه حتى لا يغضب :

- سأعيد مرة أخرى الاتصال بكل المحافظات فربما يكونون قد أهملوا إحاطتنا بشئ .

واستدار ممتقع الوجه ليمضى لكنه بعد خطوة واحدة ناداه وقال له :

- إلى أن تصلنى المعلومات خلال عشرين دقيقة على الأكثر بلغ جميع الضباط غير الموجودين فى العمليات بالعودة إلى مواقعهم انتظارا للأوامر ، وبلغ القيادات بوجودهم فى مكاتبهم لمتابعة الموقف .

وأضاف بعد لحظة صمت وكأنه يفكر :

- وأجل الاجتماع خمسا وأربعين دقيقة .

خرج مدير المكتب وأخذ سمير يفكر وهو يشرب فنجان القهورة ببطء ، رشفة

رشفة ، وعيناه معلقتان فى الفراغ الفسيح فى الحجرة . بادره ذلك الإحساس الذى يعرفه وهو مقدم على الخطر ، تتنبه فيه حاسة الاستشعار عن بعد ويدرك أنه يدخل مجال الاختبار الحقيقى معصوب العينين ، ولكنه برغم ذلك يجب أن يمضى دون أن يشعر أحد قط أنه ربما يتعثر . استعاد فى ذهنه ما دار فى مكالمة الفجر كلمة كلمة *« ثمة حدث خطير قد وقع ، لا شك فى ذلك ، لكن ما طبيعته ؟ ما مكانه ؟ ما القوى التى وراءه ؟ ما تطوراته المحتملة ؟ كيف السبيل إلى السيطرة على الموقف وهو فى حالة انعدام الرؤية ؟ هل يستشير أحدا من زملائه الكبار ؟ الا يمكن أن يكون ذلك مؤشرا إلى عجزه عن التصرف ؟ الا يجوز أن يكون الموقف بأسره مقصودا ما علم منه وما لم يعلم ؟ »* . مال بعد التأمل إلى أنه قد يكون من مقتضيات الاختبار الحقيقى لقدراته عدم إيضاح شئ من المعلومات له اكتفاء باللمحة الدالة التى قدمتها مكالمة الفجر ، والكشف عما حدث مهمته هو ، وهذا هو التحدى الحقيقى . فأى محاولة للاستعانة أو للاستشارة اعتراف مباشر بالعجز ، وهو مؤشر فشل يسعى إليه البعض ، ولكنه أبدا لن يسمح لهم بالوصول إليه .

دخل عليه مدير المكتب وهو يشرب فنجان القهوة الثالث خلال فترة لم تتجاوز نصف ساعة وبيده ملف العمليات الأحمر ونظر إلى قائده بقلق وهو يقول :

– **كل المعلومات التفصيلية حتى خمس دقائق مضت .**

تناوله وهو ينظر إليه بإمعان مشيرا إليه بالخروج .

أخذ يقرأ بأناة شديدة ، الملف يتضمن بيانات تفصيلية كاملة من مسئولى الجهاز فى المحافظات عن الذين تم اعتقالهم هذه الليلة ، وعدد الأفراد الجارى ملاحقتهم حتى شروق الشمس ، وعدد الحملات التى تعمل الآن فى هذه العمليات ، وعدد الضباط المشتركين فيها ، وحجم قوة الحماية المساندة لكل حملة منها . ثم ملحوظات العمليات التى تناول فيها مسئولو الجهاز فى كل محافظة مدى تفاهم الأجهزة الأخرى ،

وتقديراتهم فى ضوء ما تم من عمليات الليلة عن الفترة المتوقع فيها إنهاء باقى العمليات ، ثم .... لا شئ .

أوشك أن يدق الجرس لينفجر فى الرجل لولا أن خاطرا تسلل إليه وكأنه شهاب اخترق الظلمة طرفة عين واحترق ، لم لا يكون الأمر كله مقصودا حتى بالنسبة للجهاز نفسه . ترك الملف على المكتب وأخذ يتأمل من جديد كلمات المكالمة ويتفحصها كلمة كلمة لعله يجد خيطا يهديه ، بعد لحظات عجب من نفسه كيف لم يفطن إلى الكلمات ، إن تهمة النوم ليست موجهة له وحده فى الحقيقة بل هى تهمة موجهة للجهاز كله ، إنه جهاز لا يعرف ما يجرى من أمور ، الآن صار على يقين من أن الجهاز كله لا يعرف حتى الآن شيئا ، وعليه أن يفكر من جديد فى الموقف .

دق الجرس بهدوء لأول مرة منذ دخل مكتبه ، وقال لمدير المكتب بثقة القائد الخبير بإدارة المعارك :

- **اطلب من مسئولى الجهاز فى المحافظات أن يحصلوا فورا على معلومات الأمن العام عما حدث الليلة فى مناطق عملهم حتى ولو لم يكن له أى طابع سياسى .**

وسكت لحظة قبل أن يضيف :

- **اتصل أيضا بضباط الاتصال فى الأقسام فى القاهرة والاسكندرية ليوافونا على عجل بما عندهم من أخبار الأمن العام .**

ثم استوقفه وهو يأخذ طريقه لتنفيذ التعليمات ليؤكد :

- **لا أريد كلمة واحدة من ضباطنا تثير مشاكل مع الأمن العام ، وعليهم أن يحصلوا على كل المعلومات بكياسة حتى لا يتم إخفاء أى شئ عنهم .**

وقال لنفسه بعد أن خرج الرجل : « *الصراع التقليدى بين أمن الدولة*

والأمن العام شئ مزعج ، والتعاون بينهما ضرورى لنجاح أى سلطة ، فالأمن العام هو الجسم الفتى للسلطة ، وأمن الدولة هو عقل هذا الجسم ، فكيف يحدث صراع بين العقل والجسم ؟ » شغلته – وهو يتناول فنجانا جديدا من القهوة – فكرة كان قد استبعدها منذ المكالمة حتى لحظات مضت ، ولكنه بعد أن عاودته الثقة فى مقدرته على خوض معركته رأى أن يعيد فيها من جديد النظر ، هل يحسن أن يشرك قادة الجهاز معه فى تفكيره أو لا ؟ لقد رجح أول الأمر أن يظلوا بمعزل عن إدراك اتجاهه فى التفكير حتى يتأكد لهم قصورهم عن الوصول إلى مستواه فى القيادة ، ولكنه مال – تدريجيا – إلى إشراكهم معه بعد أن أصبح على يقين من سلامة الاتجاه ، قال لنفسه : « ***فليتعلموا إذن درسا فى التفكير الأمنى ، وليكونوا أدواته التى يحقق بها النصر السريع فى المعركة*** » .

دق الجرس من جديد واستدعى كبار الضباط إلى اجتماع عاجل ، وشرح لهم بإيجاز التحدى الذى تواجهه الإدارة ، وعليها – بهم – أن تثبت أهليتها للنجاح أو الفشل ، قال :

- **إن علينا الآن أن نستكشف من خلال آلاف الحوادث الحدث المطلوب حتى نستطيع السيطرة عليه وتطويق مضاعفاته .**

ولما سأله أحدهم عن أى مؤشر عن الإبرة وسط أكداس القش الهائلة المتوقعة أجاب بثقة القائد المحنك :

- **أعرف الصعوبات التى تواجهنا جميعا ، لكن لابد أن يكون للحدث المطلوب طابع سياسى بشكل ما . سيكون فى الظاهر مجرد حدث عادى ، ولكن من المؤكد أن له بعده السياسى .**

اشتغل كبار الضابط خلال الساعة التالية فى فرز قدر هائل من المعلومات التى انهالت على الإدارة من كل الجهات متضمنة طوفانا من الأشخاص والأماكن والأحداث من كل نوع : ضرب ، قتل ، سرقة ، تزوير ، تزييف ، حريق ، دعارة ، اغتصاب ،

حوادث سيارات . مضى الوقت دون أن تبدو فى الأفق بارقة أمل ، وبدأ اليأس يغرى بالشك فى مهارة الربان على معرفة الاتجاه وسط العاصفة ، وفجأة أمسك أحدهم بقشة لعلها تنجى من الغرق . وقال :

- **ربما يكون هذا هو المطلوب .**

قرأ الخبر على زملائه فى القاعة الكبرى فاهتزت بعض الرؤس متشككة ، وتمتمت بعض الشفاه بالرفض ، فاضطر أن يغامر بالسير منفردا إلى مركز القيادة .

نظر إليه القائد متأملا وهو يستمع إليه ، إنه ضابط جيد ، وإحساسه الأمنى ممتاز ، ونجاحه مسألة وقت لا أكثر ، لكن الخبر برغم ذلك يبدو عاديا .

طلب منه أن يقرأه للمرة الثانية ، فقرأ بصوت زالت منه الثقة :

- **ضبطت الشرطة العسكرية فى الساعة الواحدة صباحا ثلاثة أطفال (١١ - ١٢ - ١٤ سنة) يسرقون بعض اللافتات وقد سلمتهم إلى قسم الساحل للتحقيق .**

أخذ القائد الخبر ووضعه بين إصبعيه وراح يحدق فيه دون أن يطلب منه الجلوس ، وفجأة ... غمرت الوجه بشاشة الظفر وأطلت من العينين إشراقة النصر ، وصاح ببهجة :

- **هذا هو ... هذا هو .**

وطلب منه أن يجلس وهو يسأله ماذا يتوقع . أجاب الضابط وقد أعاد إليه قائده الثقة فى تفكيره :

- **هذه عملية تخريب واضحة .**

وسكت برهة قبل أن يضيف :

- **إن لم يكونوا قد اعترفوا حتى الآن فلابد أن يعترفوا .**

أغرته نظرة الرضا فى عينى القائد فاستمر يشرح تصوره :

- **أرجح – دون أن أعرف التفاصيل – أنهم أداة في يد تنظيم معاد .**

عقب القائد بهدوء :

- **علينا إذن أن نبدأ العمل .**

ثم أضاف – وكأنه يعطى ضابطه فرصة العمر :

- **ستكون مسئولا عن استجوابهم ، فإذا نجحت أصبحت مسئولا عن العملية كلها .**

دق القائد الجرس وأمر مدير المكتب أن يتصل بمسئول الجهاز في قسم الساحل للوقوف على أقوال المتهمين فقد تتضمن مؤشرا على معرفة المحرضين ، وإخطار القسم فورا بالتحفظ عليهم حتى ترسل قوة خاصة لإحضارهم إلى الإدارة لاستجوابهم بمعرفتها .

قال سمير لنفسه باعتزاز وهو يتابع تنفيذ تعليماته من خلال جهاز الاستماع الداخلي الخاص : « *هذه هي القيادة حقا* » . وصاح في جهاز اللاسلكي مخاطبا قائد القوة الخاصة المكلفة بالتوجه إلى القسم آمرا :

- **كن على اتصال دائم بي بعد أن تأخذ المتهمين .**

ثم نهض وفرك كفيه ، وقال لنفسه بإعجاب وهو يفتح الصندوق الأنيق المجاور للمكتب : « *أنت تستحق بالفعل التحية* » ، وصاح في مدير المكتب عبر جهاز الاتصال دون أن يطلب منه الحضور :

- **يظهر أن أمامنا عملا طويلا ، فابحث لنا عن شئ نأكله .**

ثم أسرع وكأنما يستدرك لتذكره تجربة غير سارة :

- **فلنجرب هذه المرة طعام مريديان ، واطلب للضباط عشاء كاملا لا عينات إفطار .**

ووقف ينظر من خلال زجاج النافذة العاكس إلى أسراب النمل البشرى التى بدأت تنتشر فى الطرقات ، ورفع كأسه إلى أنفه ليتخلل أريجها خياشيمه قبل أن يرشف منها رشفة صغيرة لعلها بللت شفتيه فحسب ، لكنها - برغم ذلك - حملت إليه متعة الذواقة الخبير الذى يعرف ما لا يعرفه أحد .

لما أبلغه مدير المكتب بوصول الطعام قال بلطف غير معهود :

- سنتناول جميعا الطعام فى قاعة العمليات معا .

لقد تملكته رغبة صادقة فى أن يفيد ضباطه وأن يعطيهم درسا عمليا فى التفكير الأمنى الرفيع ، وها قد جاءت فرصة ليوقفهم من خلال تجربة عملية على الأسلوب الأمثل فى إدارة المعارك ، « *إن المتهمين إذا أنكروا الاتهام كان ذلك شيئا طبيعيا ومتوقعا ، وما على الجهاز إلا أن يستخدم وسائله لحملهم على الاعتراف ، ثم للتثبت من صحة هذا الاعتراف . وإذا اعترفوا فلا ينبغى أن يتبادر إلى ذهن أحد أن المعركة قد انتهت ، على العكس من ذلك تماما ، فإن المعركة تكون قد بدأت فحسب ، إذ لابد من الشك فى دوافع اعترافهم : لماذا يعترفون مع أن بوسعهم الإنكار ؟ هل الاعتراف بهدف التضحية بأنفسهم ؟ لحساب من هذه التضحية ؟ هل بقصد إلقاء التهمة على غيرهم ؟ لم ؟ وكيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ ومن سيكسب بالاعتراف ومن سيخسر ؟ . الاعتراف إذن مجرد خطوة صغيرة جدا فى طريق طويل جدا تكتنفه كل الاحتمالات ، وعلى القائد الأمنى الفذ أن يستلهم خبرته فى التوصل إلى الحقيقة بصرف النظر عما يبدو أمامه من ظواهر . القيادة فى جوهرها فن رفيع المستوى فى التعامل مع خبايا النفس البشرية وخفايا الحياة السياسية ، ولابد لها من الذكاء المتوقد اللماح الذى بدونه لا يستطيع القائد الأمنى إحكام سيطرته على المواقف وقيادة النظام إلى القرارات الصحيحة*

فيها . على قادة الجهاز أن يعلموا أن الوقائع التى تظهر جلية ليست كل شئ ، وأن الحقائق التى يستوحيها القائد من طريقته فى فهم الأمور وتحليلها تتجاوز فى أهميتها كافة الوقائع . إن الواقع فى التحليل الأخير شئ غير قاطع الدلالة واحتمالات تزييفه أمر وارد كل لحظة ، أما الحقيقة فإنها دائما وليدة البحث العقلى الشاق الذى يجب أن يكون متمرسا بتحليل الظواهر وإعادة تركيبها من جديد » .

ورد التقرير الأول من مسئول الجهاز فى قسم الساحل وهم يتناولون الطعام ، كانت خلاصته :

– « الأولاد لم يعترفوا بشئ » .

ابتسم القائد وقال لنفسه : « *ها أنتم أمام موقف عملى فأرونى كيف تطبقون الدرس النظرى* » ثم صاح بلهجة لا تخلو من بهجة قائلا :

– أظن أيها السادة أن أمامكم عملا يستحق الاهتمام .

وانتقل إلى غرفته منتظرا بدء الاتصال مع قوة الحراسة التى تنقل المتهمين ، وعنَّ له فجأة التثبت من بعض الأمور تحسبا للاحتمالات غير المتوقعة ، فدق الجرس وقال لمدير المكتب فى عبارة قاطعة :

– اتبع إجراءات السرية القصوى .

فخرج الرجل ليأمر القسم المختص بالمتابعة اللاسليكة بعدم تسجيل أى شئ رسميا فى الأرشيف الصوتى والكتابى للجهاز ، واستخدام أجهزة التشويش فى تغطية الاتصال المتوقع ، وطلب ضابطا معينا ليقوم بمهمة تسهيل المتابعة اللاسلكية للقائد وتسجيلها – إذا رغب – على جهازه الخاص فى غرفة القيادة .

وما لبث الإتصال أن بدأ .

قال قائد قوة الحراسة :

– الأولاد فى البوكس ، رأيتهم ونحن نتسلمهم يبكون ويصرخون فى رعب وهم فى حالة إعياء ويبدو بهم بعض آثار الدماء . وقد أبلغونى فى القسم أنهم تسلموهم وهم فى هذه الحالة ، وأنه يحتمل إصابتهم أثناء تسلقهم أعمدة النور لسرقة اللافتات .

قاطعه قائده بضيق :

– ما هذا اللغو ؟ هات البيانات .

أجاب بسرعة وكأنه يقرأ من محضر رسمى :

– إنهم ثلاثة :

« الأول : وليد عبد الرازق عبد ربه – ١٤ سنة – مسلم ، تلميذ فى الصف الثانى الإعدادى بمدرسة محمد فريد ، بشبرا ، ومقيم فى ٣ زقاق عصفور حارة نخلة أرض شريف ، بقسم الساحل .

والثانى : شريف كامل جرجس – ١٢ سنة – مسيحى ، تلميذ فى الصف السادس الابتدائى بمدرسة السلام المشتركة ، ومقيم فى المنزل رقم ٩ حارة سلامة بأرض شريف ، قسم الساحل .

الثالث : ياسر مصطفى عبد الرحمن – ١١ سنة – مسلم ، تلميذ بالصف الخامس الابتدائى فى نفس المدرسة السابقة ومقيم فى ٤ حارة حنا نخلة بأرض شريف ، قسم الساحل » .

سكت قائد قوة الحراسة لا يضيف شيئا ، ولكنه أيضا لم يقطع الإرسال ، ففطن قائده إلى أن لديه معلومات أخرى يتحرج من ذكرها ، فصاح وكأنه يزجره :

– لا وقت للتردد ، قل ما عندك .

أجاب بصوت مفعم بالحيرة وكأنه ما زال مترددا :

– فى الحقيقة يا فندم حين كنت أستلم الأولاد كان بعض أقاربهم

فى القسم يسألون عنهم ، وقد اضطرب الضابط المناوب وأوشك أن يبلغهم باحتمال نقلهم إلى الجهاز لولا أننى العحت عليه أن يقول لهم مؤقتا إنه ليست لديه معلومات عنهم ، لكنه يحس أنه فى ورطة لأنه سجل محضرا رسميا بالحادث عند استلامهم من الشرطة العسكرية ، ولا يعرف كيف يتصرف ، وكان مصرا على تسليمهم بمحضر رسمى لولا أننى وعدته بشرفى بإعادتهم إلى القسم قبل انتهاء النوبطشية .

انفجر القائد وقد بلغ به الملل من التفاصيل السخيفة أقصاه :

- ما كل هذا الهراء ؟

وأغلق الجهاز وهو يقول لنفسه : « *هؤلاء الضباط الصغار سواء عندنا أو فى الأمن العام فى حاجة ماسة إلى تدريب طويل* » . دق الجرس من جديد ، وقال لمدير المكتب بنبرة يعرفها :

- فليتم التحقيق فى غرف السيطرة .

ثم صمت برهة قبل أن يأمر باستدعاء العميد حسن زكريا .

بعد أقل من دقيقتين حضر حسن ، حياه وظل واقفا بصرامة لا تصدر عنه حتى طرفة عين ، ووجهه يحمل ابتسامة مشدودة تحاول أن تخفى القلق الذى يساوره فى احتمال عدول قائده عن إسناد العملية إليه . تفرست عينا القائد فيه وكأنه يسأل نفسه : « *هل فى استطاعته حقا أن يؤدى المهمة* » ؟ لمح حسن طيف ابتسامة هاربة فى عيون الصقر وهو يخاطبه بتؤدة :

- وعدتك أن تقوم بالاستجواب . فهل أنت مستعد ؟

أوشك أن يقول له : « فقط » ولكنه آثر التروى وقال وكأنما يستجديه :

- لعل معاليكم لا يكتفى بالاستجواب فلا يحرمنى من العملية كلها .

قال القائد بلغة الذى يختبر كفاءة رجاله :

- قل لى أولا أفكارك .

قال حسن بوضوح كامل كل ما يفكر فيه ، وكل الخطوات التى يتصور تنفيذها .

صمت القائد بعد أن استمع إلى الأفكار والخطة ثم قال بهدوء المتمكن القادر على تدارك ما قد يقع من أخطاء .

- سأمنحك الفرصة كاملة .

ثم أضاف ليخفف من أثر البهجة التى غمرته :

- لكن هناك ملحوظة لا أحب أن تنساها لحظة واحدة .

فتنبهت حواس حسن جميعا واندمجت فى أذنيه اللتين استشرفتا الكلمات وهى تولد على الشفاه :

- لا أحب العنف الزائد ، فلا تلجأ كثيرا لأسلوبك المعهود .

* * *

تأملهم القائد فى جهاز التليفزيون الذى يعمل على الدائرة المغلقة وهم يدخلون مذعورين غرف التحقيق ، بدوا أطفال عاديين قذرين من هذا النوع من الواغش البشرى الذى يملأ الأحياء الشعبية ، سئ التغذية ، شديدى البؤس بوجوههم المصفرة وعيونهم المرعوبة المحمرة وملابسهم الرثة الملوثة وأرجلهم الحافية . أحس تجاههم منذ الوهلة الأولى بعدم الراحة ، فهذه النماذج عادة هى البيئة المناسبة للتنظيمات المعادية ، وما كانت الأسئلة تتوالى عن أسرهم وأحوالهم حتى تأكد لديه هذا الإحساس ، وما أن انتقلت الأسئلة إلى استخلاص المعلومات الخاصة بالمدارس حتى أدرك كل شئ بوضوح . « *إن نفى الأولاد الصلة المباشرة بمدرسيهم دليل على أن ثمة شيئا ما بينهم ، إن لمدرسيهم دورا خطيرا فى تكوينهم ، فهم الذين صاغوا اتجاهاتهم وكونوا ميولهم ، الفقراء لا خطر منهم ما*

داموا لا يدركون ما هم فيه ، فإذا أدركوا انفتح باب الخطر على مصراعيه ». قال القائد لنفسه وكأنه يخاطب حسن فى الجهاز أمامه : « هنا مربط الفرس ، المدرسون . من هم ؟ ما ميولهم ؟ ما اتجاهاتهم ؟ هل يضمهم تنظيم خاص ؟ لحساب من يعمل هذا التنظيم ؟ هل يعمل لحسابهم وحدهم أو لحساب قوى أخرى معهم ؟ هل يحتمل أن يكون لهم علاقة بقوى خارجية ؟ ما طبيعة هذه القوى ؟ تابع ولا تتردد . واضح أن الأولاد بمحاولتهم الاستيلاء على اللافتات كانوا يقومون بمهمة سياسية ، لا تلق بالا إلى ما زعموه من أنهم حاولوا الاستيلاء على هذه اللافتات لشدة فقرهم وحاجتهم إلى ملابس داخلية ، هذا تبرير غير منطقى ، فأنت تعلم أن اللافتات تعلق بصورة لا تسمح بإعادة استعمالها ، إن التبرير يعكس تلقينا ويدل على جريمة ، لا تتوقف يا رجل وامض حتى نهاية الشوط . لابد أن يعترفوا بتنظيم مدرسيهم ، لا تدعهم حتى يقولوا كل ما عندهم ، لا تهتم بما يبدو من إعيائهم ، فلعله بعض ما تدربوا عليه عند مواجهة مثل هذا الموقف ، لا تلق بالا إلى صراخهم وادعاءاتهم بوجود إصابات فيهم ، إنه دليل على أنهم تلقوا تدريبا شاقا » .

وظل القائد يتابع فى الجهاز الذى أمامه مجريات التحقيق . وما كاد يرى حسن يصفع الأولاد ويأمر بإلقائهم إلى الكلاب الشرسة حتى أدرك أنه على الطريق الصحيح ما دام لم يقتنع بما ذكروه .

واضح أن العملية ذات بعد خاص يستدعى أن يطمئن على سير تفكير ضابطه الذى يقود البحث ، حتى يسهم معه بخبرته فى رؤية الأبعاد واستكناه الخفايا . أنصت إليه متأملا بإعجاب مقدرته على الإدراك ، كيف لم يفطن من قبل إلى بذرة القيادة فيه ؟ :

- العملية ذات بعد اجتماعي وسياسي ، هذه الحركات التي تمّت لم تكن عبثا في هذه الظروف ، نحن نغفل هذه الظروف التي يمر بها العمل الوطني إذا اقتصر تفكيرنا على حادث قام به أطفال ثلاثة . ليست المسألة كما قد تبدو لبعض إخواننا تصرفات عرايا ولا صرخة جياع ولا عمل حمقى ، إن هذا هو السطح الخارجي الذي أريد لها أن تأخذه ، بينما هي في الحقيقة تخطيط ذكي لاستغلال العرايا والجياع والحمقى ، وهي بذلك تحمل مؤشرا واضحا إلى اتصالها بفكر وافد من خارج الحدود وموقفه من عملنا الوطني .

- وما إطار تحركك الآن ؟

رد الضابط بيقين الذي لا يسمح لنفسه بخطأ الإهمال :

- سنسير في الاتجاهين : التنظيم المحتمل للمدرسين . والتنظيم المؤكد وجوده في المنطقة لليساريين .

ثم أضاف بعد لحظة وكأنه يفكر :

- من يدري ، ربما نجد اتصالات مشتركة بينهما .

ثم انتقل ذهنه فورا إلى العمل :

- أستأذن معاليكم في القيام بالتحريات من الجهاز مباشرة دون اعتماد على ضباط الاتصال بالأقسام ، إنهم .. .

هز القائد رأسه موافقا فلم يجد دافعا لإكمال العبارة .

- كما أستأذن معاليكم في اتخاذ بعض إجراءات التأمين اللازمة للسيطرة على الموقف حتى تتم التحريات .

هز رأسه موافقا أيضا . لكنه لم يمض . فسأله مشجعا :

- **ماذا تريد أيضا :**
- **أن تتم إجراءات الاعتقال اللازمة للتأمين على الفور ، برغم طلوع النهار لأننا فى صراع مع الزمن ، الأولاد فى أيدينا وقد يدركون أن التنظيم قد انكشف فيتحركون حركة غير محسوبة .**

رد القائد بارتياح :

- **لا مانع ، لكن على ألا تبالغ .**

أحس القائد بسعادة حقيقية طوال الساعات التالية وهو يتابع من موقعه سير العمل ، لقد انشغل الجهاز تماما فى العملية وكأنه خلية نحل لا تهدأ ، خرجت أول الأمر بضع حملات لاعتقال المدرسين الذين وردت أسماؤهم على ألسنة الأولاد ، وكذلك بعض العناصر اليسارية ذات الصلة بصورة أو بأخرى بالمنطقة فى أرشيف الجهاز ، كما توجه عشرات من عناصر الجهاز من مستويات مختلفة فى مهام متعددة لجمع المعلومات من مناطق كثيرة ، وقام عدد من الضباط المتخصصين فى التحقيق بمهمة استخلاص المعلومات من المعتقلين ، كما انشغل بعض كبار الضباط فى تقييم المعلومات وتقدير مدى صحتها ، ومن ثم توجيه سير التحقيق أولا بأول . وقد حدثت أزمة صغيرة قبيل الظهر ، فقد فوجئ العميد حسن قائد العملية بزيادة عدد المعتقلين عما كان متوقعا ، فإن الذين يتم اعتقالهم سرعان ما يرشدون إلى غيرهم ممن يجب أن يعتقلوا ، ولم يكن معقولا فى تصوره أن يرجأ التحقيق معهم إلى أن ينتهى الضباط المتخصصون ممن بين أيديهم ، لقد أدرك أنه فى صراع مع الزمن ، وأن كل دقيقة تحمل خطرا غير منظور ولا متوقع ، ولكنه مع ذلك تصرف تصرفا صحيحا وظل مسيطرا على الموقف ، من غير حاجة إلى الرجوع إلى قائده نفسه ، لقد كان على يقين من أن قائده يحيط بكل شئ ، وأنه لو أخطأ لبادر إلى التدخل .

وهكذا بفضل العمل الدءوب المنظم لم يكد يأتى المساء حتى توصل التحقيق إلى اكتشاف تنظيم سرى للمدرسين ، ليس فى مدارس المنطقة وحدها ، بل يمتد إلى مناطق

واسعة فى القاهرة والأقاليم ، كما تم الحصول على بعض مطبوعات هذا التنظيم ، صحيح أنها تبدو لغير المتمرس كما لو كان دعاية انتخابية ضد إدارة النقابة الحالية ، ولكن الخبير يعرف أن هذا أسلوب من أساليب التمويه المتبعة فى التنظيمات السرية ، وقد أحيلت المضبوطات إلى خبراء الجهاز للتحليل .

قال القائد لنفسه وهو يفتح الصندوق الصغير الأنيق المجاور للمكتب : « *آن لك أيها المنتصر أن تحصل على مكافأة خاصة قبل الاتصال* » .

ثم أمسك بالسماعة ، وطلب الرقم الخاص ، وقال بإجلال الجندى :

– **أبشر فخامتكم .**

جاءه الصوت الخشن مغلفا بمودة ظاهرة .

– **أعرف ، لقد أديتم عملا رائعا بصرف النظر عن النتائج .**

أوشك أن يقول له : « إن العمل رائع بفضل ما أسفر عنه من نتائج وليس بدونها » . لكنه آثر الصمت .

وواصل الصوت :

– **مازلت موقنا من قدرتك على معالجة الأمور .**

لولا الكلمات الأخيرة التى تضمنت تقديره الشخصى لربما أحس بكدر ، لقد قاد العمل بنجاح يحسب له ، ووسط الظلمات الكثيفة من كل جانب استطاع أن يتوصل إلى معرفة الاتجاه وتحديد المسار ، إن الفضل فى كل شئ إنما يعود إلى خبرته ومقدرته ، والتقدير الموضوعى يجب أن يكون له قبل غيره . إن التحية فى مكانها تماما .

وقف منفردا ، وقال لنفسه وكأنما يخاطب غيره :

– **سيدى ، أعترف بذكائكم الخارق ، وأقر بأنى مازلت فى حاجة إلى الاستهداء بكم ، وسأظل دائما أسير توجيهكم .**

وصاح ببهجة فى مدير المكتب عبر جهاز الاتصال الداخلى :

- **أعد لاجتماع نتناول فيه الشاى خلال نصف ساعة .**

ثم أضاف بصوت يجلجل بالسعادة :

- **ينبغى تحية الرجال على ما بذلوا من جهود .**

فرد مدير المكتب دون تفكير :

- **أمر معاليكم .**

بعد دقائق دخل مدير المكتب دون استدعاء واجما ، يحمل وجهه آثار انفعال حاد ، وقال بأسى :

- **خبر سيئ معالى الباشا .**

نظر إليه قائده بعيون جامدة : ***« لا ، إنه ليس مستعدا وهو فى قمة النصر أن تلحقه ذرة هزيمة »*** .

تابع مدير المكتب :

- **الأولاد .**

لم يكمل ، فبقيت عينا قائده تستطلعان: :

- **يبدو أن الكلاب برغم أنها مدربة جيدا .**

انقطع الصوت ***« استمر يا ولد ، ما هكذا يكون رجل الأمن السياسى ، إن عليه أن يواجه الكوارث دون أن تهتز له شعرة واحدة ، ليس فى مثلك بذرة قائد منتصر »*** .

- **لعلهم نسوها فى غمرة الأحداث الماضية ، وربما لذلك كانت جائعة .**

لم يستطع أن يستمر ، فقد طفرت من عينيه الدموع .

قال قائده وقد فهم كل شئ :

- **حادث مؤسف ، مؤسف جدا .**

ثم أضاف بعد لحظة :

– أرسل لى العميد حسن .

دخل الرجل متخاذلا ، لا تكاد تحمله ساقاه ، زاغت عيناه حتى كأنه لا يرى ما حوله بقدر ما كانتا تحدقان فى أعماقه : « *لقد ضاع كل شئ ، كل شئ ، حقق النجاح الذى ظل طوال عمره يحلم به ولكن فى نفس اللحظة جاءت عاصفة هوجاء أطاحت بكل شئ ، سيصير أضحوكة الناس وحديث الدنيا ، ليتهم لم يكونوا أطفالا ، بل ليت كل ما كان لم يكن* » .

قال قائده بصوت صارم :

– لقد أخطأت خطأ جسيما ، كان يجب عليك التثبت من كل شئ .

رد حسن مستسلما :

– أعرف .

تابع القائد :

– هذا خطؤك وحدك .

رد حسن بيأس :

– أعرف .

استمر القائد :

– وعليك أن تتحمل المسئولية كاملة .

رد وقد أيقن أنه غرق دون أمل فى نجاة :

– أعرف .

واصل القائد :

– وماذا ستفعل : ؟

« لا فائدة من أى شئ » .

– سأكتب تقريرا مفصلا يتضمن ما حدث ..

جاء الأمر قاطعا :

– اجلس واكتب .

تأمل القائد رجله وهو مستغرق فى الكتابة وقد نضحت ملابسه بالعرق فبدا غارقا فى بحر لُجِّىٍّ . فقال لنفسه : « إنه لأمر يدعو إلى الأسى حقا ، وإنك لتستحق ، مهما كان فهم أطفال ، وقد حذرتك من قبل أن تبدأ ، وما كان ينبغى أن تصل المسألة إلى الموت » . ألقى نظرة ازدراء عليه وهو يشطب عبارة ليكتب غيرها ، واستمر يفكر « إنه ما زال فى حاجة إلى تدريب طويل » ، أخرج من الصندوق الصغير الزجاجة التى فرغ نصفها وصب لنفسه كأسا ثم وقف إلى جوار النافذة يتأمل أضواء ليل القاهرة : « إن ما حدث يسيئ بالقطع إلى الجهاز ، ولكن المهم الآن المحافظة على سمعته . سيستغل ما حدث فى تشويه سورة الجهاز كله وصورته على رأسه ، ولا ينبغى أن نتسرع فى الحكم بحال . ألا يجوز أن يكون فى الأمر مؤامرة ، إن أعداءه كثيرون وأطماعهم لا حدود لها ، وهم يلجئون إلى أحط الأساليب فى معركتهم معه . ولا يستبعد أن يكونوا وراء إهمال إطعام الكلاب ، ومحتمل أن يكون للتنظيمات السرية دور فى المسألة . إنهم يهدفون إلى إزاحته من السلطة فلا ينبغى فى لحظة انفعال أن يتمكنوا من تحقيق أهدافهم ، لقد كانت السلطة دائما هدفه وبغيته ، ومن أجل الوطن يجب أن يظل فى السلطة إلى أن يموت . السلطة جلد أسد ، ترتدى وشاح الطاووس وتسحق الأعداء بأقدام فيل ، أما خارج السلطة فجيفة كلب ميت تعاف رائحتها حتى الكلاب » .

تسللت إلى رأسه وهو يصب لنفسه كأسا أخرى عبارات المكالمة الأخيرة ، وبدأ

الوميض يتخلل الظلمات ويوضح الإتجاه ، نعم لا مجال للتردد لحظة واحدة . لقد كان يعرف مع بعده عنه كل شئ حتى ما لم يكن يعرفه مع كونه وسط المعركة ، « *لقد احسنا بالفعل العمل بصرف النظر عن النتائج ، وإن علينا أن نتصرف بحكمة فى مواجهة الأمور* » .

نهض حسن وقال وهو منكس الرأس :

– **هذا تقرير مفصل يتضمن اعترافا كاملا .**

أخذ قائده التقرير بيده دون أن ينظر فيه ، وقال له بهدوء :

– **اجلس ، فالأمر يحتاج إلى مناقشة .**

وقف منه ، من خلال المناقشة ، على ما حدث ، إنه نوع من الإهمال تسبب فى موت الأطفال الثلاثة ، فالكلاب لم تأكل منذ أكثر من يومين عندما شغلتهم متابعة حركة الاعتقالات الواسعة . مصادفة سيئة أن يصل الأولاد فى هذه الظروف ، قال القائد لنفسه : « *فلنكن موضوعيين ولا نخضع للانفعال ، إن التزيد فى تصوير ما حدث يدل على التفكير الغوغائى الذى لا يصح أن يقع فيه مسئول . لا ينبغى المبالغة ولا يليق بعقولنا أن نتصور وقوع كارثة ، إن الوطن لم يفقد إلا ثلاثة أطفال لا قيمة لهم يموت مثلهم فى كل يوم آلاف . ولعلنا أحسنا من حيث لا ندرى بتخليص أسرهم من أعبائهم ، لو تصورنا بقاء هؤلاء اللصوص الصغار لتحولوا مع الزمن إلى كوارث حقيقية لأسرهم وللبلاد معا* » .

قال القائد بعد أن فرغ رجله من حكاية ما حدث :

– **الآن ، حدثنى عن موقف زملائك .**

قال الرجل بصوت مثقل بالحزن :

– **إنهم جميعا محزونون ، يحسون بالأسى وكأن الخطأ خطؤهم جميعا ، انكسرت فيهم القلوب ، حتى من لم يشارك فى العملية**

كلها .

قال لنفسه : « *إنهم يتصورون ما سيحدث إذا نشر شئ عن العملية ، ستنهش الأقلام الضالة الجهاز ، وسيركب الموجة الضالون والمضللون ومدعو الشعارات والعملاء* » .

قال القائد وهو يتفرس الرجل :

– والآن ، ماذا تتصور أن يحدث ؟

أجاب الرجل وكأنما يرثى نفسه :

– لقد كتبت اعترافا كاملا ، وأظن أن النيابة العامة لن تجد صعوبة بعدما كتبت .

صرخ القائد صرخة مدوية :

– اعتراف ؟ النيابة العامة ؟ أنت مازالت أهوج وفى حاجة إلى أن تتعلم . الحمقى ليس مكانهم هنا .

بهت الرجل ، ولم يدر بماذا يعقب ، وتعلقت عيناه بالشفاه .

تمالك القائد نفسه وهو يضع الاعتراف فى جيبه ، وقال بهدوء :

– أنت رجلى وعلى أن أنقذك ، دعك من الاعتراف المكتوب ، اعتبره كأن لم يكن .

« *عجبا !! كيف يمكن لكلمات أن تحيى نفسا ميتة ؟ أشرق الوجه بالنور وفاضت دموع الشكر* » .

تابع القائد العظيم :

– وإنقاذ سمعة الجهاز عمل وطنى ، ولست مستعدا مطلقا للتخلى عن واجبى إزاء الوطن .

واستمر يحدد بذكائه الخارق معالم الطريق :

- لا اعتراف مطلقا بأى شئ ، إنك لم تر هؤلاء الأولاد ولم تسمع بهم قط ، والجهاز كله لا معرفة له مطلقا حتى بمجرد وجودهم .

ثم صمت لحظة قبل أن يضيف :

- اذهب وتكفل بكل شئ ولا تترك خيطا واحدا دون اهتمام ومعالجة .

أدى الرجل التحية لقائده ، ولو استطاع أن يسجد لفعل ، فالقرار الصحيح لا يستطيعه إلا قائد ملهم ، وفى لحظات التاريخ الحرجة تتضح مقدرة الرجال وأقدارهم .

فتح الصندوق الصغير وهو يقول لنفسه : « *فلنستعد لتوجيه الرجال* » .

ضغط زرا فى جهاز الاتصال الداخلى ليسمعه كل من فى الجهاز برغم اختلاف أماكنهم ، وخاطب مدير المكتب بصوت حاسم :

- سأكون بعد خمس دقائق تماما فى القاعة الكبرى .

دخل القائد القاعة متمهلا ، تحف به النظرات الوجلى ، تفرس فى الوجوه التى تعكس الأسى الدفين وتجسد الضيق ممزوجا بالكآبة واليأس ، أيقن أن عليه مسئولية وطنية توشك أن تكون مهمة تاريخية ، فلا ينبغى مهما كانت الأمور أن تنخفض معنويات الرجال ، فهم جنده الذين يحارب بهم معركة الوطن .

صمت برهة تلألأت فيها فى عينيه الدموع ، ثم قال بصوت بالغ التأثر :

- اعذرونى أيها السادة إذا لم أستطع اختيار الكلمات ، فأنا حزين أشد ما يكون الحزن ، آسف أعظم ما يكن الأسف ، إننى أتصور هؤلاء الأولاد وكأنهم أولادى ، وأنا بطبيعتى أحب الأطفال وأكره العنف ، وأعلم أنكم جميعا لا تحبونه ، لكن أمن الوطن فوق المشاعر الشخصية ، وسلامته يجب أن تعلو جميع الاعتبارات .

توقف لحظة ليمسح دموعا أوشكت أن تسيل ، قبل أن يستطرد .

- نحن جميعا أدوات فى خدمة النضال الوطنى لتحقيق مجتمع صالح يحظى فيه مواطنونا بالأمن والأمان ، ولو دعا داعى الوطن فلن يبخل أحد بدمه وسيضحى دون تردد ، إن القُوى المعادية تتربص بكم وبالوطن من خلالكم ، لأنكم درعه الصلبة التى تتكسر عليها كل المؤامرات ، وعينه الساهرة التى تتربص لجميع التحركات ، وبرغم مانعانيه من أسى لما حدث فإنه لا يصح أن ننساق وراء عواطفنا الرقيقة ، ولا يجمُل بنا أن نستسلم لمشاعرنا المرهفة .

ارتفع صوت القائد وهو يرى شيئا من الراحة يتسلل إلى العيون ، وتابع الكلمات :

- إنكم رجال أصلاء ، وفرسان نبلاء ، أعرف أن أصالة الرجولة تدفعكم إلى الحزن ، وأن أخلاق الفروسية تغرس فى قلوبكم الألم ، ولكن اسمحوا لى أن أذكركم بأنكم تحاربون أعداءكم وأعداء وطنكم ، ولا يليق بالرجال أن يصرفهم الحزن عن الواجب ، ولا يقبل من الفرسان أن يتقهقروا فى معركة مهما واجهوا من صعاب .

جلجل صوت القائد صادحا وكأنه موسيقى عسكرية وهو يسكب الحماس فى قلوب الرجال :

- إن قيمة الإنسان بما يقدم للوطن ، وفى وطننا ملايين الخفافيش التى لا تستحق الحياة . حسب هؤلاء الأولاد شرفا أنهم بذلوا أرواحهم فداء للوطن ، إنهم مدينون لكم وحدكم بما نالوه من شرف الإسهام فى عمل وطنى ، ولولاكم لظلوا كما عاشوا صراصير تافهة حقيرة تستحق السحق بالأقدام ، وحسب جهازكم

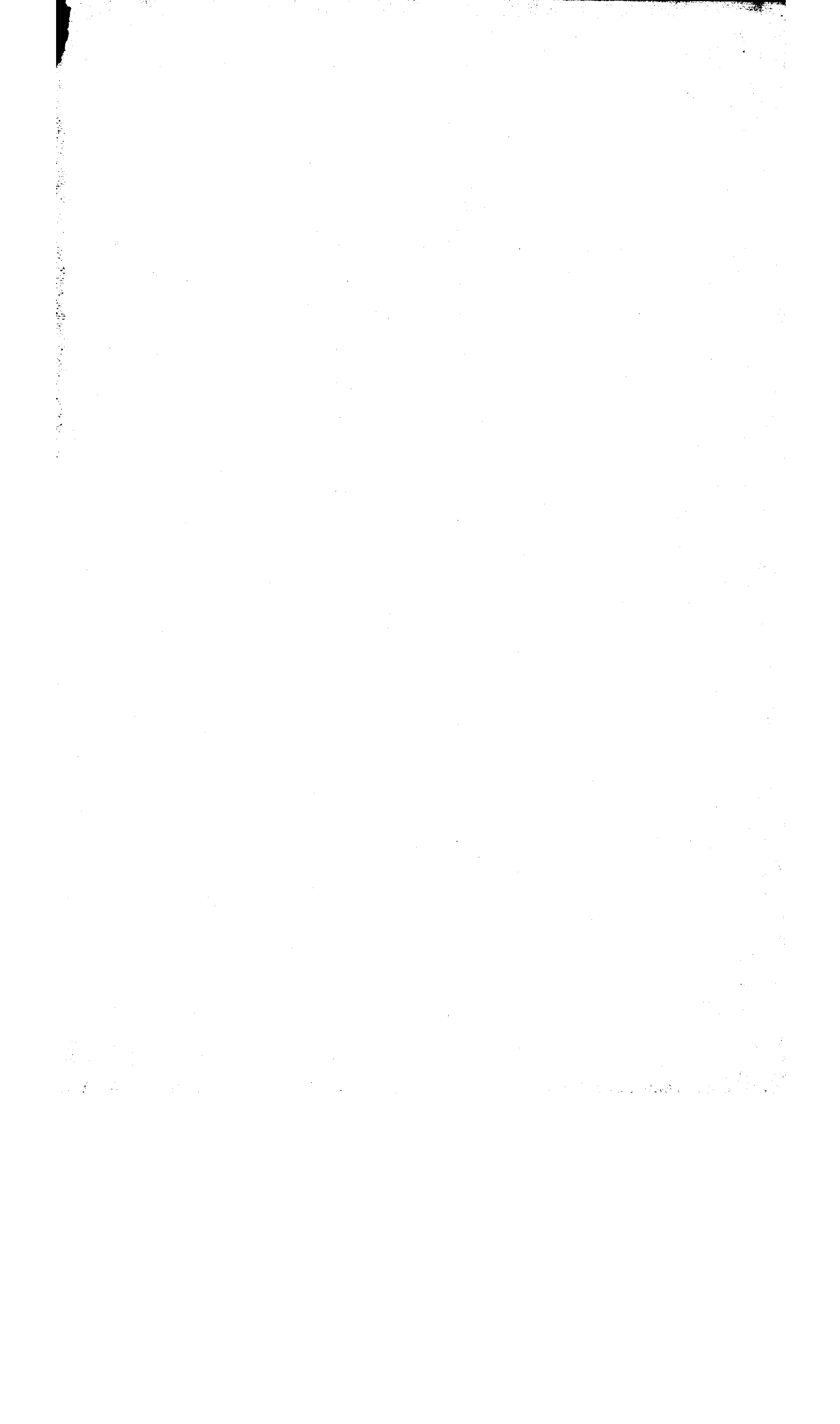
فخرا أنه كان دائما يؤدى واجبه مضحيا بلا حدود . وإن أى ثمن يدفع فى هذا السبيل لجد قليل .

وصاح صيحته الأخيرة المدوية فى القلوب والأسماع :

- إن للوطن أيها الرجال أن يعتز بكم ، وأن يطمئن ومصيره بين أيديكم ، لقد قمتم أيها الفرسان بعمل رائع عظيم ، فارتفعوا بشموخ فوق الأحزان ، وارفعوا بكبرياء رءوسكم بالفخار ، واملأوا باعتزاز عيونكم بمشاعر النصر .

ارتفعت الأيدى دون قصد بالتصفيق الحاد ، ودمعت العيون تأثرا ، وأوشك الرجال - لولا وجودهم فى مجلس عسكرى - أن يهتفوا بحياة الزعيم .

✍ ✍ ✍



الفصل الثامن

هل عقلك ينبض بالأوهام
أم يسبح قلبك فى الأحلام

دق مراسلة المأمور الباب نصف المغلق دقتين فقال رئيس المباحث الذي كان منكبا على صحيفة أمامه دون أن يرفع عنها رأسه :

- ادخل .

دخل الجندى وأدى التحية ثم خاطبه :

- حمد الله على سلامتك يافتحى بك ، الباشا المأمور عاوز سعادتك

أتاه الصوت من غير أن ترتفع إليه نظرة :

- هل حضر ؟

فرد الجندى ؟

- نعم يافندم

سأل رئيس المباحث وكأنه يستغرب :

- متى ؟

قال الجندى :

– منذ مدة .

واستطرد :

– كان مجتمعا مع نائب المأمور وبعض الضيوف .

وقال وكأنه يكلم نفسه :

– حضر مبكرا على غير العادة .

صرف رئيس المباحث الجندى قائلا :

– بلغه أنى ساحضر على الفور .

طوى الصحيفة على صفحة الحوادث التى قرأ فيها الخبر القديم الذى أتيح له أخيرا أن يرى النور بعد أن كاد يطويه النسيان ، وهو يقول فى نفسه : « *ولم لايحضر مبكرا ؟ إنها مفاجأة سارة فلابد أن يأتى لتلقى التهانى* » وأخذ يستعرض فى ذهنه وهو يسير مقدمة الخبر المنشور : « *لقد جاء منضبطا تماما ، نفذ المحرر كل مانبهته إليه فى المرات السابقة ، لم ينس اسما ، بل إنه لم ينس حتى الترتيب الواجب ، لولا تأخره لكان رائعا حقا* » .

فتح باب حجرة المأمور من غير أن يعنى بالاستئذان وألقى بتحية الصباح فى مودّة ظاهرة ، وجلس من غير انتظار للدعوة وقال لرئيسه الذى بدا – على غير ماتوقعه – شاردا :

– هنيئا لكم ياسيدى ، الاسم بالبنط الكبير ينور الصفحة .

دق المأمور الجرس وكأنما لم يسمع شيئا ، وأمر الجندى بإغلاق الباب قبل أن يلتفت إليه قائلا بنبرة لوم غير معهودة ولا متوقعة .

– بطّل تهريج .

قال رئيس المباحث وقد أيقن أن المأمور لم يطلع على الخبر :

- سعادتك بالتأكيد لم تقرأ الصحف اليوم .

لم ينتظر ردا ، وتابع بلهجة المنتصر :

- لقد نزل الخبر كما أردناه تماما ، انظر .

وفتح الصحيفة المطوية أمام عيني رئيسه ، كان الخبر يتصدر الصفحة ببنط كبير ، وقد تضمن كالعادة أسماء كبار المسئولين الذى علموا ، وخططوا ، وأشرفوا ، وأخيرا نفذوا عملية ضبط مجرم هارب ، وقد احتل اسم المأمور موقعه المناسب في الترتيب .

أزاح المأمور الصحيفة جانبا وقال بهدوء :

- قرأتها فى البيت .

ثم أضاف ، وكأنه يرضى مرءوسه :

- لابأس بالخبر على أى حال .

قال رئيس المباحث فى نفسه : « *لا ، ليس هذا هو الرجل الذى تعرفه ، من المؤكد أن فى الأمر شيئا* » ، ونظر إلى رئيسه بعينى صقر ، واستعد جهاز الاستقبال فيه للتلقى .

تفرسه المأمور بإمعان وهو يقول :

- إنك لست متزوجا ، ولكنك برغم ماتفعل تبدو زوجا صالحا .

أخذته الكلمات على غرة . هل شكا إليه أحد ؟ إنه لم يمارس نشاطه الحيوى فى المدة الأخيرة إلا نطاق محدود جدا ، ولكن من يدرى ، ربما كان منهن من لها وضع خاص .

تابع المأمور بابتسامة غامضة ، من غير أن يهتم حتى بربط الأفكار :

- ومع ذلك مازال عندى أمل فى ألا تشغلك رغباتك الجامحة عن

العمل .

لم يصدق رئيس المباحث أذنيه . وأوشك أن يغضب . قال فى نفسه « *أنت تعلم أنى لاأقصر فى العمل قط . إننى أعلم نية كل نملة فى دائرة القسم لامجرد خط سيرها* » وأوشك صوته أن يعلو وهو يتحدث لولا أن أدركه الإحساس الغلاب الصادر عن تلك الحماسة الخاصة التى تتجاوز الكلمات ، تلك التى تقوم على قربى حميمة ، توحدت فيها علاقات التلمذة والبنوة الفكرية والصداقة ، واندمجت فيها مشاعر الاعتزاز والمودّة والفهم والاحترام .

قال المأمور وهو يحدّق فيه :

– هل تعلم أنه تم أمس اكتشاف تنظيم سرى معاد .

فرد باستهانة وكان الأمر لايستحق اهتماما :

– سمعت ، فهم يكتشفون فى هذه الأيام الكثير .

وأردف بعد لحظة صمت :

– لاشأن لنا بهم على أى حال .

عقّب المأمور وكأنه يؤكد كلماته :

– المهم ألا يكون لنا بهم شأن فى المستقبل .

أصغى رئيس المباحث وقد حمل إليه التأكيد غير المتوقع مشاعر غامضة ، وقال فى نفسه : « *فى الأفق غيم* » .

واصل المأمور حديثه :

– حدثنى عن الأحوال فى دائرة القسم .

فقدم رئيس المباحث تقريرا سريعا ، إذ لم يشأ – كعادته معه – أن يثقل رأسه بالتفاصيل الصغيرة ، ولكن المأمور على غير عادته أراد أن يقف على كل مالديه من معلومات فى بعض الموضوعات . ولما جاء موضوع الأولاد المفقودين وعلم أنه لايعرف إلا

الإحصائية التى قدمت إليه فى هذا الصباح بعد عودته من زيارة أسرته فى الأسكندرية عقب بارتياح

- هذا أفضل ، فلا تشغل بالك بموضوع تافه .

فرد رئيس المباحث بتلقائية دون تفكير :

- هذا طبيعى ، فهو مجرد بلاغ لاأهمية له .

وحين انتهى من تقريره اليومى استأذن فى الانصراف فقال له المأمور مؤكدا :

- الاستفتاء بعد أيام ، ويجب أن يكون كل شئ هادئا فى القسم .

وأضاف وكأنه يضغط على الكلمات .

- لانريد مشاكل من أى نوع فى هذه الظروف .

بوغت بالتوجيه ، فرد وكأنما أحس بهجوم :

- غيرنا هو الذى يصنع المشاكل ، أما نحن فنعمل على حلها .

عاد إلى مكتبه محروما من بهجة كان يتوقعها ، فألقى الصحيفة وطلب شايه المعتاد ، وبدأ العمل وقد تسلل إليه بعض الضيق ، ولكنه مع مداومته العمل والحركة والاتصالات وتلقيه تهانى متعددة زال عنه الكدر ، وأحس عند الظهيرة بالبهجة التى حرمه منها المأمور فى الصباح ، ونسى تماما موضوع المفقودين فلم يتذكره إلا حين قال له أحد ضباطه عَرَضا - وهو يقدم إليه التهنئة - إن بعض أهالى الأولاد عادوا يسألون من جديد ، ففكر لوهلة دون أن يعرف سببا فى أن يستدعيهم ليقف منهم على ما لايعلمه من تفاصيل ، ولكنه وجد أن المسألة أهون من أن يهتم بها بنفسه ، فاستدعى ضابطا صغيرا وقال له ولم يخف إحساسه بعدم المبالاة :

- أهالى الأولاد المفقودين فى القسم ، ليتك تحصل منهم على المعلومات الضرورية .

وأضاف ، وكأنه يحاور نفسه :

- لانخسر شيئا لو قمنا ببعض التحريات .

ولما أجاب الضابط بأنه سيحاول ، لم تعجبه الإجابة ، فرد عليه وكأنه يضرب له موعدا ينجز فيه عمله :

- أرجو أن أعرف شيئا عن الموضوع عند عودتى فى المساء .

صمت الضابط وكأنما تكدر ، فأضاف رئيسه وهو يستعد للخروج :

- الموضوع تافه ، وتحرياته محدودة ، وسأترك لك سيارة المباحث ، فلا تحمل هم شئ .

وقال فى نفسه - وهو يقفز الدرجات مغادرا القسم - : « *عظمه طرى ويحتاج إلى تدريب طويل* » .

استيقظ فى حوالى الخامسة والنصف مساء على صوت التليفون يحمل إليه من الأسكندرية تهنئة أمه الحارة ، وكانت من السعادة بحيث أبلغته أنها اشترت عددا من نسخ الصحيفة للاحتفاظ بها لأولاده حين يأتون ، ولما قال لها ضاحكا :

- بعد عمر طويل .

راحت تعنّفه ، وأكدت له أنها وإن لم تكن مع والده فى أسلوب الاختيار فإن المهم عندها أن يتزوج بصرف النظر عمن يختار ، أسعدته المكالمة رغم حدة الكلمات ولم يشعر بكدر ، فإنه يحس مع أمه - حتى عند الاختلاف فى الرأى - بأنها فى قلبه وأنه فى قلبها ، يحتويها وتحتويه ، حبا وحنانا وبرا ورعاية وخوفا واطمئنانا ، أما أبوه فالأمر مختلف ، قال لنفسه وهو يغتسل استعدادا للخروج : « *إنه يريدنى تعويضا لما خسرته الأجيال ، ويفكر فى الأمور بعقلية التاجر ، ولايريد أن ينسى أنه ابن تاجر الأقطان الذى ضاع منه ماله ولكنه لايكف عن محاولة التعويض ، حتى الزواج عنده فإنه مجرد وسيلة مشابهة للوظيفة ، كلها طرق بديلة للمال فى فرض النفوذ* » .

ماكاد يبدأ فى ارتداء ملابسه استعدادا للعودة إلى القسم حتى سمع جرس

التليفون ، رفع السماعة فأتاه صوت أنثوى رقيق مهذب يكاد يقطر خجلا ، أحس بحساسيته الخاصة التى يعرف بها الأصيل من الزائف أن الصوت به مسحة من تكلف الصنعة ومبالغة التقليد ، اعتذرت له عن إزعاجه لكنها الضرورة الملحة التى ألجأتها إليه ، ورد إليه خاطر : « *كيف تأتى لها أن تعرف الوقت المناسب للاتصال* » قال فى نفسه : « *لعلها واحدة من الجيران تطلب نجدة* » ، تابع صامتا موضوعها وإن ندّت التفاصيل ، وحين وضع السماعة اكتشف أنه لم يعرف اسمها . قال لنفسه : « *لاداعى للقلق ، من المؤكد أن يحدث اتصال جديد* » .

قالت له نفسه وهو يهم بركوب سيارته الصغيرة : « *لو سمعت كلام أبيك لتحولت الـ ١٢٨ القديمة إلى مرسيدس فاخرة* » نظر إلى وجهه فى المرآة بعد أن جلس إلى كرسى القيادة وقال : « *ولو ، لن أبيع نفسى وإن كانت بنت السلطان* » ولما امتنعت السيارة عن الحركة قالت له نفسه : « *لن تستطيع أن تمضى فى طريقك وحدك* » ، فأجابها وهو ينادى البواب ليدفع معه السيارة : « *على الرجل أن يشق طريقه بذراعيه لابما بين فخذيه ، ذاك خلق للمتعة لا للعمل* » قال البواب وهو يوالى دفع السيارة وكأنه أحس بالتعب :

– إنها فى حاجة إلى كهربائى .

فرد وهو يقفز داخلها وينطلق :

– سأمر عليه فى الطريق .

قرر وهو عند سعيد الكهربائى أن يقوم بجولة سريعة يتفقد فيها الدائرة ، ويقف من خلال مرشديه على ماإستجد خلال غيابه من أحداث . وهكذا ذهب إلى فرغلى الأسكافى وحسنين البقال وفتحى سمكرى السيارات وأخيرا عم سيد صاحب كشك السجاير فى أرض شريف .

قال عم سيد وهو يرحب به ويفتح له زجاجة مشروب :

– الأحوال عال يافتحى بك ، ولاجديد غير حكاية العيال الضائعين .

ساله من غير اهتمام حتى ينتهى من شرب الزجاجة

- تعرفهم ؟

أجاب الرجل وقد ألم به طيف حزن أليم :

- واحدا واحدا ، غلابة ، كانوا دائما يذاكرون هنا بالقرب من المسجد ، تحت هذا المصباح .

ساله ليتأكد :

- معا ، هم الثلاثة ؟

فرد مؤكدا :

- كانوا لايفترقون ، وكأنهم إخوة .

قال رئيس المباحث وكأنه يفكر فى احتمالات الاختفاء :

- يحتمل أن يكونوا قد هربوا .

فرد الرجل بثقة :

- وكيف يهربون وهم تلاميذ مجتهدون ؟

ولما قال رئيس المباحث :

- لعل فى الأمر جريمة .

أجاب الرجل :

- أى جريمة ؟ إنهم منكسرون لا فى العير ولا فى النفير .

وصل القسم وصعد السلم قفزا متجها إلى حجرته فى الطابق الثانى ، أوشك أن يدخل حين لمح فى آخر الممر شعاعا صادرا من تحت باب مسئول جهاز الأمن السياسى ، فعن له أن يراه فلم يشاهده منذ فترة ، وقد لايراه لأيام ، مضى إلى آخر الممر وفتح الباب كعادته دون استئذان فليس بينهما كلفة ففوجئ باجتماع ، اعتذر وأوشك أن يرتد على عقبيه لولا أن ألح عليه زميله بالدخول ، حيا المجتمعين وحيوه

بحرارة ، وصاح يداعبهم بعد أن لاحظ وجود الضابط الذى كلفه فى الظهيرة بالتحريات عن الأولاد المختطفين :

– عليكم أن تعترفوا بأنكم لاتستغنون عن جهودنا .

فأجاب مسئول الجهاز ضاحكا :

– سنعتبره من الآن مندوبك عندنا .

فرد على الفور :

– وسأعتبره من ناحيتى مندوبكم عندى .

قال أحد الضباط الصغار حاسدا وكأنما يجامل زميله :

– هنيئا لك ، جمعت الحسنيين : ثقة أمن الدولة وثقة الأمن العام .

قال رئيس المباحث فى نفسه وهو يغادر الغرفة : « *نادرا مايجتمعان* » .

استشعر وهو عائد إلى مكتبه شيئا من عدم الراحة لم يجد له سببا ، عزاه إلى الجو الخانق المشبع بالرطوبة ، ومارس عمله بشئ من العصبية غير مألوف وانغرست فى الأعماق بذرة تكدر غير معروف المصدر أسلمته بعد حين إلى توتر لم يكن فى الحسبان ، لذلك ماكاد الضابط الذى كلفه بالتحريات عن الأولاد المفقودين يأتى إلى المكتب بعد انتهاء جلسته مع ضباط الجهاز الخاص حتى بادره بالسؤال بحدّة لم يتوقعها :

– هل انتهيت من التحريات ؟

فلما أجابه الضابط الذى فوجئ بالحدة بأنه مازال يعمل ، اتهمه بالكسل والإهمال وتضييع الوقت فى علاقات غير مجدية ، وطلب منه سرعة إنجاز مهمته على الفور ، وأمره بتجهيز جميع المعلومات حتى تكون بين يديه عند حضوره فى الصباح .

عندما جاء رئيس المباحث إلى القسم فى الصباح كان قد أوشك أن ينسى الموضوع كله ، ولم يتذكره إلا حين وجد الضابط يقدم إليه مذكرة التحريات ، فكر – لحظة – أن يسترضيه ببعض الكلمات علها تزيل ماقد يكون علق بنفسه من آثار

حدته فى الليلة السابقة ، لكنه عدل مؤثرا أن تأخذ الترضية شكل الثناء على عمله فتكون تشجيعا له على القيام بواجبه ، وهكذا بدأ يتناول التقرير وهو يحضّر فى ذهنه الكلمات التى تمسح آثار حدته ، ولكنه مع القراءة وجد نفسه وقد استبد به الغيظ ، لقد أهمل الضابط كافة القواعد التى تعلمها فى كتابة التقارير ، فلا معلومات ، ولا وقائع ، ولا أقوال ، ولا توقيتات ، ولا تحليل ، لاشئ أكثر من أسماء الأولاد وأعمارهم وعناوينهم ، متى تغيبوا ؟ ، ماهى ظروف غيابهم ؟ ماهى ظروف حياتهم ؟ ، متى كانت آخر مرة شوهدوا فيها ؟ من شاهدهم ؟ أين شوهدوا ؟ ماذا كانوا يعملون ؟ هل كانوا معا أو منفردين ؟ هل كان معهم أحد ؟ ماعلاقتهم به ؟ ماذا يعمل ؟ لاشئ على الإطلاق من ذلك فى التقرير ، أيقن أن الضابط الصغير يأخذ الأمور باستهانة لاتليق ، وأن الرفق به مدعاة إلى الانحراف ، فصاح فيه بحدة :

- أين التقرير ؟

أجابه بصوت لايخلو من قلق العارف بالتقصير :

- مع سعادتك يافندم .

قال رئيس المباحث ودرجة انفعاله تزداد :

- الذى معى كلام فارغ لاتقرير ، مجرد بيانات مأخوذة بالتأكيد من البلاغات المقدمة .

صمت الضابط فلم ينبس بحرف ، وواصل رئيسه :

- هل ذهبت إلى المنطقة وقمت بتحريات ؟

أجابه بصوت خفيض :

- لم أتمكن ، ولذلك اكتفيت بما ورد فى البلاغات .

قال رئيسه وقد بلغ الغيظ أقصى مداه :

- للعمل أصول وقواعد ، وحين تعمل عليك اتباع الأصول والتزام

القواعد ، ولاتظن أن العلاقات يمكن أن تغنى عن الواجبات .

لم يعقب الضابط باعتذار ولا حتى بتفسير ، فقال رئيسه بعد أن أيقن أن الواجب يفرض الحسم :

– **عليك أن تقدم تقريرا مفصلا يتضمن جميع المعلومات المستقاة من المصادر المباشرة ومن مصادرنا فى المنطقة فى فترة المساء الليلة ، وإذا لم تفعل فإننى سأتهمك رسميا بالإهمال .**

بعد نحو ساعة أو أقل استدعاه المأمور على غير العادة ، وتحدث معه فى موضوعات سبق أن عرضها عليه أثناء لقائهما الدورى فى الصباح ، وقال له قبيل نهاية اللقاء الذى طال من غير أن يعرف له رئيس المباحث سببا :

– **وقتك ووقت الإدارة ثمين فى الظروف التى نمر بها الآن ، فأرجو ألا تشغلكم فيه شواغل لاقيمة لها .**

أصغى رئيس المباحث مستحضرا فى ذهنه كل مشكلات العمل ، فلم يجد مبررا واحدا لما يسمع ، قال وهو يعاود الجلوس بعد أن هم بالوقوف :

– **اسمح لى ، لست أفهم .**

قال المأمور بعد أن أحس ببوادر غضبه المكبوت :

– **لايذهب ذهنك بعيدا ، لاأقصد غير أن موضوعا تافها كموضوع المفقودين لاينبغى أن يشغلكم فى هذه الظروف .**

قال رئيس المباحث فى نفسه : *« هكذا إذن ؟ أفصح عن سبب اللقاء ، لقد شكا الولد الذى لايريد أن يتعلم ، إنه يظن أن العلاقات تمنحه الفرصة للإفلات ، ولن أسمح له ، وسأرغمه على أن يعمل بطريقة جيدة إذا أراد أن يكون ضابط مباحث لا تشريفاتى » .*

قال للمأمور بهدوء :

– تدريب ضابط المباحث كما تعلم مسألة ضرورية لـه وللعمل معـا ، ويجب أن نسهم جميعا فيه .

وصمت لحظة قبل أن يضيف :

– وأنا أرجو سعادتك أن تساعدني في تدريب هذا الضابط ، فإنه خامة جيدة لكن فيه بذرة انحراف لايقومها إلا التدريب .

قال المأمور وكأنما يتحسس الكلمات :

– التدريب أمر حتمي لامفر منه ، أنا معك تماما .

نهض رئيس المباحث لينصرف وكأنما انتهت المناقشة إلى قرار ، وأحس المأمور أن الموضوع يوشك أن يظل معلقا فأردف :

– لكن إذا كان الهدف مجرد التدريب فلم لاتكلفه بشئ آخر غير هذا الموضوع .

رد رئيس المباحث باستغراب :

– ولم لايكون هذا الموضوع ؟

قال المأمور بحزم وكأنه ضاق بالأمر حتى لم يعد يحتمل المزيد :

– من فضلك لاأريد مناقشة في هذه المسألة .

ولما رآه يخرج من غير أن يتفوه بكلمة عقب وكأنما يقول لنفسه :

– هذا خير للجميع .

عاد رئيس المباحث إلى مكتبه وقد تملكه الغضب ، وجد أن من الأحسن أن يغادر القسم حتى لايراه زملاؤه ومرءوسوه في هذه الحالة من الانفعال ، قال لهم إنه ذاهب في مهمة عاجلة ، وخرج يركب سيارته ويدور في شوارع المدينة ، أحس في البداية أن الضابط الصغير قد حقق عليه نصرا ، فاستفزه الموقف وأحس بالمهانة ، وفكر في ضرورة اتخاذ إجراء يرد له كرامته الجريحة ، لكنه بعد فترة أخذ يهدأ ، ويراجع

الموضوع بأناة ، فاكتشف - للعجب - أن الضابط ليس محور المسألة ، فالمأمور لم يمنع من تدريبه كما يريد ، بل إنه حتى لم يطلب التخفيف عنه ، المشكلة إذن فى هذا التكليف بالذات ، أسلمه تفكيره إلى أن هناك حساسية خاصة فى هذا الموضوع ، وأن فى المسألة سرا لايفهمه ، أخذ يقلب الأمر على وجوهه ، بدأت الأحداث المتناثرة دون رابط تتداعى إلى الذهن واحدة إثر أخرى : حرص المأمور على أن يتأكد من مدى إحاطته بالتفاصيل ، نصيحته منذ الوهلة الأولى بتجنب البحث فيه ، توجيهه بضرورة تجنب المشكلات ، تأخر الضابط عمدا عن إعداد التقرير ، اتصاله الوثيق بجهاز الأمن السياسى ، الإيحاء إليه باعتبار الضابط محل ثقة الجهاز ، وأخيرا تدخل المأمور لحسم الموضوع . فى المسألة بالقطع سر لابد من كشفه ، قال لنفسه وهو عائد إلى البيت ملغيا عمدا موعده المضروب للغداء مع صديقة عزيزة : *« إذا كانوا لايريدوننى أن أعرف مايدور فى دائرة عملى فهم واهمون ، لست آخر من يعلم ولن أكون »* .

لم يصب فى البيت طعاما ما فلم يحس فيه برغبة ، تمدد بملابسه فوق الفراش مفتح العينين ، الناس يصيبهم الأرق حتى يناموا وقد أصابه الأرق حتى فى النوم ، تواترت عليه ذكريات وأفكار ، خواطر وأحلام ، وأوهام ومشاعر ، ظل وهو ملقى فى الفراش بين اليقظة والنوم ، بين الحقيقة والخيال ، بين الفكرة والواقع ، بين التصميم السابق والتنفيذ اللاحق ، همس فى أعماقه نذير : أنت مقدم على خطر ، حذار ، فأصابه وجل لكنه لم يتردد حين صاح فى القلب صائح : *« وأى خطر أكبر من أن يكون الرجل اسما لا فعلا ، صورة لا حقيقة ، كلمة لا واقعا ، شكلا لا موضوعا ، أى خطر أعظم من أن يكون الرجل خواء ، دخان تتقحمه الأعين فى الهواء ، فراغ بين الأقدام ، حمى مستباح فى وضح النهار ، عرض مثلوم فى الميدان »* .

أتاه - وهو فى حالته - رنين التليفون ، فرفع السماعة بقلب مثقل وعقل بعيد ، سمعها تقول :

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك .

رد وكأنما يخاطب نفسه :

- الإزعاج تم وانتهى الأمر ، ماذا تريدين ؟

قالت دون أن تفصح :

- حسبى الآن أنك استيقظت من نوم طويل .

نظر إلى ساعة معصمه فوجدها تجاوزت السادسة بقليل .

قال لبواب العمارة وقد استعد لمساعدته فى دفع السيارة حين رآه يهم بالركوب :

- لاتتعب نفسك ، لاتبقى الدنيا على حال ، لقد تم إصلاح العطل .

وأخذ طريقه إلى عم سيد فى الكشك ، قال له وهو يفتح علبة السجاير ليشعل واحدة :

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها العيال ؟

أجاب وقد أعاد إليه السؤال طيف الحزن الأليم :

- ليلتها ، تركتهم حين أغلقت الكشك ، كانوا مازالوا موجودين .

عقب رئيس المباحث :

- أنت إذن آخر من رآهم .

فرد الرجل بيقين :

- لا ، ربما كان آخر من رآهم الحاج عبد السميع خادم المسجد ، لأنى لما أغلقت كان مايزال موجودا .

وأضاف مفسرا :

- إنه ينظف المسجد عادة بعد صلاة العشاء .

وتابع مستأنفا :

- هل تحب أن أناديه ؟

قال رئيس المباحث :

- لاداعى لأن تعطل نفسك ، أعرف وحدى الطريق .

قال الحاج عبد السميع وهو يستقبله فى الغرفة شبه المظلمة المليئة بالكراكيب الواقعة بين دورة المياه ومكان الصلاة :

- ليتهم لم يذهبوا ، لو سمعوا الكلام لما حدث لهم ماحدث مما لايعلمه إلا الله .

وسرعان مااستدرك مستغفرا وهو يقول بأسى عميق :

- لو تفتح عمل الشيطان ، ولامهرب من المقدور .

سأله رئيس المباحث مستوضحا :

- أى كلام كان عليهم أن يسمعوه ؟

قال العجوز وقد ترغرغت عيناه بالدموع :

- كانوا يريدون الذهاب إلى ميدان الخلفاوى ، وقلت لهم إن الليل خطر والسائقون لايبالون .

سأله مستفسرا :

- الخلفاوى ؟ لم ؟

أجاب ورنة الأسى المستسلم للدموع مازالت فى صوته :

- العلم عند الله .

قال رئيس المباحث وهو يهم بالنهوض :

- أنت إذن آخر من رآهم .

رد وكأنه يفكر :

- ربما ، وربما يكون الولد فتيحة العجلاتى ، لأنى سمعتهم يتحدثون عنه .

خيل إليه وهو يتحسس طريقه خارجا أنه سمع الاسم من قبل ، لكنه لم يتذكر متى ولا أين ، فقال لنفسه : « *لو كنا نستعمل الكمبيوتر فى تسجيل معلوماتنا لوفرنا وقتا طويلا* » .

قال لعم سيد مستفسرا :

- تعرف فتيحة العجلاتى فى زقاق عصفور .

قال عم سيد :

- سأرسل معك من يدلك على الطريق ، لكن اترك السيارة هنا فلـــن تستطيع بها الوصول .

سار وراء الصبى الذى يرشده ، مخترقا طرقا لم يعرفها من قبل ، واجتاز خرابة موحلة موصلة بين شارع مجهول والحارة التى يتفرع منها الزقاق ، وقد بدأت تتكدس فيها عربات الكارو العائدة من كدح النهار ، أما الحيوانات الجارة فيسحبها الصبيان لتأخذ طريقها إلى البيوت إلى جوار أصحابها حتى لاتسرق فى الظلام ، وما أن بلغ الصبى حافة الخرابة حتى أشار :

- محل الأسطى فتيحة فى منتصف الحارة عند ملتقاه بالزقاق .

مضى رئيس المباحث فى طريقه إلى المحل الذى ينحدر النازل إليه وكأنه يهبط مزلقانا حادا ، أدرك بتفحصه أن ذلك لايعود إلى انخفاض مستوى المحل عن الحارة أو الزقاق ، وإنما لارتفاع متواصل فى سطح الطريق ، مد يده إلى جيبه فأخرج علبة المناديل الورقية وأخذ منها واحدا وضعه على أنفه لعله يحد من نفاذ الرائحة ، نظر تحت قدميه فلاحظ مراحل نمو سطح الطريق متزامنة فى آن واحد : النفايات الملقاة ، وقد بدأت فى جانب تتفتت ، وفى جانب تتخمر ، ثم وهى تتصلب لتصبح جزءا من بنية الطريق . وجد المحل مغلقا ، تأمله بدقة ، كان فى الأصل حجرة مطلة على الناصية ،

وبابه ليس سوى نافذة سويت بالأرض ، دار مع الناصية فوجد عجوزا تجلس أمام باب المنزل ، سألها فلم تعبأ بالرد ، اضطر أن يتجاوزها وأن يقف في المدخل ويصيح مناديا ، جاءه في الظلام صوت امرأة :

- الأسطى فتيحة غير موجود ، ذهب في مشوار .

سألها :

- متى يعود ؟

قالت :

- إن كنت تريد عملا فالمحل لايفتح إلا في النهار .

وحين قال لها إنه يريده شخصيا قالت :

- قطيعة ، عليك أن تعود إليه في الليل .

ولما سألها عن اسمها ردت بحدة :

- وأنت مالك !

وأردفت وكأنها تستنكر :

- لم يبق إلا المساطيل !

قال لنفسه : « *مادمت قد حضرت إلى الحارة فلأسأل عن أسرة الولد المفقود* » ماكاد يقف في عرض الزقاق ويسأل عن المنزل حتى انشقت الأرض وكأنما قال كلمة سحرية ملأت الزقاق في لحظة بحشد بلا عدد ، أخذوا يتساءلون بإلحاح دون انتظار لجواب : هل رأيته ؟ متى رأيته ؟ أين هو ؟ أين كان ؟ أهو بخير ؟ متى يعود ؟ اضطر أن يقول بوضوح إنه لم يره ، وأنه إنما جاء للتحري ، صاحت امرأة وسط الجمع الذي بدأ يتفرق :

- أمه في حجرتها تحت السلم يمكنك أن تسألها .

مضى إلى داخل المنزل الذي أشارت إليه ، في سرداب تحت سلم حجري صغير

دخل منحنيا يكاد يركع ، لم ير موطئ قدميه فضوء المصباح الغازى لا يضيئ بقدر مايؤكد كثافة الظلمات ، لم يستطع أن يبقى لحظة واحدة من الرائحة العفنة وبادر بالخروج وقد كاد يصيح : ليس هذا مكان لأحياء ، تبعته أم الولد المفقود تحمل وليدا على كتفها تاركة بنتا تقرأ تحت المصباح .

سألها عن كل شئ يريد ، وأجابته وهى خجلى من الاهتمام ، وبرغم مابدا عليها من يأس أحس أن مجرد وجوده حمل إليها شيئا من الأمل ، فها هى الحكومة أخيرا تفطن لمحنتها وترسل أحد رجالها ، شكرته بحرارة مست بالأسى قلبه ، أوصته بالاهتمام واستحلفته بالله وبالأنبياء وبالقديسين ، كادت الدموع تطفر من عينيه وهى تقول :

- **قل له إذا وجدته سأحضر له شورت الألعاب وكل مايريد .**

سار فى طريقه عائدا إلى مكان سيارته وهو يتساءل : *« كيف يستطيع الإنسان أن يكون حيا فى ظروف أقرب إلى الموت ، أن يعيش ووجوده أشبه بالعدم ، أن يحمل أملا وليس فى أفقه إلا الظلمات » .*

وقال لعم سيد وهو يغادر المكان :

- **عليك أن تبلغ فتحية أن يكون فى انتظارى عندك فى الصباح الباكر ، ولكن لاتبلغه بأى شئ عن الموضوع .**

مضى بسيارته تحت الأعلام الخفاقة ومالبث أن وصل إلى الشارع الرئيسى ، فغمرته الأضواء المركزة على اللافتات الممتدة والصور الكبيرة والشعارات الملونة ، فى النور أحس بالظلمة ، ومع الجمال أدرك القبح فصاح فى نفسه بألم عظيم : *« أى عار يصيب الإنسان وهو لايدرى فى هذا الزمان ؟ تملأ الكلمات الدنيا وتدق فى الآفاق الطبول وتقرع كل لحظة أجراس النصر ، لماذا كل هذا والبشر غير بشر والإنسان لا إنسان ؟ أيكون الوجود كله هراء والدنيا بأسرها هباء » ؟*

حضر إلى القسم متأخرا عن موعده المألوف فى المساء ، صعد السلم ببطء وكأنه

مشغول بتفكير يستغرقه ، دخل حجرته من غير أن يعنى بإلقاء التحية كعادته على من فى الحجرات المفتحة الأبواب ، لحقه بعد قليل ضباطه تلوح فى وجوههم ملامح تساؤل مصحوبة بحرج شديد ، لم يرفعوا إليه عيونهم لتحتضنه كما عودوه ، رحب بهم من غير أن يمد إليهم يدا مكتفيا بالكلمات ، قال لنفسه وهويصيح بالجندى آمرا بالشاى :

« *يتصورون أنى مهزوم ، سأعلمهم فى النهاية كيف يكون النصر* » لم يذكر حرفا عن رحلة الظهيرة ولا عن رحلة المساء ، وتحدث عوضا عن ذلك فى موضوعات عامة لاصلة لها بالعمل ، تكلم عن طرائف فى الحياة والناس ، ومفارقات فى الغنى والفقر ، ومشاعر فى الصداقة والزواج ، وطقوس فى الحب والحرب ، بدأت أحاديثه أول الأمر وكأنما تصدر عن وتر مشدود ، لكنه مالبث أن ارتخت الأوتار ، فاستراحت القسمات ، وعذبت النغمات ، وصفت العبارات ، وسرعان ماجلجلت الضحكات ورددت صداها الجدران ، وحين قدم زميله مسئول الأمن السياسى على غير عادته ليشاركهم جلستهم قال ، وكأنه فوجئ بما لم يكن يتوقع :

– ظننت فى البداية أنكم تصرخون .

رد رئيس المباحث ضاحكا دون أن يظهر ما ألم به من ضيق :

– لقد كانوا يقلدون الهنود الحمر وهم يستعدون للقتال .

قال زميله والضحك يعلو بلا حدود :

– إذن ينقصهم تاج من الريش فوق الرءوس .

سارع أحد ضباط المباحث ليقول :

– فاتتنا هذه المرة .

فعقب رئيس المباحث بيقين :

– لاتتعجل يابنى ، لكل شئ أوان .

وصاح بالرجال وقد انتهوا من شرب الشاى :

- هيا إلى العمل يارجال .

لايدرى ما الذى حمله بعد أن فرغ من العمل فى القسم قبيل منتصف الليل أن يعود مرة أخرى إلى زقاق عصفور ، ترك سيارته عند الكشك كما فعل فى المساء ، وأخذ طريقه مستهديا بعلامات حفرها فى ذاكرته حتى يصل ، خلف المسجد مضى ، اجتاز الشارع الصغير الذى صار فى الليل جراجا خاصا ، عند الفاخورة انعطف يمينا ، بعد نحو مائة متر اتجه يمينا مرة أخرى ، هاهو يجتاز الخرابة ، ومنها إلى اليسار ، أخيرا هذا هو الزقاق .

وقف فى مدخل البيت المعهود وصاح :

- يافتيحة .

لم يرد أحد . فصاح مرة أخرى بصوت أشد :

- يافتيحة ، يافتيحة .

أتاه فى الظلام صوت امرأة قريب يبدو أن النداء قد أطار منها نوما وشيكا تقول :

- يا أولاد الكلب ، هو حبك فى عز الليل .

وجد نفسه تلقائيا يتحسس مسدسه وهو يكرر من جديد النداء ، حتى جاءه صوت بدا له بحكم خبرته مألوفا :

- ماخلاص ، سمعنا .

وظهر صاحبه فى مدخل البيت المظلم ، لم يتبينه رئيس المباحث بوضوح ولكنه ما كاد يراه حتى بادره الرجل باعتذار وكأنه يعرفه :

- لامؤاخذه يابك ، اللى مايعرفك يجهلك .

والتفت إلى الخلف وصاح موجها خطابه :

- يا لبوة يابنت الكلب عارفة بتكلمى مين ، حتودينا فى داهية .

قال رئيس المباحث بصرامة وهو يغرس أصابعه فى ذراعه ليحكم قبضته فيه :

- **لاداعى للصياح .**

صمت فتيحة وكأنما ينتظر مجهولا يتقدم فى الظلام ، ولما لم يتقدم أحد قال وصوته يحمل قلقا بلا حدود :

- **أطلع ألبس ؟**

رد رئيس المباحث وهو يجره ليتبعه :

- **لاداعى ، بضع كلمات وتعود إن قلت كل شئ .**

قال فتيحة فى نفسه : « ***وهل يعقل أن أعود إذا قلت كل شئ*** » .

سأله رئيس المباحث وهو ماض به إلى السيارة :

- **متى عدت الليلة ؟**

أجاب وقد أدرك أنه على مدخل خطر يتحسس إليه الطريق :

- **من نحو ساعة .**

- **وهل قابلت عم سيد ؟**

قال فتيحة فى نفسه : « ***هذا المرشد الكلب لاتأتى منه غير المصائب*** » ورد بتأكيد :

- **لم أقابله ، ولكنه أرسل صبيا إلى البيت يقول إنه يريدنى فى الصباح .**

سأله :

- **وأين كنت ؟**

أجاب فتيحة وقدمه تتعثر فى حجر فى الطريق :

- **كنت فى العطوف أزور قريبا مريضا هناك .**

خطر لرئيس المباحث خاطر فسأله على الفور :

– **وماصلة العطوف بالباطنية ؟**

صمت فتيحة وكأنما فوجئ فلم ينبس فتابع رئيس المباحث وهو يقذفه فى سيارته :

– **تكلم ياحشاش يابلطجى يابن الكلب .**

استمر فى الصمت وقد أيقن أن الموج غات ، فواصل رئيس المباحث :

– **أحضرت الصنف الجديد ؟**

وتابع وهو يجلس إلى جواره ويحدق فيه :

– **إن لم تتكلم تعرف ما سأفعله فيك .**

لم يفتح فمه ، وتجلت لعينيه معالم حجرة التحقيق فى البدروم :

أمره رئيس المباحث بصوت حاسم دون أن يعطيه فرصة لالتقاط الأنفاس :

– **اخرج كل مافى جيبك .**

« وقع المحظور ، وانكشف المستور ، وزال الغطاء ، وراحت ثروة هى كل رأس المال ، والمهم الآن العمر ، لاجدال » .

قال رئيس المباحث وهو يجمع الحصاد :

– **وقعت متلبسا يابن الكلب ، ولن ينجيك منى أحد .**

وصمت لحظة كأنه يفكر قبل أن يضيف :

– **لكن من الممكن أن أعطيك فرصة .**

أوشك فتيحة أن يقبل يده ، لكنه رده إلى كرسى السيارة بعنف وهو يقول :

– **هذا إن قلت كل مافعلت فى الأولاد فى تلك الليلة .**

رد بتلقائية وكأنه ضاق بالموضوع :

- لم لاتصدقونني يابك ، لقد قلت كل مارأيته من قبل واحلف أنه لاصلة لى بالموضوع .

قاطعه رئيس المباحث :

- لمن قلت ؟

أجاب مسرعا :

- لكمال بك وبعده للضابط هانى بك .

قال رئيس المباحث مقاطعا ، وبدا - لإصراره - كما لو كان على يقين :

- أنت مسئول ياابن الكلب عن كل ماحدث ، فقل كل شئ بالتفصيل .

قال فتيحة وكأنه يستعطف :

- يابك والله ماأنا ، إنهم شلة السباكين ، ماذنبى حتى أضيع فى الرجلين .

واصل رئيس المباحث ساخرا :

- تضيع فى الرجلين بعد كل ماتفعل ياوسخ .

صاح فتيحة وكأنه يحتج :

- يابك هو كل عيل يتنيل أكون أنا المسئول ؟

أمره رئيس المباحث بحزم :

- اهدأ ، وقل كل شئ بالتفصيل .

بدأ يحكى وقد تماسك ، دون أن تظهر فى صوته نبرة حزن أو نفحة ندم ، وقال :

- يابك كنت محجوزا فى القسم .

واستدرك كأنما يفسر :

- أحد المخبرين أحب أن يحيى فرح صديق له ، فطلب كمية غير المعلوم ، طبعا هو لايدفع والأسعار نار ، فاعطيته الكمية فاستقلها وطلب زيادة ، لم يكن معى فسحبنى لأبيت فى التخشيبة حتى يربينى لأسمع بعد ذلك الكلام .

توقف برهة وكأنما ندم :

- ليتنى أعطيته كل مايريد .

ثم واصل الحديث

- فى الفجر وصل العيال ، كانوا يبكون ويصرخون ويستجيرون ، بعد مدة بدءوا يندمون ويتبادلون الاتهام ، ياسر يقول لشريف أنت السبب ، وشريف يقول لوليد أنت السبب .

تساءل رئيس المباحث :

- السبب فى أى شئ ؟

أجاب :

- فى فكرة سرقة اللافتات ، كانوا يريدون أن يفصلوها كلسونات ، لكن العساكر أمسكوهم وسلموهم للقسم .

قال بحزم :

- أكمل :

- بعد شوية نام العيال جنب السباكين ، الدنيا فى التخشيبة نار ، والعيال صغار ، والسباكين يظهر أحبوا أن يتأكدوا من حاجة العيال للكلسونات ، مدوا أيديهم فى الظلام ، واستيقظ العيال يصرخون ، ولم يحضر أحد إلا بعد وقت طويل .

قال رئيس المباحث وقد أحس بغثيان :

– ولماذا لم تتصرف ؟

فأجاب فتيحة بيقين :

– وماذا كنت أفعل ، ثلاثة فحول مطلوقة حيطان سد طول بعرض ، فعلت كل ماأقدر عليه ، بلغت كمال بك حين حضر فقال إنه سينقلهم إلى تخشيبة العريم .

سأل رئيس المباحث :

– ونقلهم لتخشيبة العريم ؟

رد وكان الأمر لايعنيه :

– أخذهم من التخشيبة ليذهب بهم إلى تخشيبة العريم .

– وبعد ؟

– أفرج عنى المخبر فى الصباح ، وأوصانى الا أفتح فمى بكلمة عن الموضوع وكأننى لم أر الأولاد ، واتفقنا على كل شئ . ولكن الطماع طماع ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، فبعد أن قبض حرك المباحث ، فى الأول هانى بك وفى الآخر سعادتك .

– وماذا قلت لهانى بك ؟

قال باستسلام :

– حكيت له الحكاية بالتفصيل من يومين .

– وماذا قال لك هانى بك ؟

– قال اقفل فمك حتى يبدأ التحقيق الرسمى فى الموضوع .

سأله رئيس المباحث ، ربما بحكم العادة :

– وهل أنت مستعد لتقول هذا الكلام فى التحقيق ؟

أجاب دون أن تخالجه ذرة شك :

- ياروح مابعدك روح .
- إذن ستكمل الليلة فى التخشيبة حتى الصباح .

تمتم دون اعتراض :

- كنت أعلم أنها لن تنتهى على خير .

وأضاف متعجبا وكأنما أعياه الفهم :

- يارب هو أنها عملت ايه ؟

قال لنفسه وهو عائد إلى القسم فى الثانية صباحا ليضع الرجل فى التخشيبة دون أن يدون محضرا رسميا بما وقع : « *إذن آخر من رآهم هو كمال فأين يذهب بهم وهم فى هذه الحال ؟ إن كمال شاب وديع حريص على عمله متفان فيه ، من الطراز الذى يقوم بواجبه بإخلاص ، يحرص على الالتزام الكامل بالتعليمات والنظم ، فلماذا يسكت عن جريمة هتك عرض أطفال قُصَّر وقعت تحت سمعه وبصره ، ولديه المذنبون والشهود والضحايا ؟ ثم لماذا لم يبلغه هانى بتحرياته وقد قام بها بالفعل وتحمل موقفه منه دون أن يوضح شيئا ؟ هل هى محاولة منه للتستر على كمال ؟ فى الأمر جريمة أكبر بالتأكيد ، لأن المأمور لايتدخل بهذا الحسم لمجرد حماية ضابط صغير من إهمال ، ليس فى الأمر شهامة بل استسلام ، ليس تطوعا بل التزام تجاه قوى تملك الالزام ، هل لهذا كله صلة بالجهاز الخاص ؟ لكن أى صلة يمكن أن تكون لثلاثة أطفال هتكت أعراضهم بالجهاز الخاص ؟* » بدت المسألة من جديد عصيَّة على الفهم فآثر أن يمنح نفسه فرصة أوسع للتفكير على أن يظل أول الخيط فى يده حتى لايفلت ، فأصدر أمره للضابط النوبتجى بأن يبقى فتيحة فى الحجز ولايخرج إلا بأمر مباشر منه عند عودته فى الصباح .

بدأ فى النوم ولديه إحساس بالاستفزاز أسلمه إلى الغيظ ، فإنه كغيره من

العارفين بخصائص العالم السفلى للمدينة يدرك أن التخشيبة - كالسجن - مكان لتفريخ الجريمة وإعداد كوادرها وتجديد أساليبها ، ولكن لم يذهب به الخيال قط إلى أن فى وسع أحد أن يستخدم التخشيبة لممارسة يختلط فيها الشذوذ والقسوة والغيبوبة عن الواقع والردة المطلقة إلى مستوى الحيوان ، فالتخشيبة تختلف عن السجن فى هذا المجال ، فإن فى السجن استقرار اليائس واطمئنان المستسلم ، لكن التخشيبة تختلف ، وفى السجن بُعْدٌ نسبى عن رقابة السلطة وانفلات فعلى فى العلاقة بين السجناء ، فكيف تمتد هذه الجريمة إلى التخشيبة مع السيطرة المطلقة والانضباط التام .

استيقظ من النوم أكثر من مرة وقد أوشك أن يناله الفزع ، لم يكن مصدر فزعه الغيظ والاستفزاز ، بل كان مَصْدَرَه إحساسٌ تسلل إليه وهو نائم دون أن يدرى كيف ببشاعة ماحدث ، ولم يكن مبعث هذا الإحساس كرامة المكان وإنما مهانة الإنسان ، نقله الإحساس خطوة خطوة إلى غضب هائل ، راح الحلق يحترق وأخذت العين تلتهب وطعنت القلب أوجاع حتى كاد وقد أحس برعدة أن يصيح : « أى أمن إن لم يأمن طفل على عرضه فى هذا المكان » .

ظل الأرق مسيطرا عليه فترة طويلة فلم يتمكن من قهره إلا قبيل الفجر ، ولذلك حين استيقظ ورأى أشعة الشمس تغمر الحجرة أيقن أنه تأخر أكثر مما ينبغى ، فاغتسل مسرعا ونزل وقد بدا ذهنه مع قلة ساعات النوم أكثر صفاء ووضوحا ، وتحدد لديه هدفه بدقة ، وتبين فى غير غموض خطواته إليه ، قال فى نفسه وهو يقود سيارته : *« خطوات ثلاثة لابد من اتباعها لاستعادة الكرامة والسيطرة على الموقف من جديد بيد من حديد ، تقرير مفصل بالتحريات ، واعتراف صريح من فتيحة ، وتحقيق رسمى كامل فى الموضوع »* أوشك لاستغراقه أن يصطدم بكلب فى الطريق لولا أنه سارع إلى تجنبه فى اللحظة الأخيرة ، أصابته السعادة وهو يسمع نباح الكلب المذعور ، واستمر فى التفكير : *« ليست كتابة التقرير مشكلة ، لكن أى إجراء رسمى يستلزم حتما الاعتراف »* .

قال لجندى المراسلة الواقف على باب حجرته :

– استدع أحد السادة ضباط المباحث :

فأجاب الجندى :

– لم يحضر غير هانى بك وهو فى اجتماع عند سعادة الباشا المأمور .

صاح مستفسرا :

– وهل حضر ؟

رد الجندى دون اهتمام :

– من وقت طويل .

ثم عقب وكأنه يؤكد :

– يحضر مبكرا كثيرا هذه الأيام .

قال رئيس المباحث :

– أرسل إذن الضابط النوبتجى .

فرد الجندى :

– هو معهم فى الاجتماع .

أحس رئيس المباحث إحساساً غامضا بالقلق . خطر له – لوهلة – أن يختصر الطريق ويذهب لحضور الاجتماع . لكنه آثر أن يعرف أولا موطئ قدميه وأن يذهب مسلحا بالاعتراف .

ذهب بنفسه إلى التخشيبة وقال للحارس الذى كان يصنع الشاى غير بعيد :

– ناد فتيحة العجلاتى .

صاح الحارس من غير أن يفتح الباب :

- يافتيحة ياعجلاتى .

جاءه من الداخل صوت ساخر :

- حتى أنتم مساطيل ، ألم تأخذوه من وقت طويل ؟

وأعقبته الضحكات .

باغتته العبارة فوقف ينظر من خلال أسياخ النافذة الصغيرة التى تتوسط الباب وصاح بحزم :

- أين فتيحة العجلاتى ؟

فلم يجب أحد ، فصاح من جديد :

- فليتحرك كل منكم من مكانه وليحضر هنا حتى أراه .

استعرضهم واحدا واحدا ، لم يكن بينهم ، فصاح من جديد :

- أين ذهب فتيحة ؟

فرد أحدهم ، وكأنه يدرب لسانه بالكلمات :

- لاشفنا فتيحة ، ولاحتى نعرفه .

قالت له نفسه وهو فى طريقه إلى مكتب المأمور : « *ليس بالغضب تقهر المشكلات ، عليك بالعقل* » فقال لنفسه وهو يدفع الباب دون استئذان : « *وأين العقل فيما يحدث الآن* » .

اقتحم الحجرة فوجم المجتمعون ، صاح المأمور مرحبًا متكلفا ابتسامة بدت له ميتة :

- كويس إنك حضرت . كنت على وشك أن أرسل إليك .

وأضاف وعيناه تتجولان فى الوجوه :

- كنا نضع الخطة النهائية لتأمين إجراءات الاستفتاء .

جلس والمأمور يصوغ توجيهاته الأخيرة : اليقظة التامة فى كل تصرف ، الحرص على عدم إثارة المشكلات ، التنسيق بين جميع الأجهزة ، السرية الكاملة للمعلومات حتى لاتتاح الفرصة لأى قوى معادية لإفساد شئ . وقال فى نهاية الاجتماع :

– أعرف ثقل المسئولية الملقاة عليكم ، ولكننى على ثقة كاملة من قدرتكم على تحملها .

وأذن لهم بالانصراف .

ولما بدأوا ينصرفون استأذن رئيس المباحث فى إبقاء الضابط النوبتجى وهو يقول :

– أريد أن أسأله سؤالا أمامكم .

فأشار المأمور إلى الضابط بالبقاء ، فظل واقفا ينتظر :

سأل رئيس المباحث الضابط :

– أين فتيحة العجلاتى ؟

رد الضابط وعيناه معلقتان بالمأمور :

– لم أره .

قال رئيس المباحث بحده :

– أنت أخرجته من الحجز .

رد الضابط ومازالت عيناه معلقتين بالمأمور :

– أنا لم أتسلمه أصلا حتى أخرجه .

صاح رئيس المباحث :

– أنت كاذب ، فقد سلمته لك فى الثانية صباحا .

قاطعه المأمور بحدة :

- هذا لايليق ، أنت فـى مكتبى وهـو زميل ، مـاذا تفعـل إذن فـى المساكين الذين يقعون بين يديك ؟

ثم أضاف :

- اهدأ وحدد ماتريد .

قال رئيس المباحث وهويضغط على الكلمات حتى لاتفلت منه عبارة وهو يوجه كلامه للمأمور :

- لقد أدخلت الحجز أمس تاجر حشيش لحين استكمـال الإجـراءات اليوم ، ونبهت بعدم إخراجه منه إلا بإذن منى ، والآن سألت عنـه فلم أجده .

قال المأمور :

- هل كتبت محضر تحريات بالموضوع ؟

رد رئيس المباحث :

- كنت على وشك كتابته قبل الاجتماع .

قال المأمور :

- هل أضفته إلى قائمة الوارد للحجز ؟

رد رئيس المباحث :

- منذ متى ونحن نضيف ؟ .

قال المأمور :

- هل أصدرت للضابط تعليمات رسمية بشأنه ؟

رد رئيس المباحث :

- أعطيته تعليمات شفوية .

عقب المأمور وكأنه يؤنب :

- لامحضر تحريات ، ولاتسجيل فى قائمة الوارد ، ولاأمر كتابى ، ألا تحس أن الموضوع بهذه الصورة غير مقبول .

رد رئيس المباحث وكأنه مغيظ :

- ليست المشكلة الآن مشكلة إجراءات . المشكلة أين ذهب ؟

قال الضابط بهدوء وهو ينظر إلى المأمور :

- وماشأنى بالموضوع ؟ لاأعرفه ولارأيته .

رد رئيس المباحث بحدة :

- ساجده حتى ولو كان فى سابع أرض .

قال المأمور للضابط :

- اذهب يابنى إلى عملك .

فانصرف ، فنظر المأمور إلى رئيس المباحث وهو يقول بأناة لائما :

- سبق أن قلت إنه ليس من صالح أحد وجود مشكلات فى هذه الظروف ، ماقيمة تاجر حشيش فيما نحن فيه ؟!

مس المأمور فيه جرحا مفتوحا فقال بانفعال وكأنه يهدد :

- تاجر الحشيش خيط لوقائع كثيرة خطيرة يتستر عليها بعض الضباط .

فعقب المأمور بهدوء وكأنه يحذر :

- لا أحب لك أن تخطئ ، أنت تعرف عمق علاقتى بك ، لكن واجبى يدعونى أن أنبهك حتى لاتقع فى خطأ قد يضرك . فإذا كانت لديك معلومات عن أى شئ يجب أن تكتبها بشكل رسمى لتأخذ طريقها إلى تحقيق رسمى من غير أن تطلق اتهامات غامضة

لاتخدم إلا المغرضين .

وتابع كلامه وكأنه يبصِّره بالنتائج ويوحى إليه بالطريق :

– أنت أعقل من أن تكون أداة تشهير بلا دليل ضد جهاز أنت جـزء منه ، وسيرتد فى النهاية سهمك إليك حتى لو أصاب .

لم ينبس رئيس المباحث بكلمة واحدة ، وأيقن أن من الحماقة المواجهة وهو أعزل ، فأغرى صمته المأمور أن يضيف :

– أعرف أننا فى حاجة ماسة إليك فى هذه الظروف ، لكنى مع ذلـك مستعد أن أوافق على أن تأخذ يومين لترتاح .

وابتسم كأنه يغريه بالقبول وهو يقول :

– بالطبع نحـن لانستطيع الاستغناء عنـك ، ولكـن التوتر قطعـا لايفيد .

تمتم رئيس المباحث بكلمات غير مفهومة ، لعلها كلمات شكر ، لكنه لم يحدد موقفه ، ونهض ليأخذ طريقه إلى خارج الحجرة ، فأتاه صوت المأمور قبل أن يصل إلى الباب وهو ينظر إليه بإمعان :

– أرجو أن أعرف رأيك الواضح عندما نلتقى فى المساء .

قال لنفسه وهو يغلق عليه باب مكتبه : « *التهديد واضح ، إما الصمت وإما التحقيق بتهمة الانفلات والتشهير ، وعليك أن تختار ، وقد تفضل فمنحك فرصة للتفكير حتى المساء* » . طلب كوبا من الشاى وأخرج علبة سجائره وبدأ يدخن ، أخذ يراقب حلقات الدخان ويتابعها وهى تتشكل وتتداخل وتتصارع وتتبخر وتذوب وكأن لم يكن لها منذ لحظة واحدة وجود ، قال لنفسه : « *كل شئ فى النهاية إلى زوال* » وحين حضر الضباط ليتلقوا التكليفات وزع عليهم العمل وهو يقول :

– أما أنا فسأقوم بجولة سريعة لاستطلاع الأحوال .

خرج من القسم قاصدا أرض شريف ، فرحب به عم سيد وإن بدا أنه فوجئ ، فسأله عن فتيحة فأبلغه أنه أرسل إليه من أخطره بالموعد فى المساء ، وتردد برهة قبل أن يسأل :

– ألم ترسل سعادتك من أخذه فى الليل ؟

فرد يتساءل وهو يعطى نفسه فرصة للتفكير :

– ولماذا أحضر فى الموعد إن لم يكن لأراه ؟

وطلب من عم سيد أن يذهب بنفسه يتعجله ، ترك الرجل الكشك على مضض ، وحين رجع من مشواره أكد – وهو يلهث – أنه لم يعد منذ أخذ فى منتصف الليل ، فعقب رئيس المباحث فى نفسه وهويشعل سيجارته : « *هذا ماتوقعته ، من الطبيعى أن يلحق بالأولاد* » .

أحس وهو عائد إلى القسم بعد انتهاء جولته أنه أمام خطر عظيم ، خطر يتجاوز التحقيق ومايمكن أن يترتب عليه من نتائج ، وخطر له خاطر تلقائى بالتراجع ، أصابته رعدة وتجسدت لعينيه أشياء بلا عدد ، *نظرات الإكبار فى عيون الزملاء ، نظرات الحب فى عيون الأصدقاء ، نظرات السخرية التى واجه بها هانى وهو يقدم إليه التقرير ، نظرات الازدراء التى يوجهها الجنود للعتاة بعد أن يقعوا فى أيديهم ، نظرات الهلع فى عيون المعلّقين على العروسة فى حجرة التحقيق فى بدروم القسم ، كلماته المعادة للضابط النوبتجى منذ ساعات ، ريش الطاووس الطائر مع رأس الزعيم ، الضحكات التى تردد صداها الجدران . قال لنفسه : « الضباط الصغار قد تكون أمامهم فرصة تعلمهم فيها الأيام فيصلحون غدا ماأفسدوا اليوم ، لكن أى كرامة لمثلك إذا أيقن الكل أنك رعديد ؟ بل أى ضمان بأن يكون الصمت الآن طريقا إلى الأمان » ؟*

بينما كان يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه كان ذهنه يفكر فى نقطة بدء صحيحة يستأنف بها البحث من جديد ، وانتهى إلى أنه ليس أمامه - إلى أن يعثر على نتيجة إن كان لايزال موجودا - إلا هانى وكمال ، وهانى برغم كونه مرؤسا له فى جهاز المباحث لايصلح للبدء به ، فواضح أنه تحت السيطرة المطلقة التى كفلت له حتى الآن الحماية ، فلم يبق إلا كمال ، فإنه بحكم تربيته يحاول أن يتجنب الوقوع فى خطأ ، وإذا شارك فيه فإنه يكون مضطرا ، وهكذا تكون بذرة الرفض فى أعماقه موجودة ، فإذا أمكن رىّ هذه البذرة ببعض الإثارة فربما تثمر ، فيتسنى له بذلك حصاد .

دق الجرس وطلب من الجندى أن يستدعى الضابط كمال ، فذهب وعاد ليقول :

- الضابط كمال فى أجازة مرضية يافندم .

كاد يصيح : « هذا مستحيل » لكنه ابتلع الكلمات ، وأمره بأن يحضر له فنجانا آخر من القهوة ، وأشعل سيجارة وراح يحدق فى الفراغ من جديد : « *ظهرك للحائط ، وليس أمامك إلا الصمت أو الموت ، وعليك أن تختار* » ، تذكر المأثورات القديمة التى كانت أمه تقولها : « *ثمة أحياء تحت التراب ، وموتى على الأرض يمشون* » شاقته أمه فقرر أن يتصل بها فى المساء قائلا لنفسه : « *ربما لاتسمح الظروف بلقائها فى وقت قريب* » . نهض دون أن يكمل فنجان القهوة متجها إلى حجرة التحقيق ، ولكنه وجد نفسه يتجه إلى الكاتب الذى يحتفظ بملفات ضباط القسم وهو يقول :

- أعطنى عنوان الضابط كمال .

وتابعه وهو يكتبه فى ورقة صغيرة وقال حتى قبل أن يأخذ منه الورقة ليضعها فى جيبه :

- أعرف المكان وهو ليس ببعيد .

✍ ✍ ✍

الفصل التاسع
إنك أبدا لن تعرف ...

قالت له زوجته وقد بدأت تحمل ما تبقى من طعام الغداء من فوق المائدة :

– أكلتك هذه الأيام لا تعجبني ، أنت مشغول بشئ .

رد على الفور :

– إنه الإرهاق في العمل ، الظروف حساسة ، والمنطقة حساسة ، ويجب أن يشرف المأمور على كل شئ .

قالت وهي تتأمله كأنها غير مقتنعة .

– الإرهاق يجب أن يدفع إلى الأكل أكثر ، وأنت لا تأكل ونفسك مسدودة :

سألها بتعجب :

- ماذا يمكن أن يكون فى رأيك ؟

ردت وكأنما تشك :

- أعرفك ، من يومك عينك زائغة .

قهقه حتى دمعت عيناه وهو يقول :

- وأعرفك ، من يومك عقلك طائش .

أسعدته الكلمات فقد حملت إليه برغم ما بها من حدَّة ولَهَ الشباب الباكر ، حين كان يحس بتهافت الفتيات عليه بنفس اللهفة التى تدفعه إلى التهافت عليهن ، فنظر إليها بإمعان بعد أن منحته اللحظات حلما سعيدا ، تأملت سعادته بقلق صامت لكن القلق ما لبث أن غلبها فصاحت :

- ها أنت تفكر فيها .

فقال وهو يتشبث بالحلم :

- تلك أيام خلت .

قالت وكأنما تذكِّره حتى يفيق :

- ولديك عروس يتم تجهيزها .

ثم أردفت بغيظ :

- لكن بموت الزُمَّار .

فعقب كأنما يسترضيها :

- اطمئنى ، لقد وضعتِ إصبعَ الزُمَّار تحت الحراسة المشددة .

فابتسمت ، ولمعت عيناها ببريق وهى تقول :

- طول عمرك تضحك على .

وأردفت راضية :

- سأتيك بالشاى فى حجرة النوم .

فى انتظار الشاى تمدد على الفراش مشعلا سيجارته ، وأخذ ينفث دخانها ببطء بعد أن يحتفظ به فى صدره فترة كافية لاستمتاعه ، ثم يرسله فى شكل نافورة فوارة ما تلبث أن تكوّن حلقات متوالية يبقى دخانها فترة قصيرة لكنها برغم قصرها تترك أثرا من الرائحة لا يزول ، أحس باسترخاء الجسد وإن ظل العقل مشغولا بالهموم المتعددة ، إنها على حق فى إحساسها بالقلق عليه ، وأدركت بحساسيتها ما هو فيه ، لئن أخطأت فى التشخيص فإن العلة قائمة . وليت المتاعب تقتصر على الاستفتاء وما يلزمه من حرص على التواجد الأمنى المستمر والاستقرار الكامل ، وإنما جدّت فى نفس الفترة أحداث ذات خطر ، تقتضى مزيدا من اليقظة والحذر ومضاعفة الجهد فى المتابعة والإشراف حتى لا تكون مهما صغرت عرضة للتفاقم ، ولديه مؤشرات متعددة على وجود حرب خفية فى الظلام بين التنظيمات المضادة والسلطة ، وهو أمر يحمّله بتوتر لا يحتمل ، لأن القسم يقع داخل دائرة الخطر بعد أن علم من فترة قصيرة باعتقال عناصر معادية من بين سكان القسم ضمن تنظيم مضاد ، كما أيقن بوقوع بعض عمليات سرية متبادلة راح ضحيتها بعض الأفراد ، وها هو رئيس المباحث فى خضم هذه الظروف يسهم بدوره فى تعقيد الأمور ويخلق مشكلات جديدة بحساسيته المفرطة إزاء عمليات الجهاز الخاص ، وينبش فى عملياته دون ضرورة ولا منطق لمجرد إثبات الوجود ، وبرغم توجيهاته الواضحة بإيقاف تدخله فإنه لا يتوقف ، وكأن المنع يغريه بالمزيد ، قال لنفسه: « *ربما لو كنت أطلعته على ما خفى مما علمت لكان على بينة* » ثم عاد فرأى أن ما فعله هو الصواب ، فهو رجل يعلم جيدا حدود واجباته ويدرك بخبراته حتمية تنفيذ التعليمات ، ولو كان لدى القيادة رغبة فى إحاطة مسئولى المباحث بشئ لفعلوا ، ثم إن إبلاغهم له وحده وطلبهم الصريح منه إغلاق بعض الموضوعات أمر له ما يبرره ، فليس معقولا فى ظل التركيب السكانى أن تُتداول المعلومات الخاصة بالصراع بين العنصرين إلا فى أضيق نطاق وعلى أعلى مستوى ، وإذا كان قد علم بفضل علاقاته الوثيقة ببعض زملائه من قيادات الجهاز الخاص فليس

من حقه أن يشيع ما علم بين من لا يعلم ، فمن يدرى ؟ ربما يكون القصد من إحاطته ببعض المعلومات بعض اختبارات الثقة التى دأبت الأجهزة المسئولة على إجرائها بين الحين والحين للتأكد من صلاحية القيادات وولائها .

لم يحس بدخولها وهى تضع الشاى على الكومودينو وتجلس فى الفراغ الضيق الذى تركه جذعه عند حافة الفراش مسندة عجيزتها الصغيرة إلى ركبتيه وسألته برقة :

— نمت ؟

فأجاب دون أن يفتح عينيه :

— كلا ولكنى أفكر .

قالت بدلال :

— لا تذهب بعيدا ، نحن هنا .

فتح عينيه فانبجست الدهشة طوفانا ، كانت تعيد إليه بقميصها الحريرى المفتوح حتى الخاصرة والذى يكشف تكوينات الصدر والبطن بصورة أسرة عهدا خلايا ، الجسد الأبيض اللدن الذى لا توجد فيه ذرة شحم واحدة فى الإطار الأسود يحكى صور فاتنات رينوار وتحف عصر النهضة ، هل معقول أن يكون لها بنت على وشك الزواج ؟ مد يده برفق تتسلل من الفتحة حول الخصر الناحل وهوى بفمه على الصدر وهو يقول :

— بنت اللواء عزت كاظم لم تتغير .

قالت بدلال والدم يتصاعد إلى وجهها وكأنها فى مراحل المراهقة الأولى :

— أنت الذى تغيرت .

مضى بشفتيه يطوف بوجهها وقد صح منه العزم وغمغم :

— لا أتغير من ناحيتك أبدا .

لكنه أيقن وقد مال جذعها الأعلى أن العزم ليس كل شئ . وأن الظرف غير موات ، فهمس وهو يفلت شفتها السفلى من بين أسنانه :

- عندما يأتى المساء .

قامت خجلى تلملم أطراف القميص حتى تغطى الفتحة وكأنها ضبطت متلبسة وهى تغمغم .

- كنتَ تحب الظهيرة .

رد وهو يسحب جذعه بعيدا ويمدُّ يده ليمسك فنجان الشاى :

- ذاك فى العهد القديم .

* * *

شرب الشاى وعلى غير عادته لم ينم ، فقد صعد الدم إلى رأسه وهو وإن لم يكن كافيا للحسم فقد كان كافيا للتوتر ، ذهبت إلى المطبخ وأسلمته إلى التفكير فعاد ذهنه من جديد يدرس المشكلة القائمة بين رئيس المباحث ومسئول الأمن السياسى ، « *إن الأصل أن يكون بينهما تعاون كامل وتبادل للمعلومات سريع ، ولكن المبادئ شئ والتنفيذ شئ آخر ، النظام الموضوع مجرد إطار من الكلمات الفارغة الجوفاء التى تحتاج لتتضح حقيقتها إلى ترجمة حية من الوقائع والأحداث والجزئيات والتفاصيل ، وهذا كله رهن بالعلاقات ، وفى هذا كله يبقى العنصر البشرى بمكوناته وخبراته عامل الحسم فى نجاح المبادئ والنظم وفشلها ، فليس النجاح والفشل فى حقيقة الأمر مرهونا بالمبادئ المعلنة والنظم المقررة ، فإن أفضل المبادئ يمكن أن تتحول إلى أسوأ واقع عند التنفيذ كما أن أسوأ النظم والمبادى لا تقل تألقا وبريقا وجدوى إذا قام على تنفيذها رجال ملتزمون ، المهم دائما كيف يتم التنفيذ ، وهل تتضافر جهود الأفراد فيتحقق النجاح ، أو تتنافر ميولهم فتتصادم إراداتهم فينعدم إليه السبيل* » قال فى نفسه : « *من الجلى أن رئيس المباحث يتجاوز ولا يلتزم ، وأنه بذلك يحكّم إرادته الخاصة فيما لا ينبغى له ، وعليه أن*

يدرك أن إرادة الجهاز يجب أن تعلو كل إرادة ، لأنه لا يعالج قضايا فردية بل يصون أمن النظام الذى يجب أن يعلو فوق الأفراد . إن التعاون مع الجهاز يتطلب الاستجابة لطلباته ، والاستجابة تستلزم الاستسلام من غير حساسية ، ولا يتم ذلك بالكلمات بل بالوقائع والأحداث ، ولهذا لا مناص من حسم الأمور » .

أحس بقدر من الارتياح بعد أن وصل إلى هذا التحليل ، فإنه قد أزال بعض الضيق الذى انتابه منذ وجَّه تحذيره الصريح إلى رئيس المباحث فى الصباح ، وأيقن أنه قد أدى ما عليه ما دام قد نبهه أكثر من مرة حتى لا يقع فى خطأ قد يكون فادحا ، وبخاصة أنه يحبه ويقدره ويكبر فيه تفانيه فى العمل وحرصه عليه وتفوقه فيه ، ويلمس منه النموذج المشرف لرجل المباحث الذى يفكر فى كافة الاحتمالات من غير أن يغفل احتمالا واحدا حتى ولو كان نادرا ، ويصل إلى أفضل النتائج فى أكثر المسائل غموضا وأشدها تعقيدا ، فضلا عن أنه يعيد إليه بعض ملامح شخصيته حين كان مغرما بالعمل ولوعا بالنساء ، ولولا إسرافه الشديد فى علاقاته النسائية لفكر فيه لدرة حياته ولؤلؤة وجوده « نهال » ، بل إنه يتذكر أنه فكر فيما بينه وبين نفسه بالفعل ، لولا أنه أحس بتجربته العملية بخطورة وجود فارق فى السن كبير بين الزوجين ، ثم حسم الترددَ الذى لم يعلم به أحد اختيارُ نهال الذى لم يكن بد - بعد ما علمه من أمها - من الموافقة عليه .

قال فى نفسه : « *كان عليه بحكم تفكيره الذى لا يغفل احتمالا أن يتوقع اتصال عدد من المسائل والحوادث بالجهاز الخاص ، فإن الأعداء السياسيين ليسوا من عالم آخر ، ولا يعلقون على صدورهم شارات ، بل هم ناس عاديون يبدون أحيانا بسطاء ، ويستعملون ناسا عاديين يظهرون غالبا بعيدين عن الشبهة ، وإنه لمعجزة للجهاز الخاص أن يستطيع وسط هذا الخضم الهائل من البشر أن يكتشف هؤلاء ، وابسط حقوقه أن نتعاون معه لا أن نعرقل عمله ، وأن ننفذ توجيهاته لا أن نكون بتصرفاتنا عبئا عليه . إنه إذن لم يظلمه حين وضعه أمام*

نفسه ليختار ، ولم يظلمه حين نبهه إلى مسئولية الاختيار ، بل على العكس من ذلك ، لقد ساعده فى إدراك حقيقة لا ينبغى أن تغيب لحظة عن البال ، وهى أن الانضباط الأمنى كله رهن بالالتزام المطلق بالتوجيهات وليس فقط بالأوامر الصريحة التى لا تقبل الاحتمال » .

* * *

جلس مواجها لها فى الصالة بعد أن ارتدى ملابسه ولديه رغبة فى أن يشرب معها فنجانا من الشاى قبل العودة إلى المكتب ، قالت له قبل أن يتكلم وهى تقلب بجهاز اللاسلكى الصغير قنوات التليفزيون .

- **ليتك ترسل لى بعض أشرطة الفيديو الجديدة ، لقد مللت من رؤية القديمة .**

قال دون أن يفكر :

- **سأحاول .**

ردت وابتسامة خفيفة ترف على شفتيها وكأنها ضاقت بالعبارة :

- **لا تقل سأحاول ، قل حاضر .**

قال وهو يتأمل مشهدا ليفهمه :

- **سأحاول يعنى حاضر .**

نظرت إليه بإمعان وكأنها تحدق فيه وهى تقول كأنما تطلب وعدا قاطعا :

- **ليس دائما ، فبعض المحاولات يكون نصيبها الفشل .**

التقطت أجهزة الاستشعار العبارة وفسرتها ، وأصدرت أجهزة التوجيه الأمر بالانسحاب الفورى قبل التورط فى الاشتباك وليكن شرب الشاى فى المكتب ، فقال وهو ينهض فى طريقه إلى الخروج :

- **سأرسل لك مع السائق ما تريدين .**

سمع وهو يغلق الباب رنين التليفون فلم يعبأ ومضى يهبط السلم دون اكتراث حتى نادته وهو يوشك أن يهبط الدرجات الأخيرة صائحة :

- **العميد حسن زكريا على التليفون .**

هم بأن يطلب منها أن تبلغه أنه غادر المنزل وأن تطلب إليه أن يتصل به فى المكتب ولكنه استدرك وقد خطر له أنه لا يتصل به إلا لأن الأمر عاجل ، وربما كان من الخير له أن يعرفه قبل وصوله إلى القسم ، فضلا عن أن من المحتمل ألا تكون لديه رغبة فى أن يتم الاتصال معه هنالك . فقال وهو يكر صاعدا :

- **سأعود لأكلمه .**

أمسك بالسماعة فجاءت التحية فياضة بالمودة مفعمة بالرقة ، ولكن انتابه إحساس بأن المودة طريق والرقة مجرد غلاف ، تبادلا للحظات كلمات عن الأحوال والأولاد قبل أن يقول حسن :

- **نحن نعرف أنك طول عمرك قادر على ضبط مرؤوسيك ، وهم هنا يتساءلون : هل نعتبر ما يحدث عندك تنفيذا لسياستك القديمة أو بدءا لسياسة جديدة .**

جرحته الفكرة والكلمات ، وأوشك أن يثور لولا أن تداركه حسن مسترضيا بأنه ليس أكثر من ناصح بحكم ما بينهما من ود قديم وأن الموقف كله بين أيدى القيادات .

قال المأمور وقد أعادت إليه عبارات حسن الهدوء مشفوعا بقلق :

- **لا داعى لتكبير الموضوع ، فلا سياسة قديمة ولا سياسة جديدة ، المسألة أبسط من ذلك بكثير .**

كان على يقين من مسئوليته عن تنسيق العمل بين الأجهزة المختلفة عنده ، ولكنه أراد ألا يُسلِّم مرءوسيه دون دفاع فأضاف :

- **لرئيس المباحث بالتأكيد الحق فى أن يقف على ما يتصل بعمله**

من معلومات ، وتجاهلكم له هو المسئول الأول عما نحن فيه .

قال حسن متجنبا فتح الموضوع للنقاش :

- **تعرف قطعا انه ليس أنا الذى يتخذ مثل هذا القرار ، نحن جميعا ملزمون باتباع التعليمات .**

تمتم المأمور موافقا فاستمر حسن يقول :

- **أنت قائد أمنى قدير وتدرك جيدا الظروف المحيطة بعملية تبادل المعلومات .**

ثم أضاف بلهجة خاصة تكفل له فيما يتصور حسم الموضوع :

- **وإذا كان قد تسرب إليك شئ خاص فلأنك لاشك داخل دائرة الثقة بلا جدال .**

* * *

أغمض عينيه وهو جالس فى المقعد الخلفى للسيارة فلم يفطن إلى اللافتات الجديدة التى تحمل عبارات التهانى المبكرة التى أخذت تتردد فيها عبارات تدور حول « الإجماع » فقد كان ذهنه مشغولا بتأمل المكالمة التليفونية ، واستيحاء ما وراءها من دلالات ، وبرغم ما بينه وبين حسن من منافسة حين تزاملا فترة فى صدر الشباب فى الأمن العام قبل اختيار حسن للعمل فى الجهاز فإنه ظل يقدر فيه وفاءه بإطلاعه على بعض خفايا تمسه بشكل مباشر لم يكن ليقف عليها من مصادره الأخرى ، ولذلك حين اتصل به هذا المساء ووقف من كلماته على اهتمام القيادات بالأمر أيقن بخطورة الموقف وعقد العزم على أن يكون لقاؤه المرتقب مع رئيس المباحث حاسما ، ومال رويدا رويدا إلى تحميله المسئولية المباشرة فى خلق مشكلة له فى ظروف لا تحتمل المشكلات بحال .

حين وصل إلى مبنى القسم ألقى نظرة عجلى على نوافذ الطابق الثانى فأيقن أن رئيس المباحث لم يصل بعد ، فقال فى نفسه : *« ينام مرتاحا ويترك لنا القلق »* ، وصعد إلى مكتبه وطلب وهو يجتاز بابه شايا مخالفا عادته فى مثل هذا

التوقيت فى شرب القهوة ، وقبل أن يدق الجرس ليطلب استدعاء نائب المأمور ليقف منه على الجديد فى محيط العمل فوجئ بمسئول الجهاز فى القسم يدخل عليه يحمل وجهه نذر خبر غير مرتقب ، حياه الرجل باحترام ظاهر وهو يقول :

- **أحببت أن آخذ مع سعادتك فنجان قهوة .**

قال المأمور وكأنما يحثه على ترك المقدمات :

- **لقد طلبت شايا .**

قال الرجل وكأنه يقدم تنازلا يرجو أن يكون له ثمن :

- **لا بأس ، فليكن شايا وإن كنت أحب القهوة نظرا لرداءة صنع الشاى .**

ثم أضاف وكأنه يقدم رشوة صغيرة :

- **لكن لا شك أن شاى المأمور سيد أنواع الشاى .**

ساد الصمت لفترة ، فقد كان المأمور فى انتظار ما سيقول ، وكان هو يعد بحذر الكلمات .

بدأ الرجل حديثه بأنه يعتبر رئيس المباحث صديقا ، وأنه مهتم بالمحافظة على هذه الصداقة ، وأنه حريص على تبادل الزيارات معه فى محيط العمل وإن لم تتح لهما الفرصة لتبادل الزيارات خارج نطاقه ، وأن المشكلات القائمة ليست قائمة على اختلاف شخصى ، وأنه حين طلب باسم الجهاز أن توضع الأمور فى نصابها لم يفعل ذلك عن هوى فى حجب المعلومات وإنما بحكم حساسية بعض الموضوعات ، وأنه لا يستطيع أن يُفسِّر لرئيس المباحث بعض التصرفات التى تبدو فى ظاهرها داخلة فى نطاق اختصاصه ، لكن المأمور يملك ذلك بحكم كونه المهيمن على عمل الأجهزة فى محيط عمله .

أوشك أن يصيب المأمور الملل من المقدمة الطويلة ، فسأل مستفسرا ليختصر :

- كل هذا أعرفه ، فما الجديد فى الموضوع ؟

قال مسئول الجهاز :

- إن رئيس المباحث - فما يبدو - ما زال مصمما على خلق المشكلات ، وقد قام - بعد مقابلته للمأمور صباح اليوم - بجولة واسعة لاستقصاء المعلومات ، كما أنه وقف من أرشيف القسم على عنوان الضابط كمال ، وهو فى هذه اللحظة فى منزله . ومن يدرى ماذا يدور بينهما الآن ؟

قال المأمور وهو يدير فى ذهنه المعلومات الجديدة :

- دعك من كمال فهو موقن أنه مخطئ ولذلك لا يستطيع أن يتكلم ، المشكلة الحقيقية فى رئيس المباحث لأنه مقتنع أنه على صواب .

عقب مسئول الجهاز بهدوء :

- نحن نحاول بكل جهودنا تصوير الأمر للمسئولين بأنه خطأ شخصى وليس سياسة مرسومة .

فرد المأمور وقد أزعجته الفكرة :

- هذا صحيح كما تعلم ، ولك أن تقرر هذا فى كل مجال .

قال مسئول الجهاز وقد أدرك أنه على الطريق الصحيح :

- من ناحيتى فإنى مقتنع تماما بهذه الحقيقة ، ولكن رئيس المباحث يثير بموقفه تساؤلات .

قال المأمور وفى ذهنه اللقاء المرتقب :

- لك أن تطمئن ، فستتضح كل الأمور فى وقت قصير .

ثم أضاف وكأنه يطمئن نفسه :

- وأرجو أن تسير الأمور على ما يرام .

أوشك المأمور بعد خروج مسئول الجهاز أن يرسل المراسلة ليسأل : هل حضر رئيس المباحث ؟ وإذا كان قد حضر استدعاه على الفور ، ولكنه فكر فى إجراء عدد من المقابلات المختلفة المتصلة بالعمل قبل اللقاء المتوقع حتى يفرغ له تماما ، ولعله يقف من هذه اللقاءات على بعض المعلومات التي يمكن أن تكون وسيلة ضغط مجدية ، كما أجرى بعض الاتصالات التليفونية مع بعض من يثق بهم من الزملاء والأصدقاء بغية التأكد بصورة أو بأخرى من وصول المشكلة إلى القيادات وحيز الاهتمام الذى حظيت به ، وقد توقع طوال هذه الفترة أن يحضر رئيس المباحث بنفسه إلى مكتبه دون دعوة ، فبينهما موعد تترتب عليه نتائج مهمة ، ولما لم يحضر آثر أخيرا أن يصدر أمره إلى المراسلة باستدعائه دون تأخير ، وهو يقول فى نفسه : « *المقدمات لا تبشر بخير ، ولعله قرر المخاطرة بالاستمرار* » وأزعجه الاحتمال إلى حد بعيد ، فقد تأكد لديه الآن أن المشكلة لم تعد مشكلته وحده ، فقد أصبح معه داخل دائرة الاستفهام ، فإذا استمر فى محاولاته التى لا طائل منها فلن يتحمل وحده مسئولية عمله بل سيتورط معه بالضرورة ، إما باعتباره الدافع إلى هذا الاستمرار ، وإما باعتباره غير قادر على منعه ، وإذا كان الاحتمال الأول يعنى خطر المواجهة مع الجهاز الخاص ، فإن الاحتمال الثانى يتضمن إقرارا بالعجز والقصور ، والأمران معا يضعانه مرغما فى موقف الدفاع وهو ما لا طاقة له به ، فلابد - مهما كانت الظروف - أن يتوقف عن محاولاته فى الحال .

دخل رئيس المباحث وأغلق خلفه الباب ، لم تر عينا المأمور الابتسامة المعهودة تغمر الوجه ، ولم تصافح أذنيه جلجلةُ التحية المعتادة ، بل قال بلهجة رسمية لا تخلو من جفاف :

- أفندم .

أيقن المأمور أن ذلك نتيجة طبيعية لما حدث فى الصباح ، وتمنى ألا يكون مقدمة لما يحدث فى المساء ، فقال بهدوء :

- اجلس .

جلس من غير أن ينبس ، وأحس المأمور أن البداية المتوترة ليست الطريق الذى يوصل إلى الاتفاق المرجوّ ، وأحب أن يتيح لكليهما فرصة أفضل فقال :

- يبدو أنك مازلت غاضبا .

رد رئيس المباحث بتلقائية :

- أنا لا أغضب من سعادتك .

قال المأمور فى نفسه : « *هذا* بشير خير » ، وصاح تدفعه رغبة فى نزع رداء التوتر :

- هذا واضح جدا .

ثم أردف وكأنه يصالحه

- لم آخذ قهوتى بعد ، فهل تشرب معى فنجانا من القهوة أو أشرب معك فنجانا من الشاى ؟

قال رئيس المباحث في نفسه : « *الأمران لا يستويان* » ورد بهدوء :

- ما تأمر به ، وإن كنت من جانبى أحب الشاى .

قال المأمور متكلفا الضحك :

- إذن فلتكن قهوة .

فابتسم رئيس المباحث وقال فى نفسه : « *ليس مهما أن تطلب ، المهم أن استجيب ، ولن أقرب قهوتك مهما كانت الأسباب* » .

انتظر المأمور أن يبدأ الرجل الحديث فلم يقدم غير الصمت ، وظل يحدق فيه لا يطرف ، فأدرك أن الموضوع لن يمر بسهولة ، وأن عليه أن يعد العدة لاشتباك طويل صمم على أن يكسبه مهما كانت المقدمات .

قال المأمور :

- **تأخرتَ الليلة ، فقد سألتُ عنك أكثر من مرة ولم تكن موجودا .**

فرد بهدوء :

- **عانيت بعض الشئ وأنا قادم .**

ظن المأمور أنه يوشك أن يفصح ولكنه لم يزد ، فسأله وكأنه يحثه على الإفاضة :

- **خير ؟**

فأجاب دون تردد وكأنه أعد الكلمات من قبل :

- **لم تعد الطرق الآن مباشرة .**

عقب المأمور بعفوية وكأنه يعجب لغفلته :

- **هذا أمر قديم كان عليك أن تتكيف معه من زمن طويل .**

فكر رئيس المباحث فى نفسه : « *ما كنت اظن أنك أتممت التكيف على هذا النحو* » وقال :

- **وكيف أتكيف وكل يوم يجد جديد ؟**

قال المأمور فى نفسه : « *لا مجال للرمز ولا مناص من المكاشفة* » وسأله بوضوح :

- **لعلك انتهيت إلى قرار ؟**

فسأله رئيس المباحث متجاهلا :

- **فى أى شئ ؟**

قال المأمور بضيق لتجاهله :

- **بشأن إجازتك المقترحة .**

رد وكأن الموضوع غير وارد فى فكره :

- **الظروف غير مناسبة .**

قال المأمور بحماس :

– قلت لك دع الظروف لى ، فهذه مسئوليتى .

فرد بحماس وكأنه يريد إنهاء الأمر :

– ثم إننى لست فى حاجة إلى الراحة فلم أتعب بعد .

قال المأمور فى نفسه : « *أعرف عنادك ولكنك تنطح الصخر ، لا مفر من المصارحة* » . قال :

– مادمت لن تقوم بأجازة أحب أن أعرف ما تنوى أن تفعل فى المشكلات المعلقة .

سأله رئيس المباحث وكأنه لا يعرف :

– أى مشكلات ؟

رد المأمور وقد أحس بعناء من أسلوب التجاهل :

– مثل مشكلة الأولاد المفقودين .

قال رئيس المباحث :

– إننى لم أصل بعد إلى تصور كامل فيها .

قال المأمور وقد أوشك أن يحتد :

– ليس مطلوبا منك تصور كامل ولا تصور ناقص ، اعتبر المسألة خارج دائرة البحث .

اعترض رئيس المباحث :

– بصراحة لست أفهم ، فلماذا لا تكون ضمن موضوعات المتابعة الأخرى ؟ هل الأمر سر إلى هذا الحد ؟

أوشك المأمور أن يفصح ولكنه آثر فى اللحظة الأخيرة أن يتراجع ، فقال :

- **لا تحمل الأمور أكثر مما تحتمل ، الموضوع تافه ولا يستحق ضياع الوقت فيه .**

رد رئيس المباحث وكأنه يسخر :

- **وهل يتحتم لكى تهتم المباحث بموضوع أن يكون المجنى عليه من الكبار ؟**

قال المأمور محتدا :

- **لا تسئ فهمى عمدا ، المسألة هينة لأنه لا شبهة لجريمة فيها .**

قال رئيس المباحث منفعلا وإن ظل معتصما بنبرة ساخرة :

- **اختفاء ثلاثة أطفال بعد الاعتداء على أعراضهم فى داخل القسم أمر لا يحتمل شبهة جريمة ؟**

أمسك المأمور عن المناقشة ، وانتابته حالة من الضيق والسخط والألم والاشمئزاز ، كانت المرة الأولى التى يسمع فيها بخبر الاعتداء على الأولاد فى داخل القسم ، وخطر له - للحظة - احتمال أن يكون رئيس المباحث يدّعى الواقعة تبريرا لموقفه ، لكنه لمعرفته الوثيقة به وبأسلوبه فى العمل عدل عن الاتهام وآثر أن يعرف ما وراءه فقال مستطلعا :

- **تعرف أننى لا أحب المبالغات ، فمن أين هذا الادعاء ؟**

حكى رئيس المباحث بإجمال ما توصل إليه من معلومات حتى انتهى بذكر ما علمه من الملازم كمال من غير أن يصرح بمصدر معلوماته الخاص ، وعقب وكأنه يحاول حمل المأمور على اتخاذ موقف حاد :

- **من هذا ترون أن هناك سلسلة من الجرائم وليس واحدة .**

أدرك المأمور أن الموقف يوشك أن ينقلب رأسا على عقب ، وأن أى تعقيب يحمل نبرة استنكار يعنى حتما الإذن بالاستمرار ، فلم يكن مفر عنده من التشكيك ، فقال :

- هذه كلها افتراضات لا حقائق .

قال رئيس المباحث :

- إنها اعترافات .

قال المأمور مصححا :

- أنت رجل دقيق ، وليس مقبولا منك التجاوز فى التعبير ، ليس فيما تقوله اعتراف واحد ، بل اتهامات وافتراضات مبنية عليها .

قال رئيس المباحث مستدركا :

- دعنى إذن أتحقق من صحة هذه الاتهامات .

قال المأمور بإصرار :

- ليس لدينا استعداد لتضييع الوقت فى هذه الظروف .

وأضاف وكأنه يقدم النصح :

- الاستفتاء بعد أيام ، فلا داعى للإصرار على قضية خاسرة منذ البداية .

قال رئيس المباحث فى نفسه : « *ما أبشع أن يخسر الإنسان نفسه* »

وأضاف وهو يضغط على الكلمات :

- لن أتوقف عن العمل إلا إذا صدر لى أمر رسمى بالكف عن التحرى .

قال المأمور وقد استبد به الغضب :

- لن أسمح باستمرار هذه المهزلة فاعتبر أن الأمر قد صدر .

قال رئيس المباحث فى نفسه : « *الجريمة لا تلد إلا جريمة ، ولن تكون بمنأى مما أنا فيه* » ونهض مستأذنا وهو يقول :

- اسمح لى إذن أن أتقدم بمذكرة رسمية بما توصلت إليه من معلومات قبل إغلاق الموضوع .

قال المأمور مغضبا .

- لا تتعب نفسك ، فلن يغير ذلك من الأمر شيئا .

قال رئيس المباحث فى نفسه : « *يا لخسارة الرجال ، تخدعك نفسك ، ولن تقبض غير الريح إن أحسنوا بك الظن* » ، وأضاف وهو يصفق خلفه الباب :

- ستكون المذكرة على مكتبك صباح الغد .

قال المأمور فى نفسه : « *صوت صارخ فى البرية محروم حتى من الصدى* »وكاد يصيح : « لن تجد مذكرتك سوى سلة المهملات » لولا أنه سمع اصطفاق الباب .

ما أن خرج رئيس المباحث حتى عصف الغضب بالمأمور ، فقرر على الفور عدم الاكتفاء بإغلاق الموضوع ، بل طلب نقل الرجل من دائرة القسم ، لكنه بعد برهة من التفكير وجد أن طلبه المفاجئ فى هذه الظروف يقتضى حتما تقديم مبررات كافية قادرة على إقناع إدارة شئون الضباط المختصة بالتنقلات ، وبخاصة أن سمعة رئيس المباحث جيدة ، ومقدرته على الأداء مشهود بها ، وتقارير كفايته ممتازة ، فما لم يتقدم بمبررات معقولة سيُصوَّر الموقف على أنه ضرب من سوء استعمال السلطة ، وقد لا يجد استجابة مباشرة ، مما يتيح لرئيس المباحث فرصة الاستمرار فى جمع المعلومات ، الأمر الذى يضعه بالتأكيد فى خطر المواجهة مع قيادات الجهاز الخاص ، وقدَّر بعد تقليب المسألة على وجوهها أن الأسباب الحقيقية لا يمكن ذكرها فى وثائق رسمية ، وأقصى ما يمكن عمله هو البوح بها بصورة شخصية ، ولكنه أدرك أن ذلك قد يؤدى إلى الكشف عن معلومات تتصل بالجهاز الخاص لم يعلمها إلا بأساليبه الشخصية ، بدت المسألة وهو مستغرق فى التفكير فيها محفوفة بالمخاطر والمزالق ، وأسلمه التفكير إلى ضرورة اتخاذ

أسلوب آخر يوصل إلى تحقيق الهدف من نقل الرجل ، ورأى أنه لو استطاع أن يسند إليه تهمة الإخلال بنظام العمل في دائرة القسم وعدم التعاون مع زملائه في الأجهزة الأخرى ربما كان أسلم من حصر المسألة في نطاق ما حدث بينه وبين الجهاز الخاص ، لكن ذلك لابد أن يعتمد على شكايات صريحة من الضباط في الأجهزة المختلفة من تدخل رئيس المباحث في أعمالهم وعرقلته لنشاطهم . وهكذا انتهى المأمور إلى ضرورة أن يصله من مكاتب المخدرات والآداب وغيرها شكاوى متعددة بتواريخ مختلفة تتضمن وقائع متنوعة ، وتطلب جميعا التدخل إنقاذا لحسن سير العمل . قال المأمور في نفسه وهو يفكر في مسئول الجهاز الخاص : « *هذا دورك ، وأنت صاحب المصلحة المباشرة في استبعاده ، فلا أقل من أن تقوم بالتحضير الجيد بما لك من علاقات* » وتمتم لنفسه وهو يطلب من المراسلة استدعاءه : « *فلتتحملوا مسئوليتكم عما بدأتموه ولتقدموا أسبابا مقنعة لا تجعلني مضغة في الأفواه* » .

قال مسئول الجهاز بعد أن وقف على ما تمخض عنه اللقاء مع مسئول المباحث ، وما انتهى إليه المأمور من ضرورة التحضير الفوري لطلب النقل :

- **المسألة تحتاج إلى استشارة على مستوى أعلى ، فإنني لا أملك بحكم صلاحياتي اتخاذ موقف نهائي تجاه زميل باسم الجهاز الخاص إلا إذا كانت لديّ على الأقل توجيهات إن لم تكن تعليمات .**

عقب المأمور وكأنه ضاق :

- **ستستغرق المسألة إذن وقتا أطول مما كنت أتوقع .**

رد بتلقائية ليطمئنه :

- **لا أظن ، فإن معلوماتي الخاصة أن الموقف يدرس منذ فترة ، وأن الدراسة تتناول كل البدائل في جميع الاحتمالات .**

فلما قال المأمور :

- **فابذل جهدك إذن الآن فى تحضير ما يتطلبه النقل من الأجهزة الأخرى .**

أجاب وكأنه يُهوِّن الموضوع :

- **أنا رهن إشارتك .**

ثم أضاف وكأنه يقول لنفسه :

- **من يدرى ؟ ربما لا تحتاج .**

قال المأمور فى نفسه : « ***يفكر كما لو كانت المشكلة مشكلتى ، لكن لا حيلة فى الأمر ، فقد نجحوا فى حملى على المواجهة ولا مفر من الاستمرار*** » .

وعقب بهدوء وكأنه يحذره :

- **الموضوعات كلها حساسة ولا تحتمل الانتظار .**

وأضاف وهو يهم بمغادرة المكتب .

- **فعسى ألا يحدث تأخير تترتب عليه مضاعفات .**

* * *

اكتشف وهو يهبط الدرجات الأخيرة من سلم القسم متجها إلى السيارة أن الشواغل قد أنسته تماما أشرطة الفيديو المطلوبة ، وأنه لم يعد سبيل إلى الحصول على شئ منها وهو يغادر القسم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأدرك أن لقاء عاصفا سيبدأ فور عودته إلى المنزل ما لم تكن لديه القدرة على تقديم ترضية كافية بتحقيق بعض الرغبات بعد أن نسى تلبية الطلبات ، أحس بإجهاد حقيقى وهو يجلس فى مكانه المعتاد فى السيارة ، وأيقن أنه غير قادر على التحمل بعد أن استنفدت طاقته إلى أقصى مدى ، لكن ما باليد حيلة ، فماذا يستطيع أن يفعل ، قال لنفسه والسيارة تمضى

فى طريقها إلى المنزل : « *لن تنطبق السماء على الأرض لو سمعنا كلمتين ، ورأينا الوجه شبرين* » تخايلت له فى الظلال التى صنعها الضوء المسلط على اللافتات وجه الغريمين اللذين شغلاه طوال المساء حتى أوشك أن يراهما فكاد يصيح :

« *الله يخرب بيوتكم ، بسببكم نلاقى ما نلاقى من عناء* » .

بالرغم من حذره فى فتح الباب فقد كانت يقظة ، فما كاد يلج من باب حجرة النوم حتى وجدها مستلقية باسترخاء فى الفراش ، فتحت عينيها وتفحصته بنظرة شاملة ثم قالت حتى دون أن ترد تحية المساء :

– كنت أعرف أنك لن تفى بوعدك .

فرد وهو مشغول بتغيير ملابسه :

– نسيت فى غمرة العمل .

ثم أضاف وكأنه يؤكد وعده :

– إن لم تكن اليوم فغدا ، كل آت قريب .

ردت ساخرة وكأنما ضاقت بكل شئ :

– تكفينى منك الوعود .

فعقب وكأنه يستسلم قبل أن تنشب المعركة :

– شئ خير من لا شئ على أى حال .

واستلقى على الفراش دون أن يمنح نفسه فرصة لتناول طعام العشاء ، نظرت إليه بإمعان وقد غمره عرق غزير فأدركها الإشفاق ، وودت لو أنها توقظه لتسترضيه ويتناول معها الطعام ، لكن صوت تنفسه العالى ما لبث أن أخذ يعزف موسيقى مضطربة مفعمة بالنشاز ، فتحولت مشاعرها إلى ما يشبه الغيظ ، وغمغمت بضيق :

– لم لا تنام مرتاح البال وأنت لا تحس بشئ ؟

ثم أضافت وقد ألح عليها الانزعاج :

- حين تتزوج نهال لابد أن يكون لكل منا حجرة مستقلة حتى يرتاح .

* * *

إيقاع الحلم الممل غير المترابط يقطعه رنينٌ مزعج متصل ، طالما قالت له عندما تنام يجب خفض جرس التليفون فلماذا لم يفعل ، نسيت أنها هى التى رفعته حتى يصل الرنين وهى بعيدة لكيلا تفوتها المكالمة المرتقبة فى المساء ، حاولت إيقاظه برفق فلم تستطع ، تواصل الرنين ملحا فاضطرت كارهة إلى التحرك حتى ترد ، وما لبثت أن عادت فهزته بعنف بالغ وهى تصيح لتوقظه :

- القسم يطلبك . يبدو أن أمرا مهما قد حدث .

جلس فى الفراش لا يكاد يعى ما حوله حتى استجمع قدرته على الفهم فتحرك دون كلمة ، ومضى إلى الصالة فأخذ السماعة وسأل عن المتكلم ، قال الطرف الآخر فى لهجة رسمية :

- آسف للإزعاج يا فندم ، الرائد أمين بسيونى معك .

صاح :

- ماذا هنالك ؟

أجاب الرائد :

- أبلغت الدورية اللاسلكية الآن عن وقوع حادث للمقدم فتحى رئيس مباحث القسم .

سأل المأمور بانزعاج :

- أى حادث ؟ حادث مرور ؟

قال الرجل بعجلة :

- ليس لدينا حتى الآن أى تفاصيل .

سأل بلهفة :

– وكيف حاله ؟

أجاب وفى الصوت نفثة حزن لا تخطئها أذن :

– أول تقرير يقول إن حالته سيئة .

صاح المأمور وقد تفجر فيه ألم مجهول المصدر :

– اتخذ كافة الإجراءات اللازمة فورا وأرسل لى أقرب سيارة نجدة فى الحال .

* * *

قال لضابط سيارة النجدة وهى تحمله إلى القسم :

– افتح اللاسلكى ، أريد أن أقف على المعلومات المتبادلة أولا بأول .

ولكن اللاسلكى لم يحمل شيئا ذا بال ، مجرد أنباء متوقعة عن نقله إلى مستشفى الهلال الأحمر فى غيبوبة ، واستدعاء ضباط القسم بواسطة سيارات النجدة والدوريات اللاسلكية ، أيقن من الرسائل التى سمعها أن الحادث لا يبعد كثيرا عن دائرة القسم وإن لم يكن فى داخلها ، ولم يتحدد لديه المكان بدقة فطلب من الضابط أن يتدخل فى الاتصالات ليسأل عن الموقع ، فكان الجواب :

– فى مدخل شبرا من ناحية المظلات ، بالقرب من أرض أغاخان .

وصل إلى القسم فى نحو الرابعة صباحا ، فوجد فى انتظاره بالإضافة إلى الضباط القائمين بالعمل عددا من الضباط الذين تم استدعاؤهم على عجل ، وعقد جلسة عمل فورية وهم وقوف فى مكتبه أمر فيها بتكثيف جهود جميع الضباط لمعرفة ما وقع بالتفصيل وأسبابه ، قائلا :

– أريد أن يتضح كل شئ فى أسرع وقت : كيف وقع الحادث ؟ متى وقع ؟ من أول من شاهده ؟ من الذى أبلغ عنه ؟ ما علاقته بموقع

الحادث ؟ هل فى الأمر جريمة ؟

وأضاف وكأنه يستحثهم على بذل كل ما عندهم من طاقة :

- **لست فى حاجة إلى أن أذكركم أن هذا واجبكم دائما ، فضلا عن أنه زميل كان يؤدى عمله بطريقة رائعة حتى اللحظة الأخيرة .**

وعند انصرافهم قال وكأنه تذكّر أمرا بالغ الأهمية :

- **لكن لا أريد صداما مع ضباط قسم شبوا ، فلست أحب تنازع الاختصاصات .**

وخلال ساعة تقريبا كانت صورة الواقعة بتفصيلاتها الدقيقة قد اتضحت تماما من واقع أقوال الشهود الذين رأوها ، وهم أفراد قوة الشرطة العسكرية المتمركزة فى ميدان المظلات ، والمنتشرة حتى مفرق الطرق ، وقد تم أخذ أقوالهم بصورة شخصية نظرا لأن أخذ أقوالهم رسميا يقتضى العودة إلى قيادتهم العسكرية ، ولكن الجنود خروجا على الأصول الرسمية وتحت إلحاح شهوة الحديث استجابوا لمحاولات الشرطة غير الرسمية فأمدوهم بما لديهم من معلومات ، وقد ذكروا ما رأوه بالفعل ، وكانوا فى مواضع متفرقة من الميدان والطريق ، وبتجميع أقوالهم تم تصور ما حدث وكأن فيلما يتابع الحادث لحظة بلحظة ، لقد كان رئيس المباحث يقود سيارته الخاصة فى نحو الثانية والنصف صباحا ، وقد أخذ يجتاز سيارة نقل عسكرية واقفة على يمين الطريق ، خلفه مباشرة كانت شاحنة صغيرة تسير بسرعة كبيرة وهى تضغط عليه بالأضواء وآلة التنبيه حتى يفسح لها الطريق لتجتاز ، وما أن أخذ يمينه بعد أن اجتاز سيارة النقل العسكرية ليترك مسافة للسيارة المنطلقة حتى زادت الأخيرة سرعتها لتجتازه ، وأثناء اجتيازها مال بها سائقها إلى الناحية اليمنى بشكل مفاجئ حتى أوشك أن يصطدم بسيارة رئيس المباحث ، الذى لم يجد بدا من اللجوء إلى أقصى اليمين ، وفى نفس اللحظة كان بولدوزر ضخم قد خرج فجأة من شارع فرعى فى منطقة أغاخان يسير فى الاتجاه المضاد ، فوجئ به رئيس المباحث فى مواجهته ، ولم يستطع أن يفعل شيئا غير

أن يصطدم به صداما مروعا . وانشغل أفراد الشرطة العسكرية فى محاولة إخراج المصاب من السيارة المدمرة ، فلم يهتموا بالسيارة التى تسببت فى الحادث ، كما لم يعنوا بالقبض على سائق البولدوزر الذى بادر بالهرب .

قال المأمور فى نفسه وهو يستمع إلى التفصيلات : « *إنه كمين محكم لا يمكن الفكاك منه* » وتساءل وعيناه تتفحصان مجموعة الضباط التى ازداد عددها فى مكتبه :

– **هل الحادث مجرد استهتار سائقين أو أن فى الأمر جريمة مقصودة ؟**

عقب أحد الضباط :

– **الوقائع تحتمل الأمرين ؟**

قال ضابط ثان :

– **بل فى الأمر جريمة بالتأكيد ، فلا يمكن أن يكون تسلسل الوقائع على هذه الصورة مجرد مصادفة .**

قال ثالث :

– **إذا كان هروب السيارة المتسببة فى الحادث أمرا متوقعا فكيف يستطيع أن يهرب قائد البولدوزر ؟**

عقب المأمور :

– **القبض على السائقين نقطة البداية ، لأنهما مفتاح الموقف .**

قال أحد الضباط :

– **فلنسأل إذن الكمائن المرورية والأمنية المنتشرة عن السيارة نصف النقل .**

قال ثان :

- يحتمل أن تكون السيارة قد دخلت شارعا فرعيا قبل وصولها إلى أى كمين .

قال ثالث :

- كما يحتمل أن تكون قد عادت عن طريق الكورنيش .

قال رابع :

- لا مفر من القيام بعملية تمشيط كاملة فى المنطقة حتى سوق الخضار .

قال المأمور منهيا المناقشة محددا الواجبات :

- شكلوا فرق بحث مشتركة مع ضباط قسم شبرا وقسم شبرا الخيمة ، ولتصحب كلُ فرقة قوةُ حماية كافية .

ثم أضاف وهم على وشكل الانصراف :

- المنطقة حساسة ، والظروف حساسة ، فلا تفتحوا النار إلا فى حالة المقاومة .

* * *

تذكَّر المأمور بعد انصراف الضباط أنه لم ترد أى معلومات عن حالة رئيس المباحث بعد نقله إلى المستشفى ، وأحس بقلق غامر بعد الوصف الذى سمعه لوقوع الحادث ، وألح عليه إحساس ملتهب أن يذهب بنفسه ليطمئن على الحالة فربما كان حضوره دافعا قويا للاهتمام به فى المستشفى ، دق الجرس وأمر المراسلة أن يستدعى الملازم هانى على الفور قبل مغادرته القسم مع باقى ضباط المباحث ، وحين حضر قال له وهو يتأهب لمغادرة حجرته :

- أحببت أن أصحبك معى فى زيارة سريعة للمستشفى .

صمت هانى ولم يعلق ، وتابع المأمور :

- أرجو أن يلطف الله به .

تمتم هاني داعيا بصوت خفيض ، فقال المأمور وهو يعود أدراجه إلى مكتبه وكأنما تذكر شيئا مهما :

- اتصل بقائد الدورية اللاسلكية المرافق له حتى يظل في الانتظار إلى أن أجري بعض المكالمات .

حين أنهى المأمور مكالماته ووقف متأهبا ليترك مكتبه دخل هاني بوجه ممتقع وعيون زائغة وارتعاشة شفاه منذرة بالخطر وقال بصوت غريق استبد به الموج :

- سعادتك لا تتعب نفسك ، البقية في حياتك .

وأجهش في البكاء .

جلس المأمور مذهولا يحدق في الفراغ ، لم تطرف عيناه ولكنهما لم تريا سوى ظلمات متكاثفة تزداد قتامة وعمقا ، لم يدر بخاطره فكرة ولم يتبادر إلى ذهنه خاطرة ولم ينطق لسانه بحرف ، بدا الخبر على سمعه غريبا يُعوزه الصدق ، ولم يحس بعد أن استرد وعيه عقب المفاجأة وسيطر على نفسه أن الرجل حقيقة قد مات ، ها هو ينتصب أمامه يحدثه ويناقشه ويضاحكه ويغاضبه ، ها هو يملأ الحجرة ويلوح في الفراغ ، ويظهر بقسماته وصوته ولمعان عينيه وحركة يده الملحة وأسنانه اللامعة في كل شئ وخلف كل شئ وأمام كل شئ ، استقطر المأمور في لحظة واحدة ومن غير إرادة حياة مشتركة كاملة ، بكل تفاصيلها الحلوة والمرة ، بدأ الخبر الموجع يفجر في القلب أسى لا يغيض نبعه ، وبطشت يد الألم العاصفة به فأوشك أن ينهار فصرف هاني بإشارة من يده وانهياره الداخلي يتصاعد حتى أصبح التماسك الخارجي أملا بعيد المنال ، صاح والطعنة في الأحشاء تلتهب بالنار :

- آه .

وود أن لو عاد الرجل ولو للحظة واحدة إلى الحياة ليتصافيا على النحو القديم ، ولكن أنَّى له ذلك بعد ما كان ، ففاضت الأعين بدموع غزار بلا حركة ولا صوت ، ولا

زمان ، ولا مكان .

طُرق البابُ مرات فلم يسمع ، استمر الطرق حتى انتبه ، لعل من يريد الدخول أحب أن يوقظه من غمرة الانفعال ، فمد يده بمنديله ليطوف به على الوجه لعله يزيل آثار الدموع ، لكن من له بمن يزيل ما فى القلب من أثر عميق ، وحين انفتح الباب كان الطارق رئيس الدورية اللاسلكية الذى قدم إليه تعازيه الحارة ، ثم أضاف وهو يمد يده إليه بمظروف كبير :

– وجدنا هـذا الخطـاب باسم سعادتك أثناء نقـل الفقيـد إلـى المستشفى .

وقال للمأمور بصوت واهن تكاد تخنقه الفجيعة .

– لعله آخر ما كتب من كلمات .

خفق طائر الجزع بجناحيه بين الضلوع وأطراف أصابعه تلمس الخطاب .

✍ ✍ ✍

الفصل العاشر
صفات الصفوة صفوة الصفات

ألقى نظرة خاطفة على الساعة المعلقة فى الأنتريه وهو يغادر حجرة النوم استجابة لطرقات بلا عدد استمرت حتى أيقظته مرغما وأوحت إليه أن سكان العمارة لابد أن يكونوا بدورهم قد استيقظوا تحت تأثير دويها الرهيب ، كانت الساعة الخامسة صباحا . قدر للوهلة الأولى أن حرم جاره العامل أصابها شئ مفاجئ وأن جاره قد لجأ إليه طالبا النجدة ، لكنه فى اللحظة التالية استبعد الاحتمال ، لأن علاقته بالسكان ليست وثيقة إلى الحد الذى يسمح لأحد أن يوقظه فى الفجر ، تواصل الطرق على الباب فصاح وهو يبحث عن إحدى فردتى الشبشب :

– حاضر ، لحظة واحدة .

لكن الطارق لم يسمعه واستمر فى طرقه المفزع حتى فتح الباب وقد ناله بالفعل الغضب ، كان الطارق النقيب محسن منصور من ضباطه فى الجهاز الخاص بالقسم ، لم يكد محسن يرى وجه رئيسه المتجهم حتى بادر معتذرا :

- آسف يافندم ، لكن لم أجد مفرا من الحضور لأوقظك .

قال رئيسه وهو يدعوه إلى الدخول :

- لاحاجة إلى الاعتذار .

فواصل محسن كلماته :

- لقد حاولت الاتصال بك أكثر من ساعة فلم يرد التليفون .

قال رئيسه مبررا :

- أنا رفعت الفيشة حتى لايقلقنى أحد ، لقد كنت فى عمل مستمر حتى الثانية صباحا ، ولم أنم إلا منذ أقل من ساعتين تقريبا .

قاطعه محسن :

- أنا آسف جدا ، لكن لم أشا أن أنتظر إلى الصباح ، هذه أوامرك إلينا فى المسائل العاجلة .

قال رئيسه مؤكدا :

- قلت لك لاتزعج نفسك بتفسير ، لقد استيقظت وانتهى الأمر .

مضى محسن وكأنه مصمم على تبرير موقفه :

- يبدو أن جرس الباب ليس عاليا بما فيه الكفاية ، فوجدت نفسى مضطرا أن أدق الباب بقبضتى حتى أوقظك .

وأضاف مبتسما :

- لقد استيقظ الجيران قبل أن تستيقظ .

رد رئيسه بغير مبالاة :

- ولايهمك .

وأضاف وهو يضحك :

– لعلك قلت فى نفسك لقد مات واسترحنا منه .

فقاطعه محسن بعجلة :

– حرام يافندم ، لاداعى لسيرة الموت هذا الصباح .

فنظر إليه مستفسرا وكأنه يقول : « ماذا هناك » ؟ فذكر محسن بإيجاز ماحدث لرئيس المباحث من إصابته فى حادث سيارة ، وعودة المأمور ومعظم ضباط القسم إلى العمل بعد استدعائهم ، وتعليمات المأمور بضرورة الوقوف على ظروف الحادث لاحتمال أن يكون وراءه جريمة .

استقبل مسئول الجهاز الخبر بهدوء أعصاب جدير برجل سياسى رفيع المستوى ، ولم يعقب عليه وإنما سأل :

– وماذا تتوقع أنت ؟

أجاب محسن وكأنما انتهى إلى تصور :

– المقدم فتحى منذ فترة وهو يدس أنفه فى أوكار تجار المخدرات والبلطجية وليس بعيدا أن يكونوا قد قرروا تصفيته جسديا لإرهاب باقى رجال المباحث .

عقّب مسئول الجهاز وكأنه ينتقد :

– هذا تصور لابأس به بالنسبة لضابط مباحث ، ولكنه ليس جديرا بضابط فى الجهاز الخاص ، فتجار المخدرات والبلطجية أهون من أن يشغلوا رجل الأمن السياسى ، فلنفكر فى شئ فى نطاق اهتمامنا .

وتابع وهو يشير بيده إلى الممر الذى يقع المطبخ فى نهايته :

– حتى أغتسل لأفيق يمكنك أن تصنع لنفسك فنجانا من الشاى .

ثم قال وكأنه يعتذر :

- لكن لاتنزعج إذا رأيت المطبخ ، فالمدام كما تعلم مازالت في المصيف ولم تعد بعد .

ولما اعتذر محسن بإلحاح صاح فيه رئيسه :

- أنا لاأستضيفك حتى تعتذر ، لكني أستبقيك حتى أناقش معك الموقف بعد أن أغير ملابسي .

قال لنفسه وهو يغتسل : « *إصابة فتحي أمر مؤسف ، واحتمال أن يكون الحادث مدبرا أكثر مدعاة للأسف ، لكن مهما كانت الظروف فلا ينبغي أن تعالج المسألة في إطار الجرائم العادية ، ومن خلال الإجراءات المألوفة ، فمهما كان الخلاف مع فتحي فهو ضابط شرطة ، أي عضو في نفس الأسرة ، وله بمقتضى هذه العضوية حقوق ، ومادام قد مسّه أذى فعلى أعداء الأسرة أن يدفعوا الثمن بصرف النظر عن كونهم مسئولين أو غير مسئولين ، إن عداوتهم وحدها سبب كاف للإدانة* . » نظر إلى نفسه في المرآة متأملا الشحم الزائد الذي بدأ يغلف البطن وقال : « *لاينبغي أن نكون عاجزين عن الحركة إلى الحد الذي يترهل فيه الجسم* » وتابع تفكيره : « *إذا كان وراء إصابة فتحي جريمة عادية فسيتكفل بها رجال المباحث ، ولن يهرب مرتكبوها ، لكن الأهم ألا يفلت آخرون لاتكون لهم بها صلة مباشرة ، فالجريمة يجب أن توظف لتحقيق أهداف أكثر قيمة وفاعلية* » . وترددت في خاطره وهو يرتدي ملابسه كلمات في التوجيه السياسي للجهاز الخاص وكأنها مأثورات لايصح إغفالها لحظة واحدة : « *على ضابط الأمن السياسي أن يستبق الأحداث فلا ينتظر حتى تحدث الكارثة ، بل يبادر بما يمكن وصفه بضربة الإجهاض للقوى المضادة* » . وقال لنفسه – وكأنه يحاور شخصا آخر وهو يرتدي الحذاء : « *إذا كنت قد فشلت في الوقوف المبكر على الدلالة السياسية لموضوع الأولاد ولم*

ينفذ الموقف إلا تولى قيادة الجهاز نفسها المسئولية فلا يليق أن تفشل فى حادث إصابة رئيس المباحث مهما كانت الظروف » .

ناقش الرجلان الموقف بدقة وهما يحتسيان الشاى المصحوب ببقايا كيكة عثر عليها مسئول الجهاز فى إحدى زوايا الثلاجة ، حاول محسن من خلال المناقشة أن يعرف كيف يفكر رئيسه فى مثل هذا الحادث غير العادي ، ووجدها رئيسه فرصة ليدربه على أبجديات أساسية فى الرؤية السياسية للأحداث وتحليلها الأمنى ، وأكد له المقولة الثابتة أن ضابط الأمن السياسى لاينبغى أن تستغرقه الأحداث الجزئية فتتبدد قواه وتستنفد طاقته ويضطر إلى الجرى وراء الأحداث لملاحقتها ، ولكن على العكس يجب أن تكون لديه القدرة على أن يطفو فوق كل الأحداث حتى يتمكن من السيطرة عليها وتوجيهها ، وقال :

- **إن توظيف الأحداث الصغيرة فى خدمة الاتجاه العام لسياسة النظام أمر لايستطيعه إلا ضابط موهوب سياسيا وأمنيا ، لأنه بموهبته يستطيع أن يدرك ما لايدركه غير من الأبعاد السياسية فى الأحداث الجزئية ويحلل دلالاتها وينطلق بها لتحقيق أهداف النظام باستخدامها فى الاتجاه الصحيح .**

وقضم قضمة من الكيكة وأردفها برشفة من الشاى قبل أن يضيف :

- **السيطرة والتوجيه هما الأسلوب الذى يجب أن يتمسك به ضابط الأمن السياسى ، بحيث إذا لم يكن قد قام بدور فيما وقع فإنه يكون قادرا على أن يستغله فى التوجيه نحو مايراد له أن يقع ، وبذلك يتمكن من الاشتراك الفعلى فى صنع الأحداث ولايكتفى بمراقبتها .**

أنصت محسن إليه بإمعان وتركيز وهو يشرح محاور سياسة الجهاز وأساليب عمله المرحلية وصولا إلى أهدافه النهائية من تأمين النظام السياسى ضد كل محاولة

النيل منه ، وانتقل إليه - تلقائيا - الحماس وهو يقول بإيمان لاذرة لشك فيه :

- إن مهمتنا الأساسية هى حماية النظام ، بصرف النظر عن طبيعته وتوجهاته ، وكل وسيلة لتغيير هذا النظام جريمة يجب التصدى لها وبالتالى يجب ضربها بلا رحمة .

لعلها كانت المرة الأولى التى يتحدث فيها رئيسه إليه بمثل هذه الدقة والإفاضة والوضوح ، وقد اغتبط بذلك لدلالته المزدوجة : ثقة رئيسه به ، وحصوله على توجيهات عملية بالغة الأهمية ، وهكذا ماكاد رئيسه ينتهى من تحليله حتى وجد نفسه يقترح - دون تردد - استغلال الحادث فى توجيه ضربة مباشرة لبقية القوى المعارضة الموجودة فى المنطقة ، وأضاف - وكأنه يقنع رئيسه :

- ليكن ماحدث نقطة بدء للتخلص من كل القوى بضربة واحدة .

قال رئيسه مشجعا وقد اكتشف فيه قدرات لم تتح له معرفتها من قبل :

- لقد بدأتَ تفكر بشكل جيد ، اذهب فأعد قوائمك وخططك ، وسألحق بك خلال وقت قصير .

وأضاف وهو يغلق خلفه الباب :

- لاتنس استدعاء جميع ضباط الفرع لاجتماع عاجل فور حضورى إلى القسم .

فكر حتى قبل نزول النقيب محسن فى إبلاغ قيادته المباشرة فى الجهاز تليفونيا ، ولكنه كان مترددا ، فالساعة لم تبلغ السادسة صباحا والتوقيت غير مناسب ، خصوصا أنه يعلم أن القيادة كانت فى عمل دائب حتى فترة مبكرة من الصباح ، لكنه كان على يقين من ضرورة مناقشة قيادته فى الاتجاه الذى يوشك أن يمضى فيه ، فلم يكن فى وسعه أن يبدأ معركة شاملة مع القوى السياسية المختلفة من غير أن تكون قيادته على علم مفصل بنواياه ، فإنه - آخر الأمر - ليس أكثر من مسئول تنفيذى لامخطط سياسى ، وواجبه يحتم عليه أن يلتزم دائما بالتوجيهات السياسية للقيادة

العليا ، قد يستطيع أن يتجاوز فى تفسير بعض ما يصدر لاعتبارات محلية قد لاتحسن القيادة تقديرها ، لكنه لايملك حق اتخاذ قرار بالبدء فى معركة سياسية حتى وإن كانت محدودة داخل دائرة القسم من غير أن تكون لديه إشارة خضراء . فالفارق كبير بين ضابط الأمن السياسى الذى تقيده دائما أعتبارات السياسة العليا وبين ضابط المباحث الذى لايتقيد فى عمله بشئ غير تحرياته الخاصة . وبذلك يستطيع فى أى لحظة أن يقوم بما يريد من عمليات بحثا عن العناصر التى يرى أنها مخالفة أمنيا ، أما ضابط الأمن السياسى فإنه حتى لو استطاع - بمعجزة - أن يقف على العناصر المضادة سياسيا لايملك أن يتخذ قرارا مباشرا بالتصدى لها بل لابد من قرار من مستوى أعلى .

قال لنفسه وهو يدور فى الأنتريه وعيناه على التليفون : « *هذه ميزة تحسب لضباط المباحث الذين يحسدوننا دائما على مقدرتنا على الحركة من غير أن يروا القيود التى تحد من حرية حركتنا* » وأخيرا قهر تردده وأمسك بالسماعة وطلب العميد حسن زكريا .

استمع إليه قائده وهو يبلغه بالحادث ، ويشرح له تفسيره باعتباره عملا ضد الشرطة ، وبذلك أصبح له طابع سياسى ، الأمر الذى يجب معه ملاحقة العناصر المعادية تحسبا لجميع الاحتمالات وحتى تتبين الحقائق كاملة ، وطلب منه ضمنا الموافقة على مواجهة القوى المضادة بصرف النظر عن الملاحقات الجنائية التى سيقوم بها - بالطبع - ضباط المباحث .

كان أول تعقيب من العميد مبشرا ، فقد تضمن التهنئة الحارة على أسلوب المعالجة ، فهو أسلوب ضابط أمن سياسى متمرس قد نضج كثيرا . ولعل هذه التحية كانت جديرة بتقدير مسئول الجهاز لولا أنه أحس - بشكل غامض - أنها تتضمن إشارة إلى قصور فى معالجة حادث سابق ، فقال فى نفسه وهو يستمع إلى كلماته فى التليفون : « *إنك لم تنس موضوع الأولاد أبدا بالرغم من كل ما فعلته بعده* » . ثم أبلغه العميد بآخر التطورات ، وهو وفاة رئيس المباحث متأثرا بإصابته ،

ورأى أن هذه الوفاة كفيلة بأن تمنح الجهاز قدرا أكبر من حرية التصرف فى مواجهة القوى المضادة ، ووعده - من ناحيته - بأنه سيحاول إبراز أهمية الحادث للقيادة العليا باعتباره عملا موجها ضد النظام ، وأنه لو نجح فى ذلك فسيشترك فى الجنازة كبار المسئولين لإعطاء الحادث بعده السياسى ، وأن عليه - لهذه الأسباب - أن يكون على اتصال دائم به لتلقى التوجيهات المباشرة .

برغم ماحملته إليه المكالمة من ألم حقيقى لوفاة زميله رئيس المباحث فإن المحصلة النهائية لها كانت الإحساس بالراحة ، فقد أيقن أنه على الطريق الصحيح ، وتوقع أن تأخذ الحادثة فى فترة قصيرة - بما وصلت إليه من نهاية درامية - طريقها الصاروخى نحو القمة مخترقة الحجب ، وربما أن يسطع معها اسمه باعتباره المسئول الذى تقع عليه مباشرة مهمة معالجة الموقف واحتواء مضاعفاته ، وقدر أن أسلوبه فى السيطرة على الحدث سوف يكون محور تحليل القيادات ، الأمر الذى يجب معه أن تكون قراراته صادرة عن روية وأناة ومقدرة على تخيل الاحتمالات وردود الأفعال ، وبخاصة أن المنطقة شهدت فى الفترة الأخيرة نشاطا ملحوظا فى ملاحقة العناصر المضادة ، مما يقطع بوجود أكثر من جهة أمنية ترقب الموقف وتتابع المتغيرات .

قال لنفسه وهو يدير موتور السيارة حتى تتهيأ للانطلاق : « *هذه فرصتك التى لاينبغى أن تضيع ، لايصح أن تترك خيطا يقود إلى تنظيم من غير متابعة وسيطرة ، لكن نقطة البدء الأولية هى القيام بعملية تأمين يتم فيها القبض على جميع العناصر التى لاتنتمى إلى الأغلبية الصامتة* » ، برز فى ذهنه عدد من الأشخاص الذين نُقل عنهم عبارات معادية للحكومة ، وآخرون كتبوا بعض التعليقات فى الصحف ، وغيرهم ممن وجد الجرأة ليشكو من الغلاء وارتفاع الأسعار ، أو من اضطراب حالة الأمن وسيطرة أسلوب البلطجة ، أو من مستوى الأداء فى الجهاز الحكومى ، وقال لنفسه : « *الكلمة نواة الفعل وليست بديلا له ، فعلى من يتكلم أن يدفع ثمن فعل لم يمنعه من القيام به إلا العجز أو الخوف ، النية وحدها كافية للإدانة ، فما بالك إذا*

اجتمعت معها القدرة على التعبير الرافض » ، فتح كاسيت السيارة ليفكر بهدوء مستمعا كعادته إلى شريطه المفضل الذى يدغدغ حواسه بالموسيقى الناعمة ولكنه لعجبه وجد ذهنه ينصرف إلى إيقاعات سريعة يضعها شيخ أعمى لتصاحب كلمات غريبة تسخر من الحكم والحاكم ، وتبدد ما لهما من هيبة ، وردد - من غير أن يشعر - مقاطع من تلك الأغنيات التى استمع إليها لأول مرة من مجموعة من طلاب الجامعة المعتقلين ، فقال - وقد ضبط نفسه متلبسا بأدائها - *« من حسن الحظ أن هذه الكلمات مازالت محصورة فى أوساط المثقفين الذين يكتفون بالطرب لها والإعجاب بها ، فلو خرجت إلى الشارع لتحولت إلى رصاص وقنابل وحجارة وإطارات محترقة »* ، وأضاف وهو يسحق عامدا قطة تعبر الطريق ويتركها غارقة فى دمها : *« القطط الضالة يجب أن تموت ولا تأخذنا بها رحمة مهما كان مظهرها وديعا »* .

فوجئ عند وصوله إلى مكتبه فى القسم بما لم يكن فى الحسبان ، فقد أبلغه النقيب محسن أن عددا من الضباط الصغار حديثى العهد بالخدمة فى الجهاز الخاص غير مقتنعين بما يعتزمه من المعالجة السياسية للحادث ، ويرون فى ذلك نوعا من التجاوز للضوابط المفروض الالتزام بها فى الشرطة باعتبارها هيئة يجب أن تستند إلى القانون وتحتكم إلى نصوصه ، ووجهة نظرهم أن الحادث على أسوأ فروضه عمل جنائى لا سياسى ، فكيف يستغل فى مطاردات سياسية لعناصر ليس لها به صلة ؟ وكيف يجوز المساس بمصالح الأفراد دون شبهة لمجرد ميلهم نحو آراء مخالفة لما تدعو إليه الحكومة ؟ وقال النقيب محسن وكأنه يهون من شأنهم .

- **على أى حال هم قلة ، ولن يكون لكلامهم تأثير ، ولولا أننى أحببت أن تكون ملما بكل شئ قبل الاجتماع ماتكلمت .**

ولكن قائده لم ير تهوين الأمر ، بل أدرك - على العكس منه - ضرورة أن تناقش أهمية المعالجة السياسية للحادث بصورة مفصلة حتى يتأكد من اقتناع كل عناصر

الجهاز ، قائلا :

– **لاأريد أن تكون حصوننا مهددة من داخلها ، ولذلك ستناقش فى الاجتماع كل الاتجاهات والاعتبارات .**

بدأ الاجتماع بعبارات تقطر ألما وتنزف أسى وإن اتسمت بحسم لاتخفى معالمه ، قال :

– **ليس لدينا وقت لكى نقف دقيقة حدادا ، ولانتبادل التعازى ، الفقيد فقيدنا جميعا ، ونحن كلنا مصابون ، ولقد كلفتنى القيادة أن أنقل إليكم أساها وأعبر لكم عن أحزانها ، إن فقد ضابط مصاب لكل ضابط ، ويجب أن نبذل أقصى الجهد للتوصل إلى مرتكبى الجريمة مهما أجادوا التخفى ، وحتى نصل إلى ذلك لابد أن نضع أيدينا على كل القوى المضادة التى تتربص بكم وبالوطن فى الظلام .**

لاحظ المسئول أن مجموعة الضباط الصغار التى جلست متجاورة قد بدأت تتبادل فيما بينها النظرات ، وماكاد يصل إلى عباراته الأخيرة حتى مال أحدهم على جاره وهمس ، فتوقف حتى انتبه الجميع ، ثم قال بصوت هادئ موجها خطابه إلى الضابط الهامس :

– **بدلا من أن تحدّث زميلك ليتك تحدثنى مباشرة .**

أحس الضابط أن العيون تحاصره مستطلعة ، وأنه إما أن يكذب وإما أن يتكلم ، فآثر المخاطرة بالتعبير عما فى نفسه . وقال مترددا :

– **كنت أقول أن الحادث كما علمنا من زملائنا فى المباحث لاتبدو وراءه أبعاد سياسية ، وأننا بتدخلنا ربما نسبق الوقائع ونفرض عليها تفسيرا قد لايكون صحيحا .**

صمت الحاضرون وقد قفز بهم التساؤل إلى صدام غير مستحب فى البداية ،

ونظر بعضهم إلى الضابط مستنكرا ، واكتفى آخرون بالهمهمة الرافضة ، ولكن المسئول على العكس من ذلك ابتسم وهو يقول بثقة القائد المحنك :

- لو صبرت لحظة لأدركت أن هذا ماكنت أفكر فيه ، وأنك لو لم تقله أنت لذكرته أنا فى مجال التحليل على سبيل الفرض .

تطلعت العيون إليه مندهشة ، وصمت المسئول برهة حتى أيقن أن كل كلمة يقولها ستمضى كسهم نافذ إلى عقول مستمعيه ، ثم قال :

- ماحدث يحمل أحد احتمالين : الأول أن يكون حادثا من حوادث المرور دون تدبير سابق ، والثانى أن يكون قد أريد له أن يبدو كذلك وهو فى الحقيقة جريمة مدبرة استهدفت حياة زميل .

قال الضابط الهامس :

- الاحتمال الأول هو مايرجحه ضباط المباحث ، وهم يسعون لكشف غموضه .

قال المسئول :

- هذا مدى جهدهم وحدود رؤيتهم ، ولكن مهمتنا نحن أكثر صعوبة وشمولا ، لأن علينا أن نفكر فيما لم يفكروا فيه وأن ندرس الاحتمالات التى لاتخطر لهم ببال ، ولو افترضنا أن الحادث مدبر لوجب علينا أن نكشف البعد السياسى فيه .

قال الضابط :

- قد يكون الحادث مدبرا دون أن يكون له بعد سياسى .

تساءل المسئول :

- كيف ؟

فرد الضابط باقتناع :

- نفترض أن الجريمة مثلا شخصية .

استمر المسئول يتساءل :

- ترى . . . من يفكر فى جريمة ضد رئيس المباحث ؟

صمت الضابط الهامس فلم يتكلم ، ولكن زميلا من مجموعته بادر إلى الكلام وكأنه يستكمل الحوار ، فقال :

- ربما بعض الذين تتعارض مصالحهم مع نشاطه .

فواصل المسئول التساؤل :

- مثل من ؟

أجاب الضابط الثانى :

- مثل اللصوص والقتلة والهاربين من الأحكام وتجار المخدرات .

قال المسئول مستنكرا :

- وهل تدبير جريمة من هؤلاء ضد رئيس المباحث ليس جريمة سياسية ؟

استأنف الضابط الهامس التدخل ، وأجاب :

- جريمة نعم ، لكن سياسية لا .

فعقب المسئول بحسم :

- هذه نظرة خاطئة تماما وتدل على تفكير متسرع وغير موضوعى ، إن أى جريمة ضد أى ضابط جريمة سياسية بالضرورة ، لأن الضابط ممثل للنظام ومعبر عن سلطة الدولة .

تساءل الضابط الثانى :

- حتى لو كانت الجريمة نتيجة مشاجرة شخصية فى ملهى مثلا ؟

فرد المسئول بيقين :

– حتى لو كانت كذلك ، إنك حتى وأنت فى الملهى لست شخصا عاديا ، بل أنت رمز للسلطة ، والاعتداء عليك أعتداء على السلطة نفسها ، ولابد أن يعاقب المعتدى عقوبة مضاعفة ، لأنه ارتكب جريمتين لاواحدة .

تساءل الضابط الهامس وكأنه يستنكر :

– حتى لو كنت أنا المخطئ فى المشاجرة ؟

فأجاب المسئول من غير تردد :

– حتى لو كنت أنت المخطئ ، إن خطأك لابد له من عقوبة ، ولكن السلطة هى التى تتولى ذلك باعتبارك جزءا منها ، وقد ترى لاعتبارات خاصة مضاعفة العقوبة أو التجاوز عنها ، لكن ليس من حق أحد مهما كان أن يواجه خطأك وأن يتصدى لك ، لأن مواجهتك والتصدى لك – حتى مع خطئك – مواجهة للسلطة وتصد لها .

وتفحص المسئول بعينيه الوجوه المحدقة فيه وهو يضيف :

– المسألة فى جوهرها مسألة مبدأ ، هل يجوز مواجهة السلطة أو لايجوز ، وأظن أننى لست فى حاجة إلى أن أسمع إجابة فأنتم جميعا مقتنعون .

صمت الجميع ، ولكن المسئول أحس أن الصمت لايتضمن القدر الكافى من الموافقة ، ورأى أن خطته الطموحة للسيطرة على الموقف تستلزم درجة أعلى من الحماس الصادر عن اقتناع حقيقى ، فآثر أن يعدل عن مناقشة الخطط التفصيلية إلى حين وأن يستمر فى المناقشة النظرية ، فقال :

– سأسأل سؤالا بسيطا جدا ، ماهى مهمة الشرطة ؟

أجاب أحد ضباط المجموعة الصغيرة بصورة تلقائية :

- **حفظ النظام وتحقيق الأمن .**

فعقب المسئول :

- **عظيم ، لكن أى نظام وأى أمن ؟**

رد الضابط وكأنه يقرر أمرا بديهيا :

- **نظام المجتمع وأمن الأفراد .**

قال المسئول مستدركا :

- **ليس فقط ، لأن نظام المجتمع وأمن الأفراد مرهونين بعامل أكثر خطورة .**

تساءل الضابط :

- **ماهو ؟**

فأجاب المسئول :

- **نظام الحكم وأمن الدولة .**

ثم مضى يشرح بوضوح وإفاضة وكأنه يعطى درسا يجب أن يحفر فى كل عقل :

- **الجريمة ضد الفرد بطبيعتها جزئية ، وهى لذلك محدودة الأثر حتى لو تناولت حياة الفرد ، أما الجريمة ضد نظام الحكم فإنها تمس الركائز الأساسية التى لاسبيل إلى الاستقرار بدونها ، وزعزعة أمن الدولة تؤدى تلقائيا إلى الاضطراب الشامل الذى يدمر كل شئ ويحطم كافة المصالح .**

توقف ليتلمس صدى كلماته فلاحظ – برغم الاستحسان الذى أبداه الضباط القدامى – أن مجموعة الضباط الصغار لم تعقب فاستمر يتساءل :

- هل فى وسع أحد أن يحدد لى المثل الأعلى فى العمل الشرطى ؟

فرد النقيب محسن بعجلة :

- ليس لنا بالمثاليات شأن ، نحن بالضرورة واقعيون .

فعقب المسئول بحسم :

- ذلك غير صحيح ، إن حلم الشرطة الأبدى القدرة على الحيلولة دون وقوع الجريمة ، أو بتعبير آخر : منع الجريمة قبل وقوعها .

بدت العبارة باهرة وانعكس آثرها فى العيون المتألقة وهمهمة الشفاة الموافقة ، فأضاف :

- لكن تحقيق هذا الهدف أو الحلم قد يكون متعذرا بالنسبة للأمن العام فى مجتمع يضم ملايين الأفراد الذين تختلف مصالحهم وتتضارب ميولهم وتتناقض أنماطهم السلوكية ، وإن كانت هذه الصعاب لاتعفى رجال الأمن العام من المسئولية متى علموا باحتمال وقوع جريمة ، وعليهم المبادرة بمنعها .

وصمت برهة ثم تابع بهدوء :

- لكن الموقف بالنسبة لنا مختلف ، لأن نظام الحكم أكثر خطورة وأعظم أهمية من أن تترك فيه احتمالات معادية مطلقة السراح ، والمثل الأعلى فى العمل الأمنى بالنسبة لنا يقتضى السيطرة الكاملة منعا للجريمة قبل وقوعها .

تساءل أحد الضباط الصغار وكأنه يعترض :

- ألا يعنى الأخذُ بمجرد الظن والاحتمال المساسَ بمصالح بعض الأفراد الذين ربما كانوا غير مذنبين ؟

فرد المسئول بثقة :

- هذا صحيح ، ولكننا أمام احتمالين : أن نحقق أمن فرد مشبوه سياسيا مع احتمال وقوع عمل مضاد للنظام ، أو أن نؤمن النظام مع احتمال ظلم فرد مشبوه . ولنتصور معا نتائج الخطأ في الاحتمالين : أن يلحق الضرر بفرد واحد أو بعدد محدود من الأفراد ، وأن يلحق الضرر بالنظام كله .

سكت المسئول طويلا وقد أحس بأنه وصل إلى غايته ، ثم أضاف :

- أظن أنه لامجال مطلقا للتردد في الاختيار .

أيقن أن السبيل قد مهد تماما بعرض الخطة التفصيلية ولكنه رأى - بدافع من الحرص على السرية - الاكتفاء بشرح الإطار العام دون تحديد التكليفات التفصيلية التي تتضمن توزيع الأعمال ودور كل ضابط فيها ، مبلغا إياهم بأن اجتماعا آخر سيعقد في العاشرة مساء لتدارس التفصيلات قبل بدء التنفيذ اعتبارا من منتصف الليل . ثم نهض منهيا الاجتماع قائلا :

- أمامكم وقت طويل لكنه ليس للراحة ، ولكن لتجمعوا كل مايمكن جمعه من معلومات من مصادركم المختلفة . وفي استطاعتكم اقتراح ماترون إضافته من أسماء إذا اقتنعتم بخطورتها .

أخذ يتلقى - والضباط ينصرفون - بعض التهاني على حكمته البالغة في قيادة الاجتماع ، وأحس بالراحة لأنه لم يضطر إلى العنف في التعبير مع أنه أوشك أن يثور خلال المناقشة مرات ، وحين أبدى له بعض الضباط القدامى امتعاضهم من جرأة بعض الضباط الصغار قال بحكمة ، وكأنه يخاطب نفسه :

- ومن منا لم يستبشع في الأيام الأولى بعض الأخطاء العشوائية ، لكن الألفة والانغماس في العمل كفيلان بتحقيق الغاية المنشودة وتوجيههم التوجيه الصحيح .

ماكاد الاجتماع ينتهي حتى دق جرس التليفون ، رفع النقيب محسن السماعة

مستفسرا ثم قدمها إلى رئيسه وهو يأخذ طريقه إلى خارج الغرفة قائلا :

- **العميد حسن زكريا .**

تناول المسئول السماعة بلهفة متوقعا أخبارا جديدة ، وصدق حدسه ، فقد أتاه صوت العميد محملا بنشوة واضحة ، وأبلغه بطريقة خطابية بمسودة البيان المقرر نشره فى صحف الصباح ، والذى صيغ فى شكل خبر عن جنازة رسمية من مسجد رابعة العدوية لتشييع جثمان فقيد الشرطة الشاب ، ونص على اشتراك كبار المسئولين فى الدولة فى تشييع الجنازة فى إشارة لاتخطئها عين إلى مالها من أهمية خاصة ، وعقب العميد على ذلك بقوله فى بهجة المظفر :

- **لم أجد عناء مطلقا فى شرح الموضوع ، لقد كانت جميع القيادات متفهة بشكل كامل أبعاد الجريمة ، حريصة على أن تعلن بحسم عزمها الأكيد على التصدى لجميع القوى المضادة والقصاص منها .**

وأحس مسئول الجهاز بسعادة طاغية ، وقائده يقول :

- **والآن أمامك أحد أمرين ، فإما أن تتابع مابدأت فى دائرة القسم ، أو أن تنضم إلى مجموعة خاصة مهمتها وضع خطة تأمين الجنازة والمشتركين فيها .**

وصمت لحظة وكأنه يعطيه مهلة للتفكير قبل أن يستطرد :

- **ماذا تختار ؟**

بدا الاختيار أمامه صعبا ، فلم يكن يود أن يترك مابدأ التخطيط له وبخاصة أن الخطة الموضوعة تقتضى لنجاحها قدرا كبيرا من المرونة المصحوبة بوعى أمنى بمتطلبات الموقف ، الأمر الذى رأى معه أن نجاحها يكاد يكون مرهونا بإشرافه المباشر عليها ، ولكن من ناحية أخرى فإن اشتراكه فى مجموعة العمل الخاصة يعنى دخوله دائرة الثقة المباشرة بكل ماتعنيه من دلالة الانطلاق الصاروخى فى أكثر الأجهزة

حساسية ، ولما طال صمته أيقن محدثه أنه متردد ، فقال ، وكأنه يقدم له النصح :

– **لاتتردد كثيرا ، فلو كنت مكانك لاخترت الانضمـــام الفــورى إلـــى مجموعة العمل الخاصة .**

فأجاب بسرعة وكأنه يعلن ولاءه الشخصى وتقديره للنصيحة :

– **أمرك يافندم .**

وتردد قبل أن يضيف :

– **وإن كنت أظن أن من الممكن التوفيق بين الجانبين .**

فقاطعه العميد قبل أن يشرح :

– **لاداعى لأن تحمل نفسك مالا يحتمـل ، ولكــن فــى استطاعتــك أن تترك لهم فى القسم توجيها بالاتصال بك فــى حــالات الضــرورة القصوى .**

* * *

شغلته طوال الساعة التالية التى ظل فيها فى القسم قبل توجهه إلى الإدارة العامة مسألتان أساسيتان :

الأولى : اختيار نائب له ليقوم بمهمة قيادة العملية المقرر البدء فيها الليلة ، وكانت مسألة هينة نسبيا لم تستغرق فى تفكيره وقتا طويلا ، فالتقاليد العسكرية تضع الرائد شريف صبرى فى هذا الموقع باعتباره أقدم ضباط الفرع بعده ، ومع أن مسئول الجهاز كان يرى أنه مازال فى حاجة إلى توجيه مستمر حتى يتمكن من قيادة عملية فى حجم ماخطط له فإن لم يكن أمامه مجال للاختيار ، وهكذا اجتمع به اجتماعا طويلا وشرح له فيه كل الخفايا وأطلعه على مايتوقعه من ظروف واحتمالات وبين له الخطة المفصلة بما تتضمنه من توزيع دقيق للأفراد والضباط وحجم القوى المساندة لكل مجموعة والطرق المستخدمة فى الانتشار والتتبع والتعقب والبدائل المتاحة فى حالة وجود

صعوبات فى أى منها ، ولم ينس فى النهاية أن يبلغه بأن فى إمكانه الاتصال به فى حالة الضرورة ، وأكد له أنه من ناحيته برغم مايتوقعه من شواغل لن يدخر جهدا فى تقديم المساعدة له متى أراد .

وكانت المسألة الثانية التى شغلته اختيار أحد ضباط الفرع ليكون بمثابة ضابط اتصال معه ليطلعه أولا بأول على سير العملية وما تحققه من نتائج إيجابية وسلبية ، فلقد كان عليه أن يحسب حسابا لكل شئ ، وتوقع أن تكون العملية محور تحليل القيادات ، ولم يكن يريد أن يكون بعيدا عنها ، وخاصة أنه تحمل مسئولية اقتراحها والتخطيط لها ، فإذا نجحت فى تحقيق أهدافها كان عليه أن يؤكد براعة التخطيط ، وإذا فشلت بادر إلى اتهام أسلوب التنفيذ . ولهذا كان عليه أن يختار ضابطا يتسم بالدقة فى رؤية الأمور أكثر من قدرته على تحليلها ، ويتميز بحماس غير عادى للعمل من ناحية ، وبنوع من الولاء الشخصى له من ناحية أخرى ، وبعد أن استعرض فى ذهنه ضباط الفرع لم يجد أفضل من النقيب محسن للقيام بهذا الدور ، فقرر تكليفه به ، منبها إياه إلى أنه من جهته يعتبر هذا التكليف نوعا من اختبارات الثقة ، مما يعنى بالضرورة اليقظة الكاملة والصمت المطلق ، وهكذا حين ذهب لمقابلة المأمور لإبلاغه بانضمامه إلى مجموعة العمل الخاصة كان على يقين من أنه يترك فى القسم خلال أخطر الساعات أذنا شديدة الحساسية قادرة على أن تنقل إليه فى لحظات أدق الذبذبات .

* * *

طبقا لنظام العمل المقرر كان النقيب محسن يجلس إلى مكتب الرائد شريف لتلقى ماقد يجدّ من معلومات سواء من ضباط فرع المباحث أو من زملائه فى الجهاز الخاص حين دخل عليه المراسلة قائلا :

– واحدة ست تطلب سعادتك .

فأذن لها بالدخول ، ونظر مستطلعا وهى قادمة ، بدت له – للوهلة الأولى – بطولها المتوسط وقدها الملفوف ووجهها البيضاوى وشعرها الكستنائى سيدة عادية فى نحو

الثلاثين ، ولكنها ماإن اقتربت ومدت يدها مصافحة وجلست بهدوء دون دعوة حتى ألح عليه إحساس بأنها نموذج غير عادى ، تأملها صامتا فلاحظ أناقة مترفة ، وعناية بالبشرة فائقة ، ودقة فى رسم كل شئ بدرجاته اللونية المناسبة المتناسقة ، ابتسمت تحت إلحاح نظراته برقة فعكس التناقض اللونى بين الشفاه المكتنزة الداكنة المنفرجة والأسنان الدقيقة المتلألئة وميضا هو بالسحر أشبه ، عجب كيف يمكن لنموذج واحد أن يجسد خطوط بيكار وانطلاق الحسين فوزى وطغيان شخصيات صلاح طاهر ، وآمن أن الطبيعة وحدها أبدع من كل فنان مهما كانت قدراته خارقة .

قال بهدوء المتأمل :

– **أى خدمة ؟**

فقالت بصوت فيه بحة خفيفة بدت له – لأول وهلة – غير مألوفة ، لكنها مالبثت لحظة واحدة حتى أصبحت مصدر بهجة غير عادية :

– **نصحونى أن ألجأ إليك ، إنك الوحيد القادر على المساعدة .**

أنصت منتظرا المزيد فلم تزد ، فتساءل ونظره معلق بالشفاه :

– **من الذى نصحك ؟**

ضحكت ضحكة صغيرة بدا له جرسها العذب موحيا بتيار مشع من الموسيقى الداخلية ، ثم قالت :

– **كان من المفروض أن يكون فى انتظارى ليقدمنى إليك ، لكنه فيما يبدو خرج لعمل عاجل .**

وانتظرت لحظة قبل أن تضيف :

– **الملازم هانى من المباحث .**

أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة ، ومد يده إليها فشكرته وهى تضع ساقا على ساق قائلة :

– **لاأحب أن أدخن .**

قال فى سره : « *تحبين أن تشربى* » ، واستدركت كأنما تتحفظ :

– **اعذرنى ، المكان على الأقل غير مناسب .**

فضحك ليدارى شيئا غامضا أحس به ، ربما كان حرجا أو توترا ، فأضافت وكأنما تهون عليه :

– **لكن من الممكن أن أشرب فنجانا من القهوة .**

دق الجرس وطلب – وهو يعتذر عن تأخره فى تقديم التحية – فنجانين من القهوة ، فبادرت قائلة للجندى مصححة :

– **أحدهما مضبوط .**

فأضاف بتلقائية :

– **بل الاثنان معا .**

سألها بصورة بدت عارضة عن علاقتها بهانى ، وكان من الممكن أن يبدو السؤال غريبا لولا أنها حدست ماوراءه ، فحرصت فى إجابتها على أن تجعل العلاقة مجرد جيرة قديمة فى منزل الأسرة قبل أن تنتقل بعد زواجها إلى مدينة نصر ، مؤكدة أنها شبيهة بعلاقة الأخوة وأنها من ناحيتها تعتبره أخا لها ، ثم أخذت تتكلم عن مشكلتها بصوت أقرب إلى الهمس وقد اشتعل وجهها بشئ كالوهج ، لم يقف برغم التفصيلات الكثيرة إلا على الإطار العام الذى حرصت بكل الوسائل على تأكيده ، وهو أن قريبا لزوجها يهددها بأن يرسل إليه حيث يعمل فى الخليج شاكيا منها متهما إياها فى سلوكها اتهامات ظالمة ، غمغم مستنكرا بلسانه الاتهام وإحساسه يقول « *مال البترول لم يترك شيئا إلا أفسده* » ، تطرقت إلى وقائع كثيرة متهمة الرجل بتلفيقها لها وكأنه متفرغ لذلك ، استمع إليها بعيون صاغية وأذن غافية ورغبة استيقظت طاغية تكاد تطفر من أطراف الأظافر ، أيقنت أنه مشدود إليها لا إلى ماتقول ، وأدركت بخبرة امرأة حنكتها التجارب أنه على أستعداد للتجاوب لكنه يبغى الإشارة ، فمنحته

لحظات متعة العرض النظرى بعينين نصف مغلقتين وشفتين نصف منفرجتين وآهة صغيرة لم تنطلق مختزلة الوجود الإنسانى كله من النية إلى الفعل مرورا بالاستطلاع فالرغبة فالشبق فالنشوة ، وكأنها تقول : « *ها أنت قد قبضت مقدم الثمن وعليك أن تقدم ما عندك قبل أن تأخذ المزيد* » .

بهره العرض الصامت ببلاغته المعجزة وقرر أن يمضى به خطوته الطبيعية إلى الأمام ، وأن ينتقل فورا إلى التنفيذ ، فغمغم وهو يقلب فيما بين يديه من ملفات وبرد على مايتلقى من مكالمات :

– **ولماذا لم يقم هانى بعمل اللازم ؟**

فأجابت وقد أدركت أنه بدأ التحضير للهجوم الأخير :

– **لكن هانى هو الذى أشار علىَّ باللجوء إليك .**

فاستأنف وكأنه يطلق المدفعية لتدك خطوط الدفاع :

– **لابد أن فى المسألة جوانب شائكة لم يشأ هانى التعرض لها .**

فصمتت منتظرة اتجاه القذيفة التالية فواصل :

– **الأمر ليس سهلا ، فنحن مسئولون عن النشاط السياسى لا عن المشكلات الخاصة .**

أيقنت أنه يجسد الصعوبات ليغالى فى الثمن ، وقالت فى نفسها : « *لست فى حاجة إلى المغالاة فالثمن جاهز* » . وقالت برقة قطة جائعة :

– **لكن لايرضيك أن تتركنى فريسة لرجل ظالم .**

أضاف وكأنه لم يسمعها :

– **ثم إننا مشغولون إلى حد لانستطيع معه أن نتنفس ؟**

وافته البحة المثيرة بعبارات متنوعة طلبا للغوث ، وبرغم أنها كانت قد وطنت نفسها منذ البداية على النهاية إلا أنها فى مرحلة من اللقاء تصورت أنها من الذكاء

بحيث يمكنها أن تجعل النهاية جائزة آجلة لاثمنا عاجلا ، فلما رأت تصميمه قالت وكأنها تخفى خيبة أمل :

– كنت أطمع أن تسمح الظروف بأن تساعدنى .

ثم أضافت وهى تشحذ أسلحة الصوت والصورة :

– أرجوك ، لاتخذلنى فأنا فى حاجة إليك .

ولذلك ماكاد يقول :

– صدقينى ، نحن فى عمل مستمر لأكثر من أربع وعشرين ساعة ، ولانجد وقتا حتى للغذاء .

حتى بادرت منتهزة اتجاه ريح أملت أن تهب :

– اسمح لى إذن أن أشرح لك الموضوع مرة أخرى بكل تفاصيله فى فترة الراحة الضرورية للغداء .

ولما رأت فى عينه بريق النصر الخاطف أردفت :

– أرجو ألا يكون لديك مانع وسأكون رهن إشارتك فى أى مكان .

فرد وهو يسترد بسرعة توازنا أوشك أن يفلت :

– سأعتبر هذه دعوة مفتوحة ، لكننى اليوم سأتغدى فى المنزل ، لأننى انتظر مكالمة من الوالد .

فقالت وقد صممت على أن تعلن الراية البيضاء واضحة :

– اسمح لى إذن أن آخذ العنوان .

وحين أخذ يكتبه على ورقة صغيرة أمامه قالت لنفسها : « *عسى أن يرضى ميلاد ويكف عن زيادة المعلوم بين الحين والحين* » واستدركت كأنما نسيت شيئا مهما « *لايكفى الاسم والعنوان ، ويجب أن أحصل على الأقل على صورة تمكننى من التعرف عليه وقت الضرورة* » .

ولما جاء النقيب محسن فى المساء ، أضاف إلى قوائم الأسماء التى بين يديه أسم : « المهندس حامد عبد اللطيف » موظف بمكتب الاستعلامات بمحطة مصر ، وكتب العنوان ، وسجل فى خانة الملاحظات عبارة « متهم بالإرهاب » .

✍ ✍ ✍

الفصل الحادي عشر
هل مات حقا ؟ ...

فتح عينيه فلم ير شيئا فأدرك أن الليل قد حل من فترة طويلة ، حاول أن يلقى نظرة على عقربى المنبه المجاور للفراش فلم يستطع أن يتبينهما ، لحقه مباشرة شئ من الدهشة ، كيف لم يسمع صوت المؤذن فى الزاوية القريبة مع أنه غالبا ما كان يسمعه حتى وهو فى ذروة استغراقه فى النوم فى صلاة الفجر ، فلابد أنه كان أشد استغراقا إلى الدرجة التى لم ينتبه فيها إلى الصوت ، ولابد أن يكون سبب ذلك الإرهاق الذى يكابده فى الأيام الأخيرة ، نهض فأدركه شئ من الألم فى أكثر من موضع فى جسمه ، وكأن عظامه نفسها قد مسها أذى نال منها ، مد قدميه وهو يكاد يتأوه فتلمس شبشبه فى الظلام حتى عثر عليه ، ومضى يتحسس طريقه حتى فتح النور ، ونظر من مكانه إلى جوار الباب على المنبه فخيل إليه أنه لا يرى بوضوح ، وحين تقدم فى اتجاهه خطوتين لاحظ أنه متوقف ، فلم يجد بدا من أن يمد يده تحت الوسادة ليبحث عن ساعته فى مكانها المعهود الذى يضعها فيه عند النوم ، ولما نظر إليها كعادته وهى على امتداد

يده لاحظ فى عينيه زغللة لم تتحدد معها مواقع العقارب بوضوح كاف ، فقال لنفسه : « *لابد أنه الإجهاد* » ورفع الساعة إلى قريب فتمتم دون شعور :

– ياه .

كانت قد تجاوزت العاشرة ، ومعنى هذا أنه نام نحو ثلاث ساعات بل أكثر ، ولهذا فاته أذانا المغرب والعشاء .

دخل الحمام فاغتسل وتوضأ ، ثم عاد إلى حجرة النوم فصلى ، وجلس بعد أن فرغ من صلاته يتلو بعض الدعوات المأثورة ، تبادر إلى ذهنه وهو يتلو ما كان يشغله قبل النوم مما وقف عليه من أخبار ومعلومات من مصادره المختلفة حول اتساع حركة الاعتقالات حتى إنها شملت عناصر كثيرة ليس لها بالسياسة اهتمام ولا بالعمل العام صلة . مضى إلى المطبخ ليصنع لنفسه فنجانا من الشاى يساعده على التركيز مشدودا برغمه إلى التفكير المستمر فى المعلومات ، ترسخ لديه انطباع أن الموضوع كله أشبه بلعبة العبث التى لا يحكمها منطق ولا يطرد فيهما نظام ، ففى الظروف التى يجب أن تكون السلطة فيها حريصة على تأليف الجماهير وتجميعهم حولها تضربهم بقسوة ضربات موجعة من غير تفرقه بين اتجاه وآخر ، وفجأة عنت له فكرة أن الضربات العشوائية لابد أن تكون مقصودة ، وأن وراءها سياسة ثابتة ، فقال لنفسه وهو يصب فنجان الشاى : « *لو أننا أخذنا – كما عودنا الأخ الأكبر – بأسلوب تبادل المواقع ووضعنا أنفسنا مكان السلطة لربما تبين لنا تفسير واضح لما يحدث* » رشف رشفة صغيرة من الكوب فأحس بسخونة لاذعة فوضعه ليبرد وهو يتابع تفكيره : « *ماذا يمكن أن تفعل السلطة وهى لا تعرف جميع القوى المضادة غير أن تضرب ضربات موجعة فى كل الاتجاهات ، إن الذى يتخذ القرار بالضرب لابد أن فى يقينه أن الضربات العشوائية ستحقق حتما فوائد بالغة الأهمية ، فهى تبين أن جهاز الأمن السياسى يقظ ، وأنه يتابع ويرصد ويحلل ويبادر – وقت الضرورة –*

إلى الضربات الوقائية ، وبذلك يدفع القوى المضادة مرغمة إما إلى الحركة غير المحسوبة وإما إلى السكون المطلق ، وفى الحالتين تكون النتيجة إيجابية بالنسبة للجهاز » تناول الكوب فرشف من جديد رشفة أمتعته فتبعها بأخرى وواصل تفكيره : « من حسن الحظ أن قيادة التنظيم فى اجتماعها الأخير انتهت إلى قرارها الحكيم بالاختفاء والانتشار والانتظار ولم يلجئوا إلى حركة حمقاء ، فمن المؤكد أن الأخ الأكبر خلال فترة الاختفاء سيتمكن من بناء كوادر جديدة يعوض بها العناصر التى فقدها التنظيم ، كما أن من المؤكد أن أعضاء القيادة العامة الذين سيختفون ستتاح لهم باختفائهم فرصة أوسع للعمل التنظيمى الأكثر صلابة » ما لبث أن وجد نفسه يعقب وهو يضع كوب الشاى الفارغ فوق المائدة الخشبية العارية : « المسألة فى جوهرها مسألة زمن ، لقد نالتنا الضربات العشوائية بضرر كبير ولكن النتيجة النهائية محسوبة وحاسمة ، ولن يؤخرها كثيرا فقدان بعض العناصر وإن كانت فى ذاتها مهمة » ، وانتابته عقب ذلك مشاعر أسى حاد لما أصاب بعض من يعرف ، ولحقه كذلك حزن حقيقى لكل من لا يعرف ممن سمع باعتقاله ، واعترته حالة من الكآبة وهو يستعرض فى ذهنه مصير الإنسان الذى ينزع من بيته ليلقى به فى خضم الهول الذى تجرد سدنته من كل إحساس إنسانى ، وتمتم داعيا بصوت مفعم بالضراعة : « كان الله فى عونهم وفى عون أسرهم التى لن تَسْلَم لفترة طويلة من العذاب » .

تذكر فجأة أن عليه أن ينبه مريم إلى الموعد الذى حدده مع الدكتور فكرى لتشرح له من خلال الوثائق والمستندات مشكلتها مفصلة ، وأن عليه أن يطمئن إلى أنها قد أعدت بالفعل كافة الوثائق الضرورية ، ولكنه تردد بعد أن قاربت الساعة الحادية عشرة ، ورأى أنه من غير اللائق أن يزعجها وأمها فى مثل هذه الساعة حتى وإن لم تكن متأخرة تماما فى أمسيات الصيف الحارة ، فقال لنفسه معللا تردده : « المفروض أن تكون أم

مريم فى الفراش ، ولعل الصغيرة نائمة ، فلا يصح أن تعرضها لحرج » ، وحين رأى من خلال شراعة الباب النور الصادر عن المصباح المعلق فوق باب شقتها وتناهى إليه صوت التليفزيون لم يزدد إلا ترددا ، وأضاف لنفسه : *« حتى لو كانوا يقظين فلا يليق أن تقحم نفسك عليهم فى مثل هذا الوقت »* .

* * *

فى نفس الوقت تقريبا كانت الأسرة الصغيرة فى الشقة المقابلة تتابع فى التليفزيون الأغنيات التى تسبق فيلم السهرة حين التفتت مريم إلى أمها منصرفة عن المشاهدة ، وقالت وكأنها تستفسر :

- **لم نر حامد منذ يومين ، ترى هل نسى الموضوع ؟**

وما كادت الصغيرة تسمع الاسم حتى صاحت مبتهجة :

- **أنادى عمو يا مامى .**

فزجرتها أمها بحسم قائلة :

- **تفرجى وأنت ساكتة ، ولا تتدخلى فى كلام الكبار ؟**

وعقبت العجوز وهى تسعل :

- **لا تكونى بهذه الحدة .**

ثم أضافت من غير تفكير وكأن المسألة مفروغ منها :

- **حامد كالمرحوم أبيه لا ينسى الواجب أبدا .**

وصمتت برهة قبل أن تقول :

- **الذى يشغلنى أن يكون مريضا ، فلم تكن صحته وهو هنا على ما يرام .**

تمتمت مريم موافقة :

- **لاحظت ذلك . كان وجهه أصفر وحرارته عالية .**

فنظرت أمها إليها مبتسمة نظرة ذات معنى قائلة :

– اصفرار الوجه رأيناه ، فكيف علمت ارتفاع الحرارة ؟

قالت مريم بسرعة محتجة وهى تلقى ببصرها على الأرض :

– ماما ، ألم تحسى بذلك وأنت تسلمين عليه .

وانصرفت الأسرة لمتابعة أغنية يؤديها مغنٍّ كالثور الأفريقى مستعينا بحركات أنثوية لجسده الرجراج وذراعيه الممتلئتين وأصابعه الغلاظ اللامعة وحواجبه المزججة الراقصة ، وبدا ببسمته اللزجة ونظرته الفارغة نموذجا حيا للرقاعة المستفزة التى تستجدى الصفع وتستحق العقوبة ، أغمضت العجوز عينيها منصرفة عن المشاهدة وما لبث ذهنها أن شغله الموضوع الذى يضايقها منذ أن أخبرتها به مريم ، فسألتها من جديد .

– ماذا قال لك ميلاد أمس بالضبط .

وكأنما أحست أن العبارة غير كافية فأضافت منبهة :

– أريد أن أعرف الكلمات التى قالها من غير تغيير .

قالت مريم بصوت خافت وكأنها تستحى من تذكر الكلمات .

– قلت لك أكثر من مرة ، لقد قال كلاما سخيفا كعادته وهو يهددنى .

فردت العجوز بحدة :

– أنا لا أطلب منك أن تحكمى على كلامه ، لكنى أريد أن أسمع كل كلمة قالها ، فقولى من غير تعليق .

قالت مريم كارهة ووجهها يحمل آثارا مختلفة من وهج الخجل الممزوج بحدة الغيظ :

– قال إنه يعرف علاقتنا القديمة بحامد ، وأنه يعرف كيف يقطع

رجله ليس من عندنا فقط وإنما من الدنيا كلها .

فكرت العجوز برهة وهى مغمضة العينين ثم قالت بيقين :

– هذا تهديد واضح ليس لنا وحدنا وإنما لحامد قبلنا .

وصمتت فتطلعت عينا مريم إليها وكأنها تستوضح فأضافت :

– ليس بعيدا أن يناله بشر ، فهو بلطجى وطول عمره رجل سوء .

تسلل القلق إلى عينى مريم ، كيف لم تفطن إلى هذا الاحتمال من قبل ، هل المسئول فورة الغضب الحارقة التى مستها عقب الكلمات الجارحة التى كان يقذفها بها ميلاد معرِّضا لم تشأ أن تستعيدها إلى ذهنها وأسقطتها من تفكيرها ، لذلك ما كادت أمها تقول :

– الواجب يفرض علينا تنبيه حامد .

حتى اقترحت أن يتم استدعاؤه على الفور لإبلاغه ، فوافقت العجوز مشترطة عليها ألا تدق جرس الباب إلا مرة واحدة لئلا تزعجه إذا كان نائما .

* * *

قال حامد وهو يجلس على الفوتى فى مواجهة العجوز بعد أن تلقى بانشراح كلمات الترحيب من مريم وأمها :

– القلوب عند بعضها ، كنت على وشك أن أحضر قبل أن تطلبونى لولا أنى أحسست بحرج لاحتمال أن تكونوا نائمين .

فردت أم مريم بعفوية صادقة :

– لا يصح أن تحرج منا ، البيت بيتك ومريم أختك .

وسعلت بشدة حملت إلى عينيه نذر قلق واضح قبل أن تكمل :

– ثم إننا لا ننام مبكرين .

فعقبت مريم وكأنها تفسر :

- منذ أن أصابتها النوبة الأخيرة وهي متوترة دائما ، وتأبى أن ترتاح .

فقالت أمها باستسلام :

- من كان عجوزا مثلي لا تدركه الراحة إلا بالموت .

قاطعتها مريم محتجة بينما صاح حامد معترضا .

- الأعمار بيد الله ولا صلة لها بالمرض .

وأضاف باقتناع وهو ينظر بإمعان في عين العجوز :

- علينا أن نعيش ما دامت هذه إرادته سبحانه .

أغمضت عينيها متمتمة بالشكر وكأنها تتأمل الكلمات ، ، ونقلت إليها المشاعر الصادرة عن ابنتها وضيفها شعورا عميقا بالرضى ، أحست بفيض من أحاسيس الأمومة يغمر في قلبها الاثنين معا من غير تفرقة بينهما بعد أن مسا فيها نبعا ثرا من الحنان والمحبة ، فقالت لنفسها وكأنها تبتهل : « *لو تيسر لك أن تطمئني على مريم وابنتها لمت راضية* » ، وخطر ببالها أن تتضرع إلى العذراء لتشمل الاثنين ببركتها عسى أن تحدث معجزة .

فتحت عينيها فرأت القلق مستبدا بالأعين المحدقة فيها ، فقالت بهدوء محاولة أن تطمئنهما :

- لا تخافا هكذا ، مجرد دوخة بسيطة .

ثم أضافت وهي تتكلف ابتسامة :

- شكلكما وحش في الخوف وتبعثان على الفزع ، لقد خفت منكما وليس من المرض .

فرد حامد بحنان .

- هل أستدعي طبيبا ؟

أجابت العجوز لتهون الأمر :

- لا حاجة إليه لأنه لا جديد ، ما عندى مألوف وعلاجه معروف .

وأخذت تسعل ثانية قبل أن تقول لابنتها :

- هاتى كوبا من الماء لآخذ الدواء .

وما أن انتهت من أخذ الدواء حتى أسرع بإمساك الكوب حتى لا يسقط من يدها ووضعه فوق المائدة الصغيرة التى تتوسط المكان ، بينما ظلت مريم واقفة يغمرها القلق وقد أسندت كفها إلى رأس ابنتها الصغيرة التى انصرفت عن مشاهدة التليفزيون والتصقت وجلة بأمها ، ولعل العجوز أحبت أن تخفف من روح القلق السائد حين نظرت إلى هدى قائلة :

- لم لم تقدمى تحية لعمو ؟

فأسرع حامد محتجا وقد أيقن أن الوقت غير مناسب قائلا :

- ارجوك فأنا لست ضيفا .

ولكن العجوز أشارت بيدها إشارة خفيفة انصرفت على أثرها وبيدها ابنتها وواصلت العجوز قولها :

- أنت عندنا خير من كل الضيوف .

تابعت أم مريم ابنتها وهى تنسحب داخلة ، ثم أضافت وقد علا وجهها جد غير عادى :

- أحببت أن أنبهك حتى تأخذ حذرك .

أصغى منتبها وهى تحكى له بالتفصيل ما دار بين ميلاد ومريم ، وخطر بباله مباشرة أن ميلاد ربما كان فى لحظة انسجام وغير قادر على السيطرة على عباراته ، وأنه بذلك يعبر عن أحلام يقظة صادرة عن غيبوبة ذهنية فقال موجها عباراته إليها وكأنه يخاطب نفسه :

- لا تهتمي كثيرا فربما كان مسطولا .

ولكن العجوز أخذت تلح على احتمال الخطر ، مذكرة إياه ببعض الوقائع المأثورة عنه في المنطقة ، فأخذ ذهنه - وهو يصغي - يتابع تحليل عبارات ميلاد ، بدأ تحليله مستهينا وكأنه يقول لنفسه : « *ماذا يملك أن يفعل وأنت لست واحدا من زبائنه الذين يمكن أن يتحكم في مدهم باحتياجاتهم ، لقد كان بالتأكيد في مرحلة انعدام الوعي* » ولكنه ما لبث أن انتبه إلى أن هذا التحليل بدوره يدعو إلى القلق ، لأنه إذا كان قد بدأ يفكر فيه لا شعوريا باعتباره عقبة فلا يستبعد أن يلجأ إلى تدبير مكيدة ، وأيقن أن الموضوع يحتاج إلى تفكير متأن ، ولكن في وقت آخر ، فلا يليق أن يكون مستغرقا في شئ وهو بمحضر من العجوز ، فضلا عن أن ذلك قد يعطي انطباعا متعجلا بخوفه من المواجهة ، وهكذا عقب بعد أن انتهت أم مريم من تكرار تحذيرها قائلا :

- اطمئني يا خالة ، فميلاد أجبن من أن يواجهني .

فردت العجوز مؤكدة قلقها :

- المكيدة لا تحتاج إلى شجاعة .

فتابع مخففا عنها :

- ماذا يستطيع أن يعمل وأنا لا أتعاطى المخدّرات .

توقف فجأة ولم يزد ، لقد أوشك أن يقول : « ولا أتعامل مع القوادين والمومسات » ، ولكنه عدل والكلمات على طرف لسانه ، إذ استقبح أن تقرع العبارة السيئة أذن العجوز الفاضلة ، ولم يجد مناصا من أن يضيف :

- لا تراعي يا خالة ، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

حين عادت مريم تحمل بين يديها صينية تعلوها أطباق صغيرة من المهلبية أدركت على الفور مدى التغيير الذي أصاب أمها ، فقد أصبحت أكثر بهجة واسترد وجهها لونه حتى كأنها لا تعاني مرضا شديدا لفترة طويلة ، وتوصلت بإحساسها الداخلي إلى أن

السبب فى ذلك كلمات حامد التى استطاعت بما اتسمت به من ثقة ورجولة أن تبدد شيئا فشيئا ما كانت تحس به من قلق عاصف ، وإن ظلت فى الأعماق بعض آثار غائرة لكنها أخذت بدورها تضمحل رويدا رويدا بتأثير ما يغرسه حامد من مشاعر الأمن والطمأنينة والأمل ، وما كادت مريم تتأمل ما يشبه الانقلاب فى وجهه أمها حتى قالت لنفسها : « *لو كان يتفقد أحوالنا دائما لربما تحسنت صحتها واستردت عافيتها* » . مدت يدها بطبق المهلبية إلى حامد آملة أن يعجبه ، فتذوق ملعقة صغيرة أتبعها بإبداء إعجاب غير محدود حمل إلى وجهها وهج الخجل وإلى عينيها لمعة الامتنان وإلى لسانها غمغمة الشكر . وأوشكت العجوز أن تتهمه بالمبالغة فضحك بسعادة طفل وهو يرى تأثير كلماته ، واهتزت أعماقه راضية لتمكنه من أن يدخل شيئا من البهجة على الأسرة الصغيرة ، وفى غمرة المشاعر الدافئة حمل هدى على ركبتيه وراح يؤاكلها ، يطعمها ملعقة ويأخذ أخرى ، وحين كان يغافلها ليعطيها ملعقتين متواليتين كانت تصيح وكأنها ضبطته متلبسا بخطأ فى الحساب ، فترتفع الأصوات بضحكات صافية صادرة من القلب . وراحت العجوز ترقب المشهد وكأنها ترى معجزة تتحقق ، فابتهلت فى أعماقها أن يكلأ الله جمعهم الصغير بالرعاية وأن يتم عليهم النعمة فيبقى الرجل معهم حتى نهاية العمر .

تناهت إلى أذن مريم وهى فى ذروة إحساسها بالسعادة همهمة خفيفة لا تكاد تسمع ، فلم تلق إليها أول الأمر بالا وظنت أن بعض سكان الدور العلوى بسبيلهم إلى الصعود أو الهبوط ، ولكن لما تتابعت الهمهمات وتلتها أصوات غير عادية كما لو كانت أقدام ثقيلة تخطو القت من مكانها إلى جوار أمها نظرة على الباب المفتوح فلاحظت أشباحا تتحرك ، حدقت فأيقنت أن شيئا غير مفهوم يحدث فى الخارج ، إذ كانت الأشباح تتكاثف على البسطة الفاصلة بين الشقتين ، صمتت فجأة وهى تشير بإصبعها إلى ما ترى فتنبه حامد واستدار ليرى ما تشير إليه فلم يفهم لأول وهلة شيئا ، ولعله لم تتح له الفرصة ليفهم شيئا على الإطلاق فقد حدث كل شئ فى ثوان قلائل ، إذ بدأت بعض الأشباح تطرق باب حامد طرقات رهيبة ما لبثت أن تبعتها محاولة اقتحام بإطلاق

النار على الباب المغلق ، ولما صرخت مريم نهض حاملا الصغيرة على ذراعه فطار طبق الحلوى ليحدث بوقوعه على المنضدة واصطدامه بالكوب صوتا مدويا فاستدار بعض الرجال الذين فى الخارج ، وقد أدركوا أن حركة مباغتة تفاجئهم من الخلف ، وفى نفس اللحظة انطلقت رصاصة أصابت رأس المسيح المصلوب فى اللوحة المعلقة على الجدار ، ولما هم حامد بأن ينحنى ليضع الصغيرة على الأرض ظن الذين فى الخارج أنه يأخذ وضعا قتاليا فعاجلوه بدفعة من مدفع رشاش اخترقت رأس الصغيرة قبل أن تنفذ إلى صدره ، فانكفأ محتضنا إياها دون أن تصدر عنه آهة واحدة . فى حين أطلقت مريم صرخة رعب هائلة وكأنها تطلب النجدة فلم يجد أحدهما بدا من أن يعاجلها بدورها بدفعة أخرى لعله كان يقصد بها إرهابها ولكنها استقرت فى صدرها فانكفأت هى الأخرى إلى جوار حامد بعد أن اصطدم رأسها بالمنضدة لتنبثق منه هو الآخر الدماء .

لم تصدق العجوز عينيها فأغمضتهما مؤملة أن يكون ما يجرى مجرد كابوس مزعج ، ولكنها حين فتحتهما بعد وهلة ورأت الدماء المتفجرة تغرق المكان والأشباح تملأ الصالة مشرعة مدافعها الرشاشة متخذة وقع القتال تأهبا لاحتمالات غير متوقعة مال رأسها على صدرها ولفظت فى هدوء أنفاسها .

بعد أن تم تأمين الموقف تماما ، أبلغ قائد مجموعة الاعتقال قيادته لاسلكيا بإشارة نجاح العملية قائلا :

- **لقد اقتحم الإرهابى المطلوب الشقة المقابلة لشقته فى محاولة للهرب ، لكن القوة حاصرته ، وحدث تبادل لإطلاق النار انتهى بإصابته كما أصيب فى الاشتباك بعض أفراد الأسرة التى لجأ إليها الإرهابى**

وفى صحف اليوم التالى تم نشر الحادث بشكل مفصل ، وتحدثت الصحف عن الإرهابى الذى اقتحم شقة جيرانه واتخذ من نسائهم وأطفالهم رهائن ليحموه من قبضة الشرطة ، والنتيجة المؤسفة التى ترتبت على ذلك ، وطالبت بالتصدى بحزم لعناصر

الإرهاب ، والضرب بيد من حديد لتصفيتهم .

* * *

حين كانت سيارة الشرطة تنقل - في جوف الليل - جثة حامد من المشرحة إلى مقابر الصدقة المجهولة كانت إحدى الخلايا القيادية الجديدة التى تم تشكيلها تعقد أول اجتماعاتها ، وطلب أميرها المقدم خالد في البداية قراءة الفاتحة على روح الشهداء الذى مضوا على الطريق ، ثم اقترح أن يطلق على الخلية الجديدة « مجموعة الشهيد حامد » ، وبالرغم من أن من الحاضرين من لم يكن يعرف شيئا عنه فإنهم أجمعوا على الموافقة ، وغمغم سامح - أحدث أعضاء الجماعة ، وهو شاب لم يكمل عامه الثامن عشر بعد ، التحق هذا العام بكلية الهندسة بعد أن بهرته البداية المؤثرة للنشاط التنظيمى :

- ليتنى أكون واحدا من الشهداء .

فقال أميره بيقين .

- كلنا يسير على الدرب ، فليس لنا بديل إلى أن يأذن الله بالنصر .

✍ ✍ ✍

الفصل الثانى عشر

البحار العجوز ... فى الميناء يغرق !!

لمست اليدَ المعروقةَ الباردةَ سخونةُ جبين الوضيع المندَّى بالعرق ، فغمر خوف مبهم قلب الجدة العجوز الواجف وتمتمت شفتاها الباهتتان بعبارات مأثورة لم تُسمع منها غير همهمة خفيضة مصحوبة بنظرات ضارعة تتطلع إلى أعلى ، مس المشهد وترا مشدودا فى قلب الأم فطافت عيناها بوجه الجدة علها تنتزع بارقة أمل تهدئ من قلقها ، وسألت بلهفة :

– خايفة ؟

ردت العجوز بصوت واهن لا يخلو من ثقة :

– ربنا هو الشافى .

وران الصمت برهة وجيزة قبل أن يقطعه صوت الأم مستفسرا – ربما للمرة العاشرة فى هذه الليلة :

- أرضعه ؟

فأجابت العجوز بحسم :

- لا .

أضافت الأم وكأنما لم تجد مفرا من التصريح :

- أنا خايفة .

استمرت العجوز لائمة وكأنما لم تسمع العبارة الأخيرة :

- ألم يمنع الدكتور الرضاعة وطلب منك أن تكتفي بالماء المحلى بالسكر ؟

عاد الصمت مرة أخرى فلم يُسمع سوى صوت التليفزيون الصادر من صالة الجيران ، وتركزت الأعين من جديد على الوجه الصغير الغافى قبل أن تضيف العجوز وكأنما تذكرت شيئا ما كان لها أن تنساه :

- قومى اعصرى صدرك حتى لا يحتقن باللبن .

فغادرتها ابنتها مستجيبة لطلبها ، وعاودت العجوز النظر إلى الرضيع وقد لمع وجهه بعرق غزير ، والتقطت أذناها الواهنتان صوت تنفسه المتعثر مصحوبا بخشخشة واضحة فى صدره ، فأنشب الخوف من جديد أظافره فى الأعماق ، وأسلمها الخوف إلى التوتر ، فسحت العيون الكليلة بدموع صامتة حرصت على أن تزيل آثارها بسرعة حتى لا تضبط متلبسة بضعف ، وأخذت تشغل نفسها بالتفكير فى أشياء عديدة حتى تستعيد أمام ابنتها توازنها ، لكنها - بالرغم منها - وجدت نفسها تعود من جديد إلى الموضوع الذى ألح عليها ولم تستطع منه خلاصا : *« أين سافر أحمد ولماذا طالت غيبته ؟ ، وكيف ترك زوجته وابنه يعودان وحدهما ولم يصحبهما ؟ هل حدث بينهم خلاف أدى إلى قطيعة ؟ لكنه كما تعرفه عاقل ومتزن ومستحيل أن يأخذ مثل هذا القرار »* !!

قالت لابنتها فور عودتها من الحمام وحتى قبل أن تجلس قبالتها على الكليم اليدوي القديم المصنوع من الخرق :

- ألم يقل لك أحمد متى سيعود ؟

فهزت البنت رأسها مؤكدة بصوت يشوبه غضب حبيس :

- لم يقل شيئا .

استدركت العجوز :

- لكنك قلت إنه سيغيب ؟

فأجابت ابنتها وهي تستحضر كلماته العجلى عند الفراق :

- كان متعجلا ولم أفهم غير ما قلته لك مرارا .

وسألتها العجوز من جديد وكأنها تتأكد :

- ألم يكن بينكما خلاف ؟

ولم تنتظر ردا ، فلم تنظر إلى رأس ابنتها التي اهتزت بشدة ولا إلى يدها التي صاحبت عبارات النفي القاطعة ، وانشغلت بالنظر إلى الصغير الغارق في العرق وعقلها لا يكف عن التفكير : « *أكثر من عشرة أيام لا حس ولا خبر ، هل حل به مكروه ؟* » ، وقالت ابنتها لنفسها وهي تمسح العرق من فوق جبين رضيعها : « *اثنا عشر يوما مضت على سفرك ، مدة طويلة ، طويلة جدا ، لقد كانت أقصى مدة غبتها من قبل أسبوعا واحدا فكيف امتدت الأيام دون أن تحس ، ها هو ابنك يعاني من الحمى وأنت لا تسأل ، ألا يشعر قلبك بما نحن فيه أم شغلك عنا شاغل ؟* » .

استغرقت المرأتان كلتاهما في عالم داخلي خاص ، وبدت الكبرى جامدة الوجه وإن حكت العينان ما يلم بها من كمد حارق ، عادت بها الذاكرة أياما طويلة مضت وتفجر في الأعماق إحساس عميق بالوحدة ، ذلك الإحساس الذي لم يفارقها قط منذ مات

زوجها فى مطلع شبابها تاركا لها صغارها الثلاثة وحملها الذى تمخض بعد ثلاثة شهور من وفاته عن ابنتها الوحيدة ، فاتشحت بثوب رجل حتى تصد عنها أطماع الطامعين وإن عانت فى أعماقها من أسى مبرح لا يبرح ، أياما وليالى تكد دون كلل فى سبيل الحصول على قروش معدودة من عملها كدلالة قماش تحمله من محلات شارع الأزهر وبين الصورين مقابل عمولة توزيع أكلتها سلفا أفواه الصغار ، الخوف ما كانت تكابده ، بل كانت تعاشره ، كان رفيق دربها الذى لم يتخل عنها قط ، الخوف من المرض ، والخوف من المجهول ، والخوف من ضياع الأقساط ، ، والخوف من ظلم الناس ، والخوف من لحظة ضعف تعصف بكل شئ ، كم ودت أن تبكى وأن تسلم نفسها لصراخ لا ينقطع ، ولكنها أبدا لم تسمح لعين أن تلمح فى المآقى دمعة ولا لأذن أن تسمع من شفتيها نغمة ضيق ، كانت عبارة : « الحمد لله » هى الرد التلقائى فى كل حال ، كانت تمنى نفسها بأنه حين يكبر الصغار سيصبحون سندها ويصيرون درعها ويحملون عنها عبئها ، وكلما ازدادت الحياة شدة وقتامة من حولها كلما ازدادت استغراقا فى بذل الجهد وتفانيا فى عمل لا يتوقف يوما بعد يوم عاما وراء عام ، وكأنما هى بحار منفرد فى بحر الظلمات تحمله إرادة الحياة وحدها على أن يعمل ويعمل ويعمل ، ويصور لنفسه أضواءه الخاصة لتداعب روحه فتحمله على المزيد ، كان منارتها أن يصبح الصغار كبارا ليشدوا ظهرها ويحموا بسواعدهم الفتية ضعفها ، ولكن الأيام تمضى ولا يأتى هذا اليوم ويبدو أنه لن يأتى أبدا ، لقد شغل كل واحد من الأبناء بنفسه وصرفته حياته الخاصة عن أمه حتى أوشكت الصلة بها أن تذبل ، فقد صارت محدودة بتلك الزيارات الرسمية التى يحضرون فيها فى المناسبات ليقبلوا جبينها وليحمل كل منهم شيئا يتصور أنه يحصل به على رضاها ، وليعلنوا فى نفس الوقت بحرصهم على الذهاب بعد سويعات قليلة لا يناقشون فيها شيئا ولا يخاطرون فيها بابداء رأى فى مشكلة تواجهها على تأكيد بُعْدِهِمْ عنها وتجنبهم عمليا لها ، وها هى أختهم يغيب عنها زوجها ويشتد المرض على رضيعها ولم يفكر أحد منهم أن يتصل بها ليعرف ما أصابها .

خطفت العجوز نظرة عجلى إلى وجه ابنتها ، أتبعتها بنظرة طويلة تتأملها ، كان

وجه الأم الصغيرة يحكى ما يمور فى وجدانها من مشاعر غلابة ، لم يكن ما تسمعه فى الأعماق كلمات ، فلا توجد مثل هذه اللغة القادرة على أن تستبطن المشاعر وتحيط بها وتتمكن منها وتتغلغلها وتعبر عنها ، وإنما كان ما يدور فوران متوهج من الأحاسيس الجياشة التى تتنقل بها بين الحب والرضى والسخط والغضب ، بين الأمل المزهر والثورة المتفجرة ، بين العيش فى الماضى والحياة فى اللحظة الحاضرة بكل ما يصحبها من ألم وضعف وخوف ، تدور هذه المشاعر حوله وحده ، لا رجل سواه ، ولا رجل قبله ، ولا رجل بعده ، صحيح أن لها ثلاثة أشقاء يكبرونها وأنها تحبهم وتعتز بهم ولا تطيق الابتعاد عنهم وتود أن تراهم وأولادهم معها وحولها ولكن « أحمد » شئ مختلف ، مختلف تماما ، إنه فى داخلها ، يعيش فى دمها ، يتنفس فى أعماقها ، يستقر فى كيانها وكأنما خلق منذ وعت هنالك ، تعرف أو لا تعرف ، تفهم أو لا تفهم ، صارت كلها جزءا منه وصار هو حيا فيها ، انتقلت كل سماته إليها وتشربت به قطرة قطرة حتى تمثلتها وأصبحت هى هو ، لم يحدث ذلك بصورة مقصودة ولا فى مدى زمن معروف ، ولكنها وجدت نفسها كذلك وهكذا ستظل ، حتى ذكريات الطفولة البعيدة فى حوارى السيدة وطولون لم يعد فى وجدانها إلا ما يتصل به ، وبقدر تمكنه منها بقدر امتزاجها به وحبها له وسخطها عليه وغضبها منه وأملها فيه ، *« آه لو يحضر الآن ، إذن لصرخت رافضة له وهى ترتمى على صدره لائمة ، بل غاضبة ، بل رافضة حتى أن تسمع منه كلمة واحدة ، لن تسمح لصوته أن يصل إلى أذنيها ولا لنظراته أن تسبح فى عينيها ، ولا لأصابعه أن تداعب خدها أو تربت على كتفها ، لقد طالت غيبتك وتركتنى وطارق يفترسنا قلق قاهر ، كان عليك أن تصغى لقلبك لكن من الواضح أن قلبك هنا مشغول ، تصرفك هنا أشياء لا نريد أن نعرفها بل ننكرها ، نكره كل ما يبعدك عنا ولو كانت لقمة عيش أكثر بهجة ، فلا شئ فى الدنيا يعوضنا عن هذا البعد ولن نسامحك أبدا »* .

تساءلت العجوز بصوت مفعم بالحنو وهى تتابع بقلق واجف أطياف المشاعر

تتوالى على صفحة وجه ابنتها :

– نرسل غدا لواحد من اخوتك ليبحث عن أحمد ؟

لم تسمع إجابة غير عبارة :

– هه ؟

فقد كانت ابنتها لا ستغراقها فى عالمها الداخلى غير قادرة على استيعاب السؤال ، ولما كررته أمها تخلصت من الإجابة وتركت لها أن تتصرف كما تشاء ، فقد كانت عاجزة بالفعل عن اتخاذ قرار ، كانت تريد حضوره الفورى وترغب فى نفس الوقت أن يكون ذلك بمبادرة منه ، كانت على يقين من أنه لا يعرف عما هم فيه شيئا ولكنها كانت تتمنى أن يستشف بوجدانه حاجتهم إليه ، كانت تلومه وكانت تريده لذلك أن يعلم .

عادت الأم الصغيرة مرة أخرى إلى عالمها الخاص ، استغرقها التفكير واستبد بها حتى لم تعد تمديدها لتجفف عرق الرضيع الذى ينساب على وجهه ، وأيقنت العجوز أن ابنتها فى حاجة ملحة إلى أن تستريح مما تكابد من مشاعر ، فكرت لوهلة أن تجاذبها حديثا لعله يسرى عنها ، ولكنها لم تكن فى حالة نفسية تسمح لها بأن تدير حديثا مسليا ، وأدركت أن مجرد الحديث مع ابنتها سيحملهما – مهما كان موضوعه – إلى ما هم فيه من جديد فيزيدهما عناء ، ولم تجد بدا من أن تقترح عليها أن تنام عسى أن تستريح مؤكدة لها أنها ستتكفل برعاية الصغير حتى تأخذ كفايتها من النوم ، ولم تترك لها خيارا ، بل حملتها حملا – كما فعلت فى ليال سابقة – على أن تسترخى على الفراش وإن ظلت عيناها لفترة طويلة معلقة بالصغير ، الذى أصبح تنفسه أكثر ارتفاعا ، ربما بسبب ما ران من صمت بعد أن انتهى إرسال التليفزيون وأغلق الجيران الجهاز .

أهى يقظى أم نائمة ، هل ما تسمعه دقات على الباب حقيقة أم أضغاث أحلام تمر بها ؟ دعكت العجوز عينيها حتى تتأكد مما حولها ولما فتحتهما تبينت برغم ما عانته

من ضباب الرؤية ما حولها : ها هى ابنتها مستلقية فوق السرير الخشبى وقد تعرت ساقاها إلى ما فوق الركبتين بسبب الحر ، وها هو الرضيع النائم فوق حشية صغيرة إلى جوارها ، وها هى الكنبة الاستانبولى المتهرئة الغطاء الذى يكشف عن الحشية الإسفنجية المصفرّة فى مواضع عدة ، والكرسى المكسور الساق المشدود بجبيرة خشبية فى موضعه إلى جوار النافذة . استمر الطرق متتابعا فسارعت بالنهوض حتى لا ينزعج الرضيع النائم معتمدة على ساعديها ، وسارت متناسية ما يسببه لها السير من ألم المفاصل ، وتساءلت وهى تجتاز الصالة الصغيرة مقتربة من الباب عن الطارق ، فلم يجبها غير مزيد من الطرقات ، فاضطرت أن تفتح من غير انتظار للجواب .

– ما هذا ؟ ماذا يحدث ؟

ما كادت تسحب رتاج الكالون حتى اندفع الباب بقوة فاصطدم برأسها ودفعها إلى الخلف فتكومت إلى جوار الحائط ، واقتحم رجال لا تعرف لهم عددا فملأوا الصالة الصغيرة شاهرى السلاح وإن بقى منهم عدد أمام الباب ، أوشكت العجوز أن تصرخ ولكن الفزع عقل لسانها ، همت أن تسأل ولكنها لم تجد لسانا ينطق ، وحين التف بضعة رجال حولها وأيديهم على الزناد أيقنت أنها فى كابوس حقيقى فلا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة تعيشها ، لم تسمع كلمة ، ولا همسة ، وظلت مكومة إلى جوار الحائط فاقدة الإدراك وإن لم تفقد الوعى ، هل مضت دقائق ؟ هل قضت ساعات ؟ هل أغمى عليها ؟ هل تحلم ؟ هل أفاقت ؟ هل ما تشهده تراه بعينيها لا بخيالها ؟ هل صحيح أن هذا الشاب الممتلئ الذى يرتدى القميص والبنطلون يمد يده إليها برفق ليساعدها على النهوض ؟ هل ما تسمعه هى كلماته :

– لا تخافى يا أمى .

بدت الكلمات سلم نجدة فى لهيب النار المستعرة ، طوق نجاة فى خضم كابوس خانق ، همت أن تصرخ مستغيثة ولكن يد الشاب تحولت إلى فمها وغرس عينيه فى عينيها ، وبدت نظراته عميقة وحادة وآمرة ، ازدردت العجوز ريقها بصعوبة ونحت يده

عن فمها وعانت من محاولة فاشلة للنهوض فقد عجزت ساقاها عن حملها ، ولكنها وجدت أخيرا صوتها فسألت متلعثمة :

– فيه إيه ؟

أجاب الشاب بهدوء ظاهر :

– نحن بوليس ، ونحن نبحث عن أحمد .

صرخت العجوز بفزع :

– أحمد ابنى ؟

فرد الشاب بهدوء :

– أحمد عبد السلام.

صاحت العجوز مستنكرة :

– جوز بنتى !!

« مستحيل أن يكون المطلوب أحمد زوج ابنتها ، إنه نموذج للرجل الذى لا يخطئ ، فكيف يكون مطلوبا من البوليس ؟ » .

انصرف الشاب عنها إلى إصدار أوامره بتفتيش الشقة ، كان يعتمد على الإشارة بيده ، وحين اقتحم الرجال حجرة النوم حاولت العجوز أن تنهض لتلحق بهم حتى لا يفزعوا ابنتها النائمة ورضيعها ، ولكن رجلا ممن حولها ركلها بقدمه فسقطت مرة أخرى إلى جوار الحائط ، وسمعت وهى تسقط صرخة رعب هائلة ، وخرج الرجال من الحجرة وهم يدفعون أمامهم ابنتها ، وما كاد الشاب يراها حتى بادرها بالسؤال :

– أين أحمد ؟

صمتت المرأة الصغيرة فلم تكن قد استوعبت المفاجأة بعد ، ولكن رجلا خلفها هوى بيده على وجهها صارخا فيها :

– تكلمى يا بنت الكلب .

فصرخت المرأتان معا فى لحظة واحدة ، ونظر الشاب الممتلئ بحدة إلى الضارب وقال برقة :

– آسف أرجو ألا تغضبى .

وتابع مستحثا المرأة الشابة على الحديث :

– أين زوجك ؟

وكأنما عن له أن يتأكد فتابع حديثه :

– أنت زوجة أحمد عبد السلام ، أليس كذلك ؟

قالت الشابة دون وعى :

– نعم .

فاستطرد الشاب :

– أين هو ؟

فأجابت الشابة والخوف يستبد بها :

– لا أعرف .

فتابع الشاب محاولا تهدئتها :

– لا تخافى من شئ ، هذا مجرد سؤال والإجابة لا ضرر فيها ، ولا داعى للكذب .

صمتت الشابة فلم تكن تدرى بماذا تجيب . وحاولت العجوز أن تشرح لهم أنهم لا يعرفون أين ذهب ، وأن طبيعة عمله تحمله على التنقل بين بلاد مختلفة فلم يسمح لها الشاب أن تستمر وأمرها بالصمت ، كان تقديره أن الزوجة غالبا تعرف مكان زوجها ، ورجح لديه صمتها هذا التقدير ، وكان عليه أن يعرف منها وأن يصل إليه من خلالها ، ولكنه أحس أنها لن تتكلم ما دامت إلى جوار أمها ، فاستقر عزمه على أن يأخذها معه ، فإن لم تتكلم فإن أخذها كرهينة سيحمل الهارب على أن يسلم نفسه .

قال الشاب بعد أن أخذ التمام من رجاله موجها كلامه إلى الشابة :

- آسف جدا للإزعاج ، ولكننا مضطرون أن نأخذك معنا .

ثم أردف وقد رأى الذهول فى عينيها :

- مدة قصيرة جدا ، مجرد إجراءات روتينية .

ألجمها الرعب فلم تصرخ وإن تفجرت الدموع غزيرة وارتفع صوت شهيقها ، وقبل أن تفتح العجوز فمها وجه الشاب إليها حديثه :

- لا تخافى يا أمى ، إنها مثل أختى فاطمئنى ، وسأعيدها إليك فور انتهاء الإجراءات .

أوشكت العجوز أن تصرخ فمدّ أحدهم يده وكتم صرختها فى حين تابع الشاب بحدة :

- قلت لك اطمئنى فلم الانزعاج ؟

صرخت ابنتها وهم يجرونها خارجين من الباب :

- ابنى .

فردت العجوز بسرعة :

- اتركيه ولا داعى لأخذه معك .

وتابعت وهى تنظر إلى الشاب بتوسل :

- ستغيبون ؟

فأجاب الشاب بثقة :

- أبدا .

استمرت العجوز :

- أنادى واحدا من الجيران ليصحبها ؟

أشار الشاب بيده نافيا ، وطلب من الرجال الخروج ، وأضاف وهو يغلق خلفه الباب :

- **لا داعى لإزعاج أحد ، ستحضر لك قبل أن يطلع النهار .**

فتحت العجوز الباب وهمت أن تنادى أحد الجيران ، ولكن يدا دفعتها بقسوة فسقطت على الأرض تتأوه واصطفق الباب ثانية بعنف ، ظلت فى مكانها غير قادرة على الحركة أو التفكير زمنا ، غارقة فى بحر من الأحاسيس المتضاربة ، لقد كانت طول حياتها بعيدة عن الشرطة ، حريصة فى معاملاتها على أن تتجنبها ، لقد ورثت ذلك الخوف التقليدى منها ، حتى أنها كانت تخسر أحيانا فى بعض عملياتها التجارية لكيلا تضطر إلى اللجوء إليها ، كان حيا فى أعمق أعماقها نوع من الرعب من هذا الجهاز بأفراده ومبانيه ونشاطاته ، ولم يكن لديها استعداد لأن تصدق أنها - بعد هذا العمر - يحدث لها ما حدث ، ها هى ابنتها تُنتزع منها أمام عينيها فى عز الليل وهى ترتدى ثياب النوم التى لا يراها بها حتى إخوتها ؟ !! أليس ذلك أمرا بالغ العجب والغرابة ؟ ! فجأة برق فى ذهنها خاطر ، كيف لم تلحظ أن الرجال الذين انتزعوا ابنتها لم يكونوا يرتدون زيا رسميا ، حتى رئيسهم الشاب لم يكن هناك ما يدل على طبيعة عمله ، أتكون قد وقعت وابنتها ضحية عصابة ، نهضت مرة واحدة لا تدرى كيف وانطلقت إلى النافذة المطلة على الحارة فوجدت ظلاما دامسا لا مجال فيه لرؤية وصمتا مطبقا لا همس فيه ولا حركة ، فألفت نفسها - من غير وعى - تطلق صرخات فزع هائلة ، امتدت واتصلت وتلاحقت حتى انفتحت أكثر من نافذة ، واستشرفت أكثر من رأس ، وارتفع أكثر من صوت يتساءل عما حدث ، ودقت أقدام الأرض متجهة إلى المنزل لتتبين ما يحدث ، وتصاعدت دقات على باب الشقة ، فعادت العجوز تفتح الباب ليدخل كثيرون ، رجال ونساء وحتى أطفال ، أين كان كل هؤلاء ؟ ! أكانوا جميعا منذ دقائق نياما ؟ ! تناثرت عبارات الاستفسار وتبادلت الأفواه كلمات لم تسمعها الآذان إذ أحاط بالجميع ضجيج لغوب ، ولكن بعد قليل ابتدأ الضجيج يخفت والنظرات تستطلع بفزع آثار هجمة شرسة لم تدع شيئا إلا دمرته ، تسلل إلى وجدان الحاضرين أن ما حدث نوع من التدمير

الشامل الذى يقصد به أن يكون فى ذاته عقوبة ، ولع فى أفق التفكير الذاتى لكل من فكر منهم أن من المحال أن يكون ذلك ثمرة عصابة مهما بلغت قدرتها فلابد أن تكون خائفة من شئ ما ، وأنه لا يمكن أن يكون ما حدث إلا نتاج عمل متمكن ومطمئن وواع بأنه لن يُسأل عما فعل بحال . وهكذا حين قالت امرأة من الجيران باستنكار وهى تلملم حشية السرير التى مُزِّقت وبعثرت فى جوانب الغرفة :

- ولا الكفرة ، والنبى دا حرام .

نظر إليها زوجها بحدة حتى لا تستطرد فتتورط فى نقد صريح ، طالبا منها بحزم أن تحمل الرضيع الذى أضناه البكاء دون أن يلتفت إليه أحد .

✍ ✍ ✍

الفصل الثالث عشر
العازف المحترف ... يغنى

ألقى القائد الشاب وهو يجلس فى مكانه إلى جوار سائق سيارة الإسعاف التى تحمل الرهينة نظرة على آخر سيارات قوة الحراسة التى كانت تقف فى مدخل الحارة حتى تمنع أىّ تحرك منها أو إليها ، وحين لمح شبحا مسرعا يتجاوزها بعد أن بدأت تتحرك أيقن أن أفراد القوة المنتشرة فى الظلام قادرون على معاملته ، فلما تجاوزهم دون أن يعترضه أحد مد يده وأخرج مسدسه الجاهز للإطلاق ووضع إصبعه على الزناد .

صاح الشبح :

- تمام يافندم ، المرأة العجوز حاولت أن تستغيث وتم عمل اللازم .

تنهد القائد الشاب بارتياح وأعاد وضع المسدس فى مكانه تحت القميص وأمر القوة بالانطلاق .

« الآن ستمضى الأمور على نحو ما هو مقرر سلفا ، صحيح أن الحملة لم تنجح فى الوصول إلى الهارب ولكن لديه الآن زوجته ، ومرجّح أن تكون على علم بمكانه ، إنها لم تتكلم بعد ولكن لديه من الوسائل ما يحملها به مهما كانت صلابتها على الكلام ، إن عزلها عن الدنيا خطوة أولى ستتبعها خطوات ، أولاها المراوحة بين العنف بكل فظاظته واللين بكل رقته ، وآخرها دفعها إلى الانهيار الكامل حين تفقد الأمل تماما ، إنها خطوات مدروسة ، ومخططة ، ومجربة ، وهى كفيلة بان تستخرج من أى إنسان ما يخفيه حتى عن أحلامه ، فما بالك بامرأة من نوعها ليست لها خبرة تنظيمية وإلا لكانت قد هربت معه ، وتملك جسدا بضًا عما قليل يصبح كل جزء فيه - مع انتهاك خصوصيته - نقطة ضعف قادرة على استلاب كل مقدرة على المقاومة ، وغرس الرعب فى أعمق أعماقه حتى النخاع » .

انتشرت سيارات القوة المرافقة بالقرب من السور الخارجى لمبنى أنيق فى أحد الشوارع الخلفية فى مدينة نصر ثم توقفت ، فى حين اجتازت سيارة الإسعاف البوابة الجانبية لتتوقف لحظة أمام سلم جرانيتى مزدان بأصص الزهور على جانبيه ، فقفز منها القائد الشاب متجها إلى مكتبه ، واستمرت السيارة لتكمل دورانها حول المبنى ثم وقفت أمام باب خلفى يفضى إلى سراديب التحقيق فى البدروم المتعدد الطوابق ، وما كادت السيارة تقف حتى فتح أحد الرجلين المرافقين للرهينة الباب ودفعها الآخر معصوبة العينين فسقطت على الأرض وهى تطلق صرخة مروعة هى مزيج من الدهشة والفزع والألم ، قفز الرجلان من السيارة ومد كل منهم يده ليقبض بعنف على أحد ساعدى المرأة ، وجراها معا إلى أن اجتازا الباب والممر الجانبى الضيق الطويل المفضى إلى الطابق السفلى من البدروم ، وهبطا قفزا على السلم الحلزونى وساقاها تتخبطان بشدة فى درجه الحديدى دون أن يعبأ أى منهما بالدماء التى أخذت تسيل منهما ، وحين وصلا إلى هدفهما صاح أحدهما مخاطبا الصول الجالس أمام بوابة

الزنازين الانفرادية :

- الوارد لحساب عصام بك .

سأل الصول بعفوية وهو يمسك بالمفتاح ليدخله فى القفل الضخم الذى يغلق الجنزير الفولاذى .

- اسمها ايه ؟

فرد الرجل بتلقائية :

- مش مهم .

تمتم الصول وهو يوالى فتح البوابة الحديدية :

- مش مهم مش مهم .

ولما انفتح الباب دخل الرجلان يجران الرهينة ثم قذفا بها فى زنزانة مفتوحة ليقبل الصول ليغلق عليها الباب ، وعادا ليقدما التمام ورقم الزنزانة للقائد الشاب .

أغلق الصول البوابة الحديدية ، ووضع القفل فى مكانه ليربط بين حلقات الجنزير الذى يؤمن الإغلاق ، وسجل فى قصاصة ورق أخرجها من الدرج المفتوح فى المنضدة الخشبية التى أمامه رقم ٧ ، وكتب أمامه اسم (عصام بك) ، ثم بدأ يشرب كوب الشاى الذى برد بانقطاعه عنه منذ نزول الوارد ، ولكنه ما كاد يأخذ منه رشفه حتى سمع ضجيجا عاليا صادرا من السلم الحلزونى ، فوضع الكوب أمامه فوق الطاولة الخشبية ونهض قائلا لنفسه :

- ليلة سودة ، حتى كوب الشاى لا نستطيع أن نشربه .

وما لبث أن ظهر اثنان من رجال القوات الخاصة يجران امرأة لا تكف عن الصراخ والسب ، فقال لها أحدهما محنقا :

- اخرسى يا لبوة يا بنت الكلب .

فردت المرأة على الفور دون حياء أو خوف :

– **أمك هى اللبوة يا ابن الكلب .**

شهق الصول لهذه البجاحة وتمتم متعجبا :

– **آخر زمن .**

وما أن استوى الرجلان على الأرض بعد أن هبطا آخر درجات السلم حتى التفت أحدهما إليها وركلها بعنف فى جنبها ، فأطلقت المرأة صرخة مدوية حتى اضطر زميله أن ينصحه قائلا :

– **مش وقته .**

والتفت إلى الصول وبادره بقوله :

– **افتح يا عم عطيه الله لا يسيئوك ، الوارد لحساب حسام بك .**

سأل الصول بتلقائية :

– **اسمها إيه ؟**

فردت المرأة وهى تبكى :

– **اسمى نجوى عزت .**

واستدركت مصححة وصوت نشيجها يرتفع :

– **نجوى عزت عزيز .**

وظلت تردد الاسم فى هستيرية حتى أغلق الصول الباب الخارجى للزنازين ، وصدى صوتها يطن فى أذنيه ، حتى أنه كتب فى ورقة الوارد بعد رقم (٩) واسم حسام بك عبارة : نجوى عزت عزيز .

لما عاد الرجال لتقديم التمام للضباط المسئولين عن عمليات الاعتقال كان هؤلاء مشغولين – فى جناحهم الخاص فى الطابق الثانى – بكتابة تقارير المتابعة اليومية ، وكان يخيم على عدد منهم – أول الأمر – شئ من الضيق ، فقد فشل الرواد : عصام وهشام ومؤنس وحسام فى تحقيق التكليفات المباشرة الليلة ، ولم يتوصلوا إلى الهاربين

المطلوب اعتقالهم ولكنهم لم يكونوا مستعدين للسماح لمثل هذا الإحساس بأن يسيطر عليهم فيزحوا تحت وطأة الشعور بالإحباط أو التقصير ، وهكذا بدءوا يستعيدون ثقتهم فى أنفسهم وهو يتذكرون أنهم قد تمكنوا من أخذ رهائن من الدرجة الأولى ستوصلهم بالتأكيد إلى أهدافهم ، وبذلك حققوا قدرا من النجاح لا بأس به ، ثم إن النتائج النهائية لا تحتسب بعمليات ليلة واحدة ، ولقد حققت عملياتهم من قبل أهدافها ، فمعدل الإنجاز بصورة عامة أعلى من المتوقع فى ظل ظروف العمل السائدة ، التى تحكمهم فيها قرارات واضحة بأن تتم جميع العمليات فى الليل ، وهم مضطرون للقيام بها فى الكثير من الأحيان دن أن يمهد لها بشكل جيد لعدم وجود تحريات دقيقة وكافية ، كان لدى الضباط إحساس بأنهم أشبه بفريق صيادين على أعلى درجة من المهارة ولكنهم مقيدون تماما فى مطاردة فرائسهم ، وكان عندهم يقين بأنهم - برغم ما هم فيه - يتمكنون من تحقيق مستوى من النجاح أكبر بكثير مما تسمح به الإمكانيات والظروف . وهكذا وجدوا أنفسهم تلقائيا يتخذون موقف التبرير ، وهو أسلوب معتد به من أساليب العمل فى الجهاز ، ويتم فى حالة عدم تحقيق نجاح ملحوظ ، وذلك بواسطة التركيز على الإيجابيات التى تم إنجازها وتضخيم قيمتها ، وتناسى السلبيات تماما والتهوين - فى حالة الاضطرار إلى ذكرها - من آثارها . ومن ثم أخذ يراودهم - شيئا فشيئا - شعور بالراحة وإن لم يبلغ حد الرضا . ولكن تحقيق ذلك يحتاج إلى تنسيق مع باقى ضباط الفرع ، ثم إلى موافقة قائدهم المباشر ، وإذا كان زملاؤهم لن يضنوا عليهم بالموافقة على استثمار ما تحقق باعتباره جهودا مشتركة ، فقد سبق لهم أن فعلوا معهم نفس الشئ ، فإن موافقة القائد كانت تحتاج إلى جهد خاص .

ما إن أمسك عصام سماعة التليفون وطلب الرقم الخاص بقائد فرع العمليات حتى سمع - قبل أى كلمة - ضحكة مجلجلة ، فأيقن أن قائدهم فى حالة معنوية عالية ، زايله إحساس التوتر وإن ظل قدر من الترقب ، فلما تبين القائد صوته صاح فيه لائما :

- لماذا لم تحضر حتى الآن ، ألم تحضر من ساعة ؟ !

وأضاف بعد لحظة صمت وكأنه يدرك ما يفكر فيه :

- لا تفكير فى أى شئ ، فقد حققنا الليلة نجاحا مدويا سيظل حديث الجهاز لفترة طويلة .

أوشك هشام أن يستفسر ولكنه آثر الانتظار ، واستمر قائده وهو يغالب - فيما يبدو - ضحكة :

- أبلغ زملاءك أن يحضروا الآن ، فعندنا مناسبة جديرة بالاحتفال .

وحين دخل الرجال حجرة القائد أيقنوا أنه فى أفضل حالاته ، فقد بدا راضيا تماما ونائبه يقص عليه بالتفصيل المواقف التى صاحبت العملية التى قام فيها باعتقال (عبد العزيز حمام) ، والقائد يستعيد التفاصيل الدقيقة ليغرق فى ضحك متواصل ، وسرعان ما انتقلت عدوى البهجة إلى الجميع ، فقد تمكنوا - بفضل ما حدث - من تناسى الفشل المؤقت والإيقاع بذلك المحامى والسياسى العجوز الذى أثار دائما سخط المؤسسات العليا ، حتى أن القيادة السياسية قد تناولته باسمه فى أحاديثها على أنه مثال للرذالة والسفالة والتدخل فيما لا يعنيه من أمور الحكم ، وكان حريا بهذه الأحاديث أن تكون إنذارا لو كان الرجل عاقلا ، ولكن الرجل لم يتوقف بل مضى بسفه يكتب المقالات المتتابعة التى يهاجم فيها كل ما يتصور أنه انحرافات ، حتى إنه مس أكثر الموضوعات الوطنية خطرا ، فقد هاجم عمولات التسليح بشدة ، ولمح بأن القيادة السياسية ذاتها مسئولة عنها إن لم تكن صاحبة مصلحة فيها ، إن لم يكن هذا هو الجنون بعينه فماذا يكون الجنون ؟ ! لقد كان للفرع الليلة شرف إلقاء القبض على المجنون الخطر الذى لا يتوقف قط عن التشكيك ووضعه خلف الأسوار .

بدءوا يستمتعون جميعا بالطرائف التى كان نائب القائد يحكيها حول ردود أفعال السياسى العجوز الذى تجاوز السبعين ، وهم يفتشون منزله بطريقتهم الخاصة ، ثم وهم يقيدونه ، ثم وهم يعصبون عينيه ، ثم وهم يقودونه وهو يتعثر وينكفئ على وجهه أكثر من مرة ، والرجل يسأل بغباء وهو يتابع ما يجرى :

- ليه ؟

ونائب القائد يجيب برقة بالغة وكأنه يعزف مقطوعة موسيقية :

- من غير ليه .

حتى وصل نائب القائد إلى ذكر العبارة التى أخذ العجوز يرددها وهو فى طريقه لسيارة الإسعاف .

- يا ابنى أنا عملت لكم ايه ؟

وكان يلقيها بصوت حاول أن يقلد فيه نبرات الرجل ، صوت يمتزج فيه الضعف بالدهشة ، فاغرقوا جميعا فى ضحك عال . وسأل القائد وهو يسحب منديلا ورقيا ليجفف العرق الذى سال من كثرة الانفعال :

- وسلمته فى الإدارة ؟

فأجاب النائب وهو مغرق فى الضحك :

- واستقبلوه أحسن استقبال .

وحين لاحظ نظرة تساؤل فى عيون بعض الضباط أدرك أنهم لم يفهموا النكتة فتصنع الجد وهو يقول :

- لقد استقبله المدير بنفسه وقدم له القهوة .

ثم أضاف بعد لحظة ران فيها على الجميع صمت عميق :

- وأمر بوضعه فى غرف السيطرة .

فانفجروا فى ضحك صاخب متصل ، وأخذ قائدهم يصفق بيديه فى حماس بالغ وهو يجهد نفسه فى تخيل أى نوع من الأحداث سيشهده على شريط الفيديو الخاص خلال أيام .

نظر القائد إلى ساعته - بعد أن هدأت الضحكات - وقال لضباطه فى لهجة آمرة لا تخلو من حنو :

- أمامكم ست ساعات عليكم أن ترتاحوا فيها تماما فأمامنا الليلة عمل مكثف .

وأضاف وهم يهمون بمغادرة المكتب :

- وسنلتقى فى الثانية عشرة ظهرا .

دق جرس التليفون وقد أخذ الضباط فى الانصراف فنظر القائد إلى نائبه الذى أمسك بالسماعة وسأل :

- من يتكلم ؟

أجابه المتكلم :

- العميد حسن زكريا من الإدارة ، أريد العميد جميل .

مد النائب يده بالسماعة وهو يذكر اسم الطالب ، فأخذها المدير ووضع يده على المايك فلحق نائبه بباقى الضباط ، وبدأ محادثته :

- كويس أنك فاكرنا .

قاطعه بسرعة :

- لى العلاوة .

صاح العميد جميل فى التليفون بصوت مفعم بالدهشة :

- خيرا !

أضاف العميد حسن وكأنه لم يسمع شيئا :

- ابسط ياسيدى ، من قدك ، السلطات العليا كلفت المدير أن يحمل إليك تهانيها على نجاح عملية حمام .

رد العميد جميل وقد فوجئ :

- نحن ننفذ الأوامر .

استمر العميد حسن :

- بايضة لك فى القفص ، كانت العملية تتم متابعتها لحظة بلحظة على أعلى مستوى .

ثم أضاف بصوت خافت وكأنما يحمل إليه سرا لا ينبغى أن يعرفه أحد :

- كانت المستويات العليا تتابع العملية بنفسها ، ويبدو أنها معجبة تماما بالأسلوب الذى تم به تنفيذ العملية .

قاطعه جميل بثقة :

- بالفعل كان التنفيذ على مستوى التخطيط تماما .

ثم أضاف ضاحكا :

- المهم الآن أن يمسك العملية من يوثق بقدرته حتى لا تضيع جهودنا هباء .

عقب حسن زكريا :

- حتى الآن لم يتخذ قرار ، ومازال الوزير مجتمعا مع المدير .

سأله جميل :

- وماذا تتوقع أنت ؟

رد حسن بتحفظ :

- هناك اثنان فى الصورة .

ثم توقف فجأة ليضيف بطريقته المعهودة حين يريد أن ينهى حديثا :

- تليفونك سيدق خلال ثوان ، سأتصل بك فى وقت آخر ، تهانى يا زعيم .

عدل القائد عن العودة إلى منزله للراحة وقرر البقاء فى موقعه ، فمن الطبيعى إزاء هذه المتغيرات أن يكون الذى قام بتخطيط العملية والذى تم تنفيذها تحت إشرافه

المباشر موجودا حين يتم اتصال القيادات العليا به ، ومن واجبه تجاه نفسه أن يعطى الانطباع الصحيح عنه بأنه رجل العمليات الذى لا ينام .

✍ ✍ ✍

الفصل الرابع عشر
وضابط الإيقاع ... يرقص

برغم الإحساس بالسعادة الذى غمر الرائد عصام فى أثناء اجتماع الضباط بقائدهم والمتعة البالغة التي شعر بها وهو يستمع بشغف شديد إلى الطرائف التي كان يرويها العقيد محى بذكاء وخبرة ومقدرة ، فإن هذه المشاعر ما لبثت أن أخذت تنحسر بسرعة غير متوقعة ، فلم يكد يجلس أمام عجلة القيادة فى السيارة الملاكى التابعة للجهاز الخاص - والتى عدلوا عن تزويدها بسائق توفيرا للنفقات - حتى عاد إليه شئ من التوتر . هل نكأت المبالغة فى تقدير النجاح جرح الفشل الذى لما يندمل ؟ بدأت تراوده أفكار لم يتخيل حتى فى أسوأ حالاته أن تخطر بباله ، تسللت إليه حتى تمكنت منه ، وقاده التوتر من خلالها إلى الضيق ، وأسلمه الضيق مع إلحاحها إلى السخط ، وهكذا ما كاد يصل إلى المنزل الذى يقيم فيه فى المطرية حتى كان على يقين مطلق بأنه يعانى من ظلم حقيقى لا سبيل إلى تبريره بحال . فالقائد ليس منصفا فى توزيع أعباء العمليات ، لقد كان حريصا طوال فترة الاعتقالات على أن يدفع به وببعض زملائه إلى

مكامن الخطر ، حيث احتمالات المقاومة أمر مؤكد ، وتحملهم هذه الاحتمالات مرغمين على القيام ببعض التصرفات التي تشوب نظافة عملياتهم ، وماذا يتوقع ممن يخرجون لأداء الواجب وهم على يقين بأن منهم من لن يعود إلى موقعه مرة أخرى ويضرع كل منهم إلى الله ألا يكون هو ، أما الصفوة المختارة التي تحيط القائد بمجاملاتها وتتملقه بكلماتها فإنه يرسلها في عمليات هي بالنزهة أشبه ، لا خطر يحفها أو يقترب منها بحال ، وأي خطر يمكن أن تتعرض له قوة تذهب لاعتقال عجوز فضفض بكلمات أو فنان صاغ بسمة ساخرة بنكتة أطلقها أو صحفي كتب مقالا أغضب السلطات العليا .

« *إنهم جميعا لا يجيدون غير الكلمات ، أما نحن فيلقى بنا إلى حيث تلقى حتفنا بكل الوسائل ، بدءا من الطوب والجنازير والخناجر والسكاكين وانتهاء بالرشاشات والقنابل ، وهكذا يحقق المحظوظون نجاحا قلما يصادفه فشل ، ويسجلون بنجاحهم الدائم نقاط تفوّق تحسب لهم ، وتميزهم عنا نحن الذين نخاطر بأرواحنا* » .

وهكذا حين فتح باب الشقة الصغيرة التي يقيم فيها مع حماته كان السخط قد تمكن منه إلى الدرجة التي لم يستطع فيها أن يسمع تحية الصباح التي استقبلته بها زوجته وهي نصف مغمضة في الفراش بعد أن أيقظتها حركته وهو يغير ملابسه ، ضبط المنبه واستلقى على الفراش ولكنه لم يحس باسترخاء ، فقد بدأ الصداع يعاوده ، وأخذ يشتد ويتزايد حتى أوشك على أن يتأوه بصوت عال ، وحين أزاحت زوجته بساقها الغطاء ومدت يدها لتغطي بالكمبليزون فخذيها العاريتين نظرت إليه فألفته يغمض عينيه ويضغط بجمع يده على العروق النافرة في الجانب الأيمن من الجبهة ، مدت يدها ولمست يده برفق وهي تسأله بحنان :

- أجهز لك الفطار ؟

فرد دون أن يفتح عينيه ، ربما من الألم :

- لا ، ولكن أعطني قرص فاليوم .

شهقت مستنكرة :

– من غير أكل ؟

فأجاب وقد أحس أن الألم يعصف به :

– سأحاول أن أستريح بضع ساعات ، فإذا نمت فعليك أن توقظينى عندما يدق جرس المنبه مهما كانت الظروف .

لبت طلبه صامتة ثم جلست إلى جواره من غير أن تلتصق به ، ووضعت كفها الدافئة برفق مرة أخرى على جبهته فلم تحس بحرارة غير عادية ، ظلت برهة كذلك رجحت فيها أن المسألة لا تعدو إجهادا عاديا ، ومع ذلك آثرت أن تترك له القرار فسألته :

– تحب أن أغيب عن المدرسة اليوم ؟

أدرك – برغم ما هو فيه – أنها كعادتها تريد أن تحمله مسئولية الغياب ، حتى يلتزم بعد ذلك – بوسائله الخاصة – أن يرفعه من الوثائق والدفاتر الرسمية . تمتم بصوت لا يخلو من إجهاد يدركه القلب وإن لم تحسه الأذن :

– ستغيبين فى المدرسة ؟

فردت وكأنها تأسف :

– كالعادة ، رسميا لا خروج قبل الثانية .

صمت ولم ينبس ، فأضافت وكأنها تغريه :

– لكنك لو حضرت قبل ذلك ربما أمكن الخروج .

شرع يعدل وضع المخدة بحيث ينام على نصفها محررا نصفها الآخر ليضعه فوق رأسه كعادته حين يكون مأزوما ، وقال وهو يستلقى مرة أخرى والمخدة فوق رأسه :

– لن أستطيع الحضور ولا داعى للغياب .

فأخذت تخرج من الدولاب ملابس الخروج لتأخذها معها وهى تغادر الغرفة حتى

لا تزعجه بالحضور وهو نائم ، فاستدرك :

- بلغى الحاجّة أن توقظنى إذا نمت .

سحبت خلفها الباب برفق دون أن تغلقه تماما ، وألقت بملابس خروجها على كرسى فى الصالة إلى جوار الكنبة فى مواجهة التليفزيون ، وذهبت - من فورها - إلى حجرة أمها وكأنما أصابها شئ من الغضب .

قالت لأمها فور دخولها حجرتها وحتى قبل أن تلقى عليها تحية الصباح :

- تصورى يا ماما لا يوافق أن أغيب ولا يريد فى نفس الوقت أن يحضر ليأخذنى من المدرسة .

نظرت إليها بإمعان وقالت بتؤدة :

- قولى صباح الخير الأول .

فتمتمت ابنتها آسفة واستدركت كأنما تبرر :

- آسفة يا ماما ، اعذرينى ، لقد تغير كثيرا .

فعقبت أمها بثقة :

- هو الآخر معذور ؟ كان الله فى عونه ، يعمل ليلا ونهارا .

فقاطعتها ابنتها بشئ من الحدة :

- وكان من قبل يعمل فى نفس العمل ، ولكنه كان حريصا على راحتى ، أما الآن .

صمتت الأم ولم تعقب ، وتركت ابنتها تنفس عن نفسها ، كانت تدرك أن ثمة شحنة تتأجج فى نفس ابنتها ، وكانت - بخبرتها - على يقين من أن التنفيس عنها سيخلصها منها ، فتعود الأمور بين ابنتها وابن أختها طبيعية .

استمرت ابنتها تشكو سلوكه معها فى الأيام الأخيرة ، وتستدل على ذلك بصور من تقصيره تسردها بالتفصيل مع أن كثيرا منها قد سبق لها أن ذكرته لأمها من قبل

مرات وأمها تصغى دون اهتمام ، أو هي في الحقيقة تتابع دون إصغاء ، وتحاول - في نفس الوقت - أن تجد وسيلة لإقناع ابنتها بالحقيقة البديهية المعروفة منذ الأزل ، وهي أن من الطبيعي أن تفتر مشاعر المحبين ، وبخاصة حين يتزوجون ، إن التوله والوجد الذي كان بين عصام وابنة خالته عفاف قد انتهى بالفعل إلى نهايته الطبيعية ، وهي الزواج ، وعليها أن تدرك أن الزواج بدوره سينتهي إلى شكله الطبيعي وهو العشرة والألفة والحياة المشتركة بحلوها ومرها . أدركت ابنتها أن أذن أمها هي التي تسمع لكن عقلها لا يتابع ، فانصرفت مغضبة من جديد إلى الحمام ، ثم عادت بعد أن غيرت ملابسها لتأخذ زينتها أمام تسريحة أمها ، وما لبث أن غلبها الغيظ فقالت بحنق :

- هذا هو الفالح فيه ، يعمل فارس ويشيل الشغل على دماغه ويرجع يرقد من التعب كأنه فسيخة .

هزت العبارات القاسية الأم فقالت بحزم :

- لا داعي لمثل هذا الكلام ، أنت تعرفين أن زوجك لم يقصر فلا مبرر لكي تجرحيه ..

ولكن الزوجة الشابة لم تستجب للنصح ، بل استمرت في اللوم وكأنها تغيظ أمها ، لقد عاشت أياما متلألئة بالسعادة فلا عذر لزوجها حين يحيل أيامها هذه إلى خواء .

* * *

دق جرس المنبه فمد يده - دون أن يشعر - وتحسسه حتى أغلقه ، لكن حماته سرعان ما أقبلت تدق عليه باب الحجرة دقات متلاحقة مرتفعة ، ولم تكتف بذلك بل أتبعتها بنداءات متعاقبة ملحة :

- اصح يا عصام ، اصح يابني ، قم وراءك شغل .

اضطر كارها أن يجيبها وهو يتهيأ للجلوس في فراشه حتى تتوقف بعد أن تدرك أنه استيقظ : « *وهل كان نائما حتى يستيقظ ، إنه منذ ألقى بنفسه إلى الفراش وهو في مرحلة لا يدري لها وصفا : عينان مغمضتان ومع ذلك*

ترياں أشياء كثيرة فى نور شديد السطوع ولعله لذلك يخفى التفاصيل ويضفى عليها ضبابا هو بالظلمة أشبه ، واذنان نصف واعيتين تسمعان لغطا يتداخل فيه الهمس والصراخ دون أن يعرف لأى منهما موضوعا أو سببا ، وشعور غريب وكأنه مخدر ، لكنه مع ذلك يلمس ويحس ويدرك ، إن فى أعماقه ألما لا يدرى كنهه أو باعثه ، وعقل نصف غائب وبرغم ذلك يرى أحداث الماضى التى يعيشها تعود مرة أخرى لتحدث لشخص يراه ويكاد يلمس جسده ويحس بحرارته ، أهو هو ، أهو شخص آخر ؟ ، كيف يعود ما كان على نحو ما كان ؟ ، إنه يرقب الأشياء بألفة مندهشة ويهم أن ينادى الآخر ولكنه سرعان ما يفقد أثره ، إذ يتلاشى فى ضباب يتكاثف ويتكاثف ، فإذا هو ظلمات بعضها فوق بعض ، تظل تنداح وتنداح حتى تعم كل شئ حتى إذا ضمته فى رحابها أخذت من جديد تتركز وتتبلور فتصبح أكثر حلكة وأشد قسوة حتى يتمنى أن لم يكن قد وجد قط ، وما يكاد يخطر بقلبه هذا التمنى حتى تنفجر الظلمة أشلاء مبعثرة ، يحس بها تتطاير فى كل اتجاه ويكاد يلمس شظاياها القادرة على اختراقه وهى توشك أن تصيبه فى كل لحظة ، ويملأه الخوف رعبا وينكمش ويضمحل ويتمنى أن يتلاشى ولكنه لا يتلاشى ، إنه يعانى منها برغم يقينه من أنها لن تضره ، لم كل هذا الرعب وهو يعلم طبيعتها؟ ولكنها ما تلبث أن تتحول فتضحى أحداثا ستقع يراها تقع ويحس إحساس من يعرف ما ستصير إليه ولا يملك له دفعا ، فالعجز يشل الإرادة والرعب يعقل حتى الرغبة فى الخلاص » .

قالت حماته تستنهضه :

– كفاية يا ابنى نوم ، وحتى تتشطف وترتدى ملابسك سأجهز لك

الفطور .

* * *

أمسك وهو واقف أمام المنضدة المكسورة البنورة بيضة مسلوقة فقضم منها قضمة سرعان ما ألحق بها بقية البيضة ولما يبلعها ، فالتصق صفار البيضة بحلقه وحاول أن يلوكه فلم يفلح ، أوشك أن يطلب ماء ولكن عدل قبل أن يفتح فمه ومد يده إلى الخبز فقطع قطعة صغيرة منه أخذ يمضغها ببطء علها تزيل ما التصق بحلقه ، ثم نهض ليحضر دورق المياه من الثلاجة فتمتمت حماته حين رأته وهو يرفع الدورق إلى فمه مباشرة وكأنما تعتذر عن نسيانها :

- لا مؤاخذة يا ابني ، سهى علي .

هز رأسه دون أن ينطق فقد كان فمه مملوءا ، وخطر بباله أن حماته لابد أن تردف اعتذارها بنصيحتها المألوفة منذ أقام عندها بعد الزواج بضرورة الأكل على مهل ، ولكنها لم تفعل ، هل أحست بأنه ليس على استعداد لسماع نصائح ، أقبلت وجلست قبالة المائدة بعد أن وضعت أمامه كوب الشاي الذي صنعته له ، وأخذت تتأمله من غير أن يشعر متظاهرة بالنظر إلى النافذة المطلة على مسقط النور ، والتي تحمل خليطا من الروائح مما يعده الجيران للطعام ممتزجا بالروائح الناتجة عن ما تراكم في مسقط النور من قاذورات وما تسرب عن شبكة الصرف المتهرئة في المبنى من مياه ، بدا وهو يتناول طعامه كأنما كبر سنوات *« أهذا الذي في فوديه شعرات بيض أم انعكاس للضوء المتسرب من النافذة »* ، نهضت وسارت إلى النافذة وأغلقتها من غير أن تسأله رأيه ، وقالت ، وكأنما تبرر :

- الرائحة زادت في المنور .

ولما لم تسمع تعقيبه أضافت :

- حاول أن تكلم صاحب البيت .

لم يجبها فصمتت ، وأخذت تتأمله من جديد ، أين نضارة وجهه الوسيم التي كانت

تشع صحة وفتوة وبهاء ، كيف تتحول السمرة المشرقة إلى شئ لا لون له ، أقرب إلى الصفرة الداكنة ، أيمكن أن يكون ذلك نتاج الإجهاد فى العمل أم أن ثمة أسبابا أخرى كما توحى ابنتها ، سألته محاولة أن تستدرجه لحديث عقدت العزم عليه :

- ستعود على الغداء .

فرد باقتضاب :

- لا أظن .

عقبت وكأنها توصيه :

- ارحم نفسك يا ابنى ، الدنيا لن تطير .

أوشك أن يرد : « كل شئ يطير يا خالتى وأنت لا تعرفين ، أنت عجوز طيبة لا تحس بما يجرى فوفرى نصائحك » ولكنه ابتلع الكلمات ، فقد كان على يقين من أن أى نقاش سيبدأ الآن سيفسد عليه يومه ، وأمسك بكوب الشاى وأخذ يرشف منه رشفات سريعة متلاحقة . فواصلت وقد رأت انصرافه عنها :

- إذا لم تحضر على الغداء فارجو ألا تتأخر مساء لأنى أريدك فى موضوع .

فسألها بتلقائية :

- أى موضوع ؟

واستدرك وكأنما خشى أن تجيب ، فقد كان على يقين مما تفكر فيه ، فأضاف بحزم وهو ينهض واضعا كوب الشاى الفارغ :

- فيما بعد يا خالتى ، فيما بعد ، حين ننتهى مما نحن فيه .

ومضى خارجا من غير أن يستمع إلى تعقيبها جاذبا خلفه باب الشقة بعنف غير مقصود ، إنه يوشك أن يكون متأكدا مما يشغل حماته وزوجته ، إنهما تحرصان منذ فترة على التلميح بأن ثمة تغييرا أصابه ، وهما مشغولتان بتحليل ظواهره وأسبابه ،

وذلك نجاح يحسب له وعليه أن يهنئ نفسه به ، فقد استطاع أن يبعدهما عن التفكير فى الموضوع القديم الذى أرهقه نفسيا وأوشك أن يحمله فى فترة من الفترات على فسخ خطوبته بعفاف برغم كل ما كان بينهما ، ولكنها لم تعلم ، وليس لها أن تعلم ، أنه غير قادر على الإنجاب ، ولذلك حين تساءلت أمها بُعَيد الزواج بفترة قصيرة عن أحوالهما لم يشأ أن يعطى أهمية للموضوع ، مؤثرا التصريح بأنه يريد فى تلك الفترة زوجته كما هى ، مانيكان فاتنة القوام بدلا من السيدة المبعجرة التى يخلقها الحمل بما يحمله من اضطراب فى التضاريس الجسدية ، وبدا كلامه أيامها مقنعا فقد كان صادرا عن وله العاشق ، فملأ زوجته رضا ونشوة ، واضطرت الأم إلى التزام الصمت . ولما أوشك الموقف أن يتغير بعد أن تطلعت الزوجة نفسها إلى أن يكون لها طفل وضبطها غير مرة وقد أهملت حبوب منع الحمل لم يجد بدا من أن يبدأ سياسة أخرى ، لن تصلا بالتأكيد إلى أسبابها الحقيقية ، وأقصى ما ستصل إليه إحداهما أو كلتاهما أن الشغل قد أخذه تماما ، وأنه - مع الانهماك فى العمل - نسى رغباته الجسدية أو يكاد ، ولكن أنى له أن ينسى ، إنه يضطرم وهو بعيد عنها رغبة ، أين هذه الرغبة الحارقة حين يكون معها فى الفراش ، كيف تتحول إلى لمسات تغرقه فى بحر من العرق والقلق والقرف وتفرض عليه أن يفتعل شيئا ينقذه مما هو فيه فى نفس اللحظة التى تتوهج فيها فى أعماقه عربدة طاغية يود معها أن لو يتخلل بكيانه كيانها ، أى شيطان يتحكم فى قدرته ورغبته ، فيسحق قدرته سحقا لا أمل معه ، ويضاعف رغبته أضعافا .

- أنت أعمى ؟ !

اخترقت الصيحة العنيفة أذنيه فهمّ أن يوقف السيارة وقد اشتعل بالغضب ، والتفت إلى المرآة الجانبية ليتخير مكانا يقف فيه فوجد فتاة تشير إلى السيارة وهى تنفض - دون جدوى - آثار مياه بللت فستانها كله ، فقد فاته فى غمرة تفكيره أن يهدئ السرعة وهو يخوض مياه المجارى المتجمعة ومضى بسرعته العادية فأغرق الفتاة ، خطر بباله بعد أن تبين فى لمحة الموقف أن يتوقف ليعتذر ، ولكنه عدل بعد أن رأي الناس يتجمعون فزاد البنزين لينطلق فى نفس اللحظة التى رفع فيها طفل على الجانب الآخر

من الرصيف حجرا من الطريق وسدده بقوة إلى الزجاج الخلفى ، اخترق الحجر الزجاج ومضى فى رحلته داخل السيارة حتى سقط فوق الكرسى الأمامى المجاور له ، وانتشرت الشظايا فى كل مكان داخل صالون السيارة ، وأحس - بعد لحظات من المفاجأة - بأن إصابةً ما لحقته ، فطافت يده اليسرى حول رأسه وعنقه ولما أعادها ليعيد التحكم فى عجلة القيادة بعد أن قرر الوقوف للمواجهة كان قد أدرك أن به أكثر من إصابة ، وأن بعض الشظايا قد استقرت فى مؤخرة رأسه .

ما كاد يقف ويفتح الباب حتى كان الطفل قد طار ليدخل فى شارع جانبى فصاح بالمارة وهو ينزل من السيارة يحثهم على اللحاق به :

- امسكوه ، امسك الولد .

لكنهم اكتفوا بالنظرات ولم يتابعه أحد ، فعدل عن متابعة الولد ساخطا وتوجه إلى الجماعة التى تحلقت حول الفتاة التى كانت السبب فى كل ما جرى ، وصاح قبل أن يصل إليها :

- أنت المسئولة .

لعلع صوت الفتاة صارخا مصحوبا بأصوات كثيرة متداخلة تعترض وتوبخ ، وما لبث أن شده بعضهم من ذراعه ودفعه آخرون فى صدره ليجذبوا انتباهه وهم يكلمونه ، وأحس بحرج موقفه فاضطر أن يعلن عن نفسه بلهجة آمرة :

- اخرس انت وهو . أنا ضابط شرطة ولابد من إثبات الحالة .

وكأنما كان تعريفه بنفسه مفتاحا سحريا ، فقد تطامنت الصيحات حتى غدت أشبه بهمهمات ، واتسع الفراغ فى الدائرة رويدا رويدا بانسحاب بعض الرجال والنسوة ، وتحولت العبارات الحادة إلى الملاينة والاستعطاف ، وتقبلت أذنه عبارات مثل : المسامح كريم ، يسترها معك ، ذنبها إيه ، فأدرك بخبرته أن الأزمة قد انفرجت وأن عليه أن يصل إلى هدفه مباشرة ، فأمسك بمعصم الفتاة بقوة وقال وهو يكاد يجرها جرا :

- **سأذهب إلى القسم لإثبات الحالة .**

وأضاف بعد لحظة حتى يقطع أى محاولة للاعتراض .

- **من يريد أن يذهب معى إلى القسم فليتفضل .**

أفسحت البقية الباقية من المتجمعين له الطريق ، وعقب شيخ طاعن وكأنما يعتصر خبرته فى نصيحة :

- **كل حى يشوف شغله .**

أيقنت الفتاة أنها قد أسلمت ، فلم تقاوم ، وقالت وهى تبكى بكاء مرا :

- **والنبى يا بك ما لى دعوة .**

فدفعها دون تعقيب لتجلس إلى جواره فى المقعد الأمامى بعد أن لاحظ أن المقعد الخلفى يستحيل عليه الجلوس بما يعلوه من شظايا . ظلت الفتاة تبكى بحرقة وصوت نشيجها يعلو ، ولكنه لم يعبأ ومضى فى طريقه ، وما لبثت الفتاة أن هدأت وإن كانت الدموع لم تتوقف . وحانت منه التفاته سريعة أغرته بغيرها ، فأعاد النظر إليها مرة بعد مرة ، بروفيل وجهها يتسم بجمال غير مألوف ، ذقنها الدقيق يعلو رقبة طويلة خالية من الحلى ولكنها فى ذاتها توشك أن تكون تحفة حقيقية من عاج لو دبت فيه حياة ولونته بأطياف الشروق ، جانبا شفتيها الرقيقتين محددان بدقة ويتركان بينهما انفراجة صغيرة لعلها آهة خرساء ، وأنف مستقيم كسيف يوشك أن ينقض ، وخد أشاع الانفعال فيه حمرة غضب مغلفة بدموع القهر . لاحظت الفتاة بعد فترة أنه برغم تركيزه على الطريق يتأملها ، فسارعت إلى تجفيف دموعها بأطراف أصابعها ولما لم تفلح لجأت إلى كلوة يدها ، فأشار صامتا إلى علبة المناديل الورقية فوق تابلوه السيارة ولكنها لم تمد إليها يدا ، فقال بصوت زايله الغضب :

- **خذى بعضها وجففى دموعك .**

فتمتمت بصوت خفيض لم يسمع ، لعلها تشكره ، أهذا الصوت الرقيق الوجل صادر عن نفس الحنجرة التى كانت تطلق الصرخات المدوية المصحوبة بمختارات من

الشتائم المقززة . قالت وقد شجعتها مبادرته ، ولعلها أنست فيه جانبا إنسانيا يمكن مخاطبته :

- يابن عليك طيب يابك وابن حلال .

أغراها صمته فواصلت :

- أنا ذنبي إيه يا بيه .

بدلا من أن يجيبها سألها :

- ما اسمك ؟

صمتت لحظة فارتفع صوته مكررا السؤال ، فأجابت بتردد :

- نرمين ، نرمين فؤاد مينا .

« دعك من التردد فلن يعفيك من الإجابة عن كل ما يخطر ببالك وما لا يخطر ، كيف تصبح فتاة فى حدود العشرين بهذه المقدرة على ان تثير فى الطريق العام هذا الحشد من الناس وتوشك أن تقوده بسلاطة لسانها وجرأة كلماتها وانعدام الحياء فى سلوكها إلى نوع من الانفجار غير المحسوب . أليس ذلك مؤشرا على أن لديها خبرة غير عادية فى التعامل مع الشارع ، من تعرف منه ومن لا تعرف ، أليس معنى ذلك أنها تنتمى بخبراتها إلى قاع المدينة الذى يتلقى قاذوراتها ويخلصها من إفرازاتها ، لكن كيف ؟ كيف لهذا الجسد الصغير البرئ من الإثارة والوجه الجميل الخالى من الأصباغ أن يحصل خبرة لا تتحقق إلا بالتعامل مع أناس شتى ، ومستويات متعددة ، فى ظروف متناقضة ، هل يصل التضارب بين ظاهر الإنسان وباطنه إلى هذه الدرجة - أى خطأ ، بل أى جريمة يمكن أن يقع فيها الإنسان إذا خدعه ما يرى من مظاهر » .

ألقى نظرة سريعة إلى ساعة السيارة ثم قارنها تلقائيا بساعة يده فاكتشف برغم

الفارق المحدود بينهما أن الوقت يمضى بسرعة غير متوقعة ، لقد ضاع منه حتى الآن نصف ساعة وسيضيع منه على الأقل ساعة أخرى لو ذهب إلى القسم فالمستشفى كما فكر فى أول الأمر ، ها هى فترة طويلة تضيع دون أن تكون فى الحسبان ، وهو لا يجب أن يتأخر عن عمله ولا يطيق أن يحضر اجتماعا من غير إعداد تمهيدى كاف للموضوعات المحتمل إثارتها فيه ، ثم إن لديه عددا من الرهائن التى تتطلب متابعته ، وإذا كان من الممكن تأجيل مباشرة رهائن اليومين الماضيين حتى يتم إعدادهم جسديا فإن عنده رهينتين تم إعدادهما لاستخلاص المعلومات منذ أيام وينبغى أن يكون ذلك بإشرافه حتى لا ينسب ما يتحقق من نتائج إلى غيره *« اللعنة على كل شئ ، لا مفر من الذهاب إلى فرع العمليات فى مدينة نصر مباشرة وهناك يمكن استشارة الطبيب المقيم كما يمكن إرسال الفتاة إلى القسم »* .

* * *

أشار بإصبعه وهو يأخذ طريقه ليركن السيارة فى مكانها المعهود تحت المظلة إلى أحد الرجال المنتشرين حول المبنى ، فسار بالخطوة السريعة حتى إنه وصل إلى موقع السيارة ولما ينزل الرائد عصام ، وقدم الرجل تحية عسكرية صارمة وهو يصيح :

- **تمام يا فندم .**

فأمره الرائد عصام بإبقاء البنت تحت التحفظ فى قاعة الانتظار قائلا :

- **سأرسل من يصحبها إلى القسم .**

وما كاد يخطو خطوتين حتى سمع البنت تصيح فى الرجل :

- **سيبنى ، لا تضع يدك على .**

فالتفت ليجده يحكم قبضته على أعلى ذراعها ، فنظر إليه بحدة ، فاضطر الرجل أن يفلت ذراعها وأن يستعيض عنه بساعدها . واصل الرائد عصام طريقه إلى مكتبه ، وتلقى وهو يمضى بخطوات متئدة على غير العادة تحيات الأفراد والضباط الذين صادفهم فى طريقه ، وأحس بعضهم أنه ليس فى حالة طبيعية ، فردود أفعاله غير

عادية ، وسرعان ما انتشر خبر ما أصاب سيارته فبادر الجميع إلى الحضور للاطمئنان عليه ، وهكذا استقبل مكتبه وفودا من زملائه وأصدقائه ورجاله ، واضطر أن يحكى ما حدث مرة بعد مرة ، ووجد نفسه وهو يحكى القصة لأول مرة أنه فى حاجة إلى تبرير فركز على الاستفزاز الناتج عن انفعال البنت وكلماتها البذيئة وتجمع المارة واستثارتهم ، ولكن بعض زملائه أضاف إلى ذلك – بعد استعادة التفاصيل – ضرورة وجود علاقة ما بين البنت والولد المجهول الذى حطم زجاج السيارة ، وبدأت الأسئلة ترسم صورة جديدة لما وقع دون حاجة إلى إجابة ما : هل كان الولد صغيرا حقا ؟ ربما كان كبيرا ولكن صغير الحجم ، بالتأكيد أنت لم تتأمله جيدا وربما كان حكمك بصغره غير دقيق ، شخص يستطيع أن يحقق هذه النتيجة لا يمكن أن يكون طفلا ، ليست المسألة كسر الزجاج المسألة الاعتداء على ضابط ، هل الموضوع كله مدبر ؟ هل يمكن أن يكون صراخ البنت مجرد كمين استدرجت إليه ؟ . وهكذا حين انتهوا من الاطمئنان عليه بعد أن فحصه الطبيب المقيم فى الإدارة – فى مكتبه وهم حوله – واستخرج من رأسه ثلاث شظيات زجاجية ، وطهر أماكنها وألصق عليها بلاستر ، كان قد استقر فى وجدان الجميع أن المسألة ليست بالبساطة التى كانت تبدو بها ، وأن وراءها – بالقطع – محاولة اعتداء مدبر لولا أن الله سلم .

ولما أبلغ عصام زملاءه أنه يحتفظ بالبنت فى قاعة الانتظار وفى نيته إرسالها إلى القسم لإجراء اللازم ارتفع أكثر من صوت معترضا ، وتبلورت المناقشة عن ضرورة تأجيل إحالة الفتاة إلى القسم وإجراء التحقيقات الأولية معها فى الإدارة لاستكشاف الدوافع الحقيقية لما حدث ، ولما أبدى الرائد عصام عدم اقتناعه بتدخل الإدارة فى الأمر رد عليه الرائد مؤنس بطريقته الودود حتى يحسم المناقشة ، موجها كلامه إلى العقيد محى :

– بعد إذن سعادتك يا فندم ، أرجو أن أقوم بهذه العملية .

ولما صمت العقيد محى لم ينتظر مؤنس رده ، بل دق الجرس واستدعى أحد

مساعديه وأمره :

- خذ البنت التى أحضروها معهم بك من قاعة الانتظار وسلمها فى الوارد .

هز العقيد مجى رأسه موافقا ، وهو يصافح عصام فى طريقه إلى الخروج من مكتبه :

- سأقوم أيضا بإبلاغ سيادة العميد ، فالمسألة كما رأيتم ذات بُعد خطير .

وهكذا حين حضر الضباط اجتماع الظهيرة مع قائدهم لتوزيع أعباء العمليات الجديدة لم يفاجئهم قرار القائد بمناقشة الموضوع فى بداية الاجتماع ، فقد استقر فى أذهانهم أن ما حدث يحتاج إلى تحليل دقيق وأن احتمال كونه صدفة قليل ، استمع القائد باهتمامه المعهود إلى آراء ضباطه ، وناقشهم فى تصوراتهم ، وبفضل ما امتاز به من ذكاء فى ربط الجزئيات وتحليل دلالاتها تمكن من أن يضع أيديهم على الخطر الحقيقى فى الموضوع الذى أطلق عليه عبارة : « عملية الشارع المفتوح » ، ولم يكن الخطر كامنا فى أن العملية مقصودة ، أو أن البنت على اتصال بالولد ، فسواء كانت عملية مقصودة أو غير مقصودة فقد اكتشف الناس فى الشارع تكتيكا جديدا تم استخدامه بالفعل ضد أحد ضباط العمليات الخاصة ، وهو تكتيك بالغ الخطر ولا مجال مطلقا للتهوين من شأنه ، فسينتشر خبره - إن لم يكن قد انتشر بالفعل - خلال ساعات قلائل ، وسيغرى الكثيرين بالتفكير فيه ، وسيحمل كثيرون ممن يفكرون فيه على تجربته لما يتميز به من سهولة ويسر ، فهو لا يعتمد على حشد سلاح نارى يمكن ضبطه فى أى لحظة ، ويحتاج استعماله إلى تدريب طويل بدونه يصبح عديم التأثير ، ولكنه - على العكس من ذلك - عمل عظيم الفاعلية وهو لهذا شديد الإغراء ، وهل يمكن إخلاء الشوارع من الطوب والحجارة ، أو حظرها على الأطفال والصبية ، إن خطرا حقيقيا قد أطل برأسه ولابد من مواجهته بحسم حتى يمكن ردع كل من يفكر فيه ، وبغير ذلك قد

تحدث مضاعفات لا يعلم مداها إلا الله .

قال القائد منهيا مناقشة الموضوع بعد أن اتضحت جوانبه :

- لا مفر من قطع الطريق أمام كل من يفكر فى أن من الممكن العدوان على رجل القانون والإفلات من العقاب ، ولهذا فإننى فى الوقت الذى سأتصل فيه بمأمور القسم لتجنيد جميع إمكانياته للبحث عن الولد المعتدى ، سأطلب الإذن من القيادة للقيام بحملة تأديبية فى المنطقة تكون قادرة على الردع ليس فيها وحدها وإنما فى مصر كلها .

كانت معنويات القائد برغم حديثه عن الأخطار المتوقعة مرتفعة ، وصوته يحمل نبرة الاعتزاز بالنفس والثقة فى حسن تقديره للأمور ، لقد كانت تدوى فى أذنيه كلمات الإطراء التى ظل يسمعها طوال فترة الصباح من قياداته كلها ، بدءا من القيادة العليا حتى رئيسه المباشر ، وهى كلمات تدل على أنه دخل بمقدرة حيز الثقة فصار له الحق فى اتخاذ القرارات التى يراها ملائمة للمواقف المتغيرة حتى من غير أن يأخذ إذنا خاصا بها ، وكان حريصا على التأكد من هذه الحقيقة بممارسته لها ، ولذلك بادر فى الاجتماع بإعلان نواياه دون انتظار لفرض الأمر على قيادته ، ولم يكتف بذلك بل إنه شكل من بين الضباط المجتمعين « فريق عمل » لوضع الخطط اللازمة للعملية التأديبية ، فقد كان على يقين تام بأنه سيفوض فى معالجة الموقف ، وأراد أن يثبت من جديد بسرعته ودقته ومبادرته للعمل أنه رجل المهام الصعبة . ولذلك حين طلب من العقيد محى أن ينوب عنه فى قيادة الاجتماع لتوزيع التكليفات على الضباط لم ينس أن يضيف :

- فى حدود التوجيهات التى رسمتها للعمليات .

كما لم ينس أن يستبقى كذلك فريق العمل الخاص بالحملة المقترحة ليعطيهم توجيهاته أيضا بشأن الأهداف التى يراها للعملية وإطارها العام .

✍ ✍ ✍

الفصل الخامس عشر
وأنغام الغزل الأبدية ...
هل تصدح ؟

تذكر العميد جميل وهو يغادر مبنى الفرع متجها إلى الإدارة فى الوزارة أنه نسى أمرا مهما ، فأوقف السيارة بعد أن تحركت وعاد أدراجه مرة أخرى ، ولكنه لم يذهب إلى مكتبه كما توقع حارسه الخاص الذى يتبعه ، وإنما توجه مباشرة إلى مكاتب الضباط ، ودخل مكتب الرائد عصام الذى كان جالسا وسط مجموعة من زملائه يناقشون التكليفات الجديدة ، وما أن لمح الضباط قائدهم حتى قفزوا مندهشين وأدوا التحية العسكرية ، فرد الرجل تحيتهم وهو يبتسم ، وقال :

- **نسيت أن أبلغك ياعصام أن عليك أن تذهب إلى المستشفى لعمل أشعة .**

رد عصام شاكرا وقد غمرته المبادرة بشئ من الاضطراب ، وأضاف :

- **أظن يافندم أنه لاحاجة للأشعة لأن الجروح سطحية .**

فقال القائد بحسم :

- لابد من الأشعة حتى نطمئن .

استفسر عصام وكأنه يعتذر :

- والعمليات الجديدة .

فرد قائده :

- يمكن إعفاؤك منها .

وأمر حارسه الخاص باستدعاء العقيد محيى ، وبادره فور رؤيته له حتى قبل أن يدخل الحجرة بقوله :

- أعف عصام من العمليات طول فترة وجوده فى المستشفى .

رد العقيد وهو يؤدى التحية :

- تمام يافندم .

وبينما حدق عصام فى قائده مندهشا كان القائد يتابع - موجها كلامه إليه :

- يجب أن ترتاح بضعة أيام .

ومضى القائد من جديد بخطواته الواثقة إلى سيارته وقد غزاه إحساس عميق بالرضى لما رأى وما سمع ، فقد غمر وجه عصام الدهشة ممزوجة بالامتنان ، وتسللت إلى أذنيه برغم مضيه متباعدا بعض العبارات التى عقب بها الضباط تقديرا لموقفه الإنسانى وحرصه على رجاله *« الآن سيدركون جميعا أنهم أبناء ، بهم يعتز وعليهم يحرص ، وستتكفل هذه المبادرة بتبديد بعض الغيوم التى خيمت على العلاقة بينهم ، صحيح أنها نتاج طبيعى لكثرة العمل وازدياد المخاطر ، ولكن حان الوقت لكى يدركوا أنه حين يدفعهم إلى العمل فإنه يقدر كل التقدير جهودهم ، ولايستهين مطلقا بما يتعرضون له من متاعب »* . وتمتم القائد وهو يأخذ مكانه فى السيارة :

- هيه ، رب ضارة نافعة .

وانطلق وقد تسلطت على ذهنه طوال رحلته من مدينة نصر إلى الوزارة فكرة العملية التى اعتزم القيام بها ، وبالرغم من معرفته بأنه فى طريقه إلى قيادته ليحصل على الموافقة عليها فقد كان موقنا بأنها ستتم دون عقبات تذكر ، أو يجب أن تكون كذلك ، ولذلك تابع باهتمام غير معهود تنظيم الشوارع وحجم الحركة فيها ، وعنى عناية خاصة بتتبع كثافة الأفراد فى المناطق التى مر بها ، ولما انحشرت سيارته ضمن أفواج السيارات المكدسة العاجزة عن التحرك فى الأزهر وباب الخلق واضطر أن يقطع مسافة لاتتجاوز بضع مئات من الأمتار فى نحو خمسين دقيقة قبل أن ينفذ إلى حسن الأكبر وعابدين أحس بضيق حقيقى لأن العملية ينبغى أن تتم فى منطقة شعبية مماثلة ، حيث الكثافة السكانية خطر محقق ، وضيق الشوارع وكثرة تفرعاتها إلى حارات وأزقة خطر آخر ، وقرر أن يتابع بنفسه بعد عودته وضع الخطة ولايكتفى بما أعطاه لفريق العمل من توجيهات ، لأن اجتماع الخطرين معا يقتضى دقة بالغة فى التخطيط وفى التنفيذ جميعا حتى لاتتعرض القوات لخطر التسرب وتستدرج إلى الانتشار فى مناطق تتعذر السيطرة عليها بقوات محدودة العدد كقواته ، فإن حجم القوة المتاحة يفرض بالضرورة حجم العمل الممكن القيام به ، ولو استطاع أن يحقق حجما أكبر لحقق أهداف العملية بشكل أفضل ، ولكن طلب قوات جديدة من الاحتياطى المركزى سيعنى لدى قيادته ضخامة حجم العملية الأمر الذى يحمل خطر رفضها ، وهكذا فى اللحظة التى كانت سيارته تدخل باب الوزارة الجانبى كان ذهنه مشغولا تماما بما بدا له أنه معادلة يصعب حلها .

- بالأحضان ياباشا ، بالأحضان .

أسعده الاستقبال الحار الذى قابله به مدير مكتب قائد العمليات المركزية ، فقد كانت هذه إحدى المرات النادرة التى يلقى فيها استقبالا مشجعا على هذه الصورة ، وبرغم أنه يفوق مدير مكتب المدير أقدمية ويتجاوزه رتبة فقد أحس بالرضا وهو يقبله فى وجنتيه ويضمه إلى صدره وكأنهما صديقان قديمان لم يلتقيا زمنا طويلا . فقد استشعر

من هذه الحفاوة رضا قائده المباشر ، فمديرو المكاتب عادة بالإضافة إلى أنهم المفاتيح الحقيقية لمن يعملون معه فإنهم الواجهات التى تنعكس من خلالها علاقاتهم وتصور بدقة مشاعرهم ، ورضا قائده المباشر مؤشر لتصاعد أسهمه لدى المستويات العليا ، وهكذا حين تراجع مدير المكتب إلى الخلف ليدق الجرس طالبا القهوة لم يجد العميد جميل حرجا فى أن يجلس ليتبادلا حديثا وديا ، ولم ينس أن يصدّره بعبارة المجاملة التى ابتكرها والتى لا تخطئ تأثيرها فى مفاتيح قياداته :

– **رأيى أن الباشا لديه قدرة فذة على حسن الاختبار .**

ثم أضاف وهو يضع ساقا على ساق .

– **وأنت مثال رائع على ذلك .**

تركت المجاملة الرقيقة أثرا غير عادى وكأنما لم يسمعها مدير المكتب من قبل مع أنه – بالقطع – سمعها مرات ، فسرب إليه وهم يهم بإدخاله إلى قائده بعض المعلومات العاجلة التى وصلته بصفة شخصية من أصدقائه فى مكتب المعلومات ، ومن بينها محاولة اعتداء على أحد الضباط فى عين شمس وإلحاق أضرار بسيارته ، وألمح إلى أن هذه المعلومة تأخذ طريقها الآن إلى القيادات العليا تاركة أثرا غير عادى . وكانت هذه الإشارة وحدها كافية لكى يعيد النظر فى موقفه ويحسم تردده ، حتى أنه حين دخل على قائده ذكر – بعد أقل من دقيقتين من بدء اللقاء استنفدهما فى تقديم الشكر على كلمات التهنئة التى تلقاها فى الصباح – أنه حضر فى أمر بالغ الأهمية ، وشرح الوقائع كما قدمها التحليل الذى تم فى الاجتماع ، وإن لم يذكر ماصرح به من التجهيز لعملية الردع ، ثم أضاف :

– **لقد رأيت من واجبى أن تكون أول من يعلم .**

فابتسم قائده وهو يقول :

– **إن لم أكن أول من يعلم بالعملية فلدى الآن كل التفاصيل .**

أحس العميد جميل بحرج ، فقد حمل إليه التعليق شيئا من اللوم لتأخره فى

إبلاغ قائده المباشر ، فخطر بباله أن يعلل لهذا التأخير غير المقصود ، ولم يجد أفضل من أن يشرح له بالتفصيل الخطوات التى قام بها فور علمه بما حدث ، من عقد اجتماع بضباط الفرع ، ومناقشة الاحتمالات ، وتحليل الاتجاهات ، وتقديم المقترحات ، وحضوره – فور إنجاز هذا العمل – لوضع الصورة كاملة بين يدى قائده ، لاستئذانه فى معالجة الموقف فى ضوء ماأسفرت عنه المناقشات .

كان القائد يصغى باهتمام وهو يدون بعض الملحوظات بين حين وآخر ، ولما انتهى العميد جميل من ذكر ماالديه بدا قائده وكأنما داخلته بعض مشاعر الارتياح « *هاهى الصورة تتضح تماما ، منذ نصف ساعة فقط وصلت المعلومات المبهمة عن الاعتداء على أحد الضباط من غير أى تفاصيل ، وهى نفس الأنباء التى تأخذ طريقها فى هذه اللحظة إلى القيادات العليا ، لكنك الآن قد حصلت بمبادرة جميل على كل المعلومات والبيانات ، بدءا من اسم الضابط الذى وقع عليه العدوان إلى الكيفية التى تم بها استدراجه للهجوم عليه* » سأل القائد برقة ربما كنوع من المجاملة ، وربما لاستيفاء المعلومات :

– وكيف حال الضابط الآن ؟

ولما أبلغه العميد جميل بأنه فى طريقه إلى المستشفى بعد أن أجريت له فى الفرع جراحة عاجلة أيقن أن المسألة بالفعل خطيرة وعاد باستفساراته مرة أخرى إلى التحليل الذى تم فى الفرع ليناقشه ، ونهض فى ختام المناقشة متجها إلى خارطة العمليات التى تغطى جانب الحجرة وهو يقول :

– أين وقع الكمين بالضبط ؟

أجاب العميد جميل :

– فى عين شمس .

سأل القائد :

- في أي منطقة ؟

لم يتذكر العميد جميل تماما اسم الشارع ، هل أهمل حفظ الاسم أو أنه لم يُذكر أمامه أصلا ؟ ، لكن هل يليق بقائد في دقته وحصافته أن يظهر أمام قائده وهو يجهل المعلومات الضرورية . إن المسألة في جوهرها ليست في حاجة إلى معلومات بقدر حاجتها إلى ذكاء وحسن تقدير ، أمسك العميد جميل المؤشر الخشبي الطويل وصنع به على الخارطة شبه دائرة صغيرة وهو يقول بهدوء :

- في هذه المنطقة .

تأمل القائد الدائرة بإمعان وعقب :

- في أحمد عصمت إذن .

صمت العميد جميل وهو يضع المؤشر الخشبي في موضعه ، بينما تابع قائده بثقة :

- في هذه المنطقة بعض العناصر الإرهابية الهاربة .

وأخذ طريقه عائدا إلى مكتبه وهو يقول :

- ربما كانت العملية من تدبير بعضهم .

تبعه العميد جميل دون أن ينبس ، فقد أحس أن عملية الردع المقترحة أكثر خطورة مما كان يتوقع ، فإن وجود عناصر إرهابية مبثوثة وسط الكثافة السكانية ليس أمرا مريحا ، إذ معناه أن العملية ستواجه بمقاومة حقيقية ، وقد تسفر المقاومة عن خسائر غير متوقعة ، لم يعد أمامه في الحقيقة إلا اختيار محدود ، فإما أن يمد بقوات كافية تضمن له السيطرة التامة على المنطقة وإما العدول تماما عن العملية .

تابع القائد وقد أغراه الإصغاء ، وكأنما أحس أن عليه أن يقدم رؤية شاملة تليق بموقعه :

- واضح أنهم يحاولون التحرك مستغلين الكثافة السكانية .

وصمت لحظة قبل أن يواصل كلماته :

– ربما يتصورون أن فى إمكانهم السيطرة على الشـارع ، أو علـى المنطقة ، من خلال مثل هذه العمليات .

لم يجد العميد جميل بدا من أن يقول :

– الموضوع بهذه الصورة خطير جدا معالى الباشـا ، ولذلـك كـان اقتراحنا فى الفرع بضرورة القيام بعملية ردع .

هز القائد رأسه موافقا ، فتابع العميد وقد أحس أن الظرف مهيأ تماما :

– لكن العملية تحتاج إلى دعم من الاحتياطى المركزى .

فقاطعه القائد :

– ليس هذا مايشغلنى الآن ، تدبير الدعم ليس مشكلة ، فلدى قـوات كافية وأستطيع أن أمدك بما تريد من تعزيزات ، لكن المشكلـة فـى نظرى أن العملية بالحجم المؤثر تحتاج إلى قرار سياسى .

فوجئ العميد جميل ، ولمح قائده علامات الدهشة على وجهه فأضاف مفسرا :

– ماذا كنت تتوقع ؟ أن ترسل بضع عشـرات أو حتـى مئـات مـن الأفراد ليضربوا الناس فى الشوارع ؟ ستكـون العمليـة مختلفـة تماما ، يتم فيها حصار المنطقة واقتحامها وتمشيطها بيتـا بيتـا بحثا عن أى شئ ، ليس المهم عمن نبحث ، لكن المهم أن يحس كل فرد وأن يتكلم كل فرد عن قـدرة الدولـة وسطوتهـا وسيطرتهـا الكاملة على كل شئ .

تساءل العميد جميل وقد غمرته حيرة مفاجئة :

– وماذا ترى معالى الباشا ؟

فأجاب قائده بثقة :

- لاتنزعج ، أعرف كيف أستصدر القرار الصحيح . والمهم الآن أن تعود إلى مكتبك لتستكمل وضع خطط العملية ، وأرجو أن يصلني صباح غد على الأكثر بيان بحجم القوات المطلوبة واقتراحك بتحديد ساعة الصفر .

تمتم العميد جميل وقد زالت حيرته وحلت محلها ثقة لاحدود لها :

- تمام يافندم .

ونهض مؤديا التحية العسكرية بصلابة عسكرى محترف .

قال لنفسه وهو يمضي خارجا من مكتب القائد : « ها قد نجحت تماما وحصلت على أكثر مما كنت تتطلع إليه أو حتى تحلم به ، لقد كان أقصى أمانيك أن تدعم بكتيبة على الأكثر من الاحتياطى المركزى ، أما الآن فحجم الدعم المفتوح ، وتوقيت العملية أيضا مفتوح ، وأسلوبها متروك لتقديرك ، أليس هذا كل شيئا رائعا ؟ » غمرته مشاعر الرضى وهو يمضى فى ممرات الوزارة ، فإن ما تم يعود الفضل فيه إلى مقدرته على الإقناع ، وإستعداد قائده المباشر لفهم الموقف دون إثارة عقبات غير متوقعة ، وداعبت روحه أحاسيسُ الفخار لانتمائه إلى هذا الجهاز المتميز الذى يتيح لأبنائه أفرادا وقيادات كل الرعاية ، ويبنى فيهم وبهم مثلا عليا فى الأداء الرفيع ، وتحول الفخار إلى بهجة تفجر تبعها داخل النفس ثرا بلا توقف « أليس شيئا باهرا أن يعمل الإنسان مع مثل هذا المستوى من القيادات الواعية المتفهمة لطبيعة العمل القادرة على اتخاذ أخطر القرارات دون تردد » . ووجد نفسه - من غير تفكير - يمر على عجل بمكاتب عدد من القيادات العليا فى الإدارات المختلفة ، وقدم لكل منهم بتواضع حقيقى شكره وامتنانه على مبادرتهم الكريمة بتحيته وتهنئته فى الصباح ، وأحس أنه ترك فى كل منهم نفس الأثر الذى يخلفه فيهم فى كل مرة يرونه : أنه الضابط المخلص الذى يقدس قياداته ويعرف ما لها من حقوق ولايسمح لنفسه مطلقا بالتهاون

فيما عليه من واجبات .

* * *

سأله السائق :

- البيت يافندم ؟

فرد العميد جميل وهو يأخذ مكانه فى المقعد الخلفى بينما حارسه الخاص يغلق وراءه الباب ليحتل موضعه فى جوار السائق :

- لا ، إلى الفرع فى مدينة نصر .

قال الحارس بإشفاق حقيقى :

- سعادتك لم ترتح من البارحة .

فعقب القائد برضى :

- لا وقت للراحة .

تمتم الحارس ومشاعره موزعة بين الإعجاب والانزعاج :

- صحتك يافندم .

فصمت العميد جميل ولم يعقب ، إنه بالفعل فى حاجة إلى أن ينال شيئا من الراحة بعد نحو ثلاثين ساعة من العمل المتصل ، لم يرتح فيها إلا بضع ساعات متقطعة فى الحجرة الملحقة بمكتبه ، ولكن أمامه عملا شاقا يتطلب الإنجاز ، فقد تجاوز الاهتمام بالعملية الجديدة كل ما كان متوقعا ، ويتطلب هذا بالضرورة إعدادا لايسمح بخطأ ولايعطى الفرصة لوقوع ضحايا ، سواء من قواته أو من المدنيين ، أولئك الغوغاء الذين سرعان ما يتجمعون والذين ينبغى حفاظا عليهم ألا نعطيهم مطلقاأى فرصة للمقاومة . والتخطيط الجيد هو الذى يقطع الطريق على كل من يفكر - مجرد التفكير - فى مواجهة العملية ولو بكلمات ، لأن أى مواجهة عرضة للتصاعد ، ومن الممكن أن تتحول الكلمات إلى طاقة تحرك الأيدى بأسلحة ، صحيح أن الأسلحة المتوقعة لن تكون إلا أدوات القتال

البدائية كالطوب والحجارة ، ولكنها مع بدائيتها ذات تأثير ، فضلا عن أنه لايليق بكرامة الرجال أن يعودوا من العملية يطلبون تضميد جراح مهما كانت سطحية فقد أحدثتها أيد مدنية .

راح يتأمل مرة بعد مرة والسيارة تسير ببطء شديد الكثافة المتزايدة للناس فى الشوارع ، إنهم يظهرون من بعيد كما لو كانوا حشودا هائلة يستحيل اختراقها وضبط حركتها ، ولكن ما إن تقترب السيارة حتى تخترقهم بيسر ، فإنهم ليسوا إلا تجمعات مفككة لا رابط لها ، مكونة من أفراد أو شراذم قليلة العدد ، لكل منها اتجاهه وهدفه . إن أى قوة - مهما كانت صغيرة - تستطيع السيطرة على مثل هذه التجمعات دون صعوبة .

أمسك بجهاز اللاسلكى وطلب نائبه ، وسأله مباشرة من غير تحية عن أخبار « فريق العمل » المكون للعملية الخاصة ، ولما أبلغه أنهم يواصلون عملهم حتى إنهم اكتفوا بطلب ساندوتشات حتى لايتوقفوا ، صاح القائد فى الجهاز :

- **لاأريد ضياع وقت ، عليك أن تنضم إليهم وأن تحثهم على إنجاز كل شيئ بأسرع مايمكن ، وأبلغنى فور انتهائكم .**

أحس بالرضى وهو يتلقى التمام من نائبه ، فانبسطت أسارير وجهه ورفّت فى أعماق عينيه ابتسامة وإن لم تختلج بها شفتاه ، وأيقن أنه لامانع الآن من العدول عن الذهاب إلى قيادته فى الفرع ، وأن فى وسعه أن يعود إلى المنزل ليتناول الغداء ، فوضع جهاز اللاسلكى إلى جواره وهو يقول ، وكأنما يخاطب نفسه :

- **الأمر لله ، ماداموا لم يتموا شيئا حتى الآن فلا بأس من الذهاب إلى المنزل أولا .**

ثم التفت إلى سائقه وقال :

- **إلى البيت .**

فعدل السائق عن الدخول فى شارع الطيران ومضى فى صلاح سالم حتى اجتاز نفق العروبة ، ثم استمر فى طريقه إلى أن اجتاز الكوبرى العلوى فوق ميدان

المائلة ، إلى أن شارف سور الكلية الحربية فاتجه يمينا ، ودخل فى شارع فرعى ، واستأنف السير حتى وصل إلى ميدان داخلى دار فيه نصف دورة ثم توقف .

أسرع الحارس الخاص بالنزول ليفتح لقائده الباب . ثم سار متأخرا عنه خطوة واحدة وعيناه - كعادته دائما - تحيط بكل شئ ، ولما رآهما البواب نهض متثاقلا فلم يعبأ به أى منهما ، ولما اقتربا من المصعد أسرع الحارس فمد يده إلى الزر ليطلبه شاخصا ببصره إلى أعلى ، فقال القائد وهو يتتبع ببصره مايفعله حارسه من غير اهتمام :

- يمكنك أن تأخذ السيارة لتتناول الغداء على أن تعود بعد ساعتين

أوشك الحارس أن يتمتم بعبارات الشكر ، ولكن القائد عاجله :

- ولاتترك جهاز اللاسلكى فقد أحتاج إليك فى أى وقت .

أعطى الحارس التمام وهو يفتح باب المصعد لقائده ، وانتظر حتى تحرك المصعد فى طريقه إلى الدور الرابع ثم عاد أدراجه إلى السيارة . ولم يشأ العميد جميل أن يدق جرس الباب ، لقد أراد أن يجعل من وصوله مفاجأة ، ولكنه ماكاد يضع المفتاح فى الباب ليفتحه - محاذرا إحداث صوت - حتى فوجئ هو ، فقد انفتح الباب من الداخل لتستقبله أحضان طفله الصغير الذى لم يتجاوز الثالثة بعد وهو يصيح :

- دادى ، دادى .

رفعه العميد جميل وقبله ، فتملص الطفل وكأنما غيظ ، وصاح فى أبيه يأمره :

- التحية ، التحية .

فرد الوالد بسعادة حقيقية وهو يرفع يده بتحية عسكرية :

- تمام سمو البرنس .

صدح صوت الزوجة وكأنه موسيقى حالمة :

- أهلا جيمى .

وأسرعت متهللة لتستقبله ، فانحنى جميل يقبل خدها وهو يقول :

- مفاجأة ؟

فردت بدلال وهى تحيط خصره بذراعها :

- كنت أعرف أنك ستأتى .

قال برقة وكأنه يستسلم :

- ماذا أعمل ؟ لاأستطيع البعد .

فقاطعته وكأنها تحتج :

- لو كنت كذلك لما واصلت العمل ليلا ونهارا .

وأردفت بصوت مفعم بقلق العاشق :

- حرام عليك نفسك .

رد وكأنه يستمتع بإثارة الخوف فيمن يحب :

- سأموت من الجوع والتعب .

فأسرعت بمغادرة الغرفة وهى تقول :

- دقائق إلى أن تخلع ملابسك ، الطعام جاهز وسأضعه على المائدة

برغم أنها لم تشاركه مشاركة جادة الطعام بدعوى أنها مازالت تتبع نظام التخسيس بينما السبب الحقيقى أنها تناولت غداءها من قبل فقد جالسته محاولة أن تجنبه مايقوم به الصغير من شغب حتى يستطيع أن يأكل فى هدوء ، ولما أجهدتها حيوية الطفل المتدفقة ووثوبه دون توقع ليتعلق بذراع أبيه أو ليتسلق الكراسى ليقفز فوق المائدة حملته إلى حجرته وهى تأمره أن يمارس اللعب بألعابه فيها ، ولكن الصغير سرعان ما مل وعاد من جديد يشاكس أباه ، فأوشكت أن تثور وهمت بحمله مرة أخرى إلى حجرته ولكن جميل طلب منها برفق أن تتركه وشأنه ، ولما قلبت شفتها القرمزية المرسومة بدقة مبدية امتعاضها قال يسترضيها :

- لاتخافى ، فلن يكسر شيئا .

فردت بيقين :

- أنت لاتعرف مايفعله طول اليوم ، إنه يجعل عينى فى وسط رأسى

تمتم بسعادة :

- الشقاوة دليل الذكاء .

فأجابت بضيق :

- سيفسده تدليلك له ، بدأت أحس بذلك .

وأردفت وكأنها تؤكد :

- تصور انه بدأ من الآن يظهر ميولا عدوانية !

نظر إليها وكأنه يستغرب بينما ينداح فى الأعماق رضى ، فأضافت :

- ضبطته أمس يضرب حمادة ابن أبلة عفت ويهدده بأنه سيدخله السجن .

قهقه جميل وهو يعقب :

- حمادة أكبر منه فى السن ، يستحق .

واستدرك ليغير الموضوع :

- هل زرت عفت ؟

فأجابت بتلقائية :

- هى التى جاءت لزيارتى .

قال بثقة :

- كالعادة كانت تريد شيئا .

أوشكت الزوجة أن تحتج وأن تتهمه بأنه دائما لايحبها ، ربما لعدم استلطافه

زوجها ضابط الجيش القديم الذى ما إن أحيل إلى الاستيداع بعد صَلح الكامب حتى فتح سوبر ماركت لايخجل من مباشرة العمل بنفسه فيه ، لكنها أدركت أن مثل هذا الدفاع لن يساعدها فى موضوعها فعدلت عن الاتهام وقالت باستسلام :

- فعلا ، كانت تريد أن تكلمك فى موضوع .

لم يعبأ واستمر يتناول طعامه فاضطرت أن تضيف :

- تريد أن تساعدهم فى إدخال أخيها كلية الشرطة .

قال من غير اهتمام :

- أظن مجموعه لايكفى ثم إن باب القبول أغلق .

فبادرت بحماس :

- الوزير فتح الباب مرة أخرى وخفض المجموع إلى ٥٢ فى المائة بدلا من ٥٥ .

أمسك بكوب الماء ليشرب ولكنه لم يرفعه إلى فمه فاستمرت :

- يقولون إن المقصود هو إتاحة الفرصة لأبناء عدد من الكبار .

فقال ساخرا والكوب مازال فى يده :

- ولم لايحاول زوجها إدخاله الحربية ؟

ورفع الكوب إلى شفتيه وهى تردد باعتزاز حقيقى مايقوله دائما ذلك الرجل المزعج ضابط المدفعية القديم :

- راحت على الجيش ، نحن فى دولة الأمن .

نظر إليها مستطلعا وهو يضع الكوب ، كانت تبتسم بسعادة من هو مقتنع بالكلمات ، ولم تخالط صوتها نبرة السخرية التى كانت تصحب العبارات وتغلف ذلالتها بأسى حين ينطقها ذلك الضابط القديم ، فمد يده إلى طبق « الكريم كاراميل » وهو يقول :

- سأحاول [illegible]

[illegible] ورنت إليه بنظرتها المعهودة ، التي يمتزج فيها الرضى والامتنان والرغبة والدلال والضعف والوله ، فصرف عجلا نظرته عنها وأضاف وهو يغادر المائدة :

- سأنام قليلا ، فايقظيني في السابعة تماما .

ونهض عن المائدة وقد عزم على أن يتناسى كلية طلب الوساطة الذي حملته زوجته ، فقد أدرك أن مجرد التفكير فيه سلبا أو إيجابا سيحرمه من راحة هو حريص عليها ، في وقت ليس مستعدا فيه بحال أن يصرفه عن راحته شئ ، لأن الراحة في هذه اللحظات أصبحت أكثر أهمية ، إذ صارت جزءا من استعداده لعمل ضخم لعله يكون نقطة تحول في حياته ، فمن يدري ربما أصبحت العملية (صقر) - كما أطلق عليها بينه وبين نفسه ، وكما اعتزم أن يمنحها هذا الاسم الكودي بعد عودته إلى قيادته - مفتاحا لانضمامه إلى نادي الصفوة العليا ، أليس حفظ هيبة الدولة مسئولية كبرى ؟ والقدرة على تحقيق هذه الهيبة أليست بدورها دليلا لايقبل الشك على الصلاحية الكاملة للانطلاق إلى آفاق الذروة الشامخة في السلطة ؟ وهكذا أبعد من ذهنه تماما طلب عفت وقرر أن ينام ، وماكاد جسمه يلمس الفراش ويضع رأسه على الوسادة حتى استغرق في نوم عميق وكأنه لم ينم أياما ، حتى إن زوجته لما أحضرت الشاي كعادتها بعد دقائق قليلة من دخوله حجرة النوم فوجئت بصوت غطيطه يعزف إيقاعا منتظما هادئا كهزيز قطة ، فانسحبت بهدوء من الغرفة وأغلقت عليه الباب وعيناها تعكس - دون شعور - مشاعر يختلط فيها الإشفاق عليه والإعجاب به والرضى عنه ، فقد جعلها أمل الأهل ومطمح الأصدقاء ومقصد المعارف ، وأخذت تشرب فنجان الشاي غير المحلى بالسكر وهي تستكمل الفيلم الذي توقفت عن متابعته في الفيديو عند حضوره ، ولكن ذهنها انصرف عن المشاهدة فأوقفت الجهاز وحملت الصغير ومضت به إلى حجرته ووضعته في فراشه محاولة أن تجعله ينام ، ولكن الصغير كان يرقب عينيها بين الفينة والفينة ، فاضطرت أن تغمضهما وأن تتظاهر بالنوم محاذرة في الوقت نفسه أن تنام هي .

وشغلت نفسها بالتفكير فى موقف زوجها من طلب عفت ، فليست هذه هى المرة الأولى التى تلجأ إليه متوسطة فى تحقيق بعض المصالح ، بل سبق لها أن توسطت لديه عشرات المرات ، ولكن فى كل مرة يتصل فيها الأمر بعفت كانت تحس إزاء موقفه بشئ من الغموض ، إنه دائما يحقق لها ماتريد ولكن مصحوبا بقدر من عدم الرضى ، وبعد أن يعرّض بشكل غير مباشر بمقدرة زوجها ، أيعود ذلك إلى مابين الرجلين : زوجها وزوج عفت ، من صلة ، إنها صلة لاتستطيع أن تدرك طبيعتها ولاأن تفهم حقيقتها ، فكلا الرجلين - برغم حرصه على أن يتظاهر بصداقة الآخر ومودته وأن يتبادلا معا الزيارات فى المناسبات الاجتماعية وأحيانا فى غير مناسبة - يكشف - فى بعض لحظات نادرة - عن نفور من الآخر غير مفهوم ، أما زال جميل يتذكر تلك العبارة التى أثارته قديما حين سمع زوج عفت يفسر موقف الرئيس من اللجوء إلى الجيش لاستعادة النظام بعد المظاهرات بقوله : « حين تفشل الكلاب فى توفير الحماية فلابد أن تلجأ إلى ذراعك » ، إنها تتذكر تعبيرات الغضب على وجهه وهو يسمع تلك العبارة أول مرة ، كما تتذكر تعليقه عليها فى تلك الليلة بعد عودتهما إلى المنزل حين قال بغيظ حاول جهده أن يكبته : « من المؤكد أن الكلاب أفضل من ذراع أصابه الشلل » .

دق جرس التليفون ففتحت عينيها متفقدة حال الصغير فوجدته مستغرقا فى النوم ، فنهضت مسرعة خشية أن يوقظه استمرار الرنين ، وأمسكت بالسماعة وقالت بصوت خافت :

- ألو .

فجاءها الرد بصوت مألوف :

- آسف للازعاج يافندم .

فردت بتلقائية :

- أهلا يامحيى .

استمعت إليه وهو يتساءل عن إمكان الاتصال بسيادة العميد ؟ ولما أبلغته أنه فى

الحمام أدرك بخبرته فى التعامل معه أنه نائم ، وأنه لن يتمكن من الاتصال به قبل أن يستيقظ ، فآثر أن ينهى المكالمة بعبارته المعتادة فى مثل هذا الموقف :

– لاداعى لإزعاجه ، وسأحاول الاتصال مرة أخرى بعد فترة .

وضعت السماعة وهى تلقى نظرة سريعة على ساعة المكتب الفاخرة التى تعلو التليفزيون ، والتى سبق تقديمها هدية لها من إحدى الجارات فأيقنت أنه مازالت هناك مدة قبل أن يستيقظ ، وهمت أن تتوجه إلى المطبخ لترص أوانى الطعام فى الغسالة ، وما كادت تنهض حتى فوجئت به يخرج من حجرة النوم نشيطا تماما كأنما أخذ كفايته من الراحة ليسألها :

– من المتكلم ؟

ولما ردت بأنه العقيد محيى هز رأسه وكأنما كان يتوقع ذلك ، فتابعت :

– استيقظت مبكرا ، مازال أمامك وقت .

فقال مبتسما :

– سآخذ دشا .

فعقبت بعفوية :

– حين تخرج من الحمام سيكون الشاى جاهزا .

فمد يده وأمسك بجهاز اللاسلكى الموضوع فوق المنضدة التى تتوسط الأنتريه ونادى حارسه الخاص ، فلما اطمأن إلى أنه فى موقعه أمام المنزل أمره بأن يكون جاهزا للتحرك خلال ربع ساعة ، ثم أخذ طريقه إلى الحمام .

قالت له وهى تقدم فنجان الشاى :

– ستتأخر ؟

رد وهو يمد يده ليأخذه :

– لاأظن .

قاطعته لتتأكد :

– **هكذا تقول دائما ثم ينسيك العمل حتى الاتصال بالتليفون .**

قضم قطعة من الجاتوه أتبعها برشفة من الشاى قبل أن يعقب :

– **لاينبغى أن تنزعجى فمعك رجل .**

نظرت إليه عاتبة فأردف :

– **ألا يكفى أن يكون معك البرنس شريف .**

قاطعته محتجة :

– **لو بقيت معه مدة كافية لأدركت إلى أى حد صار مزعجا .**

ابتسم بسعادة من يوقن أنه – برغم كل شئ – حصاد العمر وثمرته التى طال انتظارها ، فغاظها الصمت فأضافت :

– **طالع لأبيه .**

جلجلت ضحكته مترعة ببهجة تملأ القلب فنهض واقترب منها ، ثم رفع بسبابته وجهها ولثم جبينها وهو يقول :

– **أعرف مايغضبك فلا تحملى هما .**

نظرت إليه مستفسرة وكأنها تريد وعدا صريحا فتابع :

– **طمئنى عفت ، سأبذل كل ما فى وسعى .**

ومضى خارجا وأغلق خلفه الباب .

هل تسرع فى وعده ؟ تسلل السؤال إلى خاطره وهو ينتظر المصعد لينزل ، وأحس أنه من غير قصد قد أعطى وعدا لايستطيع الحنث به من غير تفكير كاف ، وهو قرار لايمس موضوعا تافها كإنجاز رخصة فى المرافق أو جواز سفر أو استقبال فى المطار أو إلغاء مخالفات فى المرور ، بل هو موضوع يتصل بمستقبل شاب يراد ضمه إلى جهاز الشرطة ومن الممكن أن يكون ذات يوم قيادة فيه ، انتابه شئ من الضيق وهو

يتذكر أنه كان مصمما على أن يتجنب التفكير فى الموضوع حتى ينتهى من العملية ليأخذ وقتا فى التفكير ليتخذ بعده القرار المناسب ، وأوشك أن يلوم نفسه على أنه ما كاد يرى ضيق زوجته حتى استسلم ، « ترى ... *هل كان باسترضائه لها مخطئا* » ؟ راح يراجع الموقف من جديد وهو يتلقى تحية حارسه الذى كان فى انتظاره أمام باب المصعد فى الدور الأرضى ، وحاول أن يعثر على نقطة بدء تزيل قلقه تجاه ماحدث ، واعتصر فى ومضة علاقة طويلة معقدة امتدت أكثر من خمسة عشر عاما وتراوحت بين الاستسلام والنفور وإن اتسمت فى ظاهرها بمودّة ، فقد تحمل فى مرحلة سابقة بعض التيه والعُجْب الذى كان يتصف به ذلك الضابط القديم ، حين كان ينظر إلى الناس من عل ، وكأن أى جهاز فى الدولة مهما كانت أهميته دون جهازه الذى ينتمى إليه أهمية ، وحتى حين تغيرت الأوضاع وتقلص دور جهازه وانهار نفوذه وزالت سطوته لم يشأ أن يعترف واستمر يكابر ، وظل يعلق بكلماته المغلفة بالسخرية احتجاجه ويؤكد بمواقفه رفضه لدرجة أنه لما فتح السوبر ماركت فكر فى أن يعلق فى مدخله شهادة التقدير التى منح بمقتضاها النجمة العسكرية ، لماذا لايستسلم ذلك الضابط القديم كما كان يستسلم هو فى تلك المراحل ؟ لقد ظل يقدم له الخدمات تباعا عسى أن يعترف بما حدث من تحول حقيقى ولكنه مع ذلك يبدو وكأنه يرفع راية العصيان ، فما من مرة يجتمعان فيها منفردين أو فى لقاء موسع إلا يحس بأنه مازال كما كان ، ينظر إلى الناس من فوق . كلا ، لن يساعد قريبا لذلك الرجل ضابط المدفعية القديم فى دخول الشرطة حتى وإن غضبت زوجته .

أخذ يتأمل الحركة فى الشوارع وهو يجتاز ميدان المالظه ، كانت السيارات كثيفة أما المشاة فقليلون ، وعن له أن يلقى نظرة على أرض العملية المتوقعة ، فطلب من السائق أن يتجه يمينا ليذهب إلى جسر السويس ، ولما نظر حارسه إليه – وكأنه يستفهم – لم يلق إليه بالا واستمر يحدق فى الناس خارج السيارة ، وما كاد يصل إلى ميدان الحجاز حتى برق فى ذهنه خاطر دغدغ حواسه حتى أنه ابتسم راضيا ، أليس اللجوء إليه لتغيير مسار شاب دليلا عمليا على الاعتراف بانتهاء دور واعترافا واقعيا

باستقرار دور بصرف النظر عن كل ما يمكن أن يقال من كلمات ؟

هبت نسمة هواء رقيقة أنعشته فلانت التقطيبة التى كانت تعلو وجهه وتشد قسماته منذ نزل من المنزل ، وتسللت إلى روحه مشاعر رضى كان ينشده فصار أكثر قدرة على التركيز والتأمل فيما حوله ، وكلما تجول فى المنطقة كلما ازداد اقتناعا بصحة الفكرة التى أصبحت بفضله قرارا ، إنها وإن بدأت تحت إحساس الدفاع عن الكرامة الشخصية والمهنية لكنها مع التجول تحولت إلى ضرورة اجتماعية وحضارية ، فقد كانت الفوضى والقذارة تعم كل مكان ، حتى أنه اضطر أحيانا مرة بعد مرة أن يغمض عينيه حتى لايرى ، ولكنه حتى وإن أغمض عينيه كان يتلقى بأنفه وأذنيه ما يؤكد حاجة هؤلاء البشر إلى يد ضابطة تعلمهم كيف يعيشون ، فالروائح الكريهة المختلطة المصدر تمتزج بسيل لاينقطع من الأصوات المرتفعة المتداخلة التى تشارك فيها الحناجرَ البشرية أجهزةٌ لا حصر لها من الميكروفونات والمسجلات والراديوهات والتليفزيونات ، تتآزر جميعا على تقديم معزوفة بشعة تختلط فيها أصوات أم كلثوم والشعراوى والحجار وكشك ووردة وعدوية والأذان ونادية مصطفى والقرآن المرتل وحميد الشاعرى والموسيقى الراقصة المميزة لسهير وسحر ، إنه لايستطيع أن يفهم كيف يتعايش هؤلاء مع كل هذه الفوضى وكأنها شئ طبيعى . « *إن من المحتم تعليمهم ، لصالحهم أولا يجب أن يذعنوا لما تفرضه الدولة من قوانين ، إن الرفق بهم أفسدهم ودمر أذواقهم وعودهم على الإهمال وهاهى النتيجة ، قذارة وانحطاط وتخلف وعفونة ، إن من المؤكد أن الرحمة بهم ليست فى صالحهم ، بل مدعاة إلى تضييع هذه المصالح . حمل هؤلاء الناس على الخضوع للقانون واتباع النظام ضرورة حتمية نحو رفع مستواهم ، فلتكن الحملة المتوقعة خطوة أولى فى الاتجاه الصحيح ، ويكفى ماأصاب الناس من تسيب* » .

استغرقه التأمل حتى إنه لم يحس بمرور الوقت ، ولذلك ماكاد يميز فى المعزوفة التى يسمعها صوت الأذان حتى ألقى نظرة إلى ساعته فاكتشف أنه أمضى وقتا طويلا

وهو يتفقد شوارع المنطقة الرئيسية والفرعية ، فأمر السائق أن يعود مباشرة سالكا أقصر الطرق إلى مقر قيادة العمليات فى مدينة نصر ، إن ما رآه كاف فى تحديد مركز العملية ومحيطها ، وعليه أن يستكمل مالم يره بخبرته الطويلة فى التعامل مع المدنيين ، كما أن عليه أن يضع فى إعتباره كافة الاحتمالات أثناء التخطيط . مد يده فأمسك بجهاز اللاسلكى وطلب نائبه وأمره بحزم - وكأن طرفا ثالثا يتابع - بالتجهيز لعقد اجتماع عاجل لفريق العمل بعد حضوره مباشرة ، وما كاد يضع الجهاز إلى جواره حتى علت وجهه من جديد علامات العزم والتصميم ، وارتسمت بوضوح ملامح ثقة بلا حدود ، « *إن أولى النتائج التى حققتها العملية من قبل أن تبدأ ما سوف يفاجئ به فريق العمل من رفض كامل لكل ماخططوا له ، ووضع إطار جديد للعملية كلها ، فمن المؤكد أن الخطط التى وضعوها لم تعد ملائمة للأهداف المرجوة ، صحيح أنهم استوحوا هذه الأهداف من كلماته العامة عن تصوره المبدئى فى الظهيرة للعملية ، وهو تصور قائم على أساس عملية تأديبية محدودة فى الشارع الذى وقع فيه الحادث ، الأمر الذى من المؤكد أنهم ترجموه فى خطتهم إلى وجود أمنى مكثف فى الشارع وحده لا يمتد إلى غيره ، ولكن كان عليهم أن يضعوا فى الاعتبار أيضا اتصال الشوارع وتداخلها وما يتفرع منها من حارات وأزقة وما يستلزمه ذلك من وجوب عزل المنطقة كلها واستعمال القوات الميكانيكية بالإضافة إلى القوات الخاصة ، إن العملية حين تتحدد صورتها النهائية فى الاجتماع سوف تكون مفاجأة حقيقية بحجمها وميدانها والقوات المشاركة فيها* » .

اخترقت السيارة كالشهاب الشوارع الخالية إلا من السيارات الخاصة المركونة على الجانبين فأثارت بسرعتها انتباه الرجال الأشداء المختارين بعناية والمتمركزين فوق سيارات الجيب المنتشرة فى الأكمنة المعتادة فى مداخل المنطقة وتقاطعاتها ، حتى أوشكت بعض الأكمنة أن تتصدى لها لإيقافها لولا تلك الإشارات الضوئية الخاصة التى

كان يطلقها قائد السيارة للتعريف ، تسللت إلى أنف القائد روائح ياسمين فواحة فأدرك أنه قد اقترب من مركز قيادته ، ولما رأى السائق يطلق ثلاث ومضات متقطعة متلاحقة تعقبها ومضة ممتدة نسبيا توقع ماسيحدث ، إذ ستنهض الحراسة المكلفة بالبوابة الرئيسية لتفتح الباب على الفور حتى لاتنتظر السيارة لحظة واحدة ، فاستعد للنزول ، وحين وقفت السيارة تماما أمام السلم الجرانيتى اللامع فتح القائد بنفسه الباب ولم ينتظر أن يفعل ذلك حارسه الخاص ، ونزل وكأنه سهم منطلق تجاه مكتبه حتى أنه لم يلتفت للرجال الذين كانوا يؤدون التحية مكتفيا برفع يده بصورة آلية .

وصل المكتب وسرعان ماحضر النائب ولما يجلس بعد فى مكانه فأدى له التحية بمودة ظاهرة ، وأوشك أن يُرْدِفَهَا بعبارات التقدير المعهودة لولا أن رأى ما على وجهه من جد يوشك أن يبلغ مبلغ الصرامة . ولما سأله القائد عن فريق العمل أبلغه أنهم فى الانتظار فى مكتبه ، دق القائد الجرس وأمر الجندى المراسل أن يبلغ الضباط المجتمعين فى مكتب العقيد أن يحضروا ، وخلال دقائق كان الاجتماع قد بدأ . وصح ماتوقعه فقد كان تخطيطهم لعملية مختلفة تماما عما استقر رأيه عليه ،أخذ يتأملهم وهم منهمكون فى شرح مافعلوه دون أن يعبأ كثيرا بما يقولون ، « ***هذه الصفوة الممتازة من ضباط القوات الخاصة مازال ينقصها الخبرة الميدانية والخيال العسكرى ، كيف يمكن لهم أن يتغلبوا على الظروف الواقعية وليست لديهم المقومات الجوهرية لرسم الخطط التكتيكية*** » ؟ استمر صامتا لايعقب حتى انتهوا من عرضهم فسأل نائبه :

– هل قام أحد باستكشاف المنطقة ؟

ألقى سؤاله بهدوء من لايتوقع إجابة ، حتى أوشك النائب أن يجيب بسؤال مضاد :

– وهل المنطقة فى حاجة إلى استكشاف ؟

ولكنه بخبرته أيقن أن السؤال مفتاح رؤية جديدة وأن عليه أن يتيح لقائده الفرصة

دون أن يمكنه من السخرية به فآثر الصمت ، وتابع القائد بهدوء ممزوج بحسم :

- **يؤسفنى أن أقرر أن الخطة التى وضعت غير صالحة .**

حدقت العيون مستفسرة فأضاف :

- **إن أبسط البديهيات أن تتلاءم الخطة مع الميدان الذى يتم إجراء العملية فيه ، وأنتم أغفلتم تماما هذا الجانب .**

أخذ يشرح بأستاذية كيف أنه حين شكل فريق العمل للتخطيط للعملية من أفضل ضباطه كان على يقين من أنهم قادرون تماما على التخطيط لعملية ناجحة ، حتى أنه عاد إلى منزله مباشرة بعد زيارته للوزارة مطمئنا إلى ما سوف يفعلون ، ولم يخطر بباله لحظة أن يغفل ضباط ممتازون بديهيات عسكرية وأن يكتفوا بالتخطيط لعملية على هذا المستوى وهم جالسون فى مكاتبهم من غير أن يفكروا مجرد تفكير فى القيام باستطلاع ميدانى .

كانت النغمة التى يتحدث بها برغم هدوئها الظاهر بالغة القسوة ، فإن فريق العمل فى حالة طوارئ منذ خرج القائد فى الظهيرة حتى عاد فى المساء ، وهاهو يأتى ليلقى بكل مافعل الفريق فى سلة المهملات .

استمر القائد يتحدث بصوته الواثق ، فشرح لهم كيف أنه كعادته فى تقدير جميع الاحتمالات تصور - مجرد تصور - احتمال إغفالهم القيام باستطلاع ميدانى ، وأنه لذلك قام طوال فترة المساء بهذا الاستطلاع ، وأنه توصل من خلاله إلى نتائج بالغة الأهمية ، واستعان فى عرضه لجولته الميدانية ونتائجها بعدد من الخرائط التى أكدت بصورة لاتقبل الشك تداخل الشوارع واتصالها واستحالة القيام بعملية محدودة فيها ، خلص من ذلك إلى تقديم خطة بديلة ، يتم فيها تقسيم المنطقة كلها من جسر السويس إلى عين شمس إلى ثلاث دوائر متداخلة ، بؤرتها هى المركز الذى سيتم اجتياحه ، والوسطى منطقة السيطرة ، والكبرى محيط الدعم ، كان صوته - وهو يعرض تفاصيل خطته - يصفو ويعذب وكأنه عاشق يتحدث عمن يحب ، وتفاوتت ردود أفعال فريق العمل

من الصمت إلى التأييد المتحمس ، وظل العقيد محيى حريصا على أن يظهر بإصغائه ونظراته انبهاره بعبقرية قائده ، وحين انتهى من حديثه صمت برهة ظل فيها محدقا فى عيون المجتمعين قبل أن يضيف :

- أى أسئلة ياسادة ؟

تردد المقدم فوزى لحظة ولكنه قهر تردده وقال بصوت حرص على أن يجعله محايدا بحيث يفسره المستمع كما يشاء ويفسره هو بعد ذلك كما يريد :

- هذه الخطة طموحة جدا .

ابتسم القائد وكأنه يشجعه على الإفاضة ولكنه لم يزد ، فاضطر القائد أن يسأل :

- ماذا تعنى ؟

أجاب المقدم فوزى وهو يتحسس الكلمات :

- أقصد أنه لم يكن فى وسعنا التفكير فى مثل هذه الخطة .

قاطعه قائده :

- لماذا ؟

قال فوزى بحذر من يسير فى حقل ألغام :

- لأنها تحتاج إلى قوات ضخمة .

وسكت لحظة ، كان على ثقة من أن الرسالة قد وصلت ولم يكن يرغب فى أن تجره المناقشة إلى نقد صريح ، ولكنه أحس بتجاهل قائده حين نظر إليه بإمعان وسأله :

- وماذا فى ذلك ؟

فاضطر أن يضيف :

- ليس فقط حجم القوات ، وإنما نوعها أيضا ، فمثل هذه الخطة تحتاج إلى قوات مدرعة وميكانيكية فضلا عن القوات الخاصة .

فوجئ تماما حين جلجلت ضحكة قائده وهو يقول بابتهاج :

– واضح أنك خائف .

ابتسم الجميع وعقب العقيد محيى باستسلام من يرضى قائده :

– ومن منا لايخاف ؟

ولما التفت قائده إليه أدرك أن العبارة لم تقع موقع الرضى فاضطر أن يزيد :

– هذه الخطة لايضعها إلا قائد عسكرى من الطراز الأول ، قائد عبقرى .

تمتم فوزى وكأنه يعتذر :

– ليست المشكلة فى الخطة ، المشكلة فى التنفيذ .

واصل قائده الضحك وهو يقول بروح مفعمة بالمودة :

– ألم أقل لك ؟ أنت خائف .

ثم قطع ضحكته وعلت وجهه صرامته المعهودة عند إصدار الأوامر وقال بحسم :

– أدرسوا الآن احتياجاتكم من القوات وضعوا خطة توزيعها ، أريد أن يصلنى ذلك خلال ثلاث ساعات من الآن .

نهض الرجال لتنفيذ الأمر فتابع وهو ينظر إلى محيى :

– المهم عندى هو تأمين القوات أثناء العملية ، لاأريد أن يصاب عنصر واحد ولو بخدش .

عقب محيى وكأنه يتأكد :

– قد يحتاج ذلك إلى قوات كبيرة جدا .

فرد قائده بثقة وشموخ :

– ولا يهمك ، أستطيع أن أحرك جيشا كاملا .

عكست نظرات الرجال وهم يخرجون ليواصلوا عملهم فى غرفة العمليات ماأراده قائدهم منذ البداية ، فقد عزف النغمة الصحيحة وترددت فى الأعماق أصداء متآلفة من التقدير والإجلال والاعتزاز برغم ماأصابهم فى بداية الاجتماع من ضيق ، فقد بدت الخطة التى سبق لهم وضعها قزما بالمقارنة بما انتهى إليه الاجتماع ، وعوضهم عن جهدهم الذى ضاع فى إعدادها إحساس جياش بأنهم على أبواب عمل من طراز فريد ، يتميز على كل ماسبق أن قاموا به من أعمال ، وتداخلت فى هذا الإحساس مشاعر الرهبة والرغبة والتوقع والإثارة والمتعة والتوتر ، ومع تفاوت درجة بعض هذه المشاعر من واحد لآخر فإن أحدا منهم لم يقصر ، لقد عكفوا على ماكلفوا به بهمة من يعرف أنه يسهم فى عمل تاريخى سوف تحفظه الأجيال ، حتى من كان فى أعماقه منهم بذرة شك فى إمكان القيام بالعملية أو فى جدواها فإنه لم يتردد فى اجتثاثها ، لقد دغدغت الحواسَّ فكرةُ القيام بعمل عسكرى فى قلب القاهرة ، وبدت الفكرة شديدة الجاذبية برغم كل شئ ، فألهبت قدراتهم وألهمتها ، حتى إن العميد جميل هتف معجبا فور انتهائه من استعراضها :

- هذا عمل رائع حقا .

ابتسم الضباط بسعادة حقيقية ، وعقب العقيد محيى :

- بفضل توجيهاتك يافندم .

تمتم المقدم فوزى بلهجته المحايدة :

- لقد راعت الخطة كل شئ ، ولاينقصها إلا شئ واحد .

نظر إليه العقيد محيى محنقا وهو يقاطعه :

- بطَّل تخريف .

فنظر العميد جميل مستطلعا فأضاف نائبه :

- تصور يافندم أنه يقول إننا فى حاجة إلى سرب من الطائرات .

لم يدهش العميد كما توقع الرجال وعلى العكس من ذلك أصابهم بالدهشة حين قال :

- ليس فى مثل هذه العملية ، فهى فى النهاية عملية محدودة برغم حجمها .

وأضاف وهو يحدق فى عيون ضباطه واحدا بعد الآخر :

- هل تعلمون أننى سبق أن اقترحت على الوزارة بعد عودتى من الولايات المتحدة أن يكون لدى القوات الخاصة سرب للعمليات الجوية .

أوشك العقيد محيى أن يفغرفاه ، ولكنه تماسك ، فعقب فوزى بلهجة ظافر :

- لابد أن تجدد اقتراحك يافندم

فرد قائده باقتناع .

- لاصلة بين الاقتراح وبين العملية .

قال محيى وكأنما أدركته النجدة :

- هذا ماقلته يافندم .

تابع القائد وهو يلقى نظرة فاحصة على خرائط توزيع القوات :

- بعد انتهاء العملية ربما نتابع الاقتراح عند تحليل الدروس المستفادة .

وواصل دراسة الخرائط ، وطابق بين القوات الموزعة فيها وكشف احتياجات العملية ، ولما تأكد من سلامة كل شئ أمسك بسماعة التليفون ليتصل بمكتب قائده ، ولكنه رد السماعة إلى مكانها ثانية وآثر أن ينهى الاجتماع أولا ، فقال :

- الآن بعد أن أنجزتم ما عليكم يجب أن ترتاحوا تماما .

ثم نظر إلى ساعته وقال :

- **سنعقد اجتماعنا فى الموعد المعتاد .**

فسأله محيى بلهجة مشفق :

- **وسيادتك يافندم ، ألا ترتاح ؟**

فأجابه بحزم :

- **ستذهب أنت أيضا لترتاح . أما أنا فسأتابع عودة الضباط من العمليات .**

وما كاد الضباط ينصرفون حتى أمسك بسماعة التليفون من جديد .

✍ ✍ ✍

الفصل السادس عشر
العزف بأوتار بشرية

مدير المكتب بصوته الهادئ الخالى من الانفعال :

قال

- تمام يافندم .

فلم يكلف اللواء سليم نفسه عناء الاعتدال فى جلسته المسترخية فوق الكنبة الوثيرة فى الغرفة الملحقة بمكتبه ، ولم ينزل قدميه من فوق المنضدة المجاورة التى تعلوها أجهزة الاتصال المختلفة ، واكتفى برفع بصره إليه مستطلعا ، فأضاف :

- **العميد جميل قائد فرع العمليات فى القاهرة اتصل الآن وأبلغنى أنه جاهز وطلب تحديد موعد عاجل .**

سأل اللواء بغير اكتراث :

- **هل حددت له موعدا ؟**

فرد مدير المكتب بتلقائية :

- **كالعادة يا فندم .**

وواصل بعد لحظة صمت :

- أرجأته إلى ما بعد خروج سعادتك من اجتماع هام .

أغمض اللواء عينيه وهو يقول :

- سأستدعيه بعد انتهاء الاجتماع ، وعليه أن يبقى فى موقعه حتى يتم استدعاؤه .

انسحب مدير المكتب بهدوء حتى يترك لقائده فرصة الراحة المحدودة فى انتظار نتائج العمليات المنتشرة فى أرجاء الجمهورية ، ولكن القائد برغم استرخائه وإغماض عينيه كان يقظ الذهن تماما ، استدعى إلى ذاكرته ما حدث فى الظهيرة بينه وبين جميل ، كان على ثقة من أن فرع العمليات فى القاهرة قد أنجز ما كلفه به من التخطيط لعملية عسكرية واسعة ، فجميل ضابط ممتاز ، وقدراته العسكرية مؤكدة ، ولديه عدد من الضباط الذين تم تدريبهم على أعلى مستوى ، فضلا عن أنه نفسه قد أرسله فى مهام تدريبية إلى أمريكا أكثر من مرة ، ومادام قد طلب عقد الاجتماع فمعناه أنه أتم ما عليه ، وأن الخطة قد صارت فى المرحلة التى تتطلب اتخاذ قرار واضح فيها ، فإما أن يواصل الضغط بوسائله الخاصة لتأخذ طريقها إلى التنفيذ وإما أن تضم إلى غيرها من الخطط الجاهزة التى سبق أن وضعها تباعا كبار ضباطه بتكليف منه بين الحين والآخر ، اختبارا لمقدرتهم من ناحية وتحسبا لكل الاحتمالات من ناحية أخرى ، لكنه ليس ميالا فى هذه المرة لأن تصبح الخطة الجديدة مجرد مشروع على الورق يضاف إلى الملفات العديدة التى تحتويها خزانة حجرة العمليات ، فهل الظروف الآن مواتية للتنفيذ ؟ تردد السؤال فى ذهنه أكثر من مرة ، وأخذ يراجع فى محاولته الإجابة عليه الأحوال منذ تولى منصبه الحساس كقائد لقوات التأمين الأساسية فى المنطقة المركزية ، ويستعرض قراراته التى مضت حتى الآن دون عثرات . إنه لا يريد أن يقع فى خطأ يؤخذ عليه ويستخدم ضده ، لقد سلحه حذره الداخلى حتى الآن فى زحفه الحثيث نحو القمة بدرع لا يستطيع أعداؤه اختراقه لأنه مكون من عنصرين لم يستطع أحد حتى الآن أن

يشوبهما ، أولهما الولاء المطلق للنظام بصرف النظر عن الشخص ذاته وقدراته ، وامتداد هذا الولاء لكل سلطة تصدر عن النظام وكل شخص يمثله بغض النظر عن خصائصه وإمكانياته ، إنه يحترم أحيانا قيادات لا تساوى رباط حذاء ، وهو يحترمها احتراما حقيقيا لا كاذبا ، لأنها رمز لإرادة النظام وتجسيد لسلطته ، وثانيهما الاستعداد الدائم لتنفيذ الأوامر مهما كانت طبيعتها أو بلغت قسوتها حتى من غير تعليق من أى نوع عليها ، ولا يستطيع أحد حتى الآن أن يخدش درعه الذى يتحرك من خلاله ولا أن يتهم نواياه ، ولقد داعبت روحَه منذ فترة فكرةُ القيام بعملية ضخمة يحرك فيها قواته ويتمكن بها من تجربة بعض الخطط الموضوعة للسيطرة على أجزاء واسعة من العاصمة ، ولكنه كان يدرك أن مثل هذه العمليات مرهونة بظروف غير عادية وأنها لذلك أقرب إلى الأحلام ، فظلت حبيسة خيال تكبله أغلال الواقع ولا تجد سبيلها إلى التنفيس إلا فى شكل خطط يكلف بوضعها ضباط العمليات ، تحت شعار « مشاريع تأمين العاصمة من الشغب والمظاهرات » فهل آن أوان القيام بعملية من هذا النوع ؟ ، وهل يرفع درجة القلق الذى عبر عنه بصورة تلقائية فى بعض اللقاءات الجانبية التى تمت عشوائيا أثناء الاجتماعات الدورية مع زملائه الكبار ممن يثق بهم نقلا عن ضباطه الذين يتعرضون لما أسماه انتشار ظاهرة الأكمنة التى تستهدف الاعتداء عليهم ، إنه يحرص حتى الآن على أن يبدو الأمر على أنه تعبير عن بعض المصاعب التى تواجه الضباط وتصيبهم بالتوتر ، فهل يتابع فى هذا الاتجاه أو يعدل عنه ؟ لو أنه مضى فى نفس الاتجاه لربما فسر ذلك على أنه من قبيل الخوف من العناصر الإرهابية ، ولو توقف الآن لربما أغفلت القيادة العليا ما تم بذره من قبل ولوجب عليه أن يعدل تلقائيا عن التنفيذ ، فهل من سبيل وسط يسمح له بأن يؤثر بشكل غير مباشر فى تشكيل الصورة النهائية لدى القيادة العليا بحيث يقودها فى الاتجاه الذى يريد من غير أن يكشف عن رغبتهِ الذاتية . قال لنفسه وهو ينهض متجها إلى الحمام الملحق ليغسل وجهه حتى يفيق تماما : « *الزحف نحو القمة محفوف دائما بالمخاطر ، وأى قرار فى وقت غير مناسب خطر يمكن أن يطيح بصاحبه إلى الهاوية* » . وعاد إلى مكتبه ودق الجرس طالبا

فنجانا من القهوة ، وواصل ذهنه التفكير : *« إن الطلب الصريح بالسماح بالعملية قرار لا ينبغى أن تتخذه مهما كانت رغبتك فيه ، لأنه حتى فى حالة الموافقة عليه ستتحمل تبعته ، فإذا فشلت العملية ألقت بك خارج اللعبة كلها ، وإذا نجحت لفتت إليك الأنظار وأحاطتك بالأعداء الطامعين ، لابد أن يتخذ القرار سواك وأن يكون دورك كما كان دائما مجرد تنفيذ الأوامر »* . مد يده وأمسك بزرار الديكتافون وخاطب مدير المكتب :

- هل وصلت تقارير عن عمليات الليلة ؟

رد مدير المكتب من خلال الجهاز :

- وصل بعضها .

عقب بهدوء قائد محنك يعرف طريقه جيدا :

- أحضر ما يصل فورا أولا بأول .

وجلس إلى مكتبه مستعدا لمتابعة التقارير ، طالعها بأناة ودقة ووضع علامات على بعض الأسماء والعناوين ، واستخلص بعضها وكتبه فى ورقة صغيرة من الأوراق التى تتضمن عادة ملحوظاته وتوجيهاته ، ثم دق الجرس واستدعى مدير مكتبه وأمر أن يخطر قادة العمليات بالتبليغ الفورى عن أى مقاومة أو عمليات مضادة من العناصر الإرهابية خلال عمليات الاعتقال . ولما أوشك أن ينصرف الرجل لتنفيذ أمره همّ أن يضيف مؤكدا :

- فليتم التبليغ من خلال اللاسلكى لأن عمليات كثيرة لم تنته بعد .

ولكنه عدل ، فلم يكن أمام مدير المكتب عمليا إلا اللجوء إلى اللاسلكى ، فضلا عن أنه يحسن ألا يتحمل صراحة هذه المسئولية .

كان على ثقة من أن أجهزة متعددة ستلتقط التبليغ ، وسيعاد تحريره وبثّه وتحليله ، وسيتعرض خلال ذلك لاستنتاجات متعددة سلبا وإيجابا ، وستصبح المقاومة والعمليات المضادة فى شوارع القاهرة موضوع البحث خلال الساعات القليلة القادمة

سواء كانت هناك مقاومة بالفعل أو لم تكن ، وستتكفل التقارير والبيانات المتضاربة بأن تجعل منه قبل غيره المصدر الأساسى للمعلومات التى سينبنى عليها القرار .

مع اقتراب الشروق أخذت التقارير تتوالى بمعدل أسرع ، واستغرق اللواء فى تحليلها تماما حتى إنه نسى تناول الوجبة الخفيفة التى اعتاد تناولها حين يكون فى مكتبه فى هذا التوقيت ، وأحس بشئ من الضيق وهو يرى التقارير تخلو من الإشارة إلى عمليات مقاومة منظمة بالرغم من أنه كان يتوقع ذلك منذ البداية ، ولكنه تأكد من وجود ما يقطع بعدم تعاون المدنيين مع الوحدات المكلفة بالعمليات ، فقد لفت نظره وجود نسبة كبيرة من المطلوبين هاربين دون أن تتمكن الوحدات الملاحقة لهم من العثور عليهم ، ألا يدل نجاح هذه العناصر فى الهرب على وجود شبكة اتصال واسعة تمدها بالمعلومات الضرورية فى وقت مناسب ؟ لقد صارت العملية ضرورية وعليه أن يتابع ما بدأه . ضغط الجرس مستدعيا مدير المكتب وقال بهدوئه المعهود حين يكون قد استقر على قرار :

- بلغ العميد جميل أن يحضر لمقابلتى بعد ساعة .

وانتظر حتى خرج ، وبعد لحظات ضغط زرار الديكتافون وسأل مدير المكتب :

- العميد جميل معك على التليفون .

ولما أجابه بالإيجاب أضاف :

- أبلغه أن يقوم فورا بزيارة الراشد الذى أصيب فى كمين عين شمس للاطمئنان عليه قبل أن يحضر إلى القيادة لتقديم تقرير كامل عن العمليات .

أنهى التوجيه ، وبدأ فى صياغة تقرير المتابعة اليومية بدلا من أن يتركه لمساعديه ، وأشار فيه - لأول مرة - إلى قلق الضباط من تعاطف الأهالى مع العناصر الإرهابية التى بدأت تحاول فرض وجودها فى بعض المناطق مستغلة الكثافة السكانية وتردد القوات فى المواجهة حرصا على سلامة المدنيين . ولكنه لم يخلص من ذلك إلى أى اقتراح محدد ، تاركا المسألة بين أيدى القيادات العليا ، وحين انتهى من صياغة التقرير

حرص على أن يصوره بنفسه بالماكينة الخاصة به ، وأرفق بالصورة الأوراق الصغيرة التى استخلصها من تقارير الوحدات ، وحفظها فى خزينة التقارير السرية ، ثم استدعى مدير المكتب وأمره أن يشرف بنفسه على كتابة التقرير بالآلة الكاتبة ، وأن يأخذ بعد ذلك طريقه المعتاد .

دعك كفيه معا فور خروج مدير مكتبه ، ثم نهض وأخذ يمارس لبضع دقائق بعض التمرينات الرياضية الخفيفة ، وأعقبها بدش بارد فى الحمام الملحق ، وعاد إلى المكتب وقد أحس بالراحة تتسلل إلى أعماقه رويدا رويدا « *الآن ، على الجهات المختلفة التى تتابع ما يدور أن تلتقط الأنباء وأن تضفرها معا فى نسيج واحد ، وأن تستنتج منها ما يجب أن تستنتجه ، وعليك أنت أن تكون جاهزا لتضع الأمور فى نصابها ، وأن تجلو الصورة الحقيقية التى اكتفى التقرير اليومى بالإشارة إليها ، وبالتالى أن تحسم الخلافات التى تحملها التقارير المتضاربة التى ترفعها فى هذه اللحظة جهات شتى ، لكن الأهم أن تكون جاهزا من الناحية العملية لما يعقب ذلك من قرار* » .

دق الجرس وقال لمدير المكتب فور دخوله وحتى من قبل أن يقول عبارته المعهودة « أفندم » :

– ما الحكاية ؟ العميد جميل تأخر ؟

لم يستطع مدير المكتب أن يقدم تبريرا ، واكتفى بالموافقة ، فأضاف قائده بحزم :

– استدعه للحضور على الفور أيا كان مكانه .

وحين سمعه – فى جهاز الديكتافون – يوجه نداءه إلى فرع العمليات بواسطة اللاسلكى طالبا حضور العميد جميل الفورى علت وجهه ابتسامة رضا ، وأخذ يتناول وجبته الخفيفة قبل أن يأمر بإحضار شاى الصباح .

* * *

تلقى العميد جميل التكليف بزيارة الرائد عصام بدهشة ، فلم يكن قد خطر بباله مطلقا أن يزور ضابطه المصاب ، كما لم يطف بخياله احتمال أن يشغل الموضوع اللواء مساعد الوزير لشئون العمليات الخاصة وقائد قوات التأمين فى المنطقة المركزية إلى الدرجة التى تجعله يصدر إليه بشأنه أمرا مباشرا بهذه الصورة ، وتبادر إلى ذهنه - لأول وهلة - تساؤل : لماذا يهتم اللواء سليم بموضوع صغير كهذا ، موضوع يوشك أن يكون تافها ؟ إنه لم يبد اهتماما ما أثناء نقله الخبر إليه خلال الاجتماع الذى عقده معه فى الظهيرة منذ ساعات فقط ، فما الذى جد حتى يتغير موقفه بهذا الشكل ؟ خطر بباله - على سبيل الاحتمال - أن يكون لعصام صلة ببعض الكبار هى التى أكسبت موضوعه هذه الأهمية ، ولكنه سرعان ما استبعد وجود مثل هذه الصلة وإلا لأدركها منذ وقت طويل ، لأن مثل هذه العلاقات مهما كان نوعها لا تخفى على زملائه ، وبالتالى عليه حتى لو رغب صاحبها نفسه فى إخفائها ، واتخذ تفكيره مسارا آخر : هل اكتسب عصام أهمية لصلته بالعملية ؟ لكن أى عملية : العملية التى كانت أو تلك التى ستكون ؟ أحس بأن التفكير سيستغرق منه وقتا ثمينا فآثر أن يمارسه خلال تنفيذ الزيارة ، آملا أن يكتشف أثناء ذلك ما قد يكون من دوافع . وفكر - تلقائيا - فى الذهاب إلى مستشفى الشرطة وهو فى طريقه إلى الوزارة للاجتماع بقائده ، إذ من الطبيعى أن يكون عصام قد ذهب إليها ، ولكنه أراد أن يتأكد حتى لا يهدر وقتا ثمينا فى بحث لا داعى إليه ، أليس من المحتمل أن يكون قد ذهب إلى مستشفى آخر قريب فى مدينة نصر أو فى مصر الجديدة ؟ ومن يدرى : ربما يكون قد عدل عن البقاء فى المستشفى وآثر العودة إلى منزله . دق العميد الجرس واستدعى ضابط الاتصال الداخلى وسأله عن مكان عصام ، فرد بعفوية بأنه إن كان قد عاد من العمليات فلابد أن يكون فى طريقه إلى منزله ، استنتج جميل أن الضابط لا يعلم شيئا ، واستفزه الموقف حتى أوشك أن يعنفه لإهماله الإحاطة بما يدور فى مجال عمله لولا أن تماسك بصعوبة وكبح جماح نفسه فلم تصدر عنه سوى بعض العبارات الساخرة التى تعلن فجيعته فى رجاله وخيبة أمله فى علاقاتهم ببعضهم ، فها هو ضابط كبير يصاب فى كمين ويدخل المستشفى من غير

أن يعرف زميله فى نفس الوحدة ، اضطر الضابط إلى الاعتراف بأنه يعلم ما أصاب عصام ولكنه لم يعرف بدخوله المستشفى وأن المسألة كلها فيما كانت تبدو لم تثر قلق أحد فلم يعن بمتابعتها ، ولكنه وجد نفسه تحت إلحاح سخرية قائده مرغما على أن يقدم اعتذارا حاول أن يصوغه بعبارات مقنعة بيد أنه أحس بينه وبين نفسه بخلوها من الحرارة ، فاضطر أن يقرن اعتذاره بوعد بالحصول على المعلومة المطلوبة فى وقت قصير .

عقب العميد جميل وكأنه يعطيه فرصة للتكفير عن ذنب وقع فيه :

– خلال عشر دقائق على الأكثر .

فتمتم الضابط وقد تخايلت له الصلة الخاصة التى تربط عصام بعدد من زملائه مفتاحا للموقف ، فلم يكن ميالا فى مثل هذه الساعة المبكرة إلى الاتصال بالبيت حتى لا يزعج من فيه .

– تمام يا فندم .

وانطلق من فوره إلى جناح ضباط العمليات ليسأل عن هشام أو مؤنس اللذين يمثلان مع عصام أضلاع المثلث المشهور بين الزملاء بثلاثى « النغم » ، ربما لأنهم كانوا يرددون كثيرا فى كل مناسبة – وأحيانا من غير مناسبة – عبارات اللواء الدكتور مدير الأكاديمية وأستاذ التوجيه المعنوى بها ، وهى العبارات التى حفظوها عن ظهر قلب بعد أن بهروا به . وهو يلقى عليهم خلاصة خبرته البوليسية ليؤهلهم للعمل الأمنى الذى يجب أن يمارسوه متخلصين من كل المعوقات التى تحد من قدرتهم وتعوق انطلاقهم ، وفى طليعتها الأفكار الضارة عن القيم ، وترددت فى أذنيه وهو فى طريقه إلى الجناح الكلمات التى يرددها أفراد الثلاثى للضباط حديثى التخرج وكأنها ترنيمات لحن مقدس :

« الهدف الحقيقى للإنسان هو الحصول على المتعة فى كل لحظة ، فى أى مجال ، وعن أى طريق وبأى صورة ، والمتعة أنواع ،

ولكنها مع تنوعها واختلاف اسبابها وتعدد أساليبها لا تخرج عن قسمين:

الأول موقوت بفترة محدودة ، قد تقصر وقد تطول ولكنها أبدا لا تستمر ولا تدوم .

والثاني مستمر ودائم وباق . وأروع المتع وأعمقها أثرا هي الدائمة ، لأنها هي التي تمنح الإنسان الرضى المطلق ، أما المحدودة فلا تمنح صاحبها الرضى إلا في فترة الممارسة وحدها ، وهي – بالضرورة – زائلة ، مثل لذة الجنس ، ولذة الشرب ، ولذة المال ، ولذة الترقية ، ولذة التسلط ، إنها جميعا لذات ممتعة ولكن متعتها محدودة بفترة ليس لها امتداد ، وهي لذلك عاجزة عن أن تمنح الإنسان المتعة التي تتخطى حدود الزمان والمكان . المتعة التي يجب البحث عنها إذن والحرص عليها هي الدائمة ، وهي لا توجد إلا في عملية « الخلق » خلق شئ لا وجود له ، وذلك ممكن في مجال عملنا من خلال إعادة تشكيل العنصر البشري الذي يتصل بنا أو يتعامل معنا ، فلو استطعنا صياغة هذا العنصر كما نريد لحققنا متعة دونها كل المتع ولذة أعمق من كل اللذات ، لأنها مزيج من القوة والسيطرة والإبداع ، إنه لامتعة قط تشبهها ولا لذة على الإطلاق تدانيها . لأن الخلق وحده هو العمل الفذ الذي تنبثق قيمته منه وتكمن متعته في داخله ، وأنتم بإعادة التشكيل تمارسون نوعا من الخلق ربما كان أصعب من الخلق الأول وأشق ، لأنكم تعيدون تشكيل كيان قد صاغه المجتمع بعاداته ونظمه ومقولاته وعلاقاته ، ومنحه بالفعل خصائصه ومقوماته وآراءه ومعتقداته ، وأنتم بإعادة التشكيل تخلقون خلقا أصعب وأشق لسبب آخر ، وهو أنكم قد تواجهون – بالإضافة إلى المقاومة الطبيعية للكائن البشري الذي تعيدون صياغته – صعوبات أخرى كامنة فيكم أنتم

نتيجة لسوء الفهم ، متمثلة فى مشاعر شفقة كاذبة أو رحمة زائفة ، إياكم وهذه المشاعر ، فإنها تحمل على التردد وتقود إلى الخذلان » .

أفاق الضابط عند وصوله إلى الجناح على مفاجأة غير مستحبة ، فلم يكن أحد من الضباط موجودا سوى الضابط النوبتجى الذى أبلغه بأن الضباط رجعوا إلى منازلهم بعد عودتهم من العمليات ، ولكنه ما لبث أن استدرك – حين شاهد الضيق على وجهه – فذكر أنه يحتمل أن يكون بعضهم قد نزل لمتابعة التحقيقات . ولما سأل ضابط الاتصال الداخلى ليتأكد :

– هشام أو مؤنس هناك ؟

هز زميله كتفيه وهو يقول :

– لا أظن .

وأضاف وهو يمد يده إلى الجرس :

– تحب أن أرسل المراسلة ليتأكد .

فرد ضابط الاتصال بعجلة :

– لا وقت لدى ، سأذهب بنفسى .

واستدار ليغادر الغرفة ، فنظر الضابط النوبتجى إليه وهو يمضى ، وهم بأن يقول : « وهل يستطيع مثلك أن يتحمل أن يرى ما هنالك ؟ » ولكنه عدل ، فقد تملكته رغبة مفاجئة فى أن يرى الرجل ويسمع ، وقال لنفسه : *« من الضرورى أن يعرف ، فلا يليق بضابط فى القوات الخاصة مهما كان موقعه فيها أن يجهل ما يتحمله زملاؤه من أعباء لمجرد أنه يكتب بعض الأشعار السخيفة التى لا يفهمها أحد »* . وتركه ليأخذ طريقه إلى الطابق المسحور الذى يشغل الدور الأوسط من البدروم ، بين الطابق الأعلى الذى تشغله مخازن المهمات والذخيرة ، والطابق الأسفل الذى يشغله الحجز .

* * *

حين نقلت كاميرات المراقبة صورة ضابط الاتصال الداخلى وهو يمضى فى السرداب الخاص بالطابق المسحور إلى غرفة الكونترول الواقعة فى مواجهة البوابة الحديدية من الداخل أشار ضابط المراقبة إلى جهاز التليفزيون الذى ظهرت عليه الصورة وقال بصوت مرتفع حتى يطغى على الأصوات الصادرة من الأجهزة المختلفة :

- الرائد كمال سليم .

وانتظر لحظة لعله يسمع جوابا ، لكن الضباط كانوا مشغولين بالتحديق فى الأجهزة التى تحمل لكل منهم وقائع ما يدور فى غرفة من الغرف الداخلية المعدة للتحقيق ، فاضطر ضابط المراقبة أن يكرر الاسم مرة أخرى . فرد أحدهم وهو ما زال يتابع بإهتمام ما يرى :

- ماذا يريد ؟

بينما أو ما آخر برأسه ، وقال ثالث من غير أن يصرف بصره عن الجهاز الذى أمامه :

- دعه يدخل .

فضغط ضابط المراقبة زرار التحكم الكهربائى ، وهكذا حين وصل الرائد كمال إلى البوابة الحديدية فى نهاية السرداب وجدها تنفتح تلقائيا ، وما أن عبرها حتى أغلقت آليا ليجد أحد ضباط الصف فى انتظاره ليقوده إلى غرفة الاستقبال الملحقة بالكونترول ثم ينصرف .

لم يستغرق بقاؤه منتظرا سوى برهة قصيرة ، ولكنه لشدة توتره خالها أمدا طويلا حتى أنه أحس بشئ من الندم لأنه لم يستجب لاقتراح زميله ضابط العمليات المناوب وحضر بنفسه ، لماذا فعل ذلك مع أنه عادة لا يحب أن ينزل إلى الطابق المسحور الذى ينتابه فيه إحساس غامض بالضيق لا يعرف له سببا ، ولعله لهذا التجنب الاختيارى لمطبخ العمل اليومى ينظر زملاؤه فى العمليات إليه نظرة يشوبها شئ من الاستخفاف الداخلى ، وكأنه كيان هش غير مؤهل بطبيعته لما يمارسونه من طقوس .

- ادخل يا رجل ، وهل أنت فى حاجة إلى إذن ؟

فاجأه الصوت الودود المتشح بنبرة استطلاع هادئة فالتفت ليجد أحد الضباط يجتاز باب حجرة الكونترول الداخلية متوجها إليه مادا ذراعيه معا وقد علت وجهه بشاشة تنم عن طمأنينة نفسية برغم ما تحمله الملامح من إجهاد جسدى ، تمتم كمال بعبارات شكر أعقبها بعجلة وكأنه يبرر حضوره :

- حضرت لأسأل عن هشام أو مؤنس .

رد زميله بعد أن أفلته من بين ذراعيه وكأنه يعتب :

- وهل لابد أن تحضر لسبب ؟ ألا يمكن أن تحضر مرة لزيارتنا ؟

وقاده ممسكا بذراعه إلى غرفة الكونترول وهو يتابع :

- لم أر هشام ، أما مؤنس ففى الحجز وسأرسل من يحضره .

هم بأن يعتذر بعد أن التقطت أذناه من خلال باب الكونترول المفتوح ضجيجا عاليا لم يميز منه غير أصوات صراخ حادة ، وقال بتردد :

- لا أريد أن أعطلكم .

فرد زميله بتلقائية دون أن يفلت ذراعه :

- لن تعطلنا عن شئ ، نحن فى المراقبة .

ثم أضاف وكأنه يغريه :

- فرصة لكى تتفرج على الأجهزة الحديثة .

تمتم كمال وهو يتبعه :

- أجهزة المعونة الأمريكية .

فعقب زميله بثقة :

- حاجة رائعة فعلا .

وما كادا يخطوان خطواتهما الأولى داخل حجرة الكونترول حتى توقف كمال وفتح فمه مندهشا . فقد كانت الغرفة مليئة بأجهزة تليفزيونية يقدم كل منها بوضوح شديد ما يدور فى غرفة من غرف التحقيق . الصورة الملونة شديدة الدقة وكأنها تقدم الأبعاد الثلاثة . والصوت المجسم الذى يحكى كل انفعال ويجسد كل خلجة . كأن الغرفة ستوديو إرسال تليفزيونى متعدد القنوات . ما كاد كمال يتمالك نفسه حتى صاح متعجبا :

– ما هذا ؟

فرد زميله باعتزاز :

– تكنولوجيا .

ثم أضاف بسعادة :

– أحدث ما فى العصر من تكنولوجيا .

صمت كمال فأغرى الصمت زميله بالمتابعة :

– كان عندنا من قبل جهاز واحد أبيض وأسود ، وبالطبع لم تكن المراقبة ميسورة . أما الآن فعندنا عشرة أجهزة ، بواسطتها نستطيع أن نتابع ما يدور فى عشرة أماكن مختلفة فى وقت واحد .

ظل كمال صامتا وعيناه تطوفان بالأجهزة فاستمر زميله :

– أهم ما فى الأجهزة أن كل كاميرا مزودة بجهاز يقيس قوة الإشعاع الصادر عن الجسم المراد متابعته ، وبضبط قوة الإشعاع تفتش الكاميرا آليا عن هذا الجسم وتتابعه فلا تغيب صورته عنا لحظة واحدة .

أشار كمال بيده فى حركة نصف دائرية إلى الأجهزة ونظر إلى زميله متسائلا :

– متهمون ؟

فضحك زميله ساخرا ، وكأنما يؤنبه على غفلته ، ثم اقتضب ضحكته ليقول :

– وهل هذه معاملة متهمين ؟! إنهم مجرد رهائن .

تنقلت عينا كمال بين الصور المختلفة وكأنه يشهد مناظر رعب فى فيلم سينمائى ، ثم توقفت عيناه أمام صورة امرأة مصلوبة تنزف من مواضع شتى ، كانت نظرات الفزع فى عينيها تجسد الخوف الذى يتملكها وهى تتابع رجلا مقنعا يعلق بصدرها العارى مشابك معدنية متصلة بأسلاك ، أخذت تصيح صياحا مروعا وهى تستنجد وتستعطف ، والرجل ماض فى عمله وكأنه لا يسمع ، وما لبثت صورة الرجل أن غابت ليبدأ عقبها صراخ ألم هائل وجسد المرأة كله يرتجف وكأنها تلفظ أنفاسها ، أشاح كمال ببصره عن الجهاز الذى يحمل صورتها فلاحظ زميله فقال مفسرا وكأنه يهون عليه :

– يساريّة بنت قحبة لا تريد أن تعترف بمكان رفيقها .

ثم تابع وكأنه يعرض عليه نموذجا من متاعب العمل مشيرا إلى جهاز آخر :

– وهذه زوجة يمينى خطير تدعى أنها لا تعرف مكانه .

وضحك بصوت عال وهو يضيف :

– هل توجد امرأة لا تعرف مكان زوجها ؟

نظر كمال فوجد امرأة ملتصقة بحائط وقد تكومت على نفسها وألصقت ساقيها بصدرها الذى تمزقت عنه الثياب وقد جحظت عيناها من الرعب وعدد من الكلاب يتواثب حولها ، والمرأة لا تصدر عنها نأمة وكأنها غائبة عن الوعى ، أخذ أحد الكلاب يلعق وجهها الذى لا تتبين ملامحه مما فيه من كدمات ويعلوه من دماء ، وآخر يغرس أنيابه فى فخذها ، وثالث رفع يده وأسندها إلى رأسها يبول عليها ، صرف كمال نظره وقال باشمئزاز مقرون بخوف غريزى :

- كلاب !

فعقب زميله وكأنه يطمئنه .

- إنها مدربة جيدة .

وتابع بفخر :

- لقد استوردناها خصيصا من المانيا ، كلاب إلزاسية أصيلة .

صمت كمال فأضاف مفسرا :

- إن تأثيرها النفسى ممتاز .

استمر كمال صامتا فسأله :

- هل حضرت الدورة النفسية ؟

فلما اكتفى كمال بهز رأسه نفيا عقب زميله :

- لو أنك حضرتها لا ستفدت كثيرا .

اضطر كمال أن يجاريه فقال :

- قد أحضر الدورة المقبلة .

فقال زميله بعفوية :

- ستدرك بعدها أننا نطبق أحدث الوسائل العلمية والاتجاهات العلمية معا .

أحس بالضيق يتفجر فى أعمق أعماقه ، وأوشكت أن تظهر على السطح مشاعر غضب لم يجد له دفعا ، ووجد نفسه يعقب :

- وهل تمنع الوسائل الحديثة وقوع ضحايا ؟

فرد زميله بحسم :

- قطعا .

حدق فى عينيه فاستدرك :

- على الأقل تقل النسبة إلى حد كبير .

استمر محدقا فيه وكأنه يتوقع عدوله عن رأيه ، فأضاف مبررا :

- ثم إنه ليس مهما وقوع خسائر بشرية ، المهم النتائج النهائية ، ونحن نصل إلى أفضل النتائج دائما .

ردد كمال ببرود .

- دائما .

ضحك زميله وكأنما سمع نكتة وأضاف :

- صدقنى إذا قلت لك إن خسائرنا هنا أقل الخسائر على الإطلاق ، وهى بكل المقاييس تافهة لو قارناها بما يحدث فى فروع أخرى .

تملكت كمال قشعريرة ارتجفت لها أعماقه كما لو أن نصلا حادا قد اخترقها ، كان يعى ما حوله ويتابع زملاءه ، ويتأمل الأجهزة ويناقش ويحلل ولكنه فى نفس الوقت كان يعانى إحساس من يقفز من قمة خطرة فى فراغ ضبابى تتعذر فيه الرؤية ، إحساس يتداخل فيه الخوف والحزن والسخط والغضب والأمل فى أن تنتهى اللحظة دون أن تترك آثارا مدمرة على السطح كما تركت فى الأعماق ، وتشبث بالقناع الجامد الذى شده على وجهه محاولا أن يغطى به التيارات المتضاربة التى تموج بها نفسه وتشاغل بالنظر وكأنه يتأمل تفاصيل راحت معالمها تنوب أمام عينيه وتتلاشى ، وحاذر أن يتكلم بعد أن شعر بالغربة إزاء نبراته وكأنما يسمعها من خلال بوق ، وهم بالحركة ولم تستجب قدماه وكأنما شدتا بمسامير من فولاذ .

- معقول ؟ أبو كمال بنفسه فى المراقبة ؟ ! ما الذى ألقى بالشاعر فى الجب مع الكادحين ؟ !

أيقظته النبرات الصاخبة المعهودة فى مؤنس ، فالتفت ليجده على بعد خطوة

واحدة منه مقبلا مادا إليه يده الضخمة لتقتنص يده وهو يتابع وكأنه يتعجب :

- لم أصدق أنك هنا .

هم كمال أن يفتح فمه ولكن مؤنس لم يدع له فرصة واستمر يتحدث ضاحكا حديثا لم يتجاوز أذنيه ، فقد شغلته محاولة السيطرة على انفعالاته وأخرج من جيبه مجموعة من المناديل الورقية ليجفف العرق الذى كان يسيل على وجهه ورقبته حتى نضحت به ملابسه ، ولم يكد يقول :

- الجو هنا خانق .

حتى توالت عبارات زملائه مستنكرة :

- بالعكس ، الجو الآن لطيف جدا .

- التكييف يعمل بكفاءة .

- لعلها حساسية الشعراء .

- هذه صيحة أبولو .

وعقب مؤنس بصوته الصاخب :

- صدقت ، فبروفيل وجهه يشبه آلهة اليونان التى رأيناها فى الرحلة الترفيهية فى العام الماضى .

فاضطر أن يقول وكأنه يعتذر عن الانصراف :

- وهل تعيش الآلهة مع الشياطين ؟ ! هيا بنا .

فانفجروا جميعا ضاحكين وكمال يشد مؤنس إلى الخارج .

الفصل السابع عشر
اعزف صوتا أو ... انزف دما

اللواء سمير وقد استبد به الإعجاب :

صاح – أنت ولد رائع ، أنت فنان فعلا .

فعلت وجه النقيب فوزى – المهندس الذى يضبط أجهزة المراقبة الخاصة فى مكتب الباشا – بسمة سعادة حقيقية ، وتراجع إلى الخلف خطوتين متأملا صورة الوجه العجوز بتجاعيده الفنية بالتفاصيل الدقيقة التى قد لا يلحظها أحد حتى المحقق نفسه ، ثم التفت إلى الباشا وغمغم :

– هذه شهادة أعتز بها معالى الباشا .

وعاد مرة أخرى إلي موقعه الأول ليضبط نغمة الصوت ، وما لبث أن تمتم بصوت خافت وكأنما يحدث نفسه :

– ومع ذلك لا يريدون أن يضموني إلى النقابة .

استرخى الباشا فى المقعد الوثير بعد أن أعاد وضع وسادة السيرما المطرزة

بالخيوط الفضية تحت قدميه فوق المنضدة المقابلة استعدادا لجلسة طويلة يتابع فيها العجوز الذى جسدت ملامحه مدى ما يعانيه من إرهاق مع أنه لم يقض فى ضيافتهم حتى الآن غير بضع ساعات ، نظر إلى التليفزيون وهو يقول فى نفسه : « *ها قد وقعت أخيرا أيها الأحمق ولن تفلت من بين يدىّ* » . والتفت إلى فوزى وقال :

– لا تهتم بموقفهم ، إنهم حثالة .

رد فوزى بصوت خفيض وكأنما يحاذر أن يسمع :

– حثالة لكنهم يصمدون .

هل قرأ الباشا شفتيه أم تسللت العبارة إلى أذنيه حين قال :

– خلال مدة قصيرة جدا سيكون كل شئ على ما يرام .

ثم أضاف وهو يتابع عينى العجوز المنكسرتين وهما تطرفان بعصبية من خلال زجاج النظارة السميك :

– لن تكون مجرد عضو عادى بل ستكون فى مجلس النقابة .

أوشك فوزى أن يصرخ من المفاجأة ، ولكنه تمالك نفسه بصعوبة ، واستدار ليواجه الباشا بعينين أغمضهما التقديس وصوت يختلج بالامتنان :

– فى خدمة معاليكم دائما يا باشا .

وتقدم مادا يده بأجهزة اللاسلكى فأشار إليه الباشا بأن يضعها فى مكانها المعهود فى متناول يده وهو يسأل :

– جاهزة ؟

فرد فوزى بثقة :

– كله تمام معالى الباشا .

عقب اللواء ، ربما ليتأكد :

– تعرف التعليمات .

أوشك فوزى أن يرد : « *احفظها عن ظهر قلب ، فلا حاجة لمعاليكم إلى تذكيرى بها* » لولا أنه أحس أن السؤال يعكس أهمية خاصة للتحقيق ، تعجب كيف يكون لهذا العجوز الفانى الذى يحتل وجهه الباشا الشاشة كل هذه الأهمية وقال :

– توب سكريت معالى الباشا .

واستعرض ذهنه تلقائيا أهم ما يجب عليه طبقا لتقاليد العمل المتبعة ، أن يحرص على أنقى تسجيل ممكن بالصوت والصورة ، وأن يحصل على تحليلات صوتية كاملة لتساعد فى عملية المونتاج . وأن تكون النسخة الأصلية من التسجيلات بين يدى الباشا فور انتهاء التحقيق ، وألا تتم أى عملية للمونتاج إلا بمقتضى توجيهاته شخصيا .

هز الباشا رأسه راضيا :

– شف شغلك .

وأخذت عيناه تتبعان الوجه العجوز وهو يجيب على الأسئلة التقليدية :

– عبد العزيز همام .

– ٧٤ سنة .

– محام وكاتب وأستاذ سابق بكلية الحقوق .

أحس الباشا لحظات أن الصوت الواهن قد تسلل إلى قلبه بمشاعر غير مألوفة ، فتمتم لنفسه وكأنه يخاطبه : « *ما كان أغناك عن هذا لو كنت عاقلا واستمعت إلى النصيحة* » .

– نعم ، كتبت هذه المقالات .

حملت إليه العبارة تجربته المريرة فاستعاد إحساسه الغاضب ، لقد حمله هذا الأخرق عناء لا نظير له ، وكلفه جهودا نفسية وعصبية لا يحتملها بشر ، كان يكتب مهاجما ، وكان يتصاعد بهجومه بالغمز واللمز حتى مس القيادات العليا ، ولما أرسل إليه تحذيرا باسم هذه القيادات ماذا كانت النتيجة ؟ ! تحول قلمه المسموم من الغمز واللمز

إلى التصريح المباشر ، فكتب عن الحاكم لصا ، « ما شأنك أنت بصفقات السلاح وما يتم فيها ، أي إحترام للبلد إذا سمح لمثلك أن يتحدث عن الحكام باعتبارهم مافيا ، أمثلك أيها الأخرق المأفون يتطاول على هيبة الحكم ونظام الدولة » ؟ !

– أنا لا أهاجم ، ولكنني أحلل .

« ها أنت تتراجع جبنا يا من تدّعي البطولة . أنت الذي لم يترك مكانا لم يتحدث فيه عن الفساد والانحراف وأنه سياسة عليا لحماية النهب المنظم » .

– كل ما تقوله صحيح ، لكنه في التحليل النهائي مجرد مكياج يحاول تجميل الحقيقة .

« اتعود ثانية إلى عباراتك الملتوية التي تقطرحقدا ؟ ! » .

– نظريا الديمقراطية الزائفة أسوأ بكثير من الدكتاتورية المباشرة ، لأن الديمقراطية الزائفة تعطل تجمّع القوى وتعلل الناس بآمال كاذبة لا تتحقق قط .

« أيها الثعلب العجوز لا تراوغ ، لسنا بصدد حوار فكري حتى تتحصن وراء النظريات » .

– بالقطع ، فأسوأ أنواع الاستبداد هو الاستبداد الفردي .

« استمر حتى نفتل لك من كلماتك حبلا » .

– بالتأكيد ، فإن من يمنح بوسعه أن يمنع ، لكن يبقى سؤال : ما سند الملكية التي بمقتضاها المنح والمنع .

« أيها المعتوه لن تفهم حتى تموت لأنك لم تقتنص السلطة يوما » .

– معذرة لأن ذاكرتي ضعيفة ، أرجو أن تدلني على دكتاتور واحد لم

يستند فى استبداده إلى مثل هذه الشعارات .

« يا للخبث . تستدرج المحقق إلى المناقشة بدلا من أى يستدرجك إلى الاعتراف » .

– متى اجتمع العدل والاستبداد ؟ أرجو أن تدلنى على نموذج واحد يؤيد ذلك .

عصفت العبارة باتزان الباشا فتملكه الغضب . فالعجوز ماض فى خطته الساخرة لتحويل التحقيق إلى حوار من غير أن يقدم اعترافا صريحا . *« هل أخطأ باختيار المحقق ؟ هل المستشارون أغبياء حين تصوروا أن العنف مع هذا الشيخ الطاعن لا حاجة إليه ؟ » .*

– تسألنى عن أهدافى . حسنا . أهدافى هى أهداف أى مفكر فى هذا البلد . فى استطاعة كل من يقرأ أن يلمسها فى كل ما كتبت .

« أيها الماكر . ها أنت تحاذر من جديد أن تعترف . أين شجاعتك المدعاة » .

– إنها معروفة كالشمس . قلتها بلسانى وكتبتها بقلمى . وهى تعبير عن أحلام أمتنا وطريق خلاصها . سأريحك وألخصها لك فى كلمات : أن يكون الفرد فى وطننا إنسانا لا رقما . وأن يكون الحاكم منا بشرا لا إلها يحتكر الحكمة والرأى والقرار .

« كلمات معتوه . اصرخ بها ما شئت . ستذهب جميعا أدراج الرياح . فلا أحد يسمع . ولا أحد يرى . لا أحد يحس . ولا أحد يفهم » .

– ماذا فى استطاعة مثلى أن يفعل غير الكلمات . إنها عيون العقل

« أيها المجنون . غاب العقل . أى فائدة للعيون » .

- من يدرى ؟ ربما كانت يوما ذراعا لإرادة .

« الإرادة مشلولة ، فما فائدة الذراع » .

- أو وميض أمل يهتك حجب الظلمات .

« خدعتك نفسك ، وكذبتك أحلامك ، تجرى وراء سراب » .

- لكن دعنى أسألك سؤالا ، طبقا لأى قانون تحاكمون الآراء والأفكار .

« دعك من سؤاله وامض فى طريقك ، أنت على الطريق الصحيح وقد بلغ به الإجهاد غايته ، استمر » .

- ذكّرتنى وكنت ناسيا ، هى إذن القوانين المشهورة بأنها سيئة السمعة .

« سفاهة ستدفع أيها المأفون ثمنها ، فالقوانين تقاس بنتائجها لا بسمعتها » .

- لا أوافق بالطبع على هذا التعبير لأنه غير دقيق ، فسوء السمعة ليس دليلا قطعيا على الانحراف .

« أيها المراوغ ، لن ينقذك منا تراجع » .

- أظن أن التعبير المناسب أنها سيئة السلوك ، ألا ترى أنها جاهزة دائما لتلبية الرغبات الدنسة .

« اخرس يا كلب ، من أنت حتى تصف إرادة الحاكم بالدنس !! » .

* * *

دق التليفون الأحمر دقاته المتميزة ، فرفع جهاز اللاسلكى ليتلقى عن طريقه المكالمة وقد ماجت فى صدره مشاعر مختلطة متباينة ، وحين سمع الصوت المعهود يسأل

عن الأخبار أجاب بنبرات يغمرها الخشوع وكأنه يطمئن المتحدث :

– **مازال يراوغ ، لكن من المؤكد أننا سنحصل على اعتراف كامل خلال وقت قصير .**

هل كان تهكما ذلك الإحساس الذى غلّف الصوت الرصين وهو يقول بتؤدة كأنما يتعجب :

– **وهل فى نيتك تقديمه لمحاكمة ؟ ! .**

همّ أن يعقب : « *وماذا نفعل إن لم تكن نعد لمحاكمة* » لولا أن الصوت أضاف بحسم وهو ينهى المكالمة :

– **أعرف أنه لن يتخلى عنك ذكاؤك ، ولا شك عندى فى مقدرتك على معرفة الاتجاه الصحيح .**

فالقى بجهاز اللاسلكى وقد اخترقته الكلمات حتى خالطت النخاع .

* * *

ماذا يعنى ؟ ، انصرف عن متابعة التحقيق فلم يعد لما يدور قيمة ، « *واضح أن ما يتم ليس هو المطلوب فما المطلوب إذن ؟* » ، بدت المسألة شديدة الغموض وقد زادتها المفاجاة تعقيدا ، لقد كان تصوره فى البداية أن محاكمة خاصة وعاجلة كفيلة بأن تكون رادعا لتيار السفسطة بأسره حين تنتهى بإلقاء رمز من رموزه فى السجن عشر سنوات على الأقل ، وفى القوانين الاستثنائية ما يعاقب على مثل هذه الأفكار وحدها فما بالك إذا أضيف إليها التصريح بها والترويج لها ، ولم يكن مطلوبا لإدانته فى تقديره أكثر من اعتراف صريح بما قال وكتب ، اعتراف لا مجال للتشكك فيه ، حتى لا يدعى أولئك المحامون المزعجون أن تدليسا تم فى مقالاته أو تحريفا تناول تسجيلاته ، ولذلك حين أوصى مستشاروه السياسيون والقانونيون بألا يتولى التحقيق الدكتور مدير الاكاديمية المشهور بفظاظته ملوّحين باحتمال إهدار القيمة القانونية لما يتم عن طريقه من اعترافات أخذ بتوصيتهم واختار البديل المعروف بمقدرته الماكرة على إدارة حوار

خبيث ، وقد مضى التحقيق حتى الآن - برغم تعثره فى البداية - على طريق الاعتراف الكامل ، ولكن ها هو يكتشف أنه إنما كان يحرث فى البحر ، وأن عليه أن يعيد حساباته من جديد . نما التوتر الممزوج بالسخط على الرجل الذى كانت عيناه - برغم ما كان واضحا من إجهاده - تلمعان فى تحدٍّ وكأنهما تتوجهان إليه عبر الشاشة بنظرات الاستخفاف ، وأخذت الكآبة تعربد فى وجدانه وتتسلل بالاضطرات إلى عقله ، أحس أنه على مشارف خطر واضح ، فلم يكن ثمة شئ يزعجه مثل فقدان الاتجاه الصحيح فى اللحظة التى يحس فيها بأنه تحت المجهر ، صرخ فى نفسه جزعا : *« آه ، لو يعلم الحاقدون مدى حساسية القرارات ، إذن لمزقهم الرعب حتى أطراف الأصابع »* .

ما السبيل إلى معرفة الاتجاه الصحيح ؟ أخذ يتمشى فى الحجرة وهو يتأمل الكلمات التى انحفرت فى الذهن عساه يستشف الهدف ، لكنه لم يجد كلمة واحدة تهدى إليه . ليس فى المكالمة إلا شئ واحد هو رفض المحاكمة لكن ماذا بعد ؟ توقف برهة أمام المكتب ثم استدار ببطء وتعلقت عيناه بأعلى وكست وجهه الضراعة وود لو أن معجزة تحدث فتحمل الشفتين المضمومتين على أن تنفرجا لتجيب عن السؤال الذى يدوى فى رأسه دون إجابة : *« ماذا تريد يا سيدى ؟ »* ، لكن المعجزة لم تحدث . وتضافر اليأس والأمل معا على أن يأخذ قراره الصعب ، إن عليه أن يتحمل لغو مستشاريه وكل منهم يستعرض مقدرته السخيفة على حديث يحشد فيه عبارات مجلجلة تصدع الرأس ، لكن لا حيلة فى الأمر ، فلتكن المسئولية مشتركة وليتحدد الاتجاه من خلال رؤية عامة حتى لا تطعنه يد فى الظلام ، جلس إلى مكتبه وارتدى قناعه المسيطر ودق الجرس ليأمر مدير المكتب أن يُدخل المستشارين ، ولم يكد يراهم حتى أشار إليهم بالجلوس فى مواجهته وقال ببطء وكأنه يملى الكلمات :

- أوشك التحقيق المبدئى أن ينتهى ، وقد سار حتى الآن على نحو ما أردتم أنتم وإن كنت مازلت متحفظا . وفى إمكانكم رؤية التسهيلات الكاملة حتى تكونوا جاهزين تماما لمناقشة تحديد

الاتجاه .

هموا بالنهوض ولكن المستشار القانونى سأل :

- هل قدم اعترافا كاملا ؟

رد اللواء سمير بسخرية :

- وما قيمة الاعتراف الكامل ؟

أجاب المستشار القانونى بثقة :

- إنه السند الأساسى لإدانته فى المحاكمة .

عقب اللواء سمير متهكما وهو يحدق فيه :

- وهل تحتاج إدانته إلى محاكمة ؟ !

لمعت عينا المستشار السياسى وقد حدثته النغمة أن تغييراً حدث فى الاتجاه ، وأراد أن يتأكد ، فقال وهو يواصل نهوضه :

- الا يحسن - معالى الباشا - أن يقف على التحقيق خبير نفسى .

فنظر إليه الباشا نظرة سريعة ، ولكنها كافية لتأكيد وصول الرسالة ، وقال بهدوء :

- اطمئن ، سينضم إليكم الدكتور خلال دقائق .

* * *

« *من الممكن استغلال الفترة التى يشاهدون فيها التسجيلات ويتبادلون التعليقات فى متابعة التقارير اليومية* » ، تناول - دون اكتراث - ملف العمليات الأحمر الذى يضم آخر المعلومات وأخذ يتصفحه بعقل مشغول وفكر مشتت ، وجد نفسه على غير عادته منصرفا عن القراءة الكاملة المستوعبة مكتفيا بالاطلاع السريع على الجمل التى رأت الإدارات المختلفة عرضها وحددتها بخطوط ملونة حسب درجات أهميتها ، وما لبث أن ضاق صدره بما يقرأه ، فقد اكتشف أن

بعض الإدارات لا تضع فى الاعتبار طبيعة المرحلة وتتابع عملها كما لو كانت فى ظروف عادية ، وبالتالى لا تجد حرجا فى أن تضع ضمن المسائل المهمة الواجبة العرض على القيادات العليا أخبارا ثانوية القيمة فى هذه الظروف ، فما قيمة نجاحهم الآن فى تسجيل انحراف زوجة سياسى تمهيدا لوضعها تحت السيطرة ، أو فى وقوفهم على علاقة خاصة بين أحد الأعضاء البارزين فى المجلس النيابى وإحدى موظفات المجلس ، أو حصولهم على تسجيل كامل لممارسة جنسية شاذة بين أحد الوزراء وحارسه الخاص ، أو التأكد من أن الاتفاق المعقود بين تجار المخدرات وبعض المحافظين لنقل بضاعتهم قد دخل مرحلة التنفيذ وأنه تستخدم فيه السيارات الرسمية رقم ١ ، أو اكتشاف الشخصيات السياسية الكبيرة الكامنة خلف عمليات الاقتراض من البنوك بضمانات وهمية : « *مثل هذه الأخبار مكانها الأرشيف الشخصى لتستخدم فى الوقت المناسب ، أما أن توضع ضمن تقارير المتابعة اليومية ثم اعتبارها بالغة الأهمية فمعناه أن مديرى الإدارات غائبو الوعى والتفكير ويمارسون عملهم بطريقة بيروقراطية* » ، أغلق الملف وهو يتنهد حسرة « *المصيبة أن هؤلاء القادة الكبار هم الذى يقع عليهم عبء مواجهة تحديات الأمن الداخلى ، وأن منهم من يتصور صلاحيته لكى يحل محله فى موقعه* » !! .

انتقل إلى الملف الأزرق الذى يحتوى على تقارير اتجاهات الرأى العام ، بدأ يقرأ بشئ من الأناة عن ردود الأفعال الواقعة تجاه حملة الاعتقالات الواسعة ، وكلما أمعن فى القراءة كلما انتقل من مرحلة الضيق بضباطه إلى مرحلة الاعتداد بكفاءته ، برغم أنه لم يكن فى معظم التقارير شئ غير مألوف أو غير متوقع ، أليس ذلك وحده دليلا قاطعا على حسن تقديره ودقة قراراته ، مضت عيناه تطالعان وقد استعاد الثقة التى أوشكت فى لحظات أن تهتز إلى أن وصل إلى تحليل جماعة العمل الخاصة التى كونها فى الإدارة المركزية ، وهو التحليل الذى يعنى بردود الأفعال المتوقعة ، فأخذ يقرأه بتؤدة محاولا التركيز الكامل فى كل لفظة من ألفاظه ، داخله وهو يقرأ مشاعر الارتياح ، فقد

أكد التقرير عدم وجود مخاطر متوقعة إذا استمرت السياسة الحالية ، وابتسم سعيدا - ربما للمرة الأولى منذ فترة طويلة - والتقرير يقطع بأن الموقف الحالى شبيه بلعبة شد الحبل بين السلطة والقوى المعارضة ، فإذا أرخت السلطة قبضتها فسيكون الرد التلقائى ازدياد نشاط هذه القوى ، صاح وقد أخذته النشوة :

- هذا صحيح ، هذا صحيح.

ودق بقبضته المكتب وقد تفجرت فيه مشاعر الرضى وقد أيقن بسلامة الاتجاه « *لا سبيل غير الضرب ، الضرب بشدة ، فى كل اتجاه ، ومن غير تردد* » . ودق الجرس ، وطلب إفطارا خاصا من العجة والنقانق ، وتعجب من نفسه وهو يصيح فى مدير المكتب بألفة لا يدرى لها سببا :

- **لاتتأخر على ، أريد أن أكون جاهزا قبل الاجتماع بالمستشارين .**

أصابت النبرات الودود مدير المكتب بالدهشة حتى اتسعت حدقتا عينيه ولكنه لم يستطع إلا أن يقول :

- **تمام يا فندم ، خمس دقائق لا أكثر .**

* * *

استدعاهم فدخلوا الواحد بعد الآخر صامتين تماما ، أخذوا أماكنهم حول مائدة الاجتماع المستطيلة وهو يتأملهم متظاهرا بالنظر فى ملف أمامه ، الوجوه أقنعة جامدة تخفى ما وراءها ، إذن لم يتفقوا على شئ ، لكن بسمة غير منظورة أخذت نرف مطوقة بزاوية فم المستشار السياسى وهو يتأمل المستشار القانونى الذى ما إن جلس على المائدة حتى أخذ يدون بعض الملحوظات ، صرف المستشار السياسى النظر عن زميله وأرسل إليه نظرة موحية فردها إليه بنظرة مشجعة ، تبادلا حوارًا داخليا لم يشاركهما فيه أحد :

« - *إنه يسجل المواد التى يمكن أن يحاكم بمقتضاها .*

- *أيظل دائما أسير اتجاهات متخلفة عن مواكبة الواقع ؟*

- ألم أقل لمعاليكم ؟ مجرد تكنوقراط وليست لديه القدرة على فهم المتغيرات.

- هذا بالضبط هو المطلوب ، إنه الغطاء الضرورى لما يتم عمله .

- وهل نحن فى حاجة إلى غطاء شكلى ؟ !

- لاتكن غبيا ، مضى العصر الذى كانت فيه كلمة الحاكم عارية من أى غطاء هى القانون .

- إرادته عندى تعلو كل قانون ، هكذا يعلمنا الواقع .

- تصريح أحمق ، إرادته والقانون سواء ، إذ بإرادته تصدر القوانين وعن رؤيته تعبر » .

- فلنبدأ يا سادة :

خيم الصمت مليا وتبادلت العيون النظرات مستطلعة ، من يبدأ ؟ فى مرات سابقة كان الباشا هو الذى يبدأ الحديث ، يحدد الموضوع ، ويذكر الوقائع ، ويشرح التصورات ، ويبين الأهداف ، ثم يترك للمناقشة أن تحدد التفاصيل الصغيرة لما يمكن عمله ، وأن تقدم السيناريوهات الكاملة القابلة للتنفيذ وصولا إلى الأهداف المرجوة ، لكن ذلك لم يكن تقليدا مطردا دائما ، ففى مرات أخرى كان الباشا يترك الكلمة للمستشار السياسى ليشرح الإطار العام للموضوع المطروح والاحتمالات الممكنة فيه ، والنتائج المتوقعة فى كل احتمال ، وفى مرات أخرى كان يعطى الكلمة للمساعد العسكرى ليقدم الاحتياجات الأمنية ومتطلباتها ، ولم يحدث من قبل أن ترك الكلمة أولا للمستشار القانونى ، فلقد كان ثمة اقتناع بينهم جميعا بأن وظيفته العملية هى إسباغ الصبغة القانونية على كل ما يتم التوصل إليه من إجراءات ، ولذلك كان مفاجأة حقيقية أن يقطع الباشا الصمت ، ليقول المستشار القانونى وهو يضغط على الكلمات :

- نحن أمام موقف شديد الحساسية ، لأن عبد العزيز همام ليس رجلا عاديا ، بل هو محام بارع ، وهو يستخدم براعته القانونية

فى السخرية من النظام والتشهير به ، ثم إنه بالإضافة إلى ذلك أصبح رمزا بعد أن التف حوله المعارضون ، ولذلك فإننا فى حاجة إلى تصور واضح لما يجب عمله ، تصور يتسم بالدقة والحذر والإيجابية والقدرة على الردع جميعا ، فهل فى استطاعتك أن تقدم لنا هذا التصور ؟

أخذه الموقف على غرّة ، فمع البداية دائما خطر الريادة ومحاذير الاستكشاف ، فأين يرنو ببصره وفى أى اتجاه يمضى ؟ دارت عيناه فى المحيطين به فلم تزدها القسمات الجامدة والنظرات الباردة المستطلعة إلا قلقا ، حاول أن يتماسك وأثر أن يبدأ بالمسلمات حتى تتبلور لديه الاتجاهات :

– هذا الرجل نشاز ، فهو ضد التيار العام للشعب والحكومة ، أعنى أنه يعزف نغمة غير مقبولة من الشعب والحكومة على السواء .

أحس بأن صوته الخافت يتضافر مع كلماته الجوفاء على كشف فراغه الذهنى ، فلم يجد بدا من أن يمضى فى تأكيد موقفه :

– إن ما قاله تعبير واضح عن شهوة الزعامة ، وفيه تجاوز لكل مدى يمكن السماح به ، فلقد يسمح لمثل هذه الأفكار بأن تتردد فى الصدور لاستحالة السيطرة عليها ، وربما يسمح لها لأسباب عملية وسياسية أن تقال فى دوائر محدودة فى أضيق نطاق ما دامت تحت السيطرة الكاملة ، أما إذا حاول أحد اجتياز هذا النطاق فإنه يصبح عقبة يجب إزالتها ، لأنه حينئذ ضد استقرار النظام كله .

صاح المستشار السياسى وكأنما أمسك به متلبسا :

– هذه الأفكار لا يرددها إلا المنحرفون عن الخط الوطنى .

بوغت المستشار القانونى فصمت برهة اغتنمها المستشار السياسى فأضاف :

- **لا يمكن أن يجول فى خاطر وطنى مخلص تشويه النظام والنيل من إنجازاته التاريخية .**

استنهض المستشار القانونى كل قدراته ليقول بهدوء :

- **بالطبع ، أنا معك ولم أخالفك ، المسألة هى كيف نعالج مثل هـذا الانحراف .**

أغرى التسليم المستشار السياسى فآثر استمرار الهجوم :

- **تسميه انحرافا لكننى أسميه خيانة وطنية .**

تأملهما الباشا وهما يتناقشان ، ثم ألقى ببصره إلى السقف فوق المائدة ، كان يعلم أن أجهزة الاستماع تسجل وتنقل ، وأن المستشار السياسى قد استطاع أن يكتسب عددا من النقاط ، لكن المشكلة مازالت قائمة ، إن عليه أن يصل من خلالهم إلى تصور واضح ومحدد ، فليكبح جماح المستشار السياسى حتى يوضح المستشار القانونى تصوره .

قال الباشا بهدوء من يستعد للفصل بين طرفين متحاربين :

- **أظن أن التسمية مسألة ثانوية الأهمية ، المشكلة الأساسية الآن تحديد الاتجاه .**

سارع المستشار السياسى ليسجل نقطة جديدة :

- **اسمع لى معالى الباشا ، تحديد التسمية معناه تصنيف الجريمة ، والتصنيف نقطة البدء الصحيحة لمعاملتها .**

عقّب الباشا فى سره : ***« يا ندل يا وسخ ، حتى أنا لا تتردد فى أن تسجل من خلالى نقطة بعد كل ما عملته لك » .***

تساءل المستشار القانونى وكأنه يحاول استئناف ما انقطع :

- **تقصد التكييف القانونى ؟ إننى لم أبدأ بعد .**

واصل المستشار السياسي بثبات :

– ما أقصده أوسع دائرة من النصوص .

قال الباشا بحسم :

– فلنتركه أولا يقول ما عنده .

« *هل يمكن أن يحدث هذا ؟* » ، داخل الباشا إحساس عميق بالحيرة لما وجد نفسه عليه من تشوش ، فبرغم حرصه الكامل على أن يتابع ما يقوله المستشار القانوني فإنه لم يستطع التركيز تماما ، خالط حديث الرجل عن خطورة كلام عبد العزيز حمام وضرورة معالجة الموقف في إطار قانوني محكم وقدرة القوانين الاستثنائية على توقيع عقوبة رادعة حديث داخلي آخر أشبه بحوار نفسي حول موقف المستشار السياسي ، بدأ بشيء من الأسى لرؤية الرجل الذي أنقذه من الإدانة وأغلق ملف انحرافاته ومنحه الفرصة ليكون واحدا من رجاله لا يتورع عن محاولة الكسب على حسابه الشخصي ، وانتهى بالتفكير في احتمال أن يكون للرجل مصادر معلومات خاصة ، وأنه يستثمر رياحا غير منظورة في حمله إلى مواقع أكثر تقدما ، « *من يدري ؟ ربما يطيح بمنافسيه بعيدا ، ألم يفعل هو نفسه ذلك ؟ أراوده ،بدوره ، حلم السلطة الغلاب وعرف الطريق إليه بالمزايدة ؟!* » .

تنبه تماما والمستشار القانوني يلخص موقفه النهائي بصوت لا يخلو من تردد :

– لكنني لاعتبارات كثيرة لا أحبذ أن تكون المحاكمة مدنية ، فليس في الإمكان السيطرة تماما على القضاء المدني ، كما أن المحامين قادرون على أن يحولوا القضية إلى قضية رأي ، فتصبح المحاكمة للنظام لا لعبد العزيز حمام ، وخلاصا من هذه المزالق أوثر أن تتم المحاكمة أمام دائرة عسكرية خاصة ، وبالتالي تكون لدى القيادة – وهي الآمرة بالتشكيل – الفرصة كاملة لتحقيق ماتريد ، بدءا من الحكم بالإعدام وانتهاء بالعفو التام ، طبقا لما يجد من ظروف .

بدت الفكرة للباشا مغرية ، « إن من الممكن بتنفيذها ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فلو صدر الحكم بالإعدام لكان رادعا تماما لكل النماذج التى تشارك فى النشاط العام ، ولو صدر بعد ذلك قرار بتخفيف الحكم لاعتبارات صحية لحظيت القيادة بتقدير كبير لرعايتها للجوانب الإنسانية ، خصوصا إذا واكبت المحاكمة حملة إعلامية مكثفة فى كل مراحلها ، كيف غابت عنه هذه الفكرة من قبل ؟ ! » .

تساءل الباشا وكأنما ليقنع نفسه :

– ما الغطاء القانونى لتقديمه لمحاكمة عسكرية ؟

رد الرجل بصوت بدأت تخالطه الثقة :

– بتهمة بناء تنظيم يهدف إلى قلب نظام الحكم .

وصمت لحظة ليضيف :

– وحبذا أن يشترك فى التنظيم بعض العسكرين .

قال الباشا فى سره وقد خطرت بباله بعض التقارير : « *مزيد من العصافير بنفس الحجر* » ، ونظر إلى المستشار السياسى وقال بهدوء :

– الآن جاء دورك .

كاد يصرخ وهو يقول :

– أنا لست مع المحاكمة حتى ولو كانت أمام محكمة عسكرية ، حتى ولو كانت سرية .

وأضاف قبل أن يبادره أحد بسؤال :

– إن المحاكمة ستعطى فرصة واسعة لتداول أفكار هذا الرجل ، وستتابعها أجهزة الإعلام مضطرة ، ومهما بذلنا من جهود فى سبيل تصحيحها ستبقى فيها ملامح قادرة على اجتذاب بعض

العناصر المعادية وتوظيفهم لها فى إدانة النظام . سترتفع شعارات تقول هذه عودة إلى عصر محاكم التفتيش ، وسيصبح إصدار الحكم صعبا وتنفيذه أكثر صعوبة .

اعترض المستشار القانونى موضحا :

– لم تم تخفيف الحكم لحقق ذلك كسبا سياسيا كبيرا .

قاطعه المستشار السياسى :

– أولا من قال إن تخفيف الحكم مطلوب ؟ أليس من الجائز أن يكون تنفيذ الحكم هو المطلوب ؟ ثم أليس من الجائز أن يفسَّر تخفيف الحكم على فرض حدوثه على أنه خضوع لقوى التغيير وتقهقر أمامها ، الأمر الذى يغريها بالمزيد .

قال الباشا بنبرة لا تخلو من برود :

– لقد أوضحتَ السلبيات بما فيه من الكفاية ، ألا يوجد لديك تصور إيجابى .

رد المستشار السياسى بثقة من يعرف طريقه :

– فليسمح لى سيدى بأن أشرح وجهة نظرى كاملة .

« *وهل فى مقدوره أن يرفض* » ألقى الباشا نظرة إلى السقف قبل أن تستقر على وجهه وهو يومئ إليه . فى اللحظة نفسها داهمه إحساس هو أقرب إلى التمنى بأن الرجل يجب أن يفشل فى تقديم وجهة نظره ، لكنه بدأ يتحدث بحرص وتؤدة ، كانت كلماته تتتابع بدقة من أعد نفسه جيدا لاختبار يجب أن ينجح فيه .

– المسألة كلها فى تقديرى زوبعة فى فنجان ، ومعالجتها بأسلوب غير صحيح هى التى يمكن أن تعطيها أهمية أكثر مما تستحق .

هم الباشا أن يقاطعه ولكنه عدل والكلمات بين شفتيه . وأضاف المستشار

السياسى :

- إن هذا الرجل ليست له تلك القيمة الكبيرة التى يتصورها بعض الناس ، والتى يمكن أن نسهم نحن بطريق غير مباشر فى دعمها لو أخطأنا تحديدها .

اكتفى الباشا بأن قال :

- استمر .

- ما يقوله هذا الرجل مجرد هواجس محدودة القيمة والاهتمام ، سأحلل المسألة موضوعيا للتأكد من أبعادها كاملة ، ولنبدأ بسؤال : هل يمثل كلام هذا الرجل موقفا شعبيا ؟ الجواب بالتأكيد : كلا ، لماذا ؟ لأن التحليل الإحصائى ينتهى بنا إلى هذه الإجابة إذا وضعنا فى اعتبارنا عددا من الحقائق ، أولها أن الشبان تحت سن العشرين ليس لهم هوية ولا اتجاه ، وثانيها أن المرأة بشكل عام سلبية لا إيجابية ، وثالثها أن الرجال فى مرحلة الكهولة يحرصون على البعد عن المخاطرة ، والمخاطر السياسية بصفة خاصة ، ورابعها ، أن البنية النفسية للريف تجعله سلبيا اتكاليا مهما كانت درجة الضغوط الاجتماعية فيه . إذن المسألة فى جوهرها محصورة فى بيئة صغيرة محدودة العدد ، لنقل إنها بيئة المدينة التى تضم موظفين وحرفيين وعمالا ومثقفين ، ولكن هؤلاء فى التحليل الواقعى ليسوا سواء ، لأن الإنسان المطحون بحثا عن رغيف من الخبز أو ملعقتين من السكر أو الزيت أو موطئ قدم فى الأتوبيس لا يملك ترف التفكير فى السياسات العامة . النتيجة أن هذا الرجل لا يمثل إلا قلة قليلة جدا من المثقفين ، ممن لا تحكمهم للأسف تطلعاتهم ولا تقودهم مصالحهم ، لكن ما

نسبة هؤلاء قياسا إلى بقية المثقفين أنفسهم ؟ ، ثم ما نسبتهم إلى مجموع الشعب كله ؟ ، تقريبا لا شئ .

استنفد الباشا صبره والرجل يتكلم بلستانية زادته إحساسا بالغيظ ، وتداعت إلى ذهنه المعلومات التي يتضمنها الملف السرى له ، وأوشك أن يأمره بالدخول مباشرة فى الموضوع حين سمع المستشار القانونى يعترض :

– تجاهل الحقائق لا يلغى وجودها .

فرد المستشار السياسى بتأكيد :

– إذا كانت النسبة إلى الملايين فإنها لا تكون حقيقة واقعية ، ولا تمثل تحديا فعليا .

قال المستشار القانونى :

– الاستهانة بالرأى العام ظاهرة غير صحية .

قاطعه المستشار السياسى :

– لست من يستهينون بشئ ، بالعكس ، أنا ممن يرون حجم الخطر الذى يمكن أن يتسبب فيه أمثال هذا الرجل برغم قلة عددهم ، إنهم يتداولون كلمات مستفزة ، ويلوحون بأحلام وردية ، وشعبنا سهل الانقياد للكلمات والأحلام ، لا أعنى بهذا استعداده للثورة من أجلها ، وإنما الذى أعنيه أنه إذا شاعت مثل هذه الكلمات والأحلام أصبح الناس مستعدين نفسيا لتقبل أى محاولة للاستيلاء على السلطة ، وربما ساندوها بصورة أو بأخرى فى مرحلة حاسمة ، رغبة فى تغيير ما هو قائم ، حتى لو كان ذلك بالقفز إلى المجهول ، سيكون ذلك بالقطع حمقا ورعونة ، ولكن دأب العامة دائما التصرف بنزق وانفعال وعشوائية . ومن هنا فأنا لا أستهين بالكلمات ، ولا أتهاون مطلقا مع أصحابها .

قال الباشا بنفاد صبر :

- هذا الكلام الجيد تنقصه الإجراءات العملية .

رد المستشار السياسى :

- كنت على وشك التحديد .

صمت الباشا فواصل الرجل :

- عندى هدفان أساسيان للإجراءات التى سأقترحها ، الهدف الأول التصفية الفكرية لهذا الاتجاه كله ، والهدف الثانى التصفية الجسدية لرموزه ، والتصفية الفكرية فى تقديرى يجب أن تسبق التصفية الجسدية ، ولا تكون بغير تراجع أمثال هذا الرجل عن مواقفهم ، إنهم بعدولهم عن آرائهم سيكونون أكثر تعبيرا عن عدم واقعية هذه الآراء ، وأشد دلالة على عدم جدواها ، وبذلك يفقدون كل قدرة على التأثير والإثارة ، حتى إذا جاءت لحظة التصفية الجسدية بأى صورة من الصور لم يحس بهم أحد ، بل ربما أحس الناس إزاءهم بالشماتة .

تساءل المستشار القانونى وهو يحاول إخفاء فزعه :

- كيف ؟ ما الوسيلة ؟ لقد رأيتَ معنا التسجيل فهل يمكن أن يتراجع عن آرائه ؟ !

اصطنع المستشار السياسى ضحكة قصيرة وهو يرد :

- طبعا ، ليس فى السياسة مستحيل .

عقب الباشا وهو يحدق فى عينيه وكأنه يعيد اكتشافه :

- وضّح له .

قال المستشار السياسى :

- هناك عدد من الأساليب التى يمكن اللجوء إليها لتحقيق الهدف ، أولها الترغيب ، وثانيها الترهيب ، وأنا لست ميالا إلى أى منهما ، فلقد فقد هذا الرجل القدرة على أن يغريه شئ ، كما فقد القدرة على أن يخشى شيئا ، لكن هناك شئ واحد أظن أنه يحس بخطر الاقتراب منه ، وهو عقله ، وأنا أتساءل هل فى إمكان زميلنا الدكتور مدير الأكاديمية بوسائله الخاصة أن يسيطر عليه ويعيده إلى التيار العام .

كان الاقتراح مفاجأة شديدة القسوة ، وجم الحاضرون ولم ينبس منهم أحد ، فمدير الأكاديمية معروف بأنه صاحب مدرسة فى التعذيب البدنى والنفسى ، وهو يربى الأجيال المتتابعة من الدارسين على حقيقة علمية لا تقبل الشك عنده ، وهى أن العلاقة مطردة بين الجسم والنفس ، وأن أبسط الوسائل لإحداث خلل فى الحالة النفسية عن طريق استخدام مؤثرات جسدية ، لكن استخدام هذه الأساليب مع عجوز بلغ أرذل العمر لحمله على التراجع عن آرائه بدا أمرا بالغ القسوة ، حتى أن الباشا نفسه نظر إلى مدير الأكاديمية مليا وكأنه يغريه بالعدول عن قبول العرض ، ثم قال له بهدوء آملا رفضه :

- ما رأيك ؟

لكن مدير الأكاديمية لم يرفض ، ولعله وجدها فرصة لكى يشرح ما يسئ الآخرون فهمه :

- سيدى ، إن التناقض بين فرد ما ومجتمعه موقف شاذ يجب معالجته ، والمعزوفة التى يتحتم الالتزام بها هى التى يؤدى كل فرد دوره فيها فى نطاق الجماعة ومتطلباتها ، وبما أن السلطة القائمة هى التى تقوم بالتنسيق والقيادة فإن على كل فرد أن يكون على اتساق كامل مع هذه السلطة ، والشخص الذى

يناقضها يسهم فى خلق نشاز لابد من التخلص منه ، ولهذا كان هدفنا دائما إعادة التكوين لهذه العناصر ، ونحن نستخدم الوسائل التى توصلنا إلى هذا الغرض .

قاطعه المستشار القانونى :

- لكن القضاء أدان هذه الوسائل ، وأهدر نتائجها .

رد الرجل بهدوء الواثق :

- الوسائل التى نستعملها تؤدى غرضها بصرف النظر عن موقف القضاء منها .

قال المستشار القانونى بتحفظ ، مخفيا إحساسا ساخرا :

- ربما ! لكنى لا أعرف .

واصل مدير الأكاديمية :

- إن وسائلنا لا تهدف إلى استخلاص المعلومات ، فاستخلاص المعلومات عمل تافه ميسور بواسطة الوسائل الطبية ، مجرد قرص صغير أو حقنة تكفى لأن توصلنا إلى كل ما نريده من معلومات ، لكن هدفنا أكبر من ذلك وأجل شأنا ، هدفنا الأسمى هو إعادة تشكيل الفرد على النحو الذى تريده السلطة فى المجتمع ، بدءا من الصورة الهلامية المشوشة غير القادرة على شئ إلى الأداة القادرة على كل شئ لأنها خلت تماما من الإرادة . ونحن نصل إلى غايتنا هذه بصرف النظر عن بعض السلبيات الثانوية المحدودة القيمة .

برغم حرص المستشار القانونى لكنه وجد نفسه يعقب .

- لكنكم تسرفون أحيانا .

فرد مدير الأكاديمية بحزم مصطنعا ابتسامة :

- إنها حرارة الصهر .

وأضاف المستشار السياسى ضاحكا :

- لا ميلاد بلا عذاب .

قال الباشا ببرود وهو يواصل النظر إلى مدير الأكاديمية :

- إذن فانت مستعد للقيام بالمهمة ؟

فرد بثقة :

- إننى جندى ينفذ ما يصدر إليه من أوامر .

عقب الباشا وقد أرضته العبارة ولكن ظلت فى الأعماق للعجب بذرة ضيق لا يدرى لها سببا :

- نحن لا نتجاهل قدرك ، فانت لواء ودكتور متخصص فى التكيف الاجتماعى وقادر على تحمل المسئولية كاملة .

ابتسم مدير الأكاديمية فى خجل وقد فاجاه الإطراء ، وغمغم بسعادة :

- مهما كنت ومهما كان موقعى ، فساظل جنديا ينفذ ما يصدر إليه من أوامر .

قال الباشا وهو ينهض منهما الاجتماع :

- كن جاهزا ، ساصدر قرارى فى الموضوع خلال ساعات .

* * *

أخذ يتمشى فى الحجرة بعد انصرافهم ممسكا بكأسه الصغيرة التى لم يقربها ، توقف أمام المكتب ووضع الكأس وتطلع إلى الصورة لحظات ثم واصل السير ، داهمه غيظ مفاجئ لما انتهى إليه الاجتماع ، فى خضم المناقشة أغفى القلق ولكنها ما كادت تنتهى حتى استيقظ متفجرا كانها لم تزده إلا ضراما . « *الطريقان مختلفان*

والاختيار صعب ، إما عاصفة واسعة النطاق وإما الريح رخاء والجو صحو . العاصفة قادرة على أن تقتلع كل القوى المضادة والمشكوك فى ولائها أما الريح الرخية فإنها لا تمزق حتى أصغر شراع . حين يكون عبد العزيز همام قمة جبل الثلج تتسع القاعدة لتشمل كل الذين يثرثرون ، من المفكرين والكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعات والمحامين وحتى العسكريين ، وإذا انصهرت القمة وتمخضت عن توبة أبق ظلت القاعدة خطرا يهدد السفينة إلى أجل غير معلوم . لكن ... أليس الكشف عن تجمع بهذا الحجم فى مطلع الولاية الجديدة مظهرا لرفض غير مقبول وعلامة على مواجهة مبكرة ؟ . من الممكن أن يقال إنها محاولة يائسة من الخونة والعملاء الذين أفزعهم إجماع الشعب للمساس بالقيادة التاريخية . لكن ... أتتلاءم العمليات العسكرية الواسعة التى يقتضيها اكتشاف المؤامرة مع دعوى الاستقرار وفرحة الجماهير بالاستمرار ؟ ولم لا ؟ أليست إرادة الاستقرار التى فرضتها الجماهير هى التى تتحرك لتحمى الوطن من الخونة المندسين وباسمها تبطش بالمارقين ... التصفية الكاملة أو التعلل بالأمنيات ؟ ، الإجهاض المبكر أو انتظار المجهول المستكن فى رحم الظلمات ؟ » ...

سمع الرنين المتميز للتليفون الأحمر فسارع برفع السماعة ولما يستقر على قرار ، تلقّفت الأذن الوجلى الصوت المعهود فبادرت الشفاه الضارعة إلى تقديم تقرير موجز شرعت تردفه بتفصيل . قاطع الصوت الحاسم :

– لا داعى للتفاصيل ؟ ولا مجال لتردد .

صمت مستجديا فيض الحكمة ، فهبطت إشاراتها الموحية :

– الكل فى واحد ، والواحد فى الكل ، لكن من الخطل أن يمنح كلب فرصة لعواء .

انشقت الظلمة ، انبلجت الشمس وغمرت الأفق بضوئها الوهّاج ، تعلقت العينان بأعلى وتمتم فى صلاة خاشعة :

« تبارك اسمك ، وتعالى رسمك ، وتقدّس سرك .

بكلمة واحدة منك نهتدى ، وبلمحة خفيّة منك نمضى ، بنظرة غير منظورة منك نرضى ، وإلى بسمة فى علياك نتطلع .

لا وجود إلا بك ، ولا قبس إلا منك ، ولا اعتماد إلا عليك .

لك يا سيدى الملكوت ، وعلينا الرهبوت ، ولا أحد ممن تنفس يفوت .

إن الصامتين لفى خسر ، وإن الناطقين لفى عسر ، إلا الذين يماشون ، فيمشون يمشون ، يملئون بكلمات التمجيد الأسماع ، ويصبغون بنظرات التقديس العيون » .

✍ ✍ ✍

الفصل الثامن عشر
ابسط عشقا كفيك ... واخلع عشقا نعليك

– غلط .

اقتحمت النبرات الحادة الغاضبة أذنى الشاب الوافد الذى لما يستقر بعد فى عمل محدد فى الوكالة فأحدثت لسعة كمس النار ، هز رأسه بحدة ورفع عينيه نحو مصدر الصوت ، كان الحاج محمود صاحب وكالة النقل فى موقعه المألوف حين يتابع العمل مطلا من نافذة مكتبه فى الدور الثانى يشرف ببصره على الساحة كلها . توقفت يدا الشاب اللتان تمسكان بالخطاف الحديدى للرافعة عن الزج به فى ثنايا الحبل المربوط به الصندوق الخشبى . وتابع الحاج وهو يضيق حدقتى عينيه حتى يتفرس الشاب على البعد :

– **لا تدفع الخطاف بين الحبل والصندوق وضعه فى العقدة .**

ابتلع الشاب ريقه بصعوبة وهو ينفذ ماطلب منه ، وهو يقول فى سره : « *لا إله إلا الله ، خطأ جديد ، ربنا يستر* » وتابع بحواسه الرافعة وهى تحمل الصندوق لتضعه فوق اللورى .

ظل الحاج فى موقعه يرقب ما يجرى حتى لايقع خطأ آخر : « *لاينقصه الإصرار وإن كانت تنقصه الخبرة . منذ جاء وهو يعمل بهمة فى كل شئ ، وإن كان – فى حدود مايرى – لايتقن عمل شئ* » ألقى ببصره مرة أخرى على الفريق الذى يعمل بدأب وطاف بفكره لمحة من أسى ممزوج برضى « *على كل هو خير ممن ابتلى بهم كثيرا فى الفترة الماضية ، أولئك الذين تتوافر فيهم الخبرة ولكن ينقصهم الإخلاص وتنعدم فيهم الأمانة* » ، وتنهد بصوت مسموع ، فهاهى التجربة تؤكد من جديد أنه لم يجتمع بعد العنصران الضروريان اللذان يفتش عنها ، الإخلاص والخبرة « *هل كتب عليك أن تظل تدور فى حلقة مفرغة من غير أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام وكأنك ثور فى ساقية . كلما جاء من تتوسم فيه الإخلاص تبين عدم خبرته ، حتى إذا اكتسب الخبرة اللازمة اكتسب معها أخلاقيات السوق : الفهلوة والنصب وشغل الثلاث ورقات* » .

استقر نظام التحميل وأخذ يمضى بشكل طبيعى فغادر الحاج مكانه فى النافذة ليتناول إفطاره ، جلس قباله مكتبه ورفع المنديل المحلاوى الكبير عن الصينية ، ولم يفته – برغم ما ينتابه من شواغل – أن يلحظ أن كمية الفول فى الطبق أقل من المعتاد ، وأن أقراص الطعمية بدورها صارت أصغر حجما ، خطر بباله أن رشاد الطعمجى قرر رفع الأسعار مرة أخرى فى خلال أسبوع واحد وعنّ له أن يتأكد ، فنهض وسار حتى وقف أمام باب المكتب وصاح فى الكاتب وهو يستند إلى الدرابزين الخشبى :

– **حين ينتهى العامل الجديد من التحميل أرسله الىّ .**

رفع عم نجيب رأسه وقال دون أن يتحرك من مكانه :

– **حاضر .**

أردف الحاج بتلقائية :

– **أفطرت ؟**

رد نجيب :

- عندى شوية تعب وسأكتفى بالينسون .

اضطر الحاج أن يسأل بشكل مباشر :

- هل زوّد رشاد أسعاره ثانية ؟

فأجاب نجيب بعفوية :

- ولــم لا ؟! مرة أسعار النقل ومرة الفول مستورد ومرة مفيش زيت ومرة تكاليف إعلان المبايعة ومرة إعلان التهنئة .

قاطعه الحاج متعجبا :

- هو الآخر عمل إعلانا ؟

- لاياسيدى دى تكاليف إعلانات عملها الحى والمحافظة .

عاد الحاج إلى مكتبه ولكنه أحس أنه فقد شهيته ، فغطى الصينية وآثر أن يؤجل إفطاره إلى حين *« لم العجب ؟ إذا كانت المحافظة قد فرضت على كل عضو فى الرابطة ثلاثة آلاف جنيه فى مقابل ذكر اسمه فى سطر واحد فى الإعلانات ، فهل كثير أن يدفع رشاد الطعمجى بضع مئات مع الرأفة ، لكن رشاد ذكى فها هو يبدأ فى تحصيل مادفع ، الدور عليكم فى الرابطة فلابد أن تغيروا نولون الشحن »* .

* * *

قال عم نجيب لسائق اللورى وهو يسلمه بوالص الشحن :

- أين سلامه ؟

فرد السائق وكأنه يستغرب :

- راح ياسيدى يشترى جرنان !

وصمت لحظة ليستحلب الفص المعلق بأسنانه ثم أضاف :

- عمَّال آخر زمن ، الواحد منهم عريان ويقرأ الجرنان !!

رشف عم نجيب رشفة من كوب الينسون الدافئ وهو يتأمل السائق الذى أردف وهو يطوى البوالص ليضعها فى جيبه :

- زمن العجايب .

قال عم نجيب ناصحا :

- خذ بالك من سكتك ، مشوارك طويل .

تمتم السائق فى غير مبالاة وهو يأخذ طريقه إلى الباب :

- خليها على الله .

وخرج إلى الساحة لكنه لمح وهو فى طريقه إلى سيارته سلامة مرتكزا على أحد الصناديق المتناثرة يتصفح صحيفة فصاح فيه :

- كلم عم نجيب .

ولما نظر إليه مستفسرا ليتأكد أضاف :

- أيوه أنت ، سيبك من الهلس الذى فى يدك ورح للرجل .

فطوى صحيفته بعناية ووضعها بين الطرود ثم اتجه إلى المكتب بخطوات ثقال ، ولم يكد يرى عم نجيب مكبا على ملفاته حتى قال بتلقائية :

- سلام عليكم .

لكنه ماكاد ينطقها حتى أحس بوخزة خفيفة فى أعماقه « *ها أنت تفشل مرة أخرى* » فلقد عاهد نفسه منذ علم بأن عم نجيب مسيحى أن يستعمل التحية التى يشيع بين عمال الوكالة ذكرها « سعيده ياعم نجيب » أو « صباح الخير ياعمنا » ، وصافحت أذنيه كلمات عم نجيب وكأنه يترنم بها :

- وعليكم السلام ياسى سلامة .

خففت النغمات الموقّعة التى أحس لها بعنوبة خاصة أثر الوخزة الداخلية ، وانتابه

- عوضا عنها - إحساس عميق بمودة ، فالرجل يتعامل بفطرة سليمة نقية ، ونفس سوية لاتتحكم فيها عقد ، انفرجت أساريره وقال بهدوء مستطلعا :

- خير ياعم نجيب ؟

- خير إن شاء الله .

صحبت الكلمات نظرة تأمل مشبعة بحنو ، أعقبتها لحظة تردد وكأنما همّ أن يبدأ موضوعا ثم آثر تأجيله وقال :

- الحاج يريدك ، اطلع له .

قال لنفسه وأذناه تلتقطان الصرير المتقطع الناتج عن وقع قدميه من على السلم الخشبي المتآكل : « *اللهم اجعله خير* » ، وما هى إلا لحظات حتى كان يدق بإصبعه بخفة الباب الزجاجى الذى كان مدهونا ذات يوم من بضع سنوات باللاكيه الرمادى ، ثم فتح الباب وألقى التحية وهو فى مكانه وقبضة يده اليسرى مازالت ممسكة بالأكرة ، رد الحاج التحية بصوت خفيض وأمره بالدخول ، فدخل وأغلق خلفه الباب ، وماكاد يفعل حتى كان الحاج قد رفع الغطاء عن صينية الافطار ودعاه إلى الطعام قائلا :

- باسم الله .

تمتم الشاب شاكرا ، وبدا واضحا أنه يعتذر فأضاف الحاج ملحا :

- لا داعى للاعتذار ، منذ شروق الشمس ونحن نعمل ولم يفطر أحـد حتى الآن ، اجلس وشاركنى الطعام .

جلس الشاب صامتا دون أن يمد للطعام يدا ، وإن داخله قدر من الراحة ، فالطعام المشترك فاتحة خير ، فتابع الحاج :

- مد يدك يارجل حتى يكون بيننا عيش وملح .

ابتسم الشاب ، هل أغرت الابتسامة الحاج بالتخفف من الوقار ؟ انفجر ضاحكا وقال :

- طعمية عمك رشاد كلها بركة ، نصفها عيش ونصفها ملح ، ومع ذلك يزيد الضلالي في الأسعار .

مد الشاب يده فأمسك برغيف أخذ منه قطعة صغيرة ، ووضعها من غير إدام في فمه ، وبدأ يلوكها في بطء شديد .

حدّق الرجل في العينين العسليتين الشاردتين اللتين لم تستطع الهالات السوداء المحيطة بهما أن تطفئ جاذبيتهما ، وقال وهو يقضم قطعة من قرص طعمية :

- يظهر أنك لاتنام جيدا .

غمغم الشاب فلم تستبن الحروف ، فأضاف الحاج :

- اذا كان السكن الذى دلك عليه نجيب غير مريح فيمكنك أن تنام مؤقتا في المخزن .

صمت الشاب ولم يعقب فواصل الحاج :

- طبعا لن يكون أكثر راحة ، لكن على الأقل ستجد من يؤنسك .

ظل الشاب صامتا فاستمر الحاج :

- وستوفر أجرة مواصلاتك لمحرم بك ، فضلا عن أنك لن تتأخر عن موعد العمل أبدا في أي وقت .

اكتفى الشاب بأن قال وكأنه يمنح نفسه مهلة للتفكير في العرض :

- دفعت الأجرة حتى آخر الشهر .

عقب الحاج بثقة :

- فكر براحتك ، المهم مصلحتك .

انداح الصمت فترة بدت لكليهما طويلة ، مرت فيها بنفس الرجلين المتقابلين أمام الطعام مشاعر متباينة :

قال الحاج في نفسه : « *واضح أنه قلق فهل وراءه سر ؟ رجل مثله*

فى مثل هذا العمر ويقبل المرمطة على هذا النحو لابد أن يكون وراءه سر ، لكن أى سر هو ؟ لابد من معرفة كل شئ حتى لانتورط فى علاقة ربما جرت علينا مشاكل ، ونقطة البدء أن يظل تحت بصرنا تماما حتى نتأكد » .

قال الشاب فى نفسه : « إنه يلف ويدور ، السكن ليس هدفا ولكن الهدف الاستطلاع ، فهل وراء ذلك رغبة صاحب عمل فى الاطمئنان أو شك فى سلوك ؟ لقد مارستَ كل شئ بحذر فهل لفت حذرك النظر ؟ » .

قال الحاج فى سره وهو يلوك طعامه : « لاحظ أنه عازف عن الحديث معك ، فهل يخشاك خوفا أو هيبة ؟ أو يتذرع بالصمت حتى لايسقط فى خطأ قول يضاف إلى خطأ الفعل ؟ هل يفكر فى العرض الذى قدمته له أم يتخذ التأجيل أسلوبا للرفض ؟ » .

قال الشاب فى سره وقد توقف عن طعام لم يقربه إلا لماما : « مَنْ يكون ؟ طيب على نياته أو ثعلب يتشمم فريسة ؟ إذا أصر على عرضه وحوّله إلى قرار فذلك إنذار ، ولابد من اتصال سريع بالجماعة فلا وقت للانتظار » .

نهض الشاب معلنا بعبارة :

- الحمد لله .

فراغه من الطعام ورغبته فى إنهاء الموقف ، أحب أن يحسم الأمر فقال وهو يأخذ طريقه إلى الباب :

- أى أوامر ياحاج ؟

تمتم الحاج شاكرا وقد مسه شئ من غيظ ، وقرر فى نفس اللحظة أن الموضوع مازال معلقا وأن عليه أن يواصله مرة أخرى « آخر الشهر قريب ، وإلى أن يحين الوقت سأتابعك حتى أعرف بالضبط ماوراءك » وقال الشاب وهو يفتح

الباب :

- أرسل الشاى .

أومأ الشاب برأسه مستجيبا وهو يغلق الباب خلفه ، وقد تسلط عليه إحساس بأن المكان لم يعد آمنا بنفس القدر الذى كان عند صعوده ، تصاعد فى أعماقه شعور بالضيق ، فإن عليه أن يعد لرحيل جديد ولما يمض فى مكانه غير بضعة أيام ، لقد أمره الأخ الأكبر ألا يسمح لنفسه بوجود نسبة شك مهما كانت ضئيلة فى المكان الذى يقيم فيه ، وليس له الحق فى أن يخاطر بسلامته الشخصية مهما كانت الظروف .

* * *

لفت صرير الدرجات انتباه عم نجيب فرفع بصره متابعا الشاب وهو يهبط فى حذر غير عادى وقد احتل الشرود محل الترقب فى نظراته ، أدرك أنه تعرض لضغط عصبى من ذلك النوع الذى يستقبل به الحاج عماله الجدد ، فنبت فى أعماقه إحساس غير مفهوم بالتعاطف مع هذا الشاب الذى تدل مؤشرات كثيرة على أنه ابن ناس وقد جار عليه الزمن ، هل كانت الشفقة وحدها الدافع الذى حدا به أن يدعوه إلى الجلوس معه دقائق ؟ تبادلا بالصمت حديثا نسجته مودة وأمد كلماته المتناثرة رؤى مشاركة تلقائية لاتنقلها عبارات ولاتصورها أصوات ، انبجس فى الحنايا شعور أشبه بالوميض ، مزيج من رقة وألفة وعطف ومودة ورغبة فى المساعدة وحرص على أن تلتئم جراح لايعرفها وإن كان لديه احساس بوجودها . *« هل يمكن أن يمتلئ القلب بكل هذه المشاعر تجاه شاب لم تعرفه إلا من أيام لم تتجاوز أسبوعا ؟ أيعود ذلك إلى دماثته وسلوكه الذى يكشف عن عفة وترفع عن الصغائر ، أم لأنه ينقلك إلى عصر الشباب الباكر بكل ما كان فيه من عناء وأمل فى بنى عثمان وأسيوط والأزهر وباب شرقى وأخيرا فى مينا البصل ، ألهذا ساعدته فى الحصول على سكن عند أم فهمى فى محرم بك حتى يكون قريبا منك بحيث تتوثق تلقائيا علاقتك به ؟ لكن ماذا تريد من هذه*

العلاقة ؟ هل معقول أنك تريده عوضا عن الحبيب الغالى الذى لم يحيا بتوسلاتك وأثر الهجرة إلى كندا ؟ هل هذا ممكن ؟ ألا يمكن أن يعود ؟ أما لهذا العذاب من آخر » .

قال عم نجيب وكأنه يخاطب نفسه :

- ماضاقت إلا افترجت ، لاتحمل هما .

هز الشاب رأسه موافقا فأردف عم نجيب وكأنه تنبه إلى وجوده :

- ألا تحفظ آية : (إن بعد العسر يسرا) ؟

ابتسم الشاب ولعله تعجب ، فأضاف عم نجيب وكأنه يفسر :

- لا تعجب ، أنا أحفظ قصار السور ، تعلمت على يد فقيه فى كتاب ولم أتعلم كما يظن بعض الناس فى مدرسة الأمريكان .

تمتم الشاب وكأنما مسته الكلمات برضى :

- إن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا .

وهم بأن يتحرك حين سأله عم نجيب فجأة :

- تعرف حسين عبد الستار ؟

انتصب فى الذاكرة القوام السمهرى والملامح السمراء الباسمة ، وفاض فى القلب نبع حنين لايتوقف ، « *آه ياعمر ، أيها النجم الذى يهدينا فى خضم الظلمات والخيط الذى يجمعنا بعد أن انفرط العقد* » رمشت العينان مرات متتابعة واللسان يقول بتحفظ وجل وكأنه يهمس :

- خير ؟

هل استشعر عم نجيب وقع الاسم عليه حتى آثر أن ينقل إليه بالتفصيل الدقيق المكالمة بعد أن كان قد عقد العزم على أن يكتفى بالإشارة إليها ، ألهذا كرر ثانية مضمونها والشاب يغادر الغرفة :

– إذا كنت محتاجا لشئ فاتصل به قبل أن يسافر فى قطار الثانية عشرة .

– شكرا ياعم نجيب ، ربنا يخليك .

« إذن عمر يطلبك فى لقاء بسيسيل فى السادسة لينقل إليك أنباء خطيرة ، ثمة جديد لاتعلمه فهل له صلة بما تسرب من أخبار عن حصار شرق القاهرة وما حدث فيه ؟ هل فقدت الجماعة أحدا ضمن الاثنين والستين الذين قتلوا فى المساجد أو المائتين وواحد وعشرين الذين قتلوا فى الشوارع ؟ مازال فى القلب غصة من استشهاد حامد فهل فى وسعك أن تحتمل طعنة جديدة » عضّه الأسى وهو يستعرض من يعرف من أعضاء الجماعة *« مَنْ منهم جاء دوره ليملأ القلب جزعا ويسكب فى النفس الملتاعة نارا تتاجج ، الإيمان يملأ القلب سكينة لكنك مع يقينك تضطرم أحشاؤك باللهيب ، آه ياعمر ، الانتظار عذاب والجمود موت فهل من سبيل إلى الخلاص أو البعث »* .

– يا ابنى بطّل سرحان وقم شف أكل عيشك .

نبهه صوت الصعيدى الأجش فى الوقت المناسب ، فقد كانت سيارة البضاعة القادمة من الميناء على وشك الدخول إلى ساحة الوكالة لتفرغ حمولتها فى المخزن ، أضاف الصعيدى العجوز بلهجة ناصح :

– خذ بالك من الشغل أحسن الحاج عينه عليك .

وصمت لحظة ليتابع السيارة بعينيه قبل أن يضيف فى أسى :

– نحن غلابة وليس لنا أن نستريح .

رد الشاب بلهجة مماثلة :

– عندك حق ، الأمر لله .

ومضيا ليساعدا فى إنزال الحمولة

انهمك فى العمل حتى اندمج فيه وكأن شيئا لايشغل فكره ، برمج ذهنه - برغم عدم خبرته - فلم يخطئ مرة واحدة وهو يتحرك حركته الدقيقة المحسوبة فوق المقطورة التى أعقبتها ثانية وثالثة ، ينقل مع غيره الصناديق الكرتونية الكبيرة إلى حافة السيارة ثم يساعد بقية الحمالين فى رفعها لنقلها وتشوينها إلى جوار سابقاتها . استمر العمل واتصل وامتد حتى دخل ضوء الشمس فى حركتها بعد الزوال فأضاء عمق المخزن ، كانت أذناه تلتقطان - أول الأمر - التنويعات الإيقاعية المختلفة التى يرددها الرجال وكأنما هى آهات أسرى مسخرين يبكون أنفسهم بعد أن أدركهم مصيرهم المحتوم ، وكان يصحبها بين الفينة والفينة كلمات تشجيع متقطعة يسمعها ويتلقاها ويرددها ويرد عليها دون أن يصل شئ منها إلى عقله ، وكأن شخصا آخر يكمن فيه ولاصلة له به هو الذى يسمع ويتكلم ويلحظ ويراقب . ومالبث أن ساد الصمت إلا من وقع الخطوات بعد أن أصاب الإعياء الحناجر ومحا الكلل العزائم وادخرت الأجسام تلقائيا ما تبقى من طاقتها للحركة لا للكلام ، حتى إن أيا من الرجال لم يستطع النطق بالعبارة المأثورة بعد انتهاء العمل « الحمد لله » وهم يرون آخر الصناديق فى طريقه إلى المخزن ، وأسرع كل منهم بالارتماء حيث هو دون حركة من غير أن يهتم حتى بمسح عرقه الذى يتصبب منه .

ألقى الشاب - وهو مازال فوق السيارة - نظرة على ساعته لعلها لم تكن كافية الرؤية ، فاضطر أن يجفف بطرف قميصه ما يسيل على عينيه من عرق ، وأن يقرب ساعده الأيسر ليرى بوضوح ، ومالبث أن قفز من السيارة وهو يقول لنفسه :

- ياه .

فلم يبق على الموعد المرتجى سوى ساعتين ، عليه فيهما أن يغير ملابسه وأن يتناول طعامه وأن يكون فى محطة الرمل فى وقت مناسب . لكن قبل كل شئ عليه أن يستأذن عم نجيب فى التغيب فترة لعلها تمتد حتى المساء .

* * *

تعلق بصره بالأفق الفسيح وهو يحتل دون تفكير المنضدة الموضوعة فى رأس الزاوية فوق الرصيف المحيط بسيسيل ، أهى العادة وحدها حيث كان يطيب له أن يجلس هنا فى أيام سلفت ، أم رغبة غير مدركة فى التمكن من الاستطلاع وتأمين حرية الحركة ، مسّه جلال المشهد فصمت حتى عن طلب شئ يتناوله بالرغم من اقتراب الجرسون منه وتلكئه حوله ، كانت الشمس الكليلة قد أصابها الإعياء بعد رحلة طويلة فأخذت تنحدر نحو المغيب وقد حل بها الوهن حتى انها لم تستطع أن تترك أثرا غير صورة باهتة تمزقها القوارب الخشبية التى تتجول فوق سطح المياه الغافية ، تناهى إلى سمعه من خلال ركام الأصوات المتداخلة أصداء نغم حزين شديد الخفوت ، تلفّت فوجد عجوزا يجلس على حافة الرصيف غير بعيد يعزف على الناى مغمض العينين وكأنه يصب فى الأسماع ذوب قلب مترع بالعذاب ، أغمض بدوره عينيه لحظات فتصاعد النغم الباكى حتى فاض به الوجدان فلم يعد يدرى هل ما يسمعه يخرج منه أو يدخل إليه ، وبرّح به أسى موجع لايدرى له سببا حتى أوشك أن تطفر من عينيه الدموع .

– أخ أشرف ، تفضل .

رفع عينيه فوجد الجرسون يضع على المائدة كوب الماء بعد أن وضع كوب الليمون الذى تطفو قطع الثلج على سطحه ، همّ أن يسأله لولا أن أمدته الذاكرة فى ومضة بالمفتاح المستكن فى الأعماق وحدثته : « *أشرف محمود ، وسلامة مصطفى ، وناصر طه هى أسماء عصر الاختفاء الجديد ، لاتنس ذلك إلى أن تعود كما بدأت : أحمد عبد السلام* » كان الجرسون يمسح نقاط الماء التى سالت على المائدة وهو يهمس بحذر :

– يجب أن تتحرك خلال عشر دقائق وتسير فى اتجاه المنشية ملتزما الجانب الأيمن من الرصيف المقابل .

ولم يكن قد أتم شرب العصير حين قدم الجرسون ثانية وكأنه يحاسبه ، فوقف بضع لحظات يستطلع ماحوله ، وألقى نظرة أخيرة على العازف العجوز الذى توقف عن

العزف محتضنا نايه فى صدره وقد عقد عليه ذراعيه ، ثم سار بتؤدة من يستمتع بخريف الاسكندرية بعد أن جلت عنها جيوش غزاة الصيف . بعد بضع خطوات تزايد معدل سرعته وهو يعبر الكورنيش ليواصل مسيرته فى الجانب الآخر منتظم الخطى وإن كان ثقيل الحركة ، أحس بألم غير عادى فى ساقه اليمنى ، هل هو شد عضلى ، أو أثر من آثار عمل يوم طويل ، هم أن ينحنى ليدلك ساقه حين جاءه من خلفه الصوت واضحا :

- لا تتوقف ، ستقف بعد لحظات إلى جوارك ١٢٨ : بيضاء ملاكى اسكندرية ، اجلس إلى جوار السائق .

لم يستغرق الموقف كله بضع ثوان ، فما كاد يهم بالالتفات ليرى من يحدثه حتى كانت السيارة الموصوفة قد وقفت ، وتابع صاحب الصوت وهو يجتازه من غير أن يلتفت إليه وكأنه يكلم نفسه :

- اركب فورا ولاتتردد .

فتح الباب وعيناه معلقتان بظهر الرجل الذى كان يمضى حثيثا ، وما كاد يجلس حتى استقبله الصوت الحبيب الذى بعد به العهد :

- حمدا لله على سلامتك .

نبت فى لحظة واحدة إحساس بالأمان حتى فاضت النفس بالاطمئنان ، وسرت الراحة فى الجسم كالخدر ، والتفت ليغرس اللمحة عينيه فى عينيه وكأنه يذوب فيه ، وارتعش الصوت بهجة :

- حمدا لله على سلامتك .

ود لو يحتضنه بين ذراعيه ويقبله بين عينيه ، ومد يده فربت بحنان على قبضته المعقودة فوق ذراع الفتيس ليواصل زيادة السرعة .

- كان المفروض أن يقود السيارة شخص آخر لكننى لم أستطع الصبر .

قال برضى :

- المهم التقينا .

وصمت برهة ثم استدرك وكأنما عن له خاطر :

- لعلك لم تخاطر .

رد وهو يردد بصره بين ما أمامه وما ينعكس فى المرآة العلوية فوقه :

- ومن منا لا يخاطر ؟ صارت المخاطرة طابع حياتنا كلها ، صار الخطر جزءا منا وصرنا جزءا منه .

هل ظن أنه استعان بمن لايوثق به حين سأل :

- تعرفهم ؟

وهل طمأنه حين أجاب :

- كلا بالطبع ، إنهم عناصر مجموعة اتصال جديدة بناها الأخ الأكبر بنفسه تحسبا للظروف :

- إذن هو بخير ، الحمد لله .

- الحمد لله .

- وباقى الاخوة ؟

- الحمد لله .

ساله ليتأكد :

- ألم نفقد أحدا فى عملية شرق القاهرة ؟

- لا أعرف على وجه اليقين .

كان صوته يتلجلج تحت وطأة مايحمله من أسى ، وكان وجهه يعكس أطياف الشمس الغاربة ، فأدركه الصمت ليخفى انفعالا طفرت له دمعة عصيّة ، هل كان

يستعرض فى ذاكرته ما نقل إليه من تفاصيل أو يتذكر ما وقف عليه من وقائع : « وهل تلك التفاصيل يمكن أن تنسى وتلك الوقائع يحتمل يوما ان تتوارى ، هل معقول ماجرى هنالك ، لايمكن أن يتصور أحد أن يحاصر الأحياء ويصب عليهم الهول ألوانا ، أن تقتحم المساكن فى منتصف الليل ليدمّر كل من فيها وما فيها ، أن تمرّغ الوجوه فى الأقدام وأن يغتصب الرجال أمام نسائهم وتغتصب النساء أمام رجالهن ، أن يساق الشباب والأطفال لتسحقهم فى الشوارع المدرعات ، حتى إذا لجئوا إلى المساجد والكنائس أبيدوا بالقنابل والغازات ، ياإله السموات ، يامالك الملك ، فى أى عالم نحن ؟ فى أى عصر نعيش ؟ إإلى هذا الحد تمتهن الحياة والأحياء ؟! » .

– خسائر العملية كبيرة ؟

– أكبر من كل ماقيل عنها .

ساد صمت لم يحس أى منهما بثقله بعد أن استغرقه عالمه الخاص ، واستمر حتى نبههما صوت المؤذن ينادى لصلاة المغرب فى مسجد أبى العباس ، التفت كل منهما إلى الآخر فى وقت واحد فالتقت أعينهما لحظة ورفّت بسمة حزينة هتكت ستر الأسى الكامن فى الأعماق وقالا فى آن واحد :

– نصلى أولا .

أديا الصلاة بخشوع من تتلاطم به أمواج بحر عاصف ويتقاذفه إعصار ، وقرأ الإمام : « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » ، فحملهما الصوت الشجى على جناحى الخشية والرجاء إلى الشجن ، وذاب القلب حنينا وهو يلحف فى الدعاء : « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

وما كادا يجلسان فى السيارة فور خروجهما من المسجد حتى التفت إليه أحمد مستطلعا ، الآن أصبح على يقين من أنه يحمل إليه أنباء ذات طابع خاص ، ولكن عمر تشاغل بادارة السيارة والخروج بها إلى طريق الكورنيش متجنبا الالتفات إليه ، كان بدوره مدركا أن الساعة قد دنت ، وأن عليه أن ينقل إليه ما لا يعلمه عن أسرته ، « *لكن هل ما تم تمهيد كاف ، أى حزن تحمله وأنت تحمل الحزن له ، رُحماك وعونك لى وله فى هذا الموقف ، إنه لابد أن يعرف وأن تُترك له حرية الاختيار ، إنه قرار الأخ الأكبر* » .

قال أحمد وقد استبدت به الرغبة فى المعرفة :

– واضح أن لديك ماتريد أن تقوله .

رد عمر :

– طبعا .

وصمت لحظة ليضيف :

– نحن فى طريقنا إلى ميناء الصيادين ، وسنصل فى دقائق ، بعدها نتحدث .

« *هل كانت دقائق فحسب ؟ هل هذا هو الميناء حقا ؟ هل هما يصعدان فعلا فوق سطح اللنش الصغير فتلفحهما نسمات البحر الباردة ؟ هل هذه الاهتزازة أثر حركة الموج برغم ضخامة الحبل الذى يربط اللنش بالشاطئ ؟ هل هذا هو فمك ؟ أين إذن لسانك ؟* » .

– لدى أخبار عن الأسرة .

وخزه فى لحظة شوك الشوق ، وفى ومضة صار نصلا انغرس حتى القبضة فى الأحشاء فتفجرت ينبوع حنان وحنين وقلق .

– أخذوا أم طارق رهينة .

فتح فمه وهم أن يصرخ ، لكن الصرخة احترقت فى الأعماق ، غرق القلب فى خضم طوفان من دم واجتاحه إعصار من نار ، كيف ذابت بكلمة واحدة القدرة على التماسك والتجلد ؟ كيف يتناثر الكيان كله ذرات ويتبدد شعاعا ؟ كيف تخفى هذه الملامح الجامدة ذلك الفوران فى الأعماق ؟ كيف - برغم ماهو فيه - يستوعب العقل ويسأل اللسان:

- وأين هى الآن ؟
- رهائن القاهرة تذهب إلى حجز فرع العمليات فى مدينة نصر .
- مازالت هناك ؟
- حتى أمس كانت هناك ، وهذه آخر معلومات الأخ الأكبر ، وهو فى انتظار معلومات جديدة .

سأل بأسى :

- يمارسون التعذيب طبعا ؟

فاكتفى بأن نظر إليه دون أن يجيب ، ابتلع ريقه بصعوبة ، وتابع على أمل :

- تعذيب نفسى ؟

أحس بالنار فى فمه وهو يقول :

- نسبة الوفيات فى الفرع تصل إلى الربع .

« هل مازال يرى أم أغمض عينيه ؟ هل مازال يسمع أم صُمَّت أذناه ؟ هل مازال حيا يتنفس أم أن مايلفحه شواظ من نار » .

- حتى متى تبقى رهينة ؟
- حتى يتم استسلام المطلوب .
- وطارق ؟
- بخير ، اطمئن من ناحيته ، بعد انهيار جدته صحيا عقب أخذ

ابنتها رهينة بأيام لم يكن بد من تكليف بعض الأخوات برعايته ، وهو بحمد الله فى مأمن .

- ماذا ترى ؟
- الخيار لك .

« أى خيار لك ؟ أن تسلم نفسك لتنقذها أو تتركها لتنجو بنفسك ؟ ياللعذاب ، الطفلة الغريرة تقع فريسة وحوش ضوار ؟ البريئة الساذجة التى حاولتَ عمرك كله أن تصونها من الخطر وأن تنأى بها عن الألم وأن تحميها من الأذى تصبح نهبا تستبيحه الوحوش التى تتعاقب على هتك عصمتها وتمزيق عفتها وتتآزر على تلويث جسدها وتدمير روحها ، إنك أنت المسئول عما هى فيه ، فأنت لم تحاول أن تشعرها بما أنت فيه ، ياللسذاجة والغفلة ، أكنت تتوقع أن تنجو هى ؟ ، ألم تكن تعرف الواقع الذى تعيش فيه والنظام الذى تُحكَم به ؟ ، أكنت تتوهم أن يتركوها وشأنها برغم كل ما كنت تعرفه عنهم من سلوك ؟ إنها مسئوليتك وحدك » .

- هل يمكن أن أقابل الأخ الأكبر ؟
- لقد توقع ذلك ، وأذن به .
- أهو بعيد ؟
- لا أعرف ، ولكننا سنتجه إلى من يقودنا .

خرجا من الميناء فألقى نظرة سريعة على المكان الذى كانت فيه السيارة فلم يجدها ، التفت إلى صاحبه وأوشك أن ينبهه لكنه وجده يمضى غير عابئ فصحبه صامتا . *« هل طال بهما السير ؟ لقد تركا ساعتيهما فى السيارة كما اقترح عليه عمر فلم يعد يدرى الزمن الذى يمر به ، أهو طول المسير أم إجهاد البدن ذلك الذى يجعله يحس بالتعب ؟ هل هو يقظ أو نائم ؟*

هل صحيح أنهما ركبا سيارات ثلاثا تسلمهما كل منها إلى الأخرى ؟ هل تجاوزا المدينة وخلّفا العمران ؟ إنه لايرى بصيص ضوء ولاشبح مبنى ولايتنفس رائحة البحر التى يعرفها حتى فى النوم ، هل الطريق غير ممهد ؟ إن حركة السيارة وضوءها على الأرض يوحيان بذلك ، حتى متى يطول هذا الطريق الصعب ؟ أليس له آخر ؟ ماهذا الذى يرى ؟ أهذه التى ينعكس عليها الضوء أرض مخضرة مزهرة ؟ أهذه التى تترك خلفها ظلالها أشجار باسقات ؟ أى ثمار يانعة هذه التى تحملها الفروع الدانية ؟ أى رائحة هذه التى تفوح بالعبير ؟ أى نغم هذا الذى يعطر الأسماع ؟ أهذا صوت الأخ الأكبر ؟ » .

- أهلا بالأخ الصالح .

« التصق بالقلب ، لاتبعد ، إنى إليك فى حاجة » .

- أعرف ما بك ، بقلبى ما بقلبك ، لكن تعلّمنا الا نجزع لشئ قد كتبه الله علينا .

« فى القلب وهج ودخان ، لاأستطيع أن أتصور العفيفة الطاهرة فى أيدى الكلاب الشرسة » .

- الابتلاء امتحان ، وعلينا أن ننجح فيه .

« أى نجاح يمكن أن يعوضنا عن انتهاك حرماتنا وامتهان مقدساتنا » .

- البشر معادن ، لاتعرف قيمتها إلا إذا مستها النار ، وبقدر رفعة الدرجة التى تتقدم إليها تكون صعوبة الامتحان الذى تجتازه .

« احترق القلب ، انصهرت الروح ، تفحم الوجدان » .

- شاء الله أن يهبنا العقل حتى نستعصم به إذا زلزلتنا القواصم .

« حلت بى زلزلة ماكنت أتوقعها ، ضاع الرشاد فأين الطريق » .

– لو تأملنا لوجدنا فى النقمة نعمة .

« أى نعمة ؟ إنى فى خضم الظلمة أتخبط » .

– سخّر الله لك العقول والقلوب ، فلست بحمد الله وحدك .

« الوحشة تعربد فى الأعماق » .

– افتح قلبك لترى ، أطلق أسرروحك فتحس ، أنت فى نعمة برغم ماأصابك ويصيبك ، حولك جند الله ومعك رجاله ، بيدهم تضرب حتى لو بُترت يدك ، بعيونهم ترى حتى لو سملوا عينيك ، فى قلوبهم تحيا حتى لو قتلوك .

« لا أستطيع أن أحتمل أن تكون بين أيديهم ، وأخشى لو استسلمت » .

– الخوف عدوك فاقتله ، لن يصيبك إلا ماكتب الله لك .

« لست أخشى على نفسى بقدر ماأخشى على الجماعة » .

– من كان مع الله كان الله معه ، وستكون كلمة الله هى العليا مهما فعلوا ومهما أصابنا .

« التضحية كبيرة » .

– لابد للهدف الجليل من ثمن يتلاءم معه ، ومن فضل الله علينا أن منحنا القدرة على دفع الثمن .

« سأسلم نفسى ، شهد الله أنى لاأنكص ولكنى لاأستطيع أن أدعها تتعذب » .

– استفت قلبك ، وافعل ماتؤمن به ، واحمد الله دائما على قضائه .

* * *

قال الأخ الأكبر وهو يردد بصره بينهم :

- آن لنا أن نتوضأ ، فالصبح قريب .

شرعوا فى الصلاة وقد أمّهم الأخ الأكبر ، قرأ فهاموا فى عالم قدسى وحلّقوا فى السموات العليا ، فنت فشفّت القلوب ومس شغافها جلالُ العرش الأقدس ، فصارت المعانى أجسادا وصارت الأجساد معانى ، وتخايل لهم النور الإلهى ملء الأبصار والكلمات الإلهية ملء الأسماع ، وتملكهم الوجد وهم يهتفون بغير لسان ولاصوت :

« لك الحمد فى كل حال ، فى السراء والضراء ، فى اليسر والعسر ، فى الرخاء والشدة ، فى النور والظلمة ، فى الوجود والعدم ، فى الحياة والموت .

الحمد هو كفُّ الضراعة التى إليك نرفعها ، يدُ الحاجة التى لك نبسطها ، ساعدُ الرجاء الذى به نستجديك ، ذراعُ المنى التى إليك بها نسعى ، عضدُ الآمال التى من أجلها نتنفس .

رضاك وحدك نبتغى ، رحمتك نريد ، عدلك نرجو ، إلى وجهك الكريم نرنو ، لوجهك الكريم نعمل .

بكنفك نلوذ ، فى حماك نحتمى ، إلى رحابك نلجأ .

لذاتك نحيا ونموت .

وفى ذاتك نموت لنحيا » .

✍ ✍ ✍

الفصل التاسع عشر

إملا شراعك بالوجد .. تركب متن الإعصار

ألقى فكرى بالصحيفة على الأرض من غير أن يكمل قراءة الموضوع بعد أن تملكه الغيظ ، فالمقال الرئيسى الذى يحتل صدره نصف الصفحة الأولى وبقيته صفحة داخلية كاملة فى أكبر الصحف اليومية – بالبرغم من عنوانه الذى أوشك أن يخدعه (كلمة هادئة من أجل الديمقراطية) – لم يكن له صلة بالهدوء ولا بالديمقراطية ، فهو يعزف النغمة الحادة نفسها التى تعزفها المقالات الأساسية فى بقية الصحف اليومية ، كلها تهاجم الخفافيش التى حاولت فى الظلام أن تعكر فرحة الجماهير بالولاية الجديدة ، وأن تستغل الديمقراطية فى طعن الديمقراطية ، والنيل من قيادتها التاريخية ، وبدلا من أن ينهض ليرتدى ملابس الخروج ليذهب إلى الكلية ظل جالسا على الفراش لحظات ، ثم نظر إلى زوجته التى كانت تمارس تمريناتها الرياضية وقال برقة :

– فنجان قهوة لو سمحت .

– تانى .

ندت الكلمة بسرعة أحست معها أنها قد تركت على وجهه أثرا مباشرا فاستدركت بصوت لاهث من الإجهاد وهى ما زالت مقطبة :

– ممكن بعد أن أنتهى ؟

هز رأسه ثم مد يده وتناول الصحيفة مرة أخرى ليكمل الموضوع :

– لا مكان على أرض الوطن لمن لا يستحق شرف المواطنة ، وعلى الذين يتوهمون أن الديمقراطية قيد على سلطة الحكم أن يدركوا أن الديمقراطية أكثر قدرة على الحسم لصالح الشعب بلا تردد ومن غير ضعف أو تهاون ، لقد منح الشعب كله تفويضا بلا حدود لقائد المسيرة حرصا على الاستقرار ، فليس لأحد مهما كان موقعه أن يفتح فمه مدعيا تمثيل الشعب إلا القائد الملهم الذى حبته الأمة كلها بثقتها وأعطته دون سواه تأييدها ..

ألقى بالصحيفة ثانية وقد استغرقه التفكير « *واضح أنها حملة منسقة وليست اجتهادات فردية ، فهل هى تبرير لما وقع أو تمهيد لما سيقع ؟ إذا كانت تبريرا كانت إيذانا بانتهاء العاصفة ، أما إذا كانت تمهيدا فالعاصفة مستمرة* » .

التقط من جديد الصحيفة وواصل القراءة لعله يقف على مؤشر ، فرئيس التحرير لسان سيده ، وصلته المباشرة تجعله أقدر على معرفة الاتجاه ، إنه صاحب العبارة المشهورة : « فى البدء كانت السلطة ، وفى النهاية تكون ، فليكن مدادك نبضها » .

– باسم الديمقراطية وحفاظا عليها يجب أن تقطع تلك الرؤوس الخاوية التى ليس فيها غير الظلام ، ومن أجل الديقراطية ودعما لمسيرتها فلتسحق تلك الضفادع الكريهة التى لا تكف عن النقيق ، اسحقوها تحت الأقدام .

صاح دون أن يشعر :

- ستصبح العاصفة إعصارا .

وصاحت زوجته ترد عليه وقد ظنت أنه يستعجل القهوة إذ لم تسمع كلماته بوضوح .

- دقيقة واحدة .

« ألا يكفيهم حتى الآن ما فعلوا ، ماذا يمكن أن يفعلوا أسوأ مما فعلوا ، لقد دمرت عاصفتهم الأخيرة عالما كاملا ، واستلبت أرواحا ليس لها حصر ، وانقضت على البسطاء الذين يعيشون وهم فى الحقيقة لا يعيشون ، أولئك الذين تستنفدهم لقمة العيش وتعتصرهم ساقية الحياة اليومية التى لا تتوقف فتتقاضى منهم ثمنا باهظا لمجرد أن يبقوا على قيد حياة بالغة التعاسة شديدة الظلمة ممزقى النفس مسحوقى الروح وقد دمرتهم تماما القوة الغشوم » . صعدت إلى الذاكرة الإحصاءات التى سمعها فى أكثر من مكان عن ضحايا عملية شرق القاهرة ، ومئات الجرحى الذى نقلوا إلى المستشفيات بعد أن أعجزتهم إصاباتهم عن الحركة يوضعون تحت الحراسة المشددة لينقلوا إلى المعتقلات ، وآلاف الجرحى الذين تمكنوا من الهرب برغم إصاباتهم مؤثرين الاختفاء خوفا من عذاب الاعتقال ، وتماثلت أمام عينيه الصورة الرهيبة التى تناقلتها الأفواه بكل ما فيها من جثث وأشلاء ودماء ، *« ماذا لديكم بعد ذلك مما يمكن أن يزرع الخوف ويبث الذعر ويرهب كل مقاومة ؟ ماذا لديكم من جديد ؟ »* .

تمتم بأسى :

- ومع ذلك يهددون بأن تكون الفترة القادمة أشد وأقسى .

« واضح أن الخطر يزداد قربا ، أصوات التحذير التى تسمعها بين فترة وأخرى ، وسياط السلطة التى تترك آثارها فى كل مكان ، وأصواتها التى تملأ الدنيا وعيدا مؤشرات كافية على أن دورك قادم لا

محالة ، الا ينبغى أن تحاول معها من جديد حتى تكون جاهزة نفسيا لمواجهة الموقف ، إنها برغم كل شئ زوجتك التى لا يصح بحال أن تكون نقطة ضعفك ، الا تستطيع أن تبث فيها من جديد تلك الروح القديمة التى ربطت بينكما ، هل يمكن أن تجرب العزف على إيقاعات القلب الغافى لعله يستيقظ ، لكن هل تقدر حقا على العزف وقد صدأ منك الإحساس » .

مدت يدها فوضعت الفنجان فوق الكومودينو وهى تقول :

– القهوة .

وقفت لحظة وقد شف الزى الرياضى الذى ترتديه عن عرق لما يجف ، فالتصق بجسدها فى أكثر من موضع ، وحين سمعته يقول :

– شكرا .

رمقته بنظرة طويلة كأنما أصابتها دهشة ، فمنذ فترة طويلة لم تسمع منه كلمة شكر واحدة ، تأملته وهو يرفع الفنجان إلى شفتيه وبصره معلق به ، وقالت وكأنما تذكره :

– لم تلبس حتى الآن .

فوضع الفنجان حيث كان ونظر كأنه يبتسم وقال بنغمة عتاب :

– تستعجلين خروجى .

فتمتمت لنفسها : « *أصابه شئ* » ، وردت بنظرة اختلط فيها الاستنكار والتعجب ، وهمت أن تغادر الغرفة وهى تقول :

– سآخذ دشا .

فأمسك بمعصمها برقة وهمس :

– أرجوك ، أريد أن أتكلم معك ، اجلسى دقائق .

« ماذا عساك تريد ؟ ما سر هذه الرقة المفاجئة بعد أن طال بها العهد وغابت فى حنايا قلب كسير يجترّ ذكريات هى وحدها التى تحمله على الصبر ، ماذا وراءك بالضبط ؟ تكلم ولا تتكلف ما لا تستطيعه فانا أخبر بك منك ، وانت لن تستطيع الكذب » .

تابع مترددا وهى تجلس على حافة الفراش ثانية :

– أريد أن أسألك سؤالا .

لم يجد غير الصمت والعيون السوداء الواسعة المتأملة ، ألجم الخجل اللسان واندفعت الدماء إلى الوجنتين ، وتصاعدت فى الأعماق فرحة صغيرة *« مازالت فيك بقية من عهد قديم ، ها أنت تخجل بعد هذه العشرة كلها »* أطرق من جديد وفتح فمه ثم أغلقه ، تمنت أن يتكلم حتى يرتاح وترتاح ، قال بصوت لونته أطياف ارتعاشة غير منظورة :

– مازلت تأخذين الحبوب ؟

« هكذا إذن ، اكشف عنك قناعك ، تريد أن تطمئن ، فاطمئن ، لست فى حاجة إلى طفل لا تريده » ، زمت شفتيها فى عصبية وهى تعض باطن شفتها السفلى حتى لا تنفجر غيظا ثم قالت :

– أليست هذه رغبتك ؟

رفع بصره وغاص فى العينين ، *« يا الله ، أما زال ذلك الألم القديم يحيا ؟ أمازلت تحتفظين بتلك الثورة المتوهجة منذ قلت لك « لا أطفال حتى يقضى الله أمرا » ؟ كيف منعك كبرياؤك عن التصريح وكل هذا الحزن فيك ؟ »* ، حل به إشفاق مغموس بالندم ، وهمس برقة عاشق مغلوب على أمره :

– لم تكن أبدا رغبتى وإن كان القرار قرارى .

ردت فى عجلة وكأنها لم تسمع :

- لقد انتهينا من هذا الموضوع فلا تقل كلاما غير مفهوم .

هتف مستنكرا ؟

- أنا ؟

« أنا أيتها الساذجة العنيدة ؟ كيف أشرح لك ؟ الخوف وحده هو الذى عقلنى والمجهول بكل دمامته آت لا ريب فيه ، أكنت تحتملين أن ينتزع طفلك وأن تهدّدى به وفيه ؟ أيمكنك أن تصبرى وبينك وبينه سدود وقيود ووحوش تبتزك جسدا وروحا ثمنا لنظرة إليه أو لمسة له ؟ أيتها المكابرة الصغيرة ، برغمى حرمت نفسى وحرمتك » .

- كنت أخاف عليك .

- بل لم تكن تريد الاستمرار معى ، من يدرى ، لعلك ندمت على ارتباطك بى ؟

- أنا ؟

« برغم ذكائك لم تفهمينى ، وكيف يمكن أن تفهمى والطفل مفتاح القلب الموصد على العقل » .

- لا تحاول أن تقنعنى بأنك مازلت تحبنى ، أنت تعرف أنه لا يوجد رجل يحب زوجته ويرفض أن يكون له منها ولد .

- لست أرفض ، ولكنى أؤجل .

- طال الزمن وانكشف أمرك ، لم تعد تحبنى .

- غير صحيح .

قالت عيناها : *« قل بعض كلماتك التى كانت تفرش دنياك بالبهجة ، وتملأ دربك بالرضا ، وتنبت الأحلام مورقة فى الصخر ، وتزهر فى الأرض الجدباء » .*

وقالت عيناه : « دنت الساعة ، لا وقت للكلمات ، الفعل أبلغ من كل الكلمات ».

وتابع بصوت المستسلم :

– تعرفين أنني لا أستطيع الاستغناء عنك ، أنا حزين جدا لأنك لم تفهمي موقفي ، ولذلك أرجوك .

وصمت لحظات ودت معها أن لو كانت لديها القدرة على أن تستبق القلب وهو يعد الكلمات .

– أرجوك ، لا تأخذي الحبوب من اليوم .

« عجبا ، كيف تونع في لحظة واحدة هذه الثمرة في الصحراء القاحلة ».

* * *

قالت وهي تغلق خلفه الباب :

– لا تتأخر ، سأنتظرك على الغداء .

ابتسم وهو يقفز درجات السلم ، وجاءها صوته بعد أن غاب عن عينيها :

– سأحاول .

مضى إلى السيارة بخطوته الواسعة التي يتسارع وقعها ، وفتح بابها بعد أن ألقى نظرة عجلى على سطحها ليقف على مدى نظافتها ، أدار المحرك وهو يضبط كمادته المرآة الجانبية ، ثم عن له أن يلقي نظرة على مفكرته التي يسجل فيها عادة ما لا يريد أن يشغل ذهنه به من ارتباطات ، وقرأ : « الكلية : اجتماع القسم ، الدكتور بشير » قال في نفسه : « اجتماع القسم سببه معروف ، سيحاولون توزيع الأعباء العلمية في السنة الدراسية الجديدة ، لكن ما الذي يريده العميد السابق الذي ما فتئ يبحث عن دور يلعبه بعد أن تجاوزته الأحداث ،

وصار بعض تلاميذه وزراء » ، أخذ يتشكل أمام عينيه الشكل القزمى المتطامن ، ذو الكرش المتدلى الذى يصنع قوسا شديد الانبعاج وكأنما هو بطن أنثى تحمل توأما فى أواخر شهرها الثامن للمرة الرابعة ، والرأس البالغة الصغر وكأنها رأس دمية ألصقت عنوة بعظام القفص الصدرى ، والعيون المستديرة الميتة النظرات المحفوفة بوسائد بنية من الجفون المنهدلة ، والنظارة ذات الإطار المعدنى المتآكل الطلاء الذى ينحدر دائما على طرف الأنف الممتد حتى يغطى الشفة العليا ، وداخلته الرائحة الكريهة للسجائر المخزونة التى يستهديها من تلاميذه ، وينفث دائما دخانها باستمتاع فيمن حوله ، متظاهرا بالتفكير حينا ، أو هامسا بما يظنه أسرارا حينا آخر ، وهتف به وهو فى الطريف هاتف : *« حذار ، فحركة الثعلب العجوز لا تحكمها المصادفة »* .

صرخ :

– أنت مجنون ، الله يخرب بيتك .

وضغط الفرامل بكل طاقته فتوقفت السيارة بعد أن كادت تدهم الشاب الذى تخير أن يعبر الشارع الخالى أمامها فى اللحظة الأخيرة وكأنه يتعمد اختبار قدرته على التحكم ، وقفز بسرعة إلى جانب السيارة ليقول وهو يلهث :

– كيف لم تر إشارتى لك من بعيد ؟ !

فصرخ فكرى من المفاجأة المركبة :

– عمر .

وصاح عمر وهو يقفز إلى جواره :

– هذا جزائى لأنى أردت أن أراك .

وتابع ضاحكا وقد بدأ يسترد أنفاسه :

– إن كنت أردت التخلص منى فاطمئن ، لن ترانى لوقت طويل .

* * *

أحس منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على مدخل الكلية أن شيئا غير عادى يملأ الأفق ، فالزملاء - كبارا وصغارا - يمضون فرادى صامتين مهمومين غير قادرين على رد التحية ، وكأن ماردا بتر منهم الألسنة وجفف فيهم الأفواه ، والعيون شاردة مليئة بالأسى الممزوج بالحيرة ، والأيدى الباردة تنقل فى لمساتها المرتعشة وجلا لايخطئه قلب ، والوجوه المشدودة أقنعة سميكة جامدة تابى أن تُفصح أو تشف ، شئ ما يحدث ، شئ ضخم لم يسبق له مثيل هو وحده القادر على بثّ هذه الروح من الحزن الغامض والألم الممض والخوف القاهر والسخط المقهور ، ماذا أصاب هذه الصفوة من الرجال الذين كانوا برغم ما ينشب بينهم من خلافات يملئون الجو بعبير الألفة ، ويعطّرون ما حولهم بأنفاس المودة ، ويصبون فى الكئوس شراب الثقة بالنفس ، والاعتزاز بكرامة المهنة وشرف الرسالة التى يفخرون بحملها ويتيهون على الدنيا بها ، آثر أن يبدأ ببعض من يثق بهم من أصدقائه لعله يقف على تفسير ، فلجأ إلى صديقه فى قسم القانون الجنائى لما يعرفه عنه من قدرة على جمع المعلومات ، ولم يكد يلقاه حتى سأله حتى من قبل أن يجلس :

- ما الذى حدث ؟

رد زميله هامسا :

- ألا تعرف ؟

هز رأسه فواصل زميله :

- مات عبد العزيز حمام ، والشائعات كثيرة .

صمت لحظات كأنما بوغت قبل أن يقول :

- إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمه الله ، كان رجلا عظيما .

استعادت الذاكرة فى ومضة تلك الذكرى القديمة التى مضى عليها أكثر من عشر سنوات ، حين كانت أحلام الشباب الغض قادرة على أن تتحدى الدنيا ، فامتدت أصابعه المرتجفة لتتحسس الظهر الذى أحس به عاريا برغم ما عليه من ثياب .

- لكن أى شائعات ؟

انحنى صديقه عليه بعد أن اقترب بكرسيه منه وهو يقول :

- يقال إنه مات أثناء التحقيق فى الجهاز الخاص .

« لا تصرخ ، تاسٌ به فلا تصرخ ، ألا ترى العجوز الذى جاوز الستين يحتمل كل هذا العذاب ولا يفتح فمه ، فمالك تولول كالمرأة كلما جاءوا ناحيتك ، ألا تراهم يتضافرون على جَلده واحدا بعد الآخر ولا يفتح فمه ، ألا تراهم يغمسونه فى الماء البارد حتى يتجمد فلا يفتح فمه ، ألا تراهم يعلقونه كالذبيحة حتى يغمى عليه فإذا أفاق نظر إليهم بإشفاق ولم يفتح فمه ، ألا تراهم يصعقونه بالكهرباء ويصبون على جراحه ماء النار ولا يفتح فمه ، اجمد ، اجمد يا بطل ، ألم يقلها لك بعد أن رأيت شفتيه تختلجان فانحنيت لتسمعه ، اجمد ، اجمد يا بطل ، نحن لا نمارس عملا سريا ، نحن نمارس عملا مشروعا ، نحن ندعو علنا لحقوق الإنسان » .

- امسح دموعك ، كلنا بكينا ، وليتها كانت النهاية ، لكن يبدو أن المصائب ستتوالى .

- ماذا هنالك ؟

- يقولون إنه كانت هناك مؤامرة لقلب نظام الحكم ضمت عناصر كثيرة من كافة الاتجاهات السياسية ، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث ، الكل يتوجس شرا .

- الله هو الحافظ .

- ربنا يستر .

* * *

سار بخطوات ثقال صاعدا إلى القسم وقد ناءت به قدماه ، وحين وصل إلى قاعة

الاجتماع كان يجر قدميه جرا وقد بلغ به الإنهاك غايته ، وما كاد يدخل حتى قال رئيس القسم بصوت مرتفع ليسمع الحاضرين :

- الآن اكتمل النصاب القانونى لبدء الاجتماع .

قال أحد الأعضاء معقبا :

- لم يحضر بعض الزملاء ، ألا يحسن أن ننتظرهم ؟

فرد رئيس القسم وهو يحدق فى الفراغ .

- وربما لن يحضروا .

قال الأستاذ وكأنه يعلل طلب الانتظار :

- الطرق مزدحمة وربما أخرتهم حركة المرور .

فرد رئيس القسم بصوت هادئ :

- نضيع وقتنا إذا انتظرناهم .

تفرسته العيون مستطلعة ، فنهض الرجل من مكانه على رأس المائدة وسار متثاقلا حتى أغلق باب الحجرة ، وعاد فجلس بينهم بدلا من موقعه ثم قال :

- أظنهم لن يحضروا .

ظلت العيون محدقة فيه ، فواصل بنغمة يختلط فيها الحزن والاستسلام :

- هذه هى آخر المعلومات التى وصلتنى قبل الاجتماع مباشرة .

قال الأستاذ وقد اربد وجهه من الغيظ :

- وتريدنا أن نعقد اجتماعا لنناقش توزيع المقررات ؟

فرد رئيس القسم بلهجة ناصح :

- وهل أمامنا غير ذلك ، ماذا نملك أن نصنع ؟

صمتوا وكأنما أخلت بتوازنهم المفاجأة ، فاستمر رئيس القسم :

- أنتم رجال قانون ، وتعرفون أننا لا نملك شيئا فى مثل هذه الظروف ، ربما كانوا يواجهون اتهاما بمحاولة العمل على قلب نظام الحكم ، ومن الطبيعي أن تتخذ ضدهم الإجراءات القانونية .

قال الأستاذ لا نما :

- هذا موقف عجيب ، إن من حقهم ومن واجبنا معا أن نتوجه لنحضر التحقيق معهم .

رد رئيس القسم بهدوء .

- هذا إذا كانوا يرغبون فى ذلك ، هذه هى البديهات القانونية .

صاح الأستاذ بحدّة :

- ومن أدراك أنهم لم يطلبوا ؟ لو كنتَ مكانهم أما كنت تطلب زملاءك ليقفوا إلى جوارك ؟

استمر رئيس القسم هادئا وهو يقول :

- ومن أدراك أنهم طلبوا ، ألا يحتمل أن يكونوا قد رأوا أنهم فى غنى عنا ، وأن مواقفهم القانونية سليمة .

« طلبوا أو لم يطلبوا ، فى غنى أو فى حاجة ، أنتم أيها السادة تعلمون كما كان يعلم عبد العزيز حمام ، ولن يعرف أحد ما يحدث حتى يقع فيه ، وحين يعرف يكون الوقت قد فات » .

- هذا الموقف يمسنا جميعا ، يلوث شرفنا ويسحق كبرياءنا ويدمر كرامتنا .

- لسنا سواء ، لقد كانوا دائمى الثرثرة ، وكثيرا ما نصحتهم ولكنهم لم يبالوا .

- ليس فى الدنيا قانون يعاقب على الثرثرة .

- العاقل من اتعظ بغيره .

- أرجوك ، إنك بهذا الموقف تسلمهم وتسلمنا معهم .

- بل أرجوك ، فأنا بهذا الموقف أحميكم جميعا ، وأحمى القسم .

- أى حماية يا دكتور ، هذه مذلّة .

- من فضلك لا تتجاوز حدك ، ألغيت الاجتماع .

كان الحوار أشبه بطلقات رصاص يطلقها متباريان فى السرعة فلم يستطع أحد التدخل فيه ، ولكنه ما كاد ينتهى حتى أحس الطرفان أن ما حدث فشل لكليهما ، وأنه ليس من صالحهما أن يكون القسم ممزقا فى هذه اللحظات الحرجة ، فهو بذلك عرضة لأن يفقد فوق ما فقد ، وهكذا حلت اللحظة المناسبة لتدخل الحاضرين ، وبدأت كلمات العتاب ، وظهرت علامات الاقتراب ، وقال رئيس القسم ، ربما ليستعيد احتراما أحس أن المناقشة قد مسته :

- هل يظن أحد أننى لست حزينا ، إن الحزن يفترسنى ، فهم زملاء لنا عاشرناهم وعاشرونا ، ولكن المشكلة أننا لا نعرف حتى الآن مواقفهم من الناحية القانونية ، نحن بالتأكيد سنكون ضمن هيئة الدفاع عنهم حين تتحدد المواقف القانونية بتقديمهم إلى المحاكمة ، ومن يدرى أليس من الجائز أن تكون المسألة كلها زوبعة فى فنجان وأن يفرج عنهم فى وقت قريب .

همّ الطرف الثانى أن يفتح فمه معترضا مرة أخرى فسارع رئيس القسم حتى لا يفتح باب المناقشة من جديد :

- على كل سيؤجل الاجتماع إلى الأسبوع المقبل ، وربما فاجئونا بحضورهم .

ولما سأله بعض الحاضرين :

- في أي يوم ؟

رد رئيس القسم وهو ينهض :

- في مثل هذا اليوم .

وحين سمع من يقول معترضا :

- لكنه سيكون إجازة رسمية بمناسبة بدء الولاية الجديدة .

رد وهو يغادر الغرفة :

- إذن فليكن اليوم الذي يليه .

قال فكري في نفسه : « من يدري من سيكون حاضرا من هؤلاء ومن سيغيب ؟ » وظل يتابع ما بدأ منذ حضر ، يغمض عينيه ثم يفتحهما ليختبر ما يحفره في ذاكرته من ملامح وحركات وأصوات ، فربما كانت تلك تسليته الوحيدة في يوم قريب .

* * *

أمسك أحد زملائه بيده وهما يغادران قاعة الاجتماع وسأله :

- قابلت الدكتور بشير ؟

فلما أومأ برأسه نفيا أضاف :

- كان يسأل عنك .

سأل فكري :

- هل رأيته ؟

فلما هز رأسه إيجابا أضاف :

- ماذا كان يريد ؟

رد زميله بابتسامة غامضة وهو يقول :

- ستعرف حين تلقاه .

تمتم فكرى فى نفسه : « كل آت قريب » ، وأخذ طريقه بتثاقل متجها إلى المكتب ، عجبا ، كيف يحس برائحته الكريهة من مجرد وروده على خاطره ..

فتح الباب فاستقبله الدخان الذى تشبعت به الحجرة المغلقة ، توقف لحظات ارتفعت فيها إليه العينان الصفراوان خلف المنظار المعدنى المتآكل فى نظرة من تلك النظرات التى كان يراهن زملاءه عليها وهم طلاب ، وحتى بعد أن أصبحوا معيدين ، أن يستطيع واحد منهم أن يعرف طبيعتها أو دلالتها ، واستقبله اللسان على غير العادة بترحاب :

- أهلا يابنى الحبيب وتلميذى النجيب .

اغتصب فكرى ابتسامة وهو يقول :

- أهلا أستاذنا الكبير .

جلس صامتا ينتظر ، ولكن أستاذه أحب أن يعطى المقابلة طابعا وديا فسأله عن كل شئ ، عن مكتبه وقضاياه واجتماع القسم وسبب تأجيله ، وكانت الإجابات تحمل التحفظ المعهود والترقب المتوتر ، وفجأة قال الدكتور بشير وهو ينفث دخان سيجارته الجديدة :

- عرفتَ طبعا ما حدث لعبد العزيز حمام ؟

تردد لحظة ، خال فيها أن النفى الكامل سيكون عرضة للشك ، أما الاعتراف بنصف الحقيقة فمدعاة إلى التصديق ، فأجاب :

- سمعت أنه مات .

سأله - ربما ليتأكد من معرفته - :

- ألم تعرف كيف مات ؟

رد بهدوء من لا يعرف ولا يريد أن يعرف :

- هو رجل عجوز ولعله كان مريضا .

وحين لمح ابتسامة فوق الشفاه المصفرة أيقن أن العلاقة القديمة مازالت فى الذهن ، فأضاف :

- أعرف أنه مريض فعلا من مدة طويلة .

قاطعه الدكتور بشير وابتسامته تزداد :

- لا هذا ولا ذاك ، لقد مات منتحرا .

أوشك أن يصرخ دهشة وهو يقول :

- انتحر ، مستحيل ؟

فتابع أستاذه بثقة العارف ببواطن الأمور :

- لقد ذهب منذ أيام إلى المسئولين واعترف بتكوين تنظيم سرى ، وذكر لهم بعض أسماء الذين ضمهم إلى التنظيم .

قاطعه وقد زادت الدهشة :

- اعترف ؟

- مثل هؤلاء الرجال يا بنى تعميهم شهوة الزعامة ، لقد كنت على يقين دائما من أن ظاهره غير باطنه ، ولعلك تذكر أننى كنت دائما أخالفه .

- لكن لماذا يعترف ؟

- ليتقرب بالطبع إلى القيادة السياسية فى هذه المرحلة الجديدة ، بعد أن أيقن أن الشعب كله حولها ولا أمل فى غيرها ، من يدرى ، ربما كان يريد أن يصبح وزيرا .

- ولماذا انتحر ؟

- ربما لأنه أحس بالعار بعد كل ما فعل .

« العار فيك ، العار لك ، العار حولك ، ما الثمن الذى ستقبضه لهذه القرية ؟ أى شئ يمكن أن تكسبه بتلويث شرف أشجع من رأيت من الرجال ، فارس الكلمة الذى تصدى للموت ولم ينسحب قط أمام عاصفة ... أصغ فقط ، ولا تردَّنَّ بكلمة واحدة ، تمالك نفسك حتى تعرف ماذا يريد ؟ إنه لم يرسل إليك لمجرد أن يبلغك الخبر » .

- هل تعلم أن من بين المتآمرين بعض أبناء هذه الكلية ؟
- معقول ؟
- طبعا . وليس من الصالح أبدا أن تكون صورة الكلية مشوهة على هذا النحو ؟ ألست معى فى ذلك .

تمتم وكأنه يكلم نفسه :

- بالطبع ، تشويه الكلية خطيئة .
- لقد حاولت من ناحيتى إزالة تأثير هؤلاء المتآمرين ، ولذلك بادرت بإرسال برقية تأييد وتهنئة .
- هذا عمل متوقع منك .
- لكننى أحسست من رد الفعل أن البرقية غير كافية ، وأنه لابد من عمل آخر يكون تأثيره أقوى .
- كيف ؟
- هنا دورك ودور زملائك ، أريد أن أجمع أكبر عدد منكم وسنذهب بعد يومين فى وفد رسمى يضم العميد والوكلاء لنسجل أسماءنا فى سجل التشريفات تأييدا وولاء .

« يا كلب العبد ، يا عبد الكلب ، يا كلب الكلب .

كلماتك تفقد كل حياء

واقبح منها أفعالك

مرّغ وجهك فى الأرض

والعق بلسانك كل حذاء

واركع فَرَقاً لكلاب شرسة

واسجد زُلفى للأيدى الدنسة

وانشر فى الناس قذاراتك

مهما صرت فلن تكون سوى ذاتك

كلب يقتات طوعا لحم أخيه

خنزير يتمرغ دوما فى الوحل »

– لن أستطيع ، لأننى مضطر إلى السفر اليوم ولا أعرف متى سأعود .

– إذا استطعت ألا تسافر فافعل ، فالموضوع مهم جدا كما ترى ، وأنا معتمد عليك كثيرا .

كان فكرى قد خرج دون أن يسمع الكلمات وهو يصفق الباب بشدة حتى لا تتسرب الرائحة الكريهة إلى الممر ، والدكتور بشير يحدث نفسه متعجبا :

– حاجة غريبة ، ما حكاية السفر هذه التى تشيع بينكم ، ألم ينته الصيف ، المفروض أن تلتفتوا إلى مستقبلكم وعملكم ومصالحكم .

ودق الجرس ليطلب فنجان القهوة الذى لا يشربه إلا حين يكون منفردا وهو يقول باستسلام المضطر الحانق :

– صغار لا يعرفون مصلحتهم وليسوا على مستوى المسئولية ، لافائدة ، لم يبق إلا الكبار .

✍ ✍ ✍

الفصل العشرون
وفى النهاية تكون

في صبيحة اليوم التالى – وما تلاه من أيام – أخذت الصحف وسائر أجهزة الإعلام تبشر بالمرحلة الجديدة ، كُتبت المقالات وحُررت التحقيقات وعُقدت الندوات التى أخذت تتحدث عن الإنجازات التى تمت وتلك التى ستتم ، وتبارى المحللون فى شرح جوانب الموهبة الفذة للقائد العظيم صانع الرخاء وراعى الحرية ومؤسس الديمقراطية ، وبعد النظر الذى يتمتع به فى جميع قراراته ، والحس الخلاق الذى يهديه وبه يتمكن من الجمع بين الأصالة والمعاصرة ، والمزج بين الإيمان والعلم ، والتنسيق بين الخبرة والتكنولوجيا ، والمقدرة الخارقة على توظيفها جميعا لتحقيق الصحوة الكبرى لأبناء الوطن ، وضرورة أن يرتفع الشعب بادائه حتى يكون أهلا لقيادته التاريخية ، وحين أعيد تشكيل الوزارة – بمقتضى الدستور – حدد خطاب التكليف الذى وجه إلى رئيس الوزراء نفسه المبادئ العامة التى يجب أن يلتزم بها فى تشكيل الوزارة الجديدة ، والأولويات التى ينبغى أن يعمل من أجلها ، وقد قامت أجهزة الإعلام بدورها كاملا فى

هذه المرحلة فشرحت هذه المبادئ والأولويات ، وردت على الذين زعموا بأنه لا جديد فيها بأن هذا وحده كاف فى الرد على الجاحدين ، لأن معناه أن روح الاستقرار مستمرة ، واستمرار الاستقرار دليل لا يجحد على الازدهار ، وبينت حرص القائد العظيم على شعبه فيما أشار به من توجيهات . ولما نقل المراقبون الأجانب المتحيزون بعض ما لاحظه الأغبياء والحمقى والمضللون من أن التشكيل الوزارى الجديد لم يتضمن تغييرات تذكر باستثناء وزيرين دخلا الوزارة لأول مرة انبرت المقالات تكشف زيف المرجفين ، وقصور الجاحدين ، وأزاحت النقاب عن دلالة التغييرات المحدودة باعتبارها بدورها تأكيدا للاستقرار والاستمرار ، وأوضحت الحكمة البالغة فى إدخال هذين العنصرين الجديدين فى الوزارة ، باعتبارهما يمثلان مزيجا من الخبرة والعلم والأصالة والتكنولوجيا فضلا عن تعاونهما الكامل طوال حقبة طويلة مع الأجهزة المختلفة المهتمة بالعمل الوطنى ، ومشاركتهما الفعالة فى تقديم الاستشارات الضرورية للوزارات المختصة ، أليس أحدهما الدكتور بشير شيخ الحقوقيين وعميدهم الأسبق الذى ساهم بخبرته الطويلة فى القانون الدستورى فى تقديم الاستشارات السياسية لعدد كبير من الجهات المعنية ، والآخر الدكتور اللواء الذى أثبت فى كل ما تولاه من مناصب – وآخرها منصب مدير الأكاديمية – أنه السباق دائما إلى الأخذ بأحدث ما فى علوم العصر من إنجازات ، وآخر ما تقدمه تطبيقاتها التكنولوجية من مخترعات ، بالإضافة إلى أنه صاحب مدرسة معروفة على المستوى العالمى فى التكيف الاجتماعى . وهكذا ما كاد يأتى يوم افتتاح الدورة الجديدة للمجلس النيابى مع مطلع الولاية الجديدة حتى كانت أجهزة الإعلام قد مهدت تماما لليوم التاريخى ، الذى سيلقى فيه الخطاب التاريخى ، الذى سيحدد مسار العمل الوطنى خلال عقد كامل من الزمان على الأقل وربما إلى مدى غير منظور .

وفى اليوم الموعود كان سكان مقبرة عائلة الشرقاوى والمقابر المجاورة لها فى البساتين يتجمعون فى حوش المقبرة الكبيرة حول التليفزيون الأبيض والأسود انتظارا للحفل الساهر الكبير الذى سيحضره القائد العظيم ورجالات دولته ، والذى سيقام

ابتهاجا ببدء فترة الولاية الجديدة بعد انتهاء الجلسة التاريخية للمجلس النيابى ، لكن ابنهم سامح لم يكن بين الحضور ، لقد تخلف ليذاكر مع عدد من زملائه دروسه فى الكلية الجديدة التى تحتاج إلى عمل كبير ، فالهندسة ليست كلية عادية يمكن أن يتاح لمن يلتحق بها أن يتفرج على التليفزيون أو يضيع وقته فى زيارات عائلية ، ولم يكن غريبا أن يستقبل سامح فى المقبرة الصغيرة المجاورة التى لم يسكنها أحد من الأحياء بعدُ مجموعة من الأصدقاء الذين توافدوا فرادى ، حاملين كتبهم ومذكراتهم ، وكانوا جميعا فى نفس السن ، فى حدود العشرين وما حولها ، ولا يعرف أحد - غير المجموعة نفسها - طبيعة عمل كل منهم ، ولا يستطيع أحد أن يتصور وجود ما يجمع بينهم فى الحقيقة ، إذ ما الصلة بين خراط فى المصانع الحربية ، ونجار مسلح فى المقاولين ، ومرمطون بمطبخ الهيلتون ، وبائع متجول لأوانى البلاستيك ، وطالب فى كلية العلوم ، وآخر بكلية التربية ، وثالث بكلية الحقوق .

وحين رددت المقبرة أصداء التليفزيون القريب وجلجل الصوت الرخيم الذى يوجه حديثه إلى الأمة كلها ليحدد لها معالم المستقبل الباهر الذى ينتظرها إذا هى قدمت ما يجب تقديمه من التضحيات كان سامح يشرح - بهمس واجف - أسلوب العمل الذى توصلت إليه القيادة بخبرتها النضالية فى بناء العناقيد الخاصة ، ويوضح بدقة أساليب التعرف الشفرية ووسائل الاتصال التبادلية ، ولما ارتفع الصوت الواثق مطالبا الشعب بأن يحمد الله على نعمة الديمقراطية التى لم يسبق لها مثيل طوال تاريخ الأمة وأن يترجم هذا الحمد ببذل مزيد من الجهد والعمل والعطاء ويضغط على المقاطع الأخيرة للكلمات حتى يؤكد للعالم كله ما يعنيه كان سامح قد انتهى من تحديد الاسم الحركى لكل منهم وانتقل إلى اقتراح القيادة بتسمية المجموعة الجديدة التى تضمهم باسم أحد شهداء الجماعة فى عملية شرق القاهرة ، وفى اللحظات التى دوى فيها التصفيق والهتاف كالرعد تحية وإجلالا وولاء ، وتألقت البسمة الراضية على الشاشة لتشارك اليدين الكريمتين فى رد التحية كان سامح يمسك بأيديهم بعد ما نهضوا لأداء القسم . ولما تحرك الركب الميمون فى موكبه المهيب الجليل الذى اعترف المذيع صارخا بعجزه عن

وصفه بالكلمات وقصور اللغة كلها عن نقله بعبارات ، ولم تستطع الكاميرا بدورها أن تحيط بروعته أو تجسد للمشاهدين مدى فخامته ، كان سامح يستوقف إخوانه بعد أن أوشكوا أن ينفضوا إذ تذكر فى اللحظة نفسها أمرا نسيه فى غمرة اضطرابه مع التجربة الأولى لإدارة جلسة تنظيمية ، ليقول لهم وهم وقوف :

- فاتنى شئ مهم .

وصمت لحظة ليتغلب على الخجل الذى أصابه لنسيانه ، ثم أضاف :

- علينا أن نبدأ العمل فورا على بناء عناقيد خاصة بالأخوات .

فلما غمرتهم الدهشة قال مفسرا :

- إننا نعرض من حولنا للخطر ، فلا أقل من أن يكون ذلك عن إيمان بما نعمل .

فلما هزوا رءوسهم موافقين أضاف :

- وتقترح القيادة أن تكون المجموعة الأولى التى نبدأ بناء عناقيدها باسم الشهيدة أم طارق .

غمغموا قبل أن يبدءوا الانصراف فى مجموعات :

- على بركة الله .

« تمت »

الفهـــــرس

رقم الإيداع - ١٩٩٠/٤٣٥٢